كتاب
الفرج بعد الشدة

تأليف

القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي

المتوفى سنة ٣٨٤ هـ

تحقيق

عبود الشالجي

الجزء الثالث

دار صادر

بيروت

١٣٩٨هـ ـــ ١٩٧٨م

الفرج بعد الشدة

٣

٢٥٤

ابن جامع المغنّي يأخذ صوتاً بثلاثة دراهم

فيفيد منه ثلاثة آلاف دينار

حدّث محمّد بن صلصال ، عن اسماعيل بن جامع[1] ، أنّه قال :

ضامني الدّهر ضيماً شديداً بمكّة ، فأقبلت منها بعيالي إلى المدينة ، فأصبحت يوماً ، وما معي إلّا ثلاثة دراهم ، لا أملك غيرها ، وإذا بجارية على رقبتها جرّة ، تريد الركيّ[2] ، وهي تتغنّى بهذا الصوت :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا — فقالوا لنا ما أقصر اللّيل عندنا

وذاك لأنّ النوم يغشى عيونهم — سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا

إذا ما دنا اللّيل المضرّ بذي الهوى — قلقنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنّهم كانوا يلاقون مثلما — نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

قال : فأخذ الغناء بقلبي ، ولم يَدُرْ لي منه حرف .

فقلت : يا جارية ما أدري [١٥١ ظ] أوجهك أحسن ، أم غناؤك [١٢٤ ر] ، فلو شئتِ ، لأعدتِ .

فقالت : حبّاً وكرامة ، ثمّ أسندت ظهرها إلى جدار قريب منها ، ورفعت إحدى رجليها ، فوضعتها على الأخرى ، ووضعت الجرّة على ساقِها ، ثمّ انبعثت ، فغنّته ، فوالله ما دار لي منه حرف .

فقلت : قد أحسنت ، فلو تفضّلت ، وأعدته مرّة اخرى .

---

١ أبو القاسم اسماعيل بن جامع السهمي القرشيّ المغنّي : ترجمته في حاشية القصّة ٢٥٢ من الكتاب .

٢ الركيّة : جمعها ركايا وركيّ ، البئر ذات الماء .

ففطنت ، وكلحت[3] .

وقالت : ما أعجب أمركم ، لا يزال أحدكم يجيء إلى الجارية عليها الضريبة[4] ، فيحبسها .

فضربتُ يدي إلى الثلاثة دراهم ، فدفعتها إليها ، وقلت : أقيمي بهذه وجهك اليوم ، إلى أن نلتقي .

فأخذتها كالكارهة ، وقالت : أنت الآن تريد أن تأخذ منّي صوتاً ، أحسبك ستأخذ به ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ، وانبعثت تغنّي .

فأعملتُ فكري في غنائها ، حتّى دار لي الصوت ، وفهمته ، فانصرفت مسروراً إلى منزلي ، وأنا أردّده ، حتّى خفّ على لساني .

ثمّ إنّي خرجت إلى بغداد ، فدخلتها ، فطرحني المكاري بباب محوّل[5] ، لا أدري أين أتوجّه ، فلم أزل أمشي مع النّاس ، حتّى أتيت الجسر[6] ، فعبرته ، ثمّ انتهيت إلى شارع الميدان[7] ، فرأيت مسجداً بالقرب من دار الفضل بن

---

٣ كلح : عبس وتكشّر .

٤ الضريبة : مبلغ من المال يفرض السيد على مملوكه أن يؤدّيه إليه يوميًّا ، إذا أذن له بالعمل في صناعة أو حرفة ، على أن للمملوك ما زاد على الضريبة .

٥ باب محوّل : محلّة كبيرة من محالّ بغداد ، كانت متّصلة بالكرخ ، وهي الآن منعزلة كالقرية ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها في غربي الكرخ ، مشرفة على الصراة (مراصد الاطلاع ١٤٦/١٠) ، أقول : إنّ باب محوّل اندثرت منذ زمان بعيد ، ولكنّ اتّساع العمران في بغداد ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، أعاد العمران إلى الموضع الذي كانت فيه .

٦ هو الجسر الذي يصل محلّة الشرقيّة في الجانب الغربي من بغداد ، بمحلّة باب الطاق في الجانب الشرقي ، وفي محلّه الآن جسر الصرافية الحديد .

٧ شارع الميدان : شارع بالجانب الشرقي من بغداد خارج الرصافة ، وكان يمتدّ من الشماسيّة إلى سوق الثلاثاء (معجم البلدان ٢٣١/٣ و ٢٣٢) أقول : هو الآن شارع الأعظمية ، وهو الشارع العامّ الممتد من الأعظمية إلى أن يتّصل بشارع الرّشيد ببغداد .

الرّبيع[8] مرتفعاً ، فقلت : هذا مسجد قوم سراة ، فدخلته ، وحَضَرَتْ صلاة المغرب ، فصلّيت ، وأقمت بمكاني إلى أن صلّيت العشاء ، وبي من الجوع والتعب أمر عظيم .

فانصرف أهل المسجد ، وبقي رجل يصلّي ، وخلفه جماعة خدم وفحول[9] ، ينتظرون فراغه ، فصلّى مليّاً ، ثمّ انصرف إليّ بوجهه ، وقال : أحسبك غريباً .

قلت : أجل .

قال : فتى كنت في هذه المدينة ؟

قلت : دخلتها آنفاً ، وليس لي بها منزل ولا معرفة ، وليست صناعتي من الصنائع الّتي يمتّ بها إلى أهل الخير .

فقال : وما صناعتك ؟

قلت : أغنّي .

فقام ، وركب مبادراً ، ووكّل بي بعض من كان معه ، فسألت الموكّل بي عنه ، فقال لي : هذا سلام الأبرش[10] ، ثمّ عاد ، فأخذ بيدي ، فانتهى بي إلى قصر من قصور الخليفة ، فأدخلني مقصورة[11] في آخر الدهليز ، ودعا بطعام من طعام الملوك على مائدة ، فأكلت ، فإنّي لكذلك ، إذ سمعت ركضاً في الدهليز ، وقائلاً يقول : أين الرّجل ؟

فقيل : هوذا .

---

٨ كانت دار الفضل بن الربيع على شارع الميدان ، وله منظرة تطلّ على الشارع (تاريخ بغداد لابن طيفور ١١).

٩ يريد بالخدم : الطواشية ، والطواشي إمّا خصي أو مجبوب ، ويريد بالفحول : الخدم غير الطواشية .

١٠ سلام الأبرش : خادم خصي ، خدم المنصور (ابن الأثير ٢٣/٦) وحجب المهدي (العيون والحدائق ٢٨١/٣) وخدم الرشيد أيضاً (ابن الأثير ١٧٩/٦) والمأمون (ابن الأثير ٣٨٣/٦) ، وكان إيتاخ القائد الخزري من مماليكه ، فاشتراه منه المعتصم ورفعه حتّى ولّاه هو والواثق أكبر الأعمال (تجارب الأمم ٥٤٢/٦ وابن الأثير ٤٣/٧) .

١١ المقصورة : حجرة من حجر الدار .

فدعي لي بغسول[١٢] ، وطيب ، وخلعة ، فلبست ، وتطيّبت ، وحملت إلى دار الخليفة على دابّة ، فعرفتها بالحرس ، والتكبير ، والنيران[١٣] ، فجاوزت مقاصير عدّة ، حتّى صرت إلى دار قوراء[١٤] ، وسطها أسرّة ، قد أضيف بعضها إلى بعض ، فأمرت بالصعود ، فصعدت ، فإذا رجل جالس ، وعن يمينه ثلاث جواري ، وإذا حياله مجالس خالية ، قد كان فيها قوم قاموا عنها .

فلم ألبث أن خرج خادم من وراء الستر ، فقال للرّجل : تغنّ ، فغنّى صوتاً لي وهو :

لم تمش ميلاً ، ولم تركب على جمل[١٥] ... ولم تر الشمس إلّا دونها الكلل

تمشي الهوينا[١٦] كأنّ الشمس بهجتها ... مشي اليعافير[١٧] في جيآتها الوهل[١٨]

فغنّى بغير إصابة ، وأوتار مختلفة الدساتين[١٩] ، وعاد الخادم إلى الجارية الّتي تليه ، فقال لها : غنّي ، فغنّت أيضاً ، صوتاً لي ، كانت فيه أحسن حالاً ، وهو :

---

١٢ الغسول ، بفتح الغين : هو الأشنان الذي تغسل به الأيدي بعد الطعام ، وكان يشتمل على أنواع من الطيب تخلط وتدقّ وتحفظ في وعاء اسمه الاشناندان ، له غطاء يحفظ رائحته ، ويتناول منه بملعقة ، لكي لا يتّسخ الباقي بملامسة الأيدي ، وكان الأشنان الذي يصنع للرشيد يتكون من ثلاثة عشر جزءاً ، راجع مطالع البدور ٦٦/٢ .

١٣ هذا يعني أنّ وجود الحرس ، والإعلان بالتكبير ، وإشعال النيران ، لا تجتمع إلاّ على باب دار الخليفة .

١٤ الدار القوراء : الواسعة .

١٥ في الأغاني ٣١٣/٦ ولم تركب على قتب .

١٦ الهوينا : التوءدة والرفق ، والبغداديّون يقولون : تمشي برهدنة ، وهي فصيحة ، وتعني الاستدارة في المشي .

١٧ اليعافير : الظباء .

١٨ الوهل : الخوف والفزع .

١٩ الدساتين : ومفردها الدستان ، الرباطات التي توضع عليها الأصابع في العود ، وأسامي دساتين العود تنسب إلى الأصابع التي توضع عليها ، فأوّلها دستان السبابة ، ثم دستان الوسطى ، ثم دستان البنصر ، ثم دستان الخنصر ، للتفصيل راجع مفاتيح العلوم للخوارزمي ١٣٧ و ١٣٨ .

يا دار أمست[20] خلاءً لا أنيس بهـا إلّا الظباء وإلّا الناشِطُ الفَرِدُ[21]
أين الّذين إذا ما زرتهم جذلوا وطارعن قلبي التشواق والكمد [١٢٥ ر]

قال : ثمّ عاد إلى الثانية ، فغنّت صوتاً لحكم الوادي[22] ، وهو :

فوالله ما أدري أيغلبني الهـوى إذا جدّ جدّ البـين[23] أم أنا غالبه
فإن أستطعْ أغلبْ ، وإن يغلب الهـوى فمثل الّذي لاقيـت يغلب صاحبه

ثمّ عاد إلى الثالثة ، فقال لها غنّي ، فغنّت بصوت لحنين[24] ، وهو :

مررنـا عـلى قيسيّـة عـامـريّـة لهـا بَشَرٌ صافي الأديم هِجانِ[25]
فقالـت وألقـتْ جانـب الستر دونهـا لأيّة أرض أو لأيّ مكانِ[26] [١٥٢ ظ]
فقلـت لهـا إمّا تميم فـأسرتـي هُديـتِ ، وإمّـا صاحبي فيماني
رِفيقان ضمّ السَفْر بيـني وبينـه وقـد يلتقـي الشتّى فيـأتلفـانِ

---

٢٠ في الأغاني ٦/٣١٤ أضحت .
٢١ الناشط : الحمار الوحشي ، والفرد : المنفرد .
٢٢ حكم بن يحيى بن ميمون الملقب حكَم الوادي : مغنّ من الطبقة الأولى ، أدرك الوليد بن عبد الملك وغنّاه ، وأدرك الرشيد وغنّاه ، توفي سنة ١٨٠ (الأعلام ٢/٢٩٦) .
٢٣ في الأغاني ٦/٣١٤ إذا جدّ وشك البين .
٢٤ حنين بن بلوع الحميري : شاعر ، موسيقي ، من كبار المغنّين ، انفرد في العراق بالغناء والضرب على العود ، ولم يزاحمه أحد ، شخص إلى المدينة ، وغنّى في مجلس ازدحم فيه الناس ، فسقط السقف ، ومات تحت الردم سنة ١١٠ (الأعلام ٢/٣٢٥ و ٣٢٦) .
٢٥ البشر : جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلد ، والهجان : الأبيض الخالص من كلّ شيء .
٢٦ في الأغاني ٦/٣١٤ : من أيّة أرض ، أو مَنِ الرجلان .

ثمّ عاد إلى الرّجل ، فغنّى صوتاً لي ، فشبّه فيه[٢٧] ، من شعر عمر بن أبي ربيعة[٢٨] :

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا ... إذا أقول صحا يعتاده عيدا
كأنّ أحور من غزلان ذي رشأ[٢٩] ... أعارها سِنَةَ العينين والجيدا
ومشرقاً كشعاع الشمس بهجته ... ومسبطرّاً[٣٠] على لبّاته سودا

ثمّ عاد إلى الجارية الأولى ، فغنّت صوتاً لحكم الوادي ، وهو :

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا ... فقلت لها إنّ الكرام قليل
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا ... عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل
وإنّا أناس لا نرى القتل سبّة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرّب حبّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

ثمّ عاد إلى الثانية ، فغنّت صوتاً ، تقول فيه :

وددتك لمّا كان ودّك خالصاً ... وأعرضتُ لما صار نهباً مقسّما
ولا يلبث الحوض الجديد بناؤه ... إذا كثر الورّاد أن يتهدّما

ثمّ عاد إلى الجارية الثالثة ، فغنّت بشعر الخنساء[٣١] وهو :

---

٢٧ يريد : خلط فيه ولم يحسن أداءه .

٢٨ أبو الخطّاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشيّ (٢٣-٩٣) : أرقّ شعراء عصره ، وشعره في الغزل لا يعلو عليه شعر ، من طبقة جرير والفرزدق (الأعلام ٥/٢١١) .

٢٩ في الأغاني ٦/٣١٤ : من غزلان ذي بقر .

٣٠ الشعر السبط : المسترسل .

٣١ تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، الملقبّة بالخنساء : أشهر شواعر العرب ، وأشعرهنّ ، أدركت الإسلام ، وأسلمت ، ووفدت على رسول الله صلوات الله عليه ، وكان يعجبه شعرها ، وأكثر شعرها في رثاء أخويها صخر ومعاوية ، وكان لها أولاد أربعة استشهدوا في معركة القادسية ، توفيت سنة ٢٤ (الأعلام ٢/٦٩) .

وما كرّ إلّا كان أوّل طاعـنٍ وما أبصرته العين إلّا اقشعرّت [٣٢]

فيدرك ثاراً وهو لم يخطه الغنى فمثل أخي يوماً به العين قـرّت

فلست أرزّى بعـده برزيّـة فأذكره إلّا سلـت وتجلّـت

وغنّى الرّجل في الدور الثالث ، بهذه الأبيات :

لحى الله صعلوكاً منـاهُ وهمّـه من الدّهر أن يلقى لبوساً ومطعما

ينام الضحى حتّى إذا ليلـه بدا [٣٣] تنبّه مسلوب الفؤاد متيّمـا [٣٤]

ولكنّ صعلوكـاً يساور همّـه ويمضي إلى الهيجاء ليثاً مصمّما [٣٥]

فذلك إن يلقَ المنيّة [٣٦] يلقهـا حميداً [٣٧] وإن يستغن يوماً فربّما

[قال : وتغنّت الجارية :

إذا كنت ربّاً للقلوص فلا يكـن رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنخها فأردفه [٣٨] فإن حملتكمـا

فذاك وإن كان العقاب [٣٩] فعاقب] [٤٠]

قال : وغنّت الجارية ، بشعر عمرو بن معدي كرب ، وهو :

ألم ترني إذ ضمّني البلد القفر سمعت نداء يصدع القلب ياعمرو

---

٣٢ في الأغاني ٦/٣١٥ ولا أبصرته الخيل إلا اقشعرّت .

٣٣ في الأغاني ٦/٣١٥ حتى إذا ليله انتهى .

٣٤ في الأغاني ٦/٣١٥ تنبّه مثلوج الفؤاد مورّماً .

٣٥ في الأغاني ٦/٣١٥ ليثاً مقدما .

٣٦ في الأغاني ٦/٣١٥ الكريهة .

٣٧ في الأغاني ٦/٣١٥ كريماً .

٣٨ الردف : أن تركب أحداً معك على الدابّة ، فيكون لك رديفاً .

٣٩ العِقاب : أن تركب الدابّة مرّة ، ويركبها صاحبك مرّة .

٤٠ الزيادة من الأغاني ٦/٣١٦ .

أغثنا فإنّا عصبة مذحجيّة

نراد على وفر وليس لنا وفر[41] [١٢٦ ر]

وأظنّه أغفل الثانية ، فغنّت الثالثة ، بهذه الأبيات :

فلمّا وقفنا للحديث وأسفرت[42]   وجوه زهاها الحسن أن تتقنّعا

تباهلـنَ بالعرفان لما عرفنني   وقلن امرؤ باغ أضلّ وأوضعا[43]

فلمّا تواضعن الأحاديث قلن لي   أخفت علينا أن نغرّ ونخدعا

قال : فتوقّعت مجيء الخادم ، فقلت للرّجل : بأبي أنت ، خذ العود ، وشدّ وتركذا ، وارفع الطبقة ، وحطّ دساتن كذا ، ففعل ما أمرته .

وخرج الخادم ، فقال لي : تغنَّ عافاك الله .

فغنّيت بصوت الرجل الأوّل ، على غير ما غنّى ، فإذا جماعةٍ من الخدم يُحْضِرون[44] حتّى استندوا إلى الأسرّة ، فقالوا : ويحك لمن هذا الغناء ؟

فقلت : لي .

فانصرفوا وعاد إليّ خادم ، فقال : كذبتَ ، هذا لابن جامع ، فسكتُّ .

ودار الدور الثاني ، فلمّا انتهى إليّ ، قلت للجارية الّتي تلي الرّجل ، خذي العود ، فعلمَتْ ما أريد ، فأصلحته على غنائها ، فغنّيت به ، فخرج الخدم ، وقالوا : ويحك ، لمن هذا الغناء ؟

فقلت : لي .

فرجعوا ، ثمّ عاد ذلك الخادم من بينهم ، فقال : كذبتَ ، هذا لابن جامع .

---

٤١ ورد البيتان ضمن أبيات أخرى في القصّة ١٩٨ من هذا الكتاب .

٤٢ في الأغاني ٣١٦/٦ فلما تواقفنا وسلّمت أسفرت .

٤٣ في الأغاني ٣١٦/٦ أكلّ وأوضعا .

٤٤ الحُضْر : العدو الشديد .

ودار الدور ، فلمّا انتهى إليّ الغناء ، قلت للجارية الأخرى ، سوّي العود على كذا ، فعلمت ما أريد ، وخرج الخادم فقال لي تغنّ ، فغنّيت هذا الصوت ، وهو لا يعرف إلّا بي ، وهو : [١٥٣ ظ]

عوجي عليّ فسلّمي جَبْرُ فيم الوقوف وأنتم سَفْرُ
ما نلتقي إلّا ثلاث منى[٤٥] حتّى يفرّق بيننا النَّفْرُ[٤٦]

فتزلزلت عليهم الدار ، وخرج الخادم ، فقال : ويحك ، لمن هذا الغناء ؟
فقلت : لي .
فمضى ، ثمّ عاد ، فقال : كذبتَ ، هذا لابن جامع .
قلت : فأنا ابن جامع .
فما شعرت إلّا وأمير المؤمنين ، وجعفر بن يحيى ، قد أقبلا من وراء الستر الّذي كان يخرج منه الخادم[٤٧] .
فقال لي الفضل بن الرّبيع : هذا أمير المؤمنين ، قد أقبل إليك ، فلمّا صعدِ السرير ، وثبت قائماً .
فقال : ابن جامع ؟
فقلت : ابن جامع ، جعلت فداك ، يا أمير المؤمنين .
فقال : متى كنت في هذه المدينة ؟
فقلت : دخلتها في الوقت الّذي علم بي فيه أمير المؤمنين .

---

٤٥ ثلاث منى : أيّام عيد الأضحى الثلاثة التي يقضيها الحاج في منى .
٤٦ يوم النفر : اليوم الذي ينفر فيه الحجّاج من منى منصرفين إلى مكّة ، وهو اليوم الثالث من عيد النحر ، ويصادف ١٣ ذي الحجّة .
٤٧ كان جعفر يدخل في منادمة الرشيد ، وكان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه ، أما الفضل أخوه ، فكان يمتنع عن منادمة الرّشيد والشرب معه ، وكان يقول : لو علمت أنّ الماء ينقص من مروءتي ما شربته (الطبري ٨/٢٩٣) .

فقال : اجلس ، ومضى هو وجعفر ، فجلسا في تلك المجالس .
فقال : ابشر ، وابسط أملك ، فدعوت له .
فقال : غنّ يا ابن جامع ، فخطر ببالي صوت الجارية السوداء ، فأمرت الرّجل بإصلاح العود على ما أردت من الطبقة ، فعرف ما أريد ، فوزنه وزناً .
فلمّا أخذت الأوتار والدساتين مواضعها ، وتعاهدها ، ابتدأت أغنّي بصوت الجارية ، فنظر الرّشيد إلى جعفر ، فقال : هل سمعت كذا قط ؟
قال : لا والله ، ولا خرق مسامعي مثله قط .
فرفع الرّشيد رأسه إلى خادم كان بالقرب منه ، فأتى بكيس فيه ألف دينار ، فرمى به إليّ ، فصيّرته تحت فخذي ، ودعوت له .
فقال : يا ابن جامع ، ردّ عليّ هذا الصوت ، فردّدته عليه ، وتزيّدت في غنائي .
فقال له جعفر : أما ترى كيف تزيّد في الغناء ، وهذا خلاف الأوّل ، وإن كان اللّحن واحداً .
فرفع الرّشيد رأسه إلى الخادم ، فأتى بكيس فيه ألف دينار ، فرمى به إليّ ، فجعلته تحت فخذي الآخر .
ثمّ قال : تغنّ يا إسماعيل بما حضرك .
فجعلت أقصد الصوت بعد الصوت ، بما كان يبلغني أنّه يشتري عليه الجواري ، فأغنّيه ، فلم أزل كذلك ، إلى أن عسعس الليل .
فقال : أتعبناك يا إسماعيل هذه اللّيلة ، فأعد عليّ الصوت ، يعني صوت الجارية ، فغنّيته به ، فرفع رأسه إلى الخادم ، فوافى بكيس ثالث فيه ألف دينار .
فذكرت [١٢٧ ر] قول الجارية ، فتبسّمت ، فلحظني ، وقال : يا ابن الفاعلة ، فيم تبسّمت ؟
فجثيت على ركبتي ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، الصدق منجاة .
قال : قل .

فقصصت عليه خبر الجارية ، فلمّا استوفيته ، قال : صدقت ، قد يكون مثل هذا ، وقام .

ونزلت من وراء الستر ، لا أدري أين أمضي ، فابتدرني فرّاشان ، فصارا بي إلى دارٍ قد أمر لي أمير المؤمنين بها ، فيها من الفرش ، والآلة ، والخدم ، جميع ما أريد ، فدخلتُ فقيراً ، وأصبحت من المياسير .

ذكر الاصبهاني : أنّ صوت إسماعيل الّذي غنّاه ، لا يعرف إلّا به ، وهو :

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحـدٍ وخلّفتُ قلباً في هـواك يعذّب

ولكنّني أحيا بقلبٍ معذّبٍ[48] فلا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب

تعلّمت أسباب الرّضا خوف سخطهـا وعلّمهـا حبّي لهـا كيف تغضب

ولي ألف وجهٍ قد عرفت مكـانه ولكن بلا قلب إلى أين أذهب[49]

---

٤٨ في الأغاني ٣١٩/٦ : ولكنّما أحيا بقلب مروّع .

٤٩ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا في هـ ، ووردت في الأغاني ٣١١/٦–٣١٩ .

٢٥٥

ابن هرمة يتحدّث عن أفضال

عبد الواحد بن سليمان عليه

قال : قال رجل لابن هرمة[١] : بما استحقّ منك عبد الواحد بن سليمان[٢] أن تقول فيه ؟ :

أعبد الواحد المأمول إنّي ‏ ‏ ‏ أغصّ حذار سخطك بالقراح
وجدنا غالباً كانت جناحاً ‏ ‏ ‏ وكان أبوك قادمة الجناح

فقال : إن ذهبتُ أعدّد صنائعه الّتي استحقّ بها منّي هذا القول ، طالت ، ولكن أخبرك بأصغر صنيعة له عندي .

كنت منقطعاً إليه بالمدينة [١٥٤ ظ] أيّام كان يتولّاها ، فأغناني عن سواه ، ثمّ عزل ، فظننت أنّ الوالي سيحسن اليّ ، فلم يبرّني بشيء ، فأنفقت ما كان معي ، حتّى لم يبق لي شيء .

فقلت لأختي : ويحك ، أما ترين ما أنا فيه من الشدّة ، وتعذّر القوت ؟

قالت : بسوء اختيارك .

قلت : فبمن تشيرين ؟

---

١ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشيّ ، المعروف بابن هرمة (٩٠-١٧٦) : مدنيّ ، شاعر ، من مخضرمي الدولتين الأمويّة والعبّاسية ، مدح الوليد بن يزيد ، ومدح المنصور العبّاسي ، وكان مولعاً بالشراب ، جلده الحدّ صاحب شرطة المدينة (الأعلام ١/٤٤) ولما مدح المنصور ، سأله أن يحميه من الحدّ إذا شرب الخمر ، فقال : ويحك هذا حدّ من حدود الله ، فألحّ عليه ، فكتب إلى والي المدينة : من أتاك بابن هرمة سكران ، فاجلده مائة ، واجلد ابن هرمة ثمانين ، فكان الجلواز يمرّ بابن هرمة وهو سكران ، فيقول من يشتري ثمانين بمائة (الأغاني ، طبعة بولاق ٤/١٠٥) .

٢ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان : أمير مروانيّ أمويّ ، ولي إمرة مكّة والمدينة سنة ١٢٩ لمروان بن محمد ، قتله العبّاسيون في جملة من قتلوا من الأمويّين (الأعلام ٤/٣٢٤) .

فقالت : ما أعرف لك غير عبد الواحد بن سليمان .

فقلت : ومن لي به ، وهو بدمشق ، وأنا بالمدينة ؟

فقالت : أنا أعينك على قصدك إليه .

فقلت : افعلي .

فباعت حلياً كان لها ، واشترت لي راحلة ، وزوّدتني ، فوافيت دمشق بعد اثنتى عشرة ليلة ، فأنخت عشاءً على باب عبد الواحد ، وعقلت راحلتي ، ودخلت المسجد ، فحططت فيه رحلي .

فلمّا صلّى عبد الواحد ، وجلس يسبّح ، حوّل وجهه إلى جلسائه ، فنظر إلى رحلي ، فقال : لمن هذا ؟

فوثبتُ ، وقبّلت يده ، وقلت : أنا يا سيّدي ، عبدك ابن هرمة .

فقال : ما خبرك يا أبا اسحاق ؟

فقلت : شرّ خبر ، بعدك - أيّها الأمير - تلاعبت بي المحن ، وجفاني الصديق ، ونبا بي الوطن ، فلم أجد معوّلاً إلّا عليك .

فوالله ، ما أجابني إلّا بدموعه ، ثمّ قال : ويحك ، أبلغ بك الجهد إلى ما ذكرت ؟

فقلت : إي والله ، وما أخفيه عنك أكثر .

فقال : اسكن ، ولا ترع .

ثمّ إنّه نظر إلى فتية بين يديه ، كأنّهم الصقور ، فوثبوا ، فاستدعى أحدهم ، وهمس إليه بشيء، فمضى مسرعاً ، ثمّ أومأ إلى الثاني ، فهمس إليه بشيء، وكذلك الثالث ، فمضى .

ثمّ أقبل الأوّل ، ومعه خادم على رأسه كيس ، فصبّه في حجري ، فقال له أبوه : كم هذا ؟

فقال : ألف دينار وسبعمائة دينار ، ووالله ما في خزانتك غيرها .

ثمّ أقبل الثاني ، وبين يديه عبد على كتفه كارة ، فصبّها بين يديه ، فإذا فيها حلي مخلّعٌ من بناته ونسائه .

فقال : والله ، ما تركت لهنّ شيئاً ، إلّا أخذته .

وأقبل الثالث [١٢٨ ر] ، ومعه غلامان ، معهما كارتان عظيمتان من فاخر ثيابه ، فوضع ذلك بين يديّ .

ثمّ قال : يا ابن هرمه ، أنا أعتذر إليك من قلّة ما حبوتك به ، مع بعد العهد ، وطول الشقّة ، وسعة الأمل ، ولكنّك جئتنا في آخر السنة ، وقد تقسّمت أموالنا الحقوق ، ونهبتنا أيدي المؤمّلين ، فلم يبق عندنا غير هذه الصُبابة [3] ، آثرناك بها على أنفسنا ، وسللناها لك من أفواهنا ، ولو قدمتَ قبل هذا الإعسار ، لأعطيناك ما يكفيك ، ولو علمنا بك ، لأتاك عفواً ، ولم تتجشّم المشقّة ، ولم نحوجك إلى سوانا ، وذلك منّا لك أبداً ، ما بقيتَ ، فأقسم عليك ، لما أصبحت إلّا على ظهر راحلتك ، وتداركت أهلك ، فخلّصتهم من هذه المحنة ، فقمت إلى ناقتي ، فإذا هي قد ضعفت .

فقال : ما أرى في ناقتك خيراً ، يا غلام ، أعطه ناقتي الفلانيّة ، فجئ بها برحلها ، فكانت – والله – أحب إليّ من جميع ما أعطاني ، ثقة ببلوغها ، ثمّ دعا بناقتين أخريين ، وأوقرهما من المال ، والثّياب ، وزاداً يكفيني لطريقي ، ووهب لي عبدين .

وقال : هذان يخدمانك في السقي والرعي ، فإن شئت بعتهما ، وإن شئت أبقيتهما ، أفتلومني أنّي أغصّ حذار سخطه بريقي ؟

قال : لا والله [4] .

---

٣ الصُّبابة ، بضم الصاد : البقيّة من كلّ شيء ، قال البحتري في سينيّته :

بُلَغٌ من صُبابة العيش عندي ... طفّفتها الأيّام تطفيف بخس

٤ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا ه ، ووردت في البصائر والذخائر م ٣ ق ١ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

٢٥٦

القائد هرثمة بن أعين

يتحدّث عمّا أمره به الهادي في ليلة موته

حدّثني علي بن هشام ، عن محمّد بن الفضل : أنّ هرثمة بن أعين[1] ، قال :

كنت اختصصت بموسى الهادي ، وكنت – مع ذلك – شديد الحذر منه ، لإقدامه على سفك الدماء[2] .

فاستدعاني نصف نهار ، في يوم شديد الحرّ ، قبل أكلي ، فتداخلني منه رعب ، وبادرت فدخلت عليه ، وهو في حجرة من دور حرمه ، فصرف جميع من كان بحضرته ، وقال لي : اخرج وأغلق الباب ، وعد إليّ ، فازداد جزعي ، ففعلت ، وعدت إليه .

فقال لي : قد تأذّيت بهذا الكلب الملحد ، يحيي بن خالد ، ليس له فكر غير تضريب الجيش[3] ، واجتذابهم إلى صاحبه هارون ، يريد أن يقتلني ، ويسوق [١٥٥ ظ] إليه الخلافة ، وأريد أن تمضي اللّيلة إلى هارون ، وتقبض عليه ، وتذبحه ، وتجيني برأسه ، إمّا في داره ، وإمّا أن تخرجه برسالتي تستدعيه إلى حضرتي ، ثمّ تعدل به إلى دارك ، فتقتله ، وتجيني برأسه .

فورد عليّ أعظم وارد ، فقلت : تأذن يا أمير المؤمنين في الكلام ؟

فقال : قل .

---

١ هرثمة بن أعين : أمير ، قائد ، شجاع ، ولّاه الرشيد مصر ، ثم إفريقية ، ثم خراسان ، ولمّا اختصم الأمين والمأمون ، انحاز إلى جانب المأمون ، ثم نقم عليه المأمون أمراً فحبسه ومات في حبسه سنة ٢٠٠ (الأعلام ٩/٧٥) .

٢ كان الهادي شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سيء الظن (التاج ٣٥) .

٣ التضريب : الإفساد .

فقلت : أخوك ، وابن أبيك ، وله بعدك العهد ، فكيف تكون صورتنا ، أوّلاً عند الله ، ثمّ عند الجيش ؟

فقال : إنّك إن فعلت هذا ، وإلّا ضربت عنقك الساعة .

فقلت : السمع والطاعة .

فقال : وأريد إذا فرغتَ منه هذه اللّيلة ، أن تُخرج من في الحبس من الطالبيّين ، فتضرب رقاب أكثرهم ، وتغرق الباقين .

فقلت : السمع والطاعة .

قال : ثمّ ترحل إلى الكوفة ، فتجمع من تقدر عليه من الجيش ، فتخرج من بها من العبّاسيّين ، وشيعتهم ، وعمّالنا ، والمتصرّفين ، ثمّ تضرمها بالنار ، حتّى لا يبقى فيها جدار .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا أمر عظيم .

فقال : هؤلاء أعداؤنا ، وشيعة آل أبي طالب ، وكلّ آفة ترد علينا ، فهي من جهتهم ، ولا بدّ من هذا .

فقلت : السمع والطاعة .

فقال : لا تبرح من مكانك إلى نصف اللّيل ، لتمضي إلى هارون .

فقلت : السمع والطاعة .

ونهض عن موضعه ، ودخل إلى دور النّساء ، وجلست مكاني ، لا أشكّ أنّه قد قبض عليّ ليقتلني ، ويدبّر هذه الأمور على يد غيري ، لما أظهرت له من الجزع عند كلّ باب منها ، والتخطئة لرأيه ، والامتناع عليه ، ثمّ الإجابة ، وقد علم الله تعالى ، أنّي ما أجبته إلّا على أن أخرج من حضرته ، فأركب فرسي من بابه ، وألحق بطرف من الأرض ، وأفارق جميع نعمتي ، فأكون بحيث لا يصل إليّ ، حتّى أموت ، أو يموت .

فلمّا اعتقلني ، ودخل دار الحرم ، لم أشكّ في أنّه قد فطن لغرضي ، وأنّه سيقتلني ، لئلا يفشو السرّ ، فوردت عليّ شدّة شديدة ، وغلبت عليّ ،

فطرحت نفسي في الحرّ مغموماً ، جائعاً [١٢٩ ر] ، على عتبة المجلس ، ونمت .

فما انتبهت إلّا بخادم قد أيقظني ، وقال : أجب أمير المؤمنين ، فنظرت الوقت ، فإذا هو نصف اللّيل .

فقلت : إنّا لله ، عزم والله على قتلي ، فمشيت معه ، وأنا أتشاهد ، إلى ممرّات سمعت منها كلام النساء .

فقلت : عزم على قتلي بحجّة ، يقول : من أذن لك في الدخول إلى حرمي ، ويعتلّ عليّ بذلك ، فوقفت .

فقال لي الخادم : ادخل .

فقلت : لا أدخل .

فقال لي : ادخل ، ويحك .

فقلت : هوذا أسمع صوت الحرم ، ولا يجوز لي أن أدخل .

فجذبني ، فصحت : والله ، لا دخلت ، ولو ضربت عنقي ، أو أسمع كلام أمير المؤمنين ، بالإذن لي .

وإذا امرأة تصيح : ويلك يا هرثمة ، أنا الخيزران[٤] ، وقد حدث أمرٌ عظيم ، استدعيتك له ، فادخل .

فتحيّرت ، ودخلت ، وإذا ستارة ممدودة ، فقيل لي من ورائها : إنّ موسى قد مات ، وأراحك الله منه ، وجميع المسلمين ، فانظر إليه ، فأتيته ، فإذا هو

---

٤ الخيزران : زوجة المهدي العبّاسي ، وأمّ ولديه الهادي والرشيد ، ملكة ، حازمة ، عاقلة ، أديبة ، شاعرة ، كانت ذات كلمة مسموعة في عهد زوجها المهدي ، فلما ولي ابنها الهادي ، حرّم عليها أن تتدخّل في أمور الدّولة ، ومنع الناس من الوقوف ببابها ، فانكمشت ، ولمّا ولي الرشيد ، عادت إلى ممارسة حريتها في التدخّل في شؤون المملكة ، وكان الرشيد لا يخالف لها رأياً ، وكانت حامية البرامكة ، ولما ماتت في السنة ١٧٣ أخذ الرشيد بقائمة سريرها حافياً يعدو في الطين ، وعليه جبّة سعيدية ، وطيلسانه خرق أزرق ، حتى إذا خرج من قبرها ، دعا الفضل بن الربيع ، وحلف له ، أنّه كان يهمّ بأن يولّيه ، فتمنعه أمّه ، فيطيع أمرها ، ثم أمر الفضل بأن يأخذ الخاتم من جعفر (الطبري ٢٣٨/٨) .

مسجّى على فراشه ، فمسست قلبه ، ومجسّه ، ومناخره ، فإذا هو ميت بلا شكّ .

فقلت : ما كان خبره ؟

فقالت لي الخيزران : كنت بحيث أسمع خطابه لك في أمر ابني هارون ، وأمر الطالبيّين ، وأهل الكوفة ، فلمّا دخل عليّ ، استعطفته ، وسألته أن لا يفعل شيئاً من ذلك ، فصاح عليّ ، فلم أزل أرفق به ، إلى أن كشفت له ثديي ، وشعري ، وبكيت ، وتمرّغت بين يديه ، وناشدته الله أن لا يفعل ، فانتهرني ، وقال : والله ، لئن لم تمسكي ، لأضربنّ عنقك الساعة ، فخفته ، وقمت ، فصففت قدميّ في المحراب ، أصلّي ، وأبكي ، وأدعو عليه .

فلمّا كان منذ ساعة ، طرح نفسه على فرشه لينام ، فشَرِق[5] ، فتداركناه بكوز ماء ، فازداد شَرَقُهُ ، إلى أن تلف ، فامض إلى يحيي بن خالد ، وعرّفه [١٥٦ ظ] ما جرى ، وامضيا إلى هارون ، وجيئا به قبل انتشار الخبر ، وجدّدا له البيعة على النّاس .

فخرجت وجئت بالرّشيد ، فما أصبحنا إلّا وقد فرغنا من بيعته ، واستقام أمره ، وتوطّأت الخلافة له ، وكفاني الله تعالى ، والنّاس ، ما كان أظلّنا من مكروه موسى ، وكان ذلك سبب اختصاصي العظيم بالرّشيد ، وتضاعف نعمتي ومحلّي عنده[6] .

---

٥ شرق بريقه : غصّ .

٦ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا هـ .

٢٥٧

دهاء عبدون أخي صاعد بن مخلد

حدّثني عليّ بن هشام قال[١] :

كان في يد صاعد بن مخلد[٢] ضمانات كثيرة ، وكانت معاملته مع أبي نوح عيسى بن إبراهيم[٣] ، وكان صاعد من وجوه النّاس .

فحضر صاعد بين يدي أبي نوح ، يحاسبه في أموال وجبت عليه ، فجرت بينهما مناظرات ، فشتم فيها أبو نوح صاعداً[٤] ، فردّ عليه صاعد ، مثل ما قاله له .

فاستعظم الحاضرون ذلك ، واستخفّوا بصاعد ، وقالوا له : يا مجنون ، ما هذا الفعل ؟ قتلتَ نفسك ، ثمّ أقاموه ، وخلّصوه من أبي نوح ، وقالوا : هذا مجنون ، لم يدر ما خرج من رأسه .

فانصرف إلى منزله ، متحيّراً ، لا يدري ما يصنع فيما نزل به ، فحدّث أخاه عبدون[٥] بما جرى .

---

١ في نشوار المحاضرة ٣٤/٨ : حدّثني أبو الحسين (يعني علي بن هشام) ، قال : سمعت أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات ، وكان يخلف أبا نوح عيسى بن ابراهيم على ديوان الضياع ، حدّث أنّه ... الخ .

٢ صاعد بن مخلد : وزير الموفّق ، بغدادي ، نصراني ، أسلم على يد الموفّق ، وكان حازماً ، ضابطاً ، كفؤاً ، ينتدبه الموفّق في المهمات ، وزر للموفّق سنة ٢٦٥ وفتح فارس سنة ٢٧٢ واعتقله الموفّق في هذه السنة ومات في حبسه سنة ٢٧٥ ، وكانت غلّته في السنة ألف ألف وثلثمائة ألف دينار ، راجع القصّة ١/١ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي ، والأعلام ٢٧٢/٣ ومروج الذهب ٤٨٠/٢ .

٣ أبو نوح عيسى بن إبراهيم الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

٤ في نشوار المحاضرة ٣٤/٨ : فاغتاظ أبو نوح ، فأعضّه ، أي قال له : يا عاضّ بظر أمّه .

٥ عبدون بن مخلد : أخو الوزير صاعد بن مخلد ، أسلم أخوه ، وظلّ عبدون على نصرانيّته ، وكان وجهاً =

فقال له : إن لم تطعني ، قبض عليك في غدٍ ، وطالبك من المصادرة بما لا يفي به حالك ، ولا حال جميع أهلك ، وقتلك - بلا شكّ - تشفّياً .

قال له صاعد : فما الرأي ؟

قال : كم عندك من المال[6] ، واصدقني ؟ .

قال : خمسون ألف دينار .

قال : أتطيب نفسك أن تتعرّى عنها ، وتحرس دمك ، وما يبقى من حالك وضياعك ؟ أم لا تسمح بذلك ، فتؤخذ منك تحت المقارع ، وتذهب النّفس والنّعمة كلّها ؟.

فقال له : قد تعرّيت عنها ، كي تبقى نفسي .

قال : فادفع إليّ منها ثلاثين ألف درهم ، ففعل .

فحملها عبدون ، وأتى [١٣٠ ر] حاجب موسى بن بغا[7] ، فقال له : خذ هذه العشرة الآف درهم ، وأوصلني إلى فلان الخادم ، وكان هذا خادمه

= من وجوه النصارى في العراق ، وإليه ينسب دير عبدون بسرّ من رأى وموقعه جنب المطيرة . قال ابن المعتز :

سقى المطيرة ذات الظلّ والشجر ودير عبدون هطّال من المطر

قبض عليه مع أخيه صاعد ، وأسبابهما ، وصودرا ، ونهبت منازلهم ، ولما توفّي صاعد ، أطلق عبدون من الحبس ، فصار إلى دير قنّى ، فأقام فيه يتعبّد ، ومات فيه وهو مترهّب سنة ٣١٠ ، وروى عنه الشابشتي في الديارات ص ٢٧٠ قصّة تدلّ على تخلّفه ، مع أنّ ما ورد في هذا الكتاب يدلّ على حصافة وذكاء (الديارات ٢٧٠-٢٧٣ وابن الأثير ٤١٧/٧ و ٤١٩) .

٦ في نشوار المحاضرة ٣٤/٨ : كم عندك من المال الصامت العتيد ، والعتيد : الحاضر ، والمال الصامت : النقد من ذهب وفضّة .

٧ موسى بن بغا : أحد القادة الأتراك الكبار ، وهو ابن خالة المتوكّل ، وكان ديّناً لا يشرب النبيذ ، وكان في عهد المتوكّل يخلف والده على أعماله ، ولما توفّي بغا في السنة ٢٤٨ ، عقد له المستعين على جميع=

الّذي يتعشّقه موسى ، ويطيعه في كلّ أموره ، وموسى إذ ذاك هو الخليفة[8] ، وكتبته كالوزارة ، والأمور في يده ، والخليفة في حجره .

قال : فأخذ الحاجب ذلك ، وأوصله إلى الخادم ، فأحضره العشرين ألف درهم ، وقال : خذ هذه ، وأوصلني إلى الأمير السّاعة ، وأعنّي عليه في حاجة أريد أن أسأله إيّاها ، ومشورة أشير بها عليه ، فأوصله الخادم إليه .

فلمّا مثل بين يديه ، سعى إليه بكتّابه ، وقال له : قد نهبوك ، وأخذوا مالك ، وأخربوا ضياعك ، وأخي يجعل كتابتك أجلّ من الوزارة ، ويغلب لك على الأمور ، ويوفّر عليك كذا ، ويحمل إليك اللّيلة ، من قبل أن ينتصف اللّيل ، خمسين ألف دينار عيناً ، هديّة لك ، لا يريد عنها مكافأة ، ولا يرتجعها من مالك ، وتستكتبه ، وتخلع عليه .

فقال موسى : أفكّر في هذا ؟.

فقال : ليس في هذا فكر ، وألحّ عليه .

فقال الخادم : في الدنيا أحد جاءه مثل هذا المال ، فردّه ؟ وكاتب بكاتب ، فأجابه موسى ، وأنعم له .

فقال له عبدون : فتستدعي أخي السّاعة ، وتشافهه بذلك ، فأنفذ إليه ، فأحضره ، وقرّر عليه ذلك ، وبات عبدون في الدّار لتصحيح المال ، فوفّاه .

وبكر صاعد ، فخلع عليه لكتابته ، وأركب الجيش كلّه في خدمته ، وانقلبت سامراء ، بظهور الخبر .

= أعمال أبيه ، وأضيف إليه ديوان البريد ، ولما اختلف المستعين والمعتزّ ، إنحاز إلى جانب المعتزّ ، ثم ولي الريّ ، فانصرف إليها ، وبلغه خبر قتل المعتزّ فقفل راجعاً إلى سرّمن رأى وقتل صالح بن وصيف ، ثم قاد جيوشاً عدّة لمحاربة العصاة في حروب الزنج والصفّار ، وتوفّي في السنة ٢٦٤ في خلافة المعتمد (ابن الأثير ٧/٩٨–٣١٠ ومروج الذهب ٢/٤٤٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٧٨ ، وتجارب الأمم ٦/٥٥٥ ، ٥٦٣ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ .

٨ هو الخليفة المعتزّ ، مدّة خلافته ٢٥٢–٢٥٥ .

فبكر بعض المتصرّفين إلى الحسن بن مخلد[9] ، وكان صديقاً لأبي نوح ، فقال له : قد خلع على صاعد .

فقال : لأيّ شيء؟

فقال : تقلّد كتابة موسى بن بغا ، فاستعظم ذلك .

وركب في الحال ، إلى أبي نوح ، وقال له : عرفتَ خبر صاعد ؟.

فقال : نعم ، الكلب ، قد بلغك ما عاملني به ، والله لأفعلنّ به ، ولأصنعنّ .

فقال له : أنت نائم ؟ ليس هذا أردت ، قد ولي الرّجل كتابة [١٥٧ ظ] الأمير موسى بن بغا ، وخلع عليه ، وركب معه الجيش بأسرهم إلى داره .

فقال أبو نوح : ليس هذا ما ظننته ، بات خائفاً منّا ، فأصبحنا خائفين منه ، فما الرّأي عندك ؟

قال : أن أصلح بينكما السّاعة .

فركب الحسن بن مخلد إلى صاعد ، فهنّأه ، وأشار عليه أن يصالح أبا نوح ، وقال له : أنت بلا زوجة ، وأنا أجعلك صهره ، وتعتضد به ، وإن كنت قد نصرت عليه ، فهو من تعلم موضعه ، ومحلّه ، ومحلّ مصاهرته ومودّته ، ولم يدعه ، حتّى أجاب إلى الصلح والمصاهرة .

فقال له : فتركب معي إليه ، فإنّه أبو البنت ، والزّوج يقصد المرأة ، ولولا ذاك لجاءك .

فحمله من يومه إلى أبي نوح ، واصطلحا ، ووقع العقد في الحال بينهما في ذلك المجلس ، وزوّج أبو نوح ابنته الأخرى بالعبّاس بن الحسن بن مخلد ، فولدت له أبا عيسى المعروف بابن بنت أبي نوح[10] ، صاحب بيت مال الإعطاء[11] ،

---

٩ أبو محمّد الحسن بن مخلد بن الجراح (٢٠٩-٢٦٩) : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

١٠ أبو عيسى ابن بنت أبي نوح : راجع القصّة ١٢١/١ من نشوار المحاضرة .

١١ بيت مال الإعطاء : ديوان الجيش .

ثمّ تقلّد زمام ديوان الجيش[12] لعمّه سليمان بن الحسن[13] ، فكانت كتابة صاعد لموسى ، ومصاهرته لأبي نوح ، أوّل مرتبة عظيمة بلغها ، وتقلّبت به الأحوال ، حتّى بلغ الوزارة[14] .

---

١٢ زمام ديوان الجيش : راجع حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب .

١٣ أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد بن الجراح : ترجمته في حاشية القصّة ١١٧ من هذا الكتاب ، وقد كان أصغر سنًّا من أخيه العبّاس (القصّة ٣٤/٨ من نشوار المحاضرة) .

١٤ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي برقم ٣٤/٨ ولم ترد في م ولا في غ ولا هـ .

٢٥٨
زوّر مناماً فجاء مطابقاً للحقيقة

قال رجلٌ من شيوخ الكتّاب ، يقال له عباد بن الحريش :

صحبت عليّ بن المرزبان[١] ، وهو يتقلّد شيراز[٢] ، من قبل عمرو بن اللّيث الصفّار[٣] ، فصادر المتصرّفين على أموال ألزمهم إيّاها ، فكنت ممّن أخذ خطّه عن العمل الّذي تولّيته ، بثمانين ألف درهم ، فأدّيت منها أربعين ألفاً ، ودرجت حالي[٤] ، حتّى لم يبق لي شيء في الدنيا غير داري الّتي أسكنها ، ولا قدر لثمنها فيما بقي عليّ ، فلم أدر ما أصنع .

وفكّرت ، فوجدت عليّ بن المرزبان ، رجلاً حرّاً سليم الصّدر [١٣١ ر] ، فروّيت له رؤيا ، أجمعت على أن ألقاه بها ، وأجعلها سبباً لشكوى حالي إليه ، والتوصّل إلى الخلاص ، وكنت قد حفظت الرؤيا .

فاحتلت خمسين درهماً ، وبكرت إليه قبل طلوع الفجر ، فدققت بابه .

فقال حاجبه ، من خلف الباب : من أنت ؟.

---

١ علي بن المرزبان : في القصّة ١٠٧/٨ من كتاب نشوار المحاضرة ، إنّ علي بن المرزبان هذا هو عمّ والد أبي الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان ، الكاتب الشيرازي .

٢ شيراز : قصبة بلاد فارس ، عذبة الماء ، صحيحة الهواء ، كثيرة الخيرات ، فتحها المسلمون في خلافة عثمان ، اشتهرت بخمرها وسجّادها (معجم البلدان ٣٤٨/٣ والمنجد) أقول : مررت بشيراز في السنة ١٩٦٨ وزرت بها قبري الشاعرين سعدي وحافظ .

٣ عمرو بن اللّيث الصفّار : ثاني أمراء الدّولة الصفّارية ، شجاع ، داهية ، خلف أخاه يعقوب مؤسّس الدّولة سنة ٢٦٥ ، وكانت تحت حكمه ، خراسان ، وأصبهان ، وسجستان ، والسند ، وكرمان ، واستمر إلى سنة ٢٨٧ في حروب متصلة ، تارة مع السامانيين ، وتارة مع جيوش الخلافة ، حتى وقع في الأسر سنة ٢٨٧ واعتقل ببغداد ومات في السنة ٢٨٩ (الأعلام ٢٥٧/٥) راجع القصّة ٦٦/٣ من كتاب نشوار المحاضرة .

٤ درج هنا ، بمعنى انقرض وباد .

فقلت : عباد بن الحريش

فقال : في هذا الوقت ؟

قلت : مهمّ[5] ، ففتح الباب .

فشكوت إليه حالي ، وقلت : هذه خمسون درهماً ، لا أملك غيرها ، خذها ، وأدخلني عليه ، قبل أن يتكاثر النّاس عليه .

فدخل ، فاستأذن لي ، وتلطّف ، إلى أن أوصلني إليه ، وهو يستاك[6] .

فقال : ما جاء بك في هذا الوقت ؟

فدعوت له ، وقلت : بشارة رأيتها البارحة .

فقال : ما هي ؟

فقلت : رأيتك في النوم ، كأنّك تجيء إلى شيراز ، من حضرة الأمير ، وتحتك فرس أشهب عالٍ ، لم تر عيني قط أحسن منه ، وعليك السواد ، وقلنسوة الأمير ، وفي يدك خاتمه ، وحولك مائة ألف إنسان ، ما بين فارس وراجل ، وقد تلقّوك ، وأنا فيهم ، إلى العقبة الفلانية ، وقد لقيك أمير البلد ، فترجّل لك وأنت تجوز ، وطريقك كلّه أخضر ، مزهر بالنور ، والنّاس يقولون : إنّ الأمير ، قد استخلفك على جميع أمره .

فقال : خيراً رأيت ، وخيراً يكون ، فما تريد ؟

فشكوت إليه حالي ، وذكرت له أمري .

فقال : أنظر لك بعشرين ألف ، وتؤدّي عشرين ألف درهم .

فحلفت له بأيمان البيعة[7] ، أنّه لم يبق لي إلّا مسكني ، وثمنه شيء يسير ، وبكيت ، وقبّلت يده ، واضطربت بحضرته ، فرحمني ، وكتب إلى الديوان

---

٥ يريد أنّه جاء في أمر مهم .

٦ الاستياك : التدليك بالمسواك ، وهو العود الذي تنظف به الأسنان .

٧ أيمان البيعة : هي الأيمان التي يحلف بها من يبايع بالخلافة ، وهي في العادة أشدّ ما يكون من الأيمان بالله ، وبالطلاق ، وعتق المماليك ، والحجّ ماشياً ، إلى غير ذلك .

بإسقاط ما عليّ ، وانصرفتُ .

فلم تمض إلّا شهور ، حتّى كتب عمرو بن الليث ، إلى عليّ بن المرزبان ، يستدعيه ، ويأمره بحمل ما اجتمع له من المال صحبته .

وكان قد جمع من الأموال ، ما لم يسمع أنّه اجتمع قط لأحد من مال فارس ، مبلغه ستون ألف ألف ، فحملها معه إلى نيسابور [8] ، وخرج عمرو ، فتلقّاه ، وجميع قوّاده .

فأعظم الأموال ، واستخلفه على فارس وأعمالها ، حرباً ، وخراجاً [9] ، وخلع عليه سواداً ، وحمله على فرس أشهب عال ، ودفع إليه خاتمه ، وردّه إلى فارس [١٥٨ ظ] .

فوافى في وقت الرّبيع ، ولم يحل الحول على رؤياي ، وخرج أمير البلد ، يستقبله على ثلاثين فرسخاً ، وخرجتُ فلقيته على العقبة الّتي ذكرتها في المنام الموضوع ، والدنيا على الحقيقة خضراء بأنوار الرّبيع ، وحوله أكثر من مائة ألف فارس وراجل ، وعليه قلنسوة عمرو بن الليث ، وفي يده خاتمه ، وعليه السواد [10] ، فدعوت له .

فلمّا رآني تبسّم ، وأخذ بيدي ، وأحفى بي السؤال ، ثمّ فرّق الجيش بيننا ، فلحقته إلى داره ، فلم أستطع القرب منه لكثرة الدواب ، فانصرفت ، وباكرته في السَحَر .

فقال لي الحاجب : من أنت ؟.

---

٨ نيسابور : عاصمة خراسان ، من أعظم المدن الإسلامية في القرون الوسطى ، مسقط رأس عمر الخيام وفريد الدين العطّار (المنجد) ، وكانت مرو مستقرّ ولاة خراسان ، إلى أن تحوّل عنها عبد الله بن طاهر إلى نيسابور ، فجعلها دار قراره (لطائف المعارف ٢٠١) .

٩ تولّى الحرب والخراج ، يعني أنه أصبح الأمير المطلق على البلد ، إليه الإدارة والجباية .

١٠ السواد : شعار العبّاسيّين ، اتّخذوه شعاراً لهم ضدّ الأمويّين الذين كان شعارهم البياض ، وقوله هنا : عليه السواد ، يعني أنّه وافى وعليه الخلع .

فقلت : عباد بن الحريش ، فأدخلني عليه ، وهو يستاك .

فضحك إليّ ، وقال : قد صحّت رؤياك .

فقلت : الحمد لله .

فقال : لا تبرح من الدّار حتّى أنظر في أمرك .

وكان بارّاً بأهله ، ورسمه إذا ولي عملاً ، أن لا ينظر في شيء من أمر نفسه ، حتّى ينظر في أمر أهله ، فيصرّف من صلح منهم للتصرّف ، فإذا فرغ ، عدل إلى الأخصّ ، فالأخصّ من حاشيته ، فإذا فرغ من ذلك ، نظر في أمر نفسه .

فجلست في الدّار إلى العصر ، وهو ينظر في أمر أهله ، والتوقيعات تخرج بالصلات والأرزاق ، وكتب التقليدات ، إلى أن صاح الحاجب : عباد بن الحريش ، فقمت إليه ، فأدخلني عليه .

فقال : إنّي ما نظرت في أمر أحد غير أهلي ، فلمّا فرغتُ منهم ، بدأت [١٣٢ ر] بك قبل النّاس كلّهم ، فاحتكم ما تريد ؟ .

فقلت : ترد عليّ ما أخذت منّي ، وتولّيني العمل الّذي كان بيدي .

فوقّع لي بذلك ، وقال : امض ، فقد أوغرت لك العمل ، فخذ ارتفاعه كلّه[١١] .

فكان يستدعيني كلّ مدة ، ولا يأخذ منّي شيئاً ، وإنّما يكتب لي روزات[١٢] من مال العمل ، ويصلح لي حسبانات يخلّدها الديوان ، فأرجع إلى العمل .

فكنت على ذلك إلى أن زالت أيّامه ، فرجعت إلى شيراز وقد اجتمع لي مال عظيم ، صودرت على بعضه ، وجلست في بيتي ، وعقدت نعمة ضخمة ، ولم أتصرّف[١٣] إلى الآن[١٤] .

---

١١ أوغر له العمل ، يعني أنّه أباح له أن يستولي على أصل الارتفاع .

١٢ الروزات : الوصولات .

١٣ التصريف : التولية ، وهو ما نسميه الآن التعيين في الوظيفة ، والصرف : العزل .

١٤ وردت القصّة في نشوار المحاضرة برقم ١٠٧/٨ ولم ترد في م ولا في غ ولا ه .

٢٥٩

شرّ السلطان يدفع بالساعات

حدّثني ابن أبي علّان[1] ، وقد جرى حديث السلطان ، وأنّ شرّه يدفع بالساعات ، قال :

ورد علينا أبو يوسف البريدي[2] ، كاتب السيدة[3] ، يطالبني ، أنا وأبا يحيى الرامهرمزي[4] ، أن نضمن منه ضياع السيدة ، وشدّد علينا ، ونحن ممتنعون .

---

١ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن مهرويه المعروف بابن أبي علان الأهوازيّ (٣٢١–٤٠٩) : ترجم له صاحب المنتظم ٢٩٠/٧ وقال عنه إنّه كان يؤدّي خراج ضياعه بالأهواز تسعين ألف دينار ، راجع أخباره في القصص ١١٩/١ و ١٢٠/١ من نشوار المحاضرة .

٢ آل البريدي : إخوة ثلاثة ، أرهجوا الدنيا ، وأخربوا العراق والبلاد المجاورة له ، وكانوا اشدّ على العراق من ألدّ أعدائه ، عاثوا فيه عيثاً شنيعاً ، وأخربوا الأهواز ، وواسط ، والبصرة ، وبغداد ، بظلمهم ، وفساد جبايتهم ، وتعذيبهم الناس في سبيل الحصول على المال ، حتى إنّهم كانوا ينعلونهم بنعال الدوابّ ، وقد كانوا أوّل أمرهم من صغار الكتّاب ، وكان كبيرهم أبو عبد الله أحمد بن محمد البريدي يضمن الضياع الخاصّة ، ويقيم أخاه أبا يوسف يعقوب بن محمّد فيها ، كما كان أبو يوسف يتولّى خراج رامهرمز ، ولما ولي ابن مقلة الوزارة ، رشاه البريدي الكبير بعشرين ألف دينار ، فولاّه الأهواز ، وولّى أخويه أبا يوسف وأبا الحسين علي بن محمد مناصب جليلة ، وبقي البريديّون بين نصب وعزل ومصادرات تتخلّلها حروب ومؤامرات ، حتى وزر أوّلهم أبو عبد الله للمتّقي سنة ٣٢٩ وشغب عليه الجند ، ففرّ إلى واسط ، وفي السنة ٣٣٠ وزّر ثانية ، وأصعد إلى بغداد ، واستولى عليها ، وصادر الخليفة على خمسمائة ألف دينار ، ونهب أصحابه بغداد ، وكبسوا الدور ، وأخرجوا أهلها منها ، وفرضوا على الناس فرائض فاحشة ، وأخذوا القويّ بالضعيف ، وكبسوا منازل الناس ليلاً ونهاراً ، وعسفوا أهل العراق ، وظلموهم ظلماً لم يسمع بمثله قط ، وكانت إدارة الأمور المالية ، إلى أبي يوسف يعقوب ، فنقم عليه أبو عبد الله ، واتّهمه باحتجان المال لنفسه ، فقتله في السنة ٣٣٢ ، ومات بعده بأشهر (القصّة ١٢٢/٧ من نشوار المحاضرة ، تجارب الأمم ٥٨/١ ، ١٥٢ و١٥٨ ، ٢٤٧–٢٥٠ ، ٣٥٨ و١٤/٢ و٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٧٨) .

٣ السيّدة : لقب أمّ المقتدر ، واسمها شغب ، ترجمتها في حاشية القصّة ١٦١ من الكتاب .

٤ أبو يحيى الرامهرمزي ، زكريا بن محمد بن زكريا : نقل عنه القاضي التنوخي القصّة ٨٢/٢ من كتاب نشوار المحاضرة .

إلى أن أخلى لنا مجلسه يوم خميس ، وناظرنا مناظرة طويلة ، وشدّد علينا ، حتّى كدنا أن نجيبه ، وكان علينا في ذلك ضرر كبير ، وخسران ظاهر ، لو أجبناه .

فقلت لأبي يحيي : اجتهد أن تدفع المجلس اليوم ، لنفكّر إذا انصرفنا ، كيف نعمل .

وكان أبو يوسف محدّثاً طيّب الحديث ، فجرّه أبو يحيي إلى المحادثة ، وسكت له يستمع .

وكانت عادة أبي يوسف في كلامه ، أن يقول في كلّ قطعة من حديثه : أفهمت ؟ فكان كلّما قال ذلك لأبي يحيي ، قال له : لا ، فأعاد أبو يوسف الحديث ، ويخرج منه إلى حديث آخر .

فلم يزل كذلك إلى أن حميت الشمس ، وقربت من موضعنا ، فرجع أبو يوسف إلى ذكر الضمان ، وطالبنا بالعقد .

فقلت : إنّه قد حمي الوقت ، وهذا لا يتقرّر في ساعة ، ولكن نعود غداً ، ورفقنا به ، فقال : انصرفا ، فانصرفنا .

واستدعانا من غدٍ ، فكتبنا إليه : هذا يوم جمعة ، يوم ضيق ، ويحتاج فيه إلى دخول الحمّام ، والصلاة ، وقلّ أمر يتمّ قبل الصلاة ، ولكنّا نبكّر يوم السبت .

فلمّا كان يوم السبت ، صرنا إليه ، وقد وضعنا في أنفسنا الإجابة ، فحين دخلنا عليه ، ورد عليه كتاب فقرأه ، وشغل قلبه ، فقال : انصرفا اليوم .

فانصرفنا ، ورحل من الغد عن الأهواز ، لأنّ الكتاب ، كان يتضمّن صرفه ، فبادر قبل ورود الصارف ، وكفينا أمره[٥] .

---

٥ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ١١٧/٨ ولم ترد في م ولا في غ ولا ﻫ .

٢٦٠

كيفيّة إغراء العمّال بأخذ المرافق

وقال[١] : ورد علينا في وقت من الأوقات ، بعض العمّال [١٥٩ ظ] متقلّداً للأهواز ،من قبل السلطان ، فتتبّع رسومنا[٢] ، ورام نقض شيء منها .

فكنت أنا وجماعة من التنّاء في المطالبة ، وكان فيها ذهاب غلّاتنا في تلك السنة ، لو تمّ علينا ، وذهاب أكثر قيمة ضياعنا .

فقال لي الجماعة : ليس لنا غيرك ، تخلو به ، وتبذل له مرفقاً ، وتكفيناه .

فجئته ، وخلوتُ به ، وبذلت له مرفقاً جليلاً ، فلم يقبله ، ودخلت عليه بالكلام من غير وجه ، فما لانَ ، ولا أجابَ .

فلمّا يئست منه ، وكدت أن أقوم ، قلت له : يا هذا الرّجل ، أنت مقيم من هذا الأمر ، على خطأ شديد ، لأنّك تظلمنا ، وتزيل رسومنا ، من حيث لا يحمدك السلطان ، ولا تنتفع أنت أيضاً بذاك .

ومع هذا فأخبرني ، هل تأمن أن تكون قد صُرِفْتَ ، وكتاب صرفك في الطّريق ، يرد عليك بعد يومين أو ثلاثة ، فتكون قد أهلكتنا ، وأثمت في أمورنا ، وفاتك هذا المرفق الجليل ، ولعلّنا نحن نكفى ، ويجيء غيرك ، فلا يطالبنا ، أو يطالبنا فنبذل له نحن هذا المرفق ، فيقبله ، ويكون الضرر يدخل عليك .

فحين سمع هذا وافق ، كأنّه قد علم من أمره ضعفاً ببغداد ، وتلوّناً ،

---

١ الراوي : أبو القاسم عبد الله بن محمّد بن مهرويه الأهوازي ، المعروف بابن أبي علان ، قال عنه القاضي التنّوخي صاحب كتاب الفرج بعد الشدّة : إنّه خال والده ، راجع القصّة ١/١٨٩ من نشوار المحاضرة .

٢ الرسوم ، ومفردها رسم : كلّ تصرّف استمرّ ، وأصبح في حكم المقرّر ، كالتصرّف الحاصل في كيفيّة احتساب الضرائب ، وفي كيفيّة استيفائها .

وأنّي قد أحسست بانحلال أمره ، وأنّ لي ببغداد من يكاتبني بالأخبار .

فأخذ يخاطبني مخاطبة من [أين] وقع إليّ هذا ، فقوّيته في نفسه ، فأجاب إلى أخذ المرفق ، وإزالة المطالبة .

فسلّمت إليه رقاعاً إلى الصيارف بالمال ، وأخذت منه حجّة بزوال المطالبة ، فانصرفت وقد بلغتُ ما أردت .

فلمّا كان بعد خمسة أيّام ، ورد عليه كتاب الصرف ، فدخلت إليه ، فأخذ يشكرني ويخبرني بما ورد عليه ، فأوهمته أنّي كنت قلت له ذلك عن أصل ، وكفيناه[3] .

---

٣ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ١١٨/٨ ولم ترد في م ولا في غ ولا هـ .

٢٦١
الصوفي المتوكّل وجام فالوذج حار

حدّثني ابن سيّار[١] ، عن شيخ من الصوفية ، قال :

صحبتُ شيخاً من الصوفيّة ، وجماعة منهم ، في سفر ، فجرى ذكر التوكّل ، والأرزاق ، وضعف النفس .

فقال ذلك الشيخ : عليّ ، وعليّ ، وحلف بأيمان مغلّظة ، لا ذقتُ شيئاً ، أو يبعث الله عزّ وجلّ ، إليّ ، جام فالوذج[٢] حار ، ولا آكله إلّا بعد أن يحلف عليّ ، أو يجرى عليّ مكروه ، وكنّا نمشي في الصحراء .

فقالت الجماعة : أنت جاهل ، ونحن نمشي ، حتّى انتهينا إلى القرية ، وقد مضى عليه يومان وليلتان ، ولم يطعم شيئاً ، ففارقته الجماعة ، غيري .

فطرح نفسه في مسجد في القرية ، وقد ضعفت قوّته ، وأشرف على الموت ، فأقمت عنده .

فلمّا كان في ليلة اليوم الثالث ، وقد انتصف اللّيل ، وكاد يتلف ، دقّ علينا باب المسجد ، ففتحتُهُ ، فإذا بجارية سوداء ومعها طبق مغطّى ، فلمّا رأتنا ، قالت : أنتم من أهل القرية ، أم غرباء ؟.

---

١ في القصّة ٣/٥٤ من نشوار المحاضرة : حدّثني محمد بن هلال بن عبد الله ، قال : حدّثنا القاضي أحمد بن سيّار ، قال : حدّثني رجل من الصوفيّة ، قال ... الخ .

٢ الفالوذج : حلوى تعمل من الدقيق والعسل والماء ، فارسيّة : بالوده (الألفاظ الفارسيّة المعربّة ١٢٠) أقول : هذه الحلوى ما زالت تؤكل في بغداد وتسمّى (پالوته) بالباء المثلثة وكانت تؤكل حارّة ، أمّا اليوم فتؤكل في بغداد حارّة وباردة ، وذكر أنّه قدّم فالوذج حار إلى مائدة عليها أبو هفّان ، وأبو العيناء ، فقال أبو هفّان لأبي العيناء : هذه أحرّ من مكانك في جهنّم ، فقال أبو العيناء : إن كانت حارّة ، فبرّدها بشعرك (مطالع البدور ٢/٨٠) وأتى أعرابي بفالوذج ، فأكل منه ، فقيل له : تعرف ما هذا ؟ فقال : هذا – وأبيك – السراط المستقيم (مطالع البدور ٢/٨٠) .

فقلنا : غرباء .

فكشفت عن جام[3] فالوذج حار .

فقالت : كلوا .

فقلت له : كل .

فقال : لا أفعل .

فقلت : والله ، لا أكلتُ أو تأكل ، ووالله لتأكلنّ ، لأبرّ قسمه .

فقال : لا أفعل .

فشالت الجارية يدها ، فصفعته صفعة عظيمة ، وقالت : والله ، لئن لم تأكل ، لأصفعنّك هكذا ، إلى [١٣٣ ر] أن تأكل .

فقال : كل معي ، فأكلت معه ، فنظّفنا الجام .

فلمّا أخذته لتمضي ، قلت لها : بالله ، حدّثينا بخبر هذا الجام .

قالت : نعم ، أنا جارية رئيس هذه القرية ، وهو رجل حديد ، طلب منّا منذ ساعة ، فالوذج حار ، فقمنا لنصلحه ، وهو شتاء وبرد ، فإلى أن نخرج الحوائج ، ونعقد الفالوذج ، تأخّر عليه ، فطلبه ، فقلنا : نعم ، فحلف بالطلاق ، أنّه لا يأكله ، ولا أحد من أهل داره ، ولا أحد من أهل القرية ، إلّا غريب .

فأخذته ، وجعلت أدور في المساجد ، إلى أن وجدتكما ، ولو لم يأكل هذا الشيخ ، لقتلته صفعاً ، ولا تطلّق ستّي .

فقال لي الشيخ : كيف ترى ، إذا أراد أن يفرّج[4] ؟.

٣ الجام : فارسيّة : الكأس ، أو الصحن العميق من الزجاج .

٤ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي برقم ٥٤/٣ ولم ترد في م ولا في غ ولا هـ .

٢٦٢
سخاء الأمير سيف الدولة

وحدّثني عبد الله بن معروف[1] ، قال : [١٦٠ ظ]

دخلت حلب إلى أبي محمّد الصلحي[2] ، وأبي الحسن المغربي[3] ، أسلّم عليهما ، وكانا في صحبة سيف الدولة[4] ، [وهما في دار واحدة نازلان لضيق الدّور][5] .

وكان وكيل كلّ واحد منهما يبكّر فيقيم لهما جميع ما يحتاجان إليه من المائدة[6] والوظائف[7] ، فإذا كان من الغد ، بكّر وكيل الآخر ، فأقام لهما ، ولغلمانهما ، من المائدة والوظائف ما يحتاجون إليه على هذا .

فلمّا دخلت إليهما ، وجلست ، دخل شيخ ضرير ، فسلّم ، وجلس ، ثمّ قال : إنّ لي بالأمير سيف الدولة ، حرمة واختصاص ، أيّام مقامه بالموصل ، وقد لحقتني محن وشدائد ، أمّلته لكشفها ، وقد قصدته ، وهذه رقعتي إليه ،

---

١ أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن معروف : أخو القاضي أبو محمد عبيدالله بن أحمد بن معروف ، كان أبو القاسم من ندماء سيف الدولة ، وكان أثيراً لديه ، نقل عنه القاضي التنوخي قصصاً أودعها في نشوار المحاضرة ١٢٠/٣ و ١٢١/٣ وفي هذا الكتاب .

٢ أبو محمد الحسن بن محمد الصلحيّ الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ٢٠٧ من هذا الكتاب .

٣ في الأصل : أبي القاسم ، والصحيح ما أثبتناه ، وهو أبو الحسن علي بن الحسن المغربي الكاتب ، كان من أصحاب الأمير سيف الدولة الحمدانيّ ، وخواصّه ، واستوزره سعد الدولة ولده ، ثم رحل إلى مصر ، وخدم الفاطميّين ، قتله الحاكم سنة ٤٠٠ (الأعلام ٨٨/٥) .

٤ الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله الحمداني : ترجمته في حاشية القصّة ٢٠٢ من هذا الكتـــاب .

٥ الزيادة من نشوار المحاضرة رقم القصّة ١٢١/٣ جـ ٣ ص ١٧٨ .

٦ في نشوار المحاضرة ١٢١/٣ : من المادة .

٧ الوظائف ، مفردها وظيفة : ما يخصّص لكلّ شخص من الخبز واللحم والفاكهة في كلّ يوم .

فإن رأيتما أن تتفضّلا بإيصالها إليه ، فعلتما ، وأخرج رقعة طويلة جدّاً .

فلمّا رأياها ، قالا له : هذه عظيمة ، ولا ينشط الأمير لقراءتها ، فغيّرها ، واختصرها ، وعد في وقت آخر ، فإنّا نعرضها عليه .

فقال : الّذي أحبّ ، أن تتفضّلا بعرض هذه الرّقعة .

فدافعاه عن ذلك ، فقام يجرّ رجليه ، منكسر القلب ، فتداخلتني رحمة له ، وركبتُ ، ودخلت على سيف الدولة ، وهو جالس .

وكان رسمه أن لا يصل إليه أحد ، إلّا برقعة يكتبها الحاجب ، باسم من حضر ، فإذا قرأ الرّقعة ، إن شاء أذن له ، وإن شاء صرفه .

فلمّا آستقررت عرض الحاجب عليه رقعة فيها : فلان بن فلان ، الموصليّ الضرير .

فقال له : هذا في الدنيا ؟ أين هو ؟.

فقيل : بالباب .

فقال : يدخل ، فما أظنّه – مع ما أعرفه من زهده في الطلب ، وقصد الملوك – قصدنا إلّا من شدّة ، فدخل الشيخ الّذي رأيته عند الصلحي والمغربي .

فلمّا رآه استدناه ، وبشّ له ، وقال له : يا هذا ، أما سمعت بأنّا في الدنيا ؟ أما علمت مكاننا على وجه الأرض ؟ أما حان لك أن تزورنا إلى الآن ، مع ما لك بنا من الحرمة والسبب الوكيد ؟ لقد أسأتَ إلى نفسك ، وأسأتَ الظنّ بنا .

فجعل يدعو له ، ويشكره ، ويعتذر ، فقرّبه ، وجلس ساعة ، ثمّ سلّم إليه تلك الرقعة بعينها ، فأخذها من يده ، وقرأها .

ثمّ استدعي يونس بن بابا ، وكان خازنه ، فحضر ، فأسرّ إليه شيئاً .

ثمّ استدعى رئيس الفراشين ، فخاطبه سرًّا .

واستدعى خادماً له ، فخاطبه بشيء .

واستدعى صاحب الإصطبل ، فأمره بشيء ، فانصرفت الجماعة .

وعاد ابن بابا ، فوضع بين يديه صرّتين فيهما خمسمائة دينار ، وثياباً كثيرة صحاحاً ، من ثياب الشتاء والصّيف ، وطيباً كثيراً .

ثمّ جاء عريف الفرّاشين ببسط وآلة وفرش تساوي ألوف دراهم ، فصار ذلك كالتلّ بين يديه .

وكان يعجبه إذا أمر لإنسان بشيء أن يكون بحضرته مجتمعاً ، فيراه بين يديه ، ثمّ يهبه له .

فاجتمع ذلك ، والضرير لا يعلم ، وعنده أنّه قد تغافل عنه ، فهو في الرّيب .

ثمّ حضر [١٣٤ ر] صاحب الكراع ، ومعه بغلة تساوي ثلاثة آلاف درهم ، ومركب ثقيل .

وجاء غلام أسود عليه ثيابٌ جدد ، فسلّمت إليه البغلة ، فأمسكها في الميدان أسفل الدكة الّتي عليها الأمير .

فقال للغلام : كم جرايتك في السنة ؟.

قال : عشرون ديناراً .

فقال : قد جعلتها ثلاثين ، وخدمة هذا الشيخ خدمة لنا ، فلا تقصّر فيها ، ولا ينكسر قلبك بخروجك عنّا من دارنا ، وأعطوه سلفاً لسنة ، فدفع إليه ذلك في الحال .

ثمّ قال : فرّغوا الدّار الفلانية ، له ، ويحدر زورقٌ من تل فافان[8] إلى الموصل ، فيه كرّان حنطة ، وكرّ شعير ، وفواكه الشام ومآكلها ، فاعملوا بهذا ثبتاً[9] ، ففعل ذلك .

---

٨ فافان : موضع على دجلة ، تحت ميافارقين ، يصب عنده في دجلة وادي الرزم (معجم البلدان ٣/٨٤٥ ومراصد الاطلاع ٣/١٠١٥) .

٩ الثبت : القائمة التي تسجّل فيها الأشياء .

ثمّ استدعى أبا إسحاق بن شهرام[10] ، كاتبه ، [المعروف بابن ظلوم المغنّية ، وكان يكتب له ، ويترسّل إلى ملك الرّوم ، ويبعثه في صغير أموره وكبيرها][11] فسارّه بشيءٍ ، وكان صاحب سرّه .

فابتدأ ابن شهرام يعتذر إلى الضرير ، عن سيف الدّولة ، باعتذار طويل ، وأنّك قصدتنا في آخر [١٦١ ظ] وقت ، وقد نفدت غلّاتنا [وتقسّمت أموالنا الحقوق ، والزوّار ، والجيوش ، وببابنا خلق من الرؤساء ، ونحتاج أن نواسيهم][11] ، ولولا ذلك لأوفينا على أملك ، وقد أمرنا لك بكذا وكذا ، وجعل ابن شهرام يقرأ عليه ما في الثبت ، وسيف الدولة يسمع .

فقلت له : لا تورد على الشيخ هذه الجائزة جملة ، عقيب اليأس الّذي لحقه ، فتنشقّ مرارته .

فلمّا استوفى ، بكى الشيخ بكاءً شديداً ، وقال : أيّها الأمير ، لقد زدت - والله - على أملي بطبقات ، وأوفيت على غناي بدرجات ، وقضيت حقّي ، وما هو أعظم من حقّي ، وما أحسن أن أشكرك ، ولكنّ الله تعالى ، يتولّى مكافأتك ، فمنّ عليّ بتقبيل يدك ، فأذن له ، فقبّلها .

فجذبه سيف الدولة ، وسارّه بشيءٍ ، فضحك ، وقال : إي والله ، أيّها الامير .

فاستدعى خادماً للحرم ، وسارّه بشيءٍ ، وقام الشيخ إلى داره الّتي أخلاها له ، وقال له : أقم فيها إلى أن أنظر في أمرك ، وتخرج إلى عيالك .

فسألتُ الخادم عمّا سارّه به ، فقال : أمرني أن أخرج إليه جارية ، من وصائف أخته ، في نهاية الحسن ، في ثياب وآلة قيمتها عشرة آلاف درهم ، قال : فحملتها إليه .

---

١٠ أبو إسحاق محمد بن عبد الله بن محمد بن شهرام : كاتب سيف الدّولة ، وسفيره إلى ملك الروم ، نقل عنه صاحب تاريخ الحكماء في الصحيفة ٣١ إنّه في إحدى سفاراته إلى ملك الروم ، اطّلع في موضع عندهم على كثير من الكتب والآلات .

١١ الزيادة من القصة ١٢١/٣ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي .

قال ابن معروف : فقمت قائماً ، وقلت : أيّها الأمير ، ما سمع بهذا الفعل عن أحد من أهل الأرض قديماً ، ولا حديثاً .

فقال : دعني من هذا ، ما معنى قولك لابن شهرام ، لا تورد عليه هذا كلّه مع اليأس ، فتنشقّ مرارته ؟.

فقلت : نعم ، كنت منذ ساعة عند أبي محمّد الصلحي وأبي الحسن المغربي ، فجرى كذا وكذا ، وقصصت عليه قصّة الضرير معهما ، وأنّه انصرف أخزى منصرف ، ثمّ جاء بعد اليأس ، فعاملته بهذا الفعل العظيم .

فقال : أحضروا الصلحي والمغربي ، فأحضرا .

فقال لهما : ويحكما ، ألم أحسن إليكما ؟ وأنوّه باسمكما ؟ ، وأرفع منكما ؟ ، وأصطنعكما ؟ وعدّد أياديه عليهما .

فقالا : بلى ، وأخذا يشكرانه .

فقال : ما أريد هذا ، أفمن حقّي عليكما ، أن تقطعا عنّي رجاء مؤمّليّ وقاصديّ ، وتنسباني عندهم إلى الضجر برقاعهم ؟ ما كان عليكما لو أخذتما رقعة الضرير ، فأوصلتماها اليّ ؟ فإن جرى على يدي شيءٌ ، كنتما شريكاي فيه ، وإن ضجرت ، كان الضجر منسوباً إليّ دونكما ، وكنتما بريئين منه ، وقد قضيتما حقّ قصده ، فلا حقّه قضيتما ، ولا حقّ الله فيما أخذه على ذوي الجاه ، وأسرف في توبيخهما ، كأنّهما قد أذنبا ذنباً .

فجعلا يعتذران إليه ، ويقولان : ما أردنا إلّا التخفيف عنه من قراءة شيءٍ طويل ، لينقلها إلى أخفّ منها ، ولو علمنا أنّه أيس ، لأخذنا رقعته وعرضناها .

فدعت الجماعة له ، وحلفت أنّ هذا التأنيب في الجود ، أحسن من الجود ، ورفقوا به حتّى انبسط في الحديث[١٢] .

---

١٢ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا هـ .

٢٦٣
ألمعيّة المأمون وذكاؤه

قال : دعا المأمون يوماً بأبي عبّاد[١] ، فدفع إليه كتاباً مختوماً ، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة[٢] ، فيناظره على ما فيه باباً ، باباً ، ويأخذ تحت كلّ باب خطّه فيه ، ويختمه بخاتمه ، وخاتم عمرو ، ويحتفظ به إلى أن يسأله عنه ، ولا يذكره ابتداءً ، وأكّد على ذلك .

قال : فعلمت أنّها وقيعة[٣] ، وقد كنت شاركت عمراً في أشياء ، فصارت إلينا منها أموال ، فخفت أن تكون مذكورة في الكتاب .

فقصدت عمراً ، فوجدته في بستان أحمد بن يوسف[٤] ، يلعب بالشطرنج[٥] مع بعض أصحابه ، فعرّفته أنّي محتاج إلى الخلوة معه .

فقال : دعني الساعة ، فقد استوى لي هذا الدست .

---

١ أبو عبّاد ثابت بن يحيى بن يسار : وزير المأمون ، كان كاتباً ، حاسباً ، وكان أهوج ، شديد الحدّة ، سريع الغضب ، أنظر أخباره في الفخري ٢٢٦ وفي الهفوات النادرة ٢٤٦–٢٥٠ وفي الملح والنوادر ٢٩٧ وكان إذا غضب رمى من يكون بين يديه بدواته ، أو شتمه فأفحش ، قال فيه دعبل :

أولى الأمور بضيعةٍ وفساد ... أمر يدبّره ، أبو عبّاد
يسطو على كتّابه بدواته ... فمضمّخ بدمٍ ونضح مداد
وكأنّه من دير هِزْقِلَ مفلتٌ ... حردٌ يجرّ سلاسل الأقياد

٢ أبو الفضل عمرو بن مسعدة الصولي : وزير المأمون ، ترجمته في حاشية القصّة ١١٣ من هذا الكتاب .

٣ الوقيعة : الغيبة والوشاية .

٤ أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي الكاتب : كوفيّ ، من كبار الكتّاب ، ولّي ديوان الرسائل للمأمون ، ثم استوزره بعد وفاة أحمد بن أبي خالد الأحول ، وكان فصيحاً ، شاعراً ، حسن البديهة ، توفّي ببغداد سنة ٢١٣ (الأعلام ١/٢٥٧) .

٥ الشطرنج : راجع البحث في آخر القصّة .

فضاق صدري ، وقلبت الشطرنج ، وقلت : قد سال السّيل ، وهلكنا وأنت غافل ، [إقرأ] هذا الكتاب ، فقرأه ، فطالبته أن يكتب خطّه ، تحت كلّ فصل منه ، بحجّته .

فضحك ، وقال : ويحك ، أما تستحي ، تخدم رجلاً طول هذه المدّة ، ولا تعرف أخلاقه ، ولا مذهبه ؟ .

فقلت : يا هذا ، أخبرني عنك ، إن أقدمتَ على جحد ما في هذا الكتاب ، لتعذّر حجّة ما شاركتك فيه ، أمّا أنا فوالله ما [١٦٢ ظ] أجحدُ ، ولكن أصبر لأمر الله تعالى .

قال : فتحبّ أن اطلعك على ما هو أشدّ عليك من هذا ؟.

قلت : وما هو ؟.

فقال : كتاب دفعه إليّ أمير المؤمنين منذ سنة ، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا ، فعرفت ضيق صدرك ، فلم أذكره لك .

فكدتُ أموت إلى أن فرغ من كلامه ، فقلت له : أرني ايّاه ، فأحضره ، وقرأته ، وأنا أنتفض ، وعمرو يضحك .

فلمّا فرغت منه ، قلت : عند الله أحتسب نفسي ونعمتي .

فقال : أنتَ والله مَجنون .

فقلت : دعنا من هذا ، ووقّع تحت كلّ فصل .

فنظر إلى جملة ما نسب إليه في الكتاب ، فوجده أربعين ألف ألف درهم ، فوقّع في آخره : لو قصرت همّتنا في هذا القدر وأضعافه ، لوسعتنا منازلنا ، وما يني هذا ، بدجلة في بردٍ ، أو روحةٍ في حرٍّ ، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، ويبلغنا فيه ما نؤمّله به ، وعلى يده .

وكان جملة ما رفع عليّ ، سبعة وعشرون ألف ألف درهم .

فقال : يا هذا ، إنّ صاحبنا ليس ببخيل ، ولكنّه رجل يكره أن يطوى

معروفه ، وإنّما أراد أن يعلمنا أنّه قد علم بما صار إلينا ، فأَمْسَكَ عنه على علم .

ثمّ ختم الكتاب بخاتمه ، وخاتمي ، وانصرفت وأنا في الموت ، فلم ألبث أن كتبت وصيّتي ، وأحكمت أمري ، وكنت سنة مغموماً ، وذاب جسمي .

فقال لي المأمون يوماً : يا أبا عبّاد ، قد أنكرتِ حالك ، أتشكو علّة ؟

فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنّي منذ سنة ، حيّ كميت ، لأجل الكتاب الّذي دفعه إليّ أمير المؤمنين ، لأناظر عليه عمرو بن مسعدة .

فقال : أمسك عنّي ، حتّى أعيد عليك جميع ما جرى بينكما ، فحدّثني بجميع ما دار بيننا ، كأنّه كان ثالثنا .

فقلت : لقد استقصى لك الّذي وكّلته بخبرنا ، والله ، ما خرم منه حرفاً[6] .

فقال : والله ، ما وكّلت بكما أحداً ، ولكن ظنّاً ظننته ، وعلمت أنّه لا يدور بينكما غيره ، ولقد عجبتَ من غير عجب ، لأنَّ عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً ، وهذا عمرو بن مسعدة ، أعرف بنا منك ، وأوسع صدراً ، وأبعد همّة ، وما أردتُ بما فعلتُ ، إلّا أن تعلما أنّي قد عرفت ما صار إليكما ، وتستكثرانه ، فأحببت أن أزيل عنكما غمّ المساترة ، وثقل المراقبة ، وأنّي لمتذمّم لكما ، خجل من ضعف أثري عليكما .

فسررت ، وصرت كأنّي أطلقت من عقال ، فشكرته ودعوت له .

ثمّ قلت : ما أصنع بذلك الكتاب ؟.

قال : خرّقه إلى لعنة الله ، وامض مصاحباً ، آمناً ، في ستر الله عزّ وجلّ[7] .

---

٦ ما خرم منه حرفاً : ما نقص منه حرفاً .

٧ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا هـ .

الشطرنج

الشطرنج : لعبة مشهورة ، تشحذ اللبّ ، وتدرّب على الفكر . وتعلّم شدّة البصيرة ، وهي معرّب : شطرنك ، بالفارسيّة ، أي ستّة ألوان ، لأنّ القطع في اللعب هي ستّ ، وهي : الشاه . والفرزان (ويسمى في بغداد الوزير أو الفرز) . والفيل . والفرس ، والرخّ . والبيدق .

وقد اختلف المؤرّخون فيمن وضع الشطرنج ، فاليونان ينسبونه إلى يوناني ، والهنود ينسبونه إلى هندي ، والفرس إلى فارسي ، ويروى أنّ ملوك الهند كانوا إذا تنازعوا على كورة أو مملكة ، لعبوا الشطرنج ، فيأخذها الغالب من دون قتال .

وكانت لعبة الشطرنج في العصور الوسطى ، لعبة الأشراف ، في الشرق والغرب ، وقد جاء في التاريخ ، أنّ هارون الرشيد أهدى إلى شارلمان رقعة شطرنج ، وكان المأمون يحبّ لعب الشطرنج حبّاً شديداً ، ويقول إنّه يشحذ الذهن (تاريخ الخلفاء ٣٢٤) .

ومن الذين اشتهروا بإتقان لعب الشطرنج أبو بكر الصولي ، وقد أعجب به من الخلفاء المكتفي ، والراضي ، وأصبح مضرب المثل في الشطرنج ، وكان لفرط إتقانه ، يلاعب بالشطرنج ، وهو مستدبر الرقعة ، راجع ما قاله فيه ابن الروميّ في الغيث المسجم ٢ / ٥٠ و ٥١ . وكذلك كان سعيد بن جبير ، أحد أعلام التابعين ، يلعب الشطرنج إستدباراً (وفيات الأعيان ٢ / ٣٧٤) .

وللعبة الشطرنج اليوم ببغداد سوق رائجة ، ولها هواة كثيرون ، وأحذق من شاهدت من البغداديين فيها ، القاضي محمود خالص ، الذي كان رئيساً لمحكمة التمييز في العراق ، وهو شخص نادر المثال في الفضل والخلق الكريم ، جامع لجميع الصفات الحسنة ، وقد تعدّت شهرته في لعب الشطرنج حدود العراق ، فكان زوّار العراق ، من علية القوم ، يجتمعون به ، ويلعبون معه الشطرنج .

ومن لطيف الإشارات إلى لعب الشطرنج قول الخبّاز البلدي ، في فتية أسكرتهم الخمر [الديارات ١٨٤، ١٨٥] :

مشوا إلى الراح مشي الرخ وانصرفوا   والراح تمشي بهم مشي الفرازين

وسئل أبو الطيّب الصعلوكي (ت ٤٠٤) عن الشطرنج ، فقال : إذا سلم المال من

الخسران ، والصلاة من النسيان ، فذاك أنس بين الإخوان (شذرات الذهب ١٧٣/٣) وخالفه في ذلك ابن تيميّة (ت ٧٢٨) فقال : اللعب بالنرد خير من اللعب بالشطرنج ، لأنّ لاعب النرد يعترف بالقضاء والقدر ، والشطرنج لاعبه ينفي ذلك (الغيث المسجم ٥٢/٢) .

وحكي أنّ بعضهم كان إذا لعب الشطرنج ، تضارب مع خصمه ، فوصف أمره لبعض الظرفاء ، فقال : أنا التزم ألعب معه ، وما تحصل بيننا مضاربة ، ولعبا ، فقال له أثناء اللعب : شاه أستر ، فقال له : أنت قوّاد ، فتعجّب منه ، وقال : يا أخي ، ما الذي قلت لك حتى تغضب ؟ فقال : قلت : أستر ، وتصحيفها : أشتر ، وهي بالفارسية ، تعني الجمل ، وتصحيف الجمل ، حمل ، والحمل نجم في السماء ، يقارنه الجدي ، والجدي الكبش ، والكبش له قرون ، وذو القرون هو القوّاد ، فقال له : يا أخي ، ما رأيت أحداً قبلك يخاصم ويضارب بتصحيف وتفسير (تحفة المجالس ٣٤٥) .

وجاء في مطالع البدور ٧٧/١ : سأل بعض الأكابر إنساناً : هل تعرف اللعب بالشطرنج ؟ ، فقال : لا والله يا مولانا ، ولكن لي أخ اسمه عزّ الدولة ، وهو أخي لأمّي ، أكبر مني بسنتين ، أو أكثر بشيء يسير ، وكان قد حصل بيني وبينه خصومة غاظته ، فسافر من مدّة عشرة أعوام ، وسكن مدينة قوص ، وبلغني أنّه فتح دكان عطارة ، وإلى الآن ما ورد على المملوك منه كتاب ، وهو أيضاً مثلي ما يعرف يلعب بالشطرنج .

للتفصيل راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢٩٤/١٣ - ٢٩٦ ومطالع البدور ٧٥/١ - ٨١ ووفيات الأعيان ٣٥٦/٤ - ٣٦١ ونشوار المحاضرة القصّة ١٣٦/٢ ومروج الذهب ٥٦٢/٢ - ٥٦٤ والغيث المسجم للصفدي ٥١/٢ ومحاضرات الأدباء ٧٢٥/٢ - ٧٢٨ .

٢٦٤
الحسين بن الضحّاك يعيش ببقايا هبات الأمين

أخبرني الصولي ، قال : حدّثني أبو أحمد[١] ، قال :

كان أبي صديقاً للحسين بن الضحّاك[٢] ، وكان يعاشره ، فحملني معه يوماً ، وجعل يحادثه ، إلى أن قال : يا أبا علي [١٣٥ ر] ، قد تأخّرت أرزاقك ، وانقطعت موادّك ، ونفقتك كبيرة ، فكيف تمشي أمورك ؟.

فقال له : والله يا أخي ، ما قوام أمري ، إلّا ببقايا هبات الأمين[٣] ، وهبات جاريته ، فإنّي حظيت منهما ، بأمر طريف ، على غير تعمّد .

وذلك أنّ الامين دعاني يوماً ، فقال لي : يا حسين ، إنّ جليس الرّجل ،

---

١ في الأغاني ٢٠٥/٧ حدّثني أبو محمد بن النشار .

٢ أبو علي الحسين بن الضحّاك بن ياسر الباهلي (١٦٢–٢٥٠) : شاعر من ندماء الخلفاء ، ولد ونشأ بالبصرة ، ومات ببغداد ، اتّصل بالأمين العبّاسي ، ومدحه ، ونادمه ، فلما قتل الأمين انصرف إلى البصرة ، ولما ولي المعتصم ، عاد ومدحه ، ومدح الواثق ، والمتوكل (الأعلام ٢٥٨/٢) .

٣ كان الحسين بن الضحّاك كثير التحقّق بالأمين ، والموالاة له ، لكثرة افضاله عليه ، فلما مات رثاه بمراث كثيرة ، وبلغ من جزعه عليه ، أنّه خولط ، فكان ينكر قتله ، ويدفعه ، ويقول : إنّه مستتر ، وإنّه قد وقف على تفرّق دعاته في الأمصار ، يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ، ومن جيّد مراثيه في الأمين (الأغاني ١٥١/٧) :

سألونا أن كيف نحن ؟ فقلنا : من هوى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أصابنا حدث الدهر فظللنا لريبه نستكين
نتمنى من الأمين إياباً لهف نفسي وأين منّي الأمين

وأحسن منه ، قول أبي نؤاس :

طوى الموت ما بيني وبين محمّد وليس لما تطوى المنية ناشر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

عشيره ، وثقته ، وموضع سرّه وأنسه ، وإنّ جاريتي فلانة ، أحسن النّاس وجهاً وغناءً ، وهي منّي بمحلّ نفسي ، وقد كدّرت عليّ صفو الحياة ، ونغّصتها عليّ ، بعجبها بنفسها ، وبتجنّيها عليّ وإدلالها ، لما تعلمه من حبّي لها ، وإنّي محضرها ، ومحضر صاحبة لها ليست منها في شيءُ ، لتغنّي معها ، فإذا غنّت ، أومأتُ إليك ، على أنّ أمرها أبين من أن يخفى عليك ، فلا تستحسن غناءها ، ولا تشرب عليه ، وإذا غنّت الأخرى ، فاشرب ، واطرب ، واستحسن ، وشقّ ثيابك ، وعليّ ، بكلّ ثوب ، مائة ثوب .

فقلت : السّمع والطاعة ، لأمير المؤمنين .

فجلس في حجرة خلوته ، وأحضرني ، وسقاني أرطالاً ، فغنّت المحسنة [١٦٣ ظ] ، وقد أخذ منّي الشراب ، فما ملكت نفسي أن استحسنت ، وطربت ، فأومأ اليّ ، وقطّب في وجهي .

ثمّ غنّت الاخري ، فجعلت أتكلّف القول ، وأفعله .

ثمّ غنّت المحسنة ثانية ، فأتت بما لم أسمع مثله حسناً قط ، فما ملكت نفسي أن صحت ، وطربت ، وشربت ، وهو ينظر إليّ ، ويعضّ شفتيه غيظاً عليّ ، وقد زال عقلي ، فما أفكّر فيه ، حتّى فعلت ذلك مراراً ، وكلّما زاد شربي ، ذهب عقلي .

فأمر بجرّ رجلي ، وصرفي ، وأمر أن لا أدخل عليه ، فجاءني النّاس يتوجّعون لي ، ويسألون عن قصّتي ، فقلت : حمل عليّ النّبيذ ، فأسأت أدبي ، فمنعني من الدخول إليه .

ومضى لما أنا فيه شهر ، وقد استمرّت عليّ المحنة .

فبينما أنا كذلك ، إذ جاءتني البشارة ، بأنّه قد رضي عنّي ، وأمر باحضاري ، فحضرت ، وأنا خائف ، فلمّا وصلت إليه ، أعطاني يده فقبّلتها ، فضحك إليّ ، ثمّ قام وقال : اتبعني .

فتبعته ، فدخل تلك الحجرة بعينها ، ولم يحضر غيري ، وغيره ، وغير المحسنة الّتي نالني من أجلها ما نالني ، وأحضر الشراب ، فغنّت ، فسكتُّ .

فقال : قل ما شئت ، ولا تخف ، فلقد خار الله لك في خلافي ، وجرى القدر بما تحبّ .

إعلم أنّ هذه الجارية ، عادت إلى الحال الّتي أحبّها منها ، وأرضتني في أفعالها ، واصطلحنا ، فأذكرتني بك ، وسألتني الرّضا عنك ، والإحسان إليك ، وقد فعلت ، وأمرت لك بعشرة آلاف دينار ، ووصلتك هي بدون ذلك . ولو كنت فعلتَ ما أمرتك ، حتّى تعود إلى مثل هذه الحال ، ثمّ تحقد عليك ، فتسألني أن لا تصل إليّ قط ، لأجبتها .

فدعوت له ، وشكرته ، وحمدت الله على توفيقه إيّاي ، وزدت في الاستحسان والسرور إلى أن انصرفت ، وحمل معي المال .

فما كان يمضي أسبوع إلّا أتتني ألطافها ، وصلاتها ، من الجوهر والثياب ، بغير علم الأمين . وما جالَسْتُهُ يوماً ، إلّا سألته أن يصلني بشيء .

فجميع ما أنفقه إلى السّاعة ، من فضل ما وصلني منها[٤] .

---

٤ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا هـ ، ووردت في الأغاني ٧/٢٠٥-٢٠٧ .

٢٦٥
من مكارم البرامكة

ذكر سعيد بن سليمان الباهلي ، قال : أضقت إضاقة شديدة ، وكثر عليّ الغرماء ، فاستترت مدّة ، ثمّ صرت إلى عبد الله بن مالك[1] ، فشكوت إليه حالي ، وشاورته في أمري .

فقال : لست أعرف لك غير قصد البرامكة ، ومسألتهم في إصلاح ما اختلّ من أمرك .

فقلت : ومن يحتمل تيههم وصلفهم[2] ؟.

قال : تحتمله ، في جنب ما تقدّر من صلاح حالك .

قال : فصرت إلى جعفر والفضل ابني يحيى ، فشكوت إليهما أمري .

فقالا : نكفيك ، إن شاء الله .

فانصرفت إلى عبد الله بن مالك ، فعرّفته ما جرى [١٣٦ ر] .

فقال : أقم عندي ، ولا ترجع إلى منزلك ، وتقاسى غرماءك ، فأقمت عنده .

فصار إليّ غلام لي ، فقال : يا مولاي ، رحبتنا[3] مملوءة بالجمال عليها المال ، ورجل مع الجمال ، معه رقعة يزعم أنّها من الفضل وجعفر ، وأنّه رسولهما .

فقال لي عبد الله : أرجو أن يكون قد فرّج الله عنك .

فصرت إلى منزلي ، وإذا رسول جعفر والفضل ، ومعه رقعة يذكران فيها :

---

١ عبد الله بن مالك الخزاعي القائد : ترجمته في حاشية القصّة ١٣٠ من هذا الكتاب .

٢ كان الفضل بن يحيى البرمكي شديد الكبر ، عظيم التيه والعجب ، فعوتب في ذلك ، فقال : إنّ هذا شيء حمل عليه نفسه ، فقد تعلم من عمارة بن حمزه السخاء والكبر معاً ، وذكر قصّة وقعت له مع عمارة بن حمزة ، جديرة بالمطالعة ، راجعها في معجم الأدباء ٦/٧ و ٨ .

٣ الرَحبة : الفضاء الكائن بين الأبنية ، ولزيادة التفصيل راجع حاشية القصّة ٢٢١ من هذا الكتاب .

أنّهما عرّفا أمير المؤمنين خبري ، وأنّ عليّ ثمانمائة ألف درهم ، ديناً ، فأمر بحملها إليّ .

ثمّ قالا له : فإذا قضى دينه ، يرجع إلى الدين ؟ – فأمر لي بثمانمائة ألف درهم أخرى ، لنفقتي .

وأنّهما أضافا إليها من أموالهما ، ألفي ألف درهم ، فحملاها مع ذلك .

فاستوفيت من رسولهما ، ثلاثة آلاف ألف ، وستمائة ألف درهم .

وقد ذكر أبو الحسين القاضي ، هذا الخبر في كتابه ، على قريب من هذا اللّفظ والمعنى ، بغير إسناد ، ولم يذكر فيه مبلغ المال ، ولا حال الاستتار [4] .

---

٤ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا هـ .

٢٦٦

المأمون يهب أحد كتّابه اثني عشر ألف ألف درهم

[وجدت في كتاب عتيق [١٦٤ ظ] فيه أخبار جمعها يعقوب بن بيان الكاتب : حدّثني أبو القاسم علي بن داود بن الجعد ، قال : حدّثني يزيد بن دينار بن عبد الله[١] ، قال : حدّثني أبي ، عن يحيى بن خاقان][٢] ، قال :

كنت كاتب الحسن بن سهل ، فقدم المأمون مدينة السّلام ، فقال لي : يا يحيى ، خلوت بالسواد[٣] ، ولعبت بالأموال الّتي لي ، واحتجنتها ، واقتطعتها .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّما أنا كاتب الرّجل ، والمناظرة في الأموال والأعمال ، مع صاحبي ، لامعي .

فقال : ما أطالب غيرك ، ولا أعرف سواك ، فصالِحْني على مائة ألف ألف درهم .

قال : فضحكت .

---

١ في الأصل ظ : دينار بن يزيد ، والصحيح ما أثبتناه .

٢ الزيادة من ظ ، وفي ر : وحدّث عن يحيى بن خاقان ... الخ ، ويحيى بن خاقان : أحد مشايخ الكتّاب في الدولة العبّاسية ، كان يكتب للحسن بن سهل في أيّام المأمون ، وولّاه المتوكل ديوان الخراج (الديارات ١٥٥) وهو أخو الفتح بن خاقان وزير المتوكّل (الملح والنوادر ٣٣٢) ووالد عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكّل (الديارات ١٥٤ و ١٥٥) توفّي في السنة ٢٤٠ فكتب المتوكّل إلى أخيه عبد الرحمن بن خاقان ، وكان يلي البصرة ، يعزّيه به (البصائر والذخائر م ١ ص ٣٥٩) .

٣ السواد : قال ابن قتيبة في كتابه المعارف : السواد ، سوادان : سواد البصرة : الأهواز ، ودستميسان ، وفارس ، وسواد الكوفة : كسكر إلى الزاب ، وحلوان إلى القادسية ، وقال ياقوت في معجم البلدان ١٧٤/٣ : يراد بالسواد ، رستاق العراق ، وحدّه من حديثة الموصل طولاً ، إلى عبادان ، ومن العذيب بالقادسيّة ، إلى حلوان عرضاً ، وسمّي السواد لسواده بالزروع والأشجار والنخيل ، والعرب تسمي الخضرة سواداً ، والسواد خضرة ، قال الشاعر :

وأنا الأخضر من يعرفني ... أخضر الجلدة من جنس العرب

فقال : يا يحيى ، أجدٌّ وتهزل ؟.

فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين ، إنّما ضحكت تعجّباً ، وبالله ، ما أملك إلّا سبعمائة ألف درهم .

فقال : دع هذا عنك ، واعطني خمسين ألف ألف درهم .

قال : فما زلت أجاذبه ، ويجاذبني ، إلى أن بلغ اثنا عشر ألف ألف درهم ، فلمّا بلغ إليها ، قال : نفيت من الرّشيد ، إن نقصتك شيئاً منها .

فقلت : السمع والطاعة .

قال : أقم لي ضميناً ، إن لم تف لي بها ، طالبته .

قلت : صاحبي يا أمير المؤمنين يضمنني .

فقال : أتراني إن دافعتَ الاداء ، أطالب الحسن بن سهل عنك ؟ هذا ما لا يكون .

فقلت : عبد الله بن طاهر .

فقال : عبد الله بن طاهر ، سبيله سبيل صاحبك .

قلت : فَحُمَيد .

قال : وهذه سبيله .

قلتُ : ففرج مولاك يا أمير المؤمنين .

قال : مليٌ – والله – وثقة ، ثمّ التفت إلى فرج ، فقال : أتضمنه يا فرج ؟.

قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، قد ضمنته .

فقال : أنا والله محرجه بالإلحاح في المطالبة ، حتّى يهرب ، أو يستتر ، ثمّ آخذك بالمال ، فتؤدّيه ، فإنّك مليّ به .

فقال فرج : صاحبي ثقة ، وهو لا يخفرني ، إن شاء الله .

قال يحيى : فكتبت إلى الحسن بن سهل ، وعبد الله بن طاهر ، وحُمَيد[4] ،

---

[4] أبو غانم حُمَيد بن عبد الحميد الطوسي : قائد من أكابر قوّاد الدّولة العبّاسية ، كانت له مواقف في =

ودينار بن عبد الله ، وغسّان[5] ، ورجال المأمون ، أسألهم إعانتي في المال .

قال : فحملوا لي ذلك عن آخره ، حمل كلّ إنسان منهم ، على قدره ،

قال يحيى : فكتبت رقعة إلى المأمون ، أعرّفه أنّ المال قد حضر ، وأسأله أن يأمر من يقبضه .

قال : فأحضرني ، فلمّا وقعت عينه عليّ ، قال لي : يا خائن ، الحمد لله الّذي بيّن لي خيانتك ، وأظهر لي كذبك ، ألم تذكر أنّك لا تملك إلّا سبعمائة ألف درهم ؟ فكيف تهيّأ لك أن حملت في عشرة أيّام إثني عشر ألف ألف درهم ؟

قال : فقلت : حُمِلَتْ ، يا أمير المؤمنين من هذه الجريدة ، ودفعت إليه جريدة بأسماء من حمل إليّ المال ، ومبلغ ما حمل كلّ واحد منهم .

قال : فقرأ الجريدة ، ثمّ أطرق مليّاً ، ورفع رأسه ، فقال : لا يكون أصحابنا ، أجود منّا ، هذا المال قد وهبناه لك ، وأبرأنا ضمينك .

قال يحيى : فانصرفت ، فرددت المال إلى اصحابه ، فأبوا أن يقبلوه ، وقالوا : قد وهبناه لك ، فاصنع [١٣٧ ر] به ما أحببت .

قال : فحلفت ، أن لا أقبل منه درهماً ، وقلت لهم : أخذته في وقت حاجتي ، ورددته عند استغنائي عنه ، وقبولي إيّاه في هذا الوقت ضرب من التغنّم .

فرددته عليهم[6] .

= حرب العراق تحت قيادة الحسن بن سهل ، وفيه يقول علي بن جبلة :

لولا حُمَيْدٌ لم يكن حسب يعدّ ولا نسب
يا واحد العرب الذي عزّت بعزّته العرب

راجع أخباره في تاريخ بغداد لابن طيفور ٢ . ٣ ، ٧ ، ٩ . ٥٥ . ٥٧ . ١٦١ ، ١٦٢ . وكتاب العيون والحدائق ٤٣٢/٣ و ٤٤٤ .

٥ غسان بن عبّاد بن أبي الفرج : ترجمته في حاشية القصّة ٣٧٢ من هذا الكتاب .

٦ هذه القصّة لم ترد في م ولا في غ ولا هـ .

٢٦٧
ما بقي له غير درهمين ثمّ جاءه الفرج

ووجدت في هذا الكتاب ، عن يعقوب بن بيان : حدّثني بعض أصحابنا ، وهو عندي ثقة ، وقد تجارينا لزوم المتعطّلين ، أبواب المتشاغلين ، وتعذّر الشغل عليهم ، بعد أن قلنا جميعاً : إنّ الارزاق مقسومة ، وإنّ الله تعالى إذا أذن فيها سهّلها ، قال : فحدّثني عمرو بن حفص ، عن أبيه ، قال :

كان أبي حفص ، قد صحب بعض عمّال فارس ، إلى فارس ، فأقام على بابه ستّة أشهر ، يلقاه كلّ يوم فيها ، فلا يكلّمه العامل فيها بشيئ ، وينصرف أبي إلى منزله .

قال : فنفدت نفقته ، وباع كلّ ما كان معه ، حتّى قال له غلامه يوماً : ما بقي إلّا الدابّة ، [١٦٥ ظ] والبغل ، ودرهمان .

قال : فقال له : اشترِ لنا بالدرهمين خوخاً ، فإنّه أرخص من الخبز ، لنتقوّته ، إلى أن يفرج الله – عزّ وجلّ – عنّا .

قال : ففعل الغلام ذلك ، وأكل حفص من الخوخ شيئاً ونام ، فما استيقظ إلاّ بدقّ الباب ، وإذا رسول العامل يأمره بالحضور ، فركب ، فوجد العامل قاعداً في داره على كرسي ينتظره .

فلمّا دخل ، قال العامل : لا جزّاك الله خيراً عنّي ، ولا عن نفسك .

قال : ولِمَ ذاك ، أصلحك الله ؟ .

قال : أتستقيم على بابي ستّة أشهر ، لم ترَ على نفسك أن تريني وجهك يوماً واحداً ؟ .

فقال : أعزّك الله ، أنا في مجلسك كلّ يوم .

قال : والله ، ما وقعت لي عليك عين ، ولا خطرت ببالي إلّا السّاعة ،

فإنّي ذكرتك ، فعلمت طول مقامك في العطلة والغربة .

ودعا بكاتبه ، فكتب كتبي على فسا[1] ودرابجرد[2] ، وخرجت من يومي إلى العمل ، فحصلت منه ، في مديدة قريبة ، سوى نفقتي ، ستمائة ألف درهم[3] .

---

١ فسا : من مدن فارس ، وهي من أنزه المدن ، بينها وبين شيراز أربع مراحل ، وتقارب شيراز في السعة (معجم البلدان ٨٩١/٣ و ٨٩٢) .

٢ درابجرد : كورة بفارس نفيسة ، النسبة إليها : دراوردي ، على خلاف القياس ، وهي كثيرة المعادن ، جليلة الخصائص (معجم البلدان ٥٦٠/٢) .

٣ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا ه .

٢٦٨

سبب توبته عن النبيذ

حدّثني علي بن محمّد الأنصاري ، وعبيد الله بن محمّد العبقسي ، واللّفظ له ، قالا : حدّثنا أبو الفتح القطّان : أنّ رجلاً من أولاد التجّار ، زالت نعمته ، وصار بوّاباً لأبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي العلوي ، نقيب الطالبيين ، أيّده الله[1] ، ببغداد ، قال : حدّثني خالي ، وكان صيرفيّاً ، قال :

كنت وجماعة من إخواني ، عند بعضنا مجتمعين نشرب ، وعندنا غلام أمرد ، ونحن نأكل بطّيخاً[2] ، وفي يد كلّ واحد منّا سكّيناً .

---

١ أبو أحمد الحسين بن موسى الحسيني العلوي الطالبي (٣٠٤–٤٠٠) : نقيب العلويّين ببغداد ، والد الشريفين الرضي والمرتضى ، ولّي نقابة العلويّين وإمارة الحاجّ سنة ٣٥٤ ، اعتقله عضد الدّولة سنة ٣٦٩ وأطلقه شرف الدّولة بن عضد الدّولة في السنة ٣٧٢ ، عزل عن النقابة سنة ٣٨٤ وأعيد إليها سنة ٣٩٤ وأضيف إليه الحجّ والمظالم ، توفّي سنة ٤٠٠ ضريراً ، لاحظ أنّ التنّوخي لما ذكر اسم أبي أحمد في القصّة قال : أيّده الله ، ذلك لأنّه كان حياً لما دوّن القصّة ، وقد مات التنّوخي قبله في السنة ٣٨٤ .

٢ البطّيخ : من الفواكه اللّذيذة الطعم ، وهو على نوعين ، فالأصفر منه ، وقشرته صفراء أو خضراء أو داكنة اللّون ، يكون طعم لبّه لذيذاً جداً ، ويقوم مقام الفاكهة والغذاء والشراب ، وفي بغداد مثل شائع : كل البطّيخ وقلّب زندك ، أي إنّه يقوّي العضلات ، والبطّيخ الأحمر : قشره على ألوان مختلفة من أبيض مشوب بزرقة إلى الأسود ، وفيه ما هو معلّم بالأبيض والأخضر ، والبطّيخ الأحمر يسمّى في كل صقع باسم ، واسمه في بغداد والمناطق المجاورة لها : الرقّيّ نسبة إلى الرقّة ، وهي كلّ لسان رملي ممتد في النهر ، يغطيه الماء ثم ينحسر عنه ، وإنّما سمي كذلك لأنّ البطّيخ الذي يزرع في الرقّة ، يكون ريّانًا حلواً من أحسن وأجود أنواع البطّيخ ، وتسمية البطّيخ بالرقّيّ ، معروف لدى البغداديين منذ القديم فقد جاء في كتاب الطبيخ لمحمّد بن الحسن البغدادي ، من أوائل القرن السابع الهجري ، صفة عمل رطب في غير أوانه ، فقال : تؤخذ بطيخة رقّيّة خضراء ... الخ ، وروى الصفدي في الغيث المسجم ٢٦١/٢ أنّ أحد عوامّ بغداد مرض نسيب له ، فوصف له بطيخ رقّي ، وأنه اشترى واحدة من أحد الفاكهانيين بالكرخ ، والبطّيخ الرقّي ، يسمّى في الموصل : شمزي ، وفي النجف : دبشي ، وفي مكّة : حبحب ، وفي المغرب : الدلاع ، وفي الشّام كان يسمى : الزبش (نهاية الأرب ٣٠/١١) والبطّيخ الرقّي ، أكثر =

فأخذ الغلام يمزح مع واحد منّا في يده سكّين ليأخذها منه ، فرمى بالسكّين ، كالضجر من مجاذبته إيّاها ، فوقعت في قلب الغلام ، فتلف في الحال . فقمنا لنهرب .

فقال صاحب البيت : ما هذه فتوّة[3] ، إمّا أن نبتلى كلّنا ، أو نتخلّص كلّنا .

فأغلقنا باب الدار ، وشققنا بطن الغلام ، فألقينا ما فيه في المستراح ، وفصّلنا أعضاءه ، فأخذ كلّ منا عضواً ، وخرجنا متفرّقين ، لنلقي ذلك بحيث يخفى خبره .

فوقع معي الرأس ، فلففته في فوطة[4] ، وجعلته في كمّي[5] .

= الفواكه استهلاكاً في العراق الأوسط والجنوبي ، عند اشتداد الحرّ في الصّيف ، لأنّه يجمع بين الشراب والفاكهة ، وإذا أكل مع الخبز ، ففيه للفقير غذاء وشراب وفاكهة ، والمعروف في النجف ، حيث الألوف من طلبة الفقه أنّ الكتب ترخص في موسم البطّيخ الرقّي ، لأنّ رغبتهم في شرائه ، تضطرهم إلى بيع كتبهم بالثمن البخس ، لشراء ما يريدون من الرقّي ، وأذكر أن أبوينا رحمهما الله تعالى كانا يوقظانا ، ونحن أطفال ، في ليالي المربعانية ، وهي أشدّ ليالي الشتاء برداً ، فيطعمانا مقداراً من الرقّي ، ويقولان إنّ فيه فائدة صحّيّة حسب إرشادات الطبّ القديم ، وكنا نأكله ونحن نرتجف من البرد ، راجع في كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٩٨/١–١٠٠ بحثاً طبّياً عن البطّيخ .

٣ الفتوّة : تعبير عن جميع الصفات الحسنة ، والفتى : هو الذي يتمتّع بالحسن من الصفات ، من مروءة ، وشهامة ، ونجدة ، وشجاعة ، وكرم ، ولذلك قيل : لا سيف إلاّ ذو الفقار ، ولا فتى إلاّ علي .

٤ الفوطة : في لسان العرب : ثوب قصير ، غليظ ، يكون مئزراً ، يجلب من السند ، وقيل : الفوطة ثوب من صوف ، جمعها : فُوُط ، وفي المنجد الفوطة : ما يأتزر به الخدم ، وعند العامة : قطعة تنشّف بها الأيدي أو قطعة يمسح بها الأنف ، وعند دوزي في معجم الألبسة ٣٣٩–٣٤٣ إنّها قطعة من القماش تستعمل لأغراض مختلفة ، وفي شفاء الغليل ١٤٦ الفوطة : إزار ، والكلمة ليست عربية ، وفي المعجم الذهبي ، فوطة : فارسية بمعنى منديل أو مئزر ، أمّا في بغداد الآن ، فإنّ لفظ الفوطة ، مقصور على قطعة سوداء رقيقة من الحرير أو الغزل ، تلفّ بها المرأة رأسها ، بحيث تغطّي شعرها وأذنيها وعنقها ، ويبقى وجهها سافراً .

٥ الكمّ : راجع حاشية القصّة ١٠١ من الكتاب .

فلمّا مشيت ، استقبلني رجّالة المحتسب[٦] ، فقبضوا على كمّي ، وقالوا : قد أمرنا المحتسب بختم كلّ كيس نجده ، حتّى يفتح بحضرته ، ويخرج ما فيه ، وتؤخذ منه الزائفة[٧] .

فرفقت بهم ، وبذلت لهم دراهم كثيرة ، فلم يجيبوا ، ومشوا بي معهم ، وأمسكوني يريدون المحتسب .

فنظرت ، فإذا أنا هالك ، وفكّرت في الحيلة والخلاص ، فلم تتّجه ، حتّى رأيت درباً[٨] ضيّقاً لطيف الباب[٩] ، كأنّه باب دار ، وأنا أعرفه منفذاً[٧] .

فقلت لهم : أنتم تريدون ختم كيسي ، فما معنى تشبّثكم بيدي وكمّي كأنّني لصٌّ ؟ أنا معكم إلى المحتسب ، فخلّوا عن يدي ، ففعلوا ، وأطافوا بي .

فلمّا صرت على باب الدرب ، سعيت ، فدخلته ، وأغلقت بابه ، واستوثقتُ منه ، وسعيت إلى آخره ، فإذا بئر كنيف قد فتحت لتنقّى ، وتركت مفتوحة ، فألقيت الفوطة بما فيها في البئر ، وخرجت أسعى من طرف الدرب الآخر ، حتّى بلغت منزلي ، وحمدت الله تعالى على الخلاص من الهلكة .

وتبت عن النّبيذ[١٠] .

---

٦ المحتسب : مأمور من الحاكم ، لملاحظة سير الأمور في البلد ، ومنها فحص النقود المتداولة لنفي الزائف منها ، وملاحظة صحّة العيار ، وضبط الميزان ، وأسعار البيع .

٧ الزائف من الدراهم : الرديئ ، المردود لغشّ فيه .

٨ الدرب : الطريق ، فإن كان مفتوحاً من طرفيه ، فهو نافذ أو منفذ ، أي صالح لاجتيازه والعبور منه إلى غيره ، والبغداديّون يسمّون الدرب الضيّق : دربونه ، مصغّر درب بإضافة الألف والنون ، كما يصغرون بس ، وهي الهرّة ، فيقولون : بسّون ، ويلفظونها : بزّون ، بالزاي المشددة ، وكما يصغرون حسن ، فيقولون : حسّون ، وكما يصغرون : صغير ، فيقولون : صغيرون ، ويلفظونها : زغيرون ، بالزاي .

٩ كانت جميع الدروب في بغداد ، على أفواهها أبواب تغلق في الليل ، كما كانت أفواه الجسور كذلك تسدّ ، ويمنع من المرور عليها إلاّ بأذن من صاحب الجسر ، وقد أدركت في صباي دروباً كانت أبوابها مركّبة عليها ، وأبصرت دروباً قد قلعت أبوابها ولكن إطارات تلك الأبواب بقيت زمناً حتى زالت .

١٠ لم ترد هذه القصّة في م ولا في غ ولا ه .

٢٦٩

حلف بالطلاق

لا يحضر دعوة ، ولا يشيّع جنازة

حدّثني عبيد الله بن محمّد[١] ، قال : حدّثنا أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي العلوي النّقيب ، قال :

حدّثني شيخ كان يخدمني ، وقد تجارينا أحاديث النّاس ، فقال : إنّه حلف بالطلاق ، ألّا يحضر دعوة ، ولا يشيّع جنازة ، [ولا يودع وديعة][٢] ، فسألته عن ذلك[٣] .

فقال : كنت انحدرت إلى البصرة من بغداد ، فصعدت إلى بعض مشارع البصرة عشاءً ، فاستقبلني رجل ، فكناني بغير كنيتي ، وبشّ في وجهي ، وأحفى ، وجعل يسألني عن قوم لا أعرفهم ، ويحلف [١٦٦ ظ] عليّ في النّزول عنده .

وكنت غريباً ، لا أعرف مكاناً ، فقلت : أبيت عنده اللّيلة إلى غدٍ ، فأطلب موضعاً .

فموّهت عليه في القول ، فجذبني إلى منزله ، وكان معي رَحْل صالح[٤] ، وفي كمّي دراهم كثيرة .

فدخلت إليه ، فإذا عنده دعوة ، والقوم على نبيذ ، وقد خرج لحاجة ،

---

١ أبو القاسم عبيد الله بن محمّد الصروي : ترجمته في حاشية القصّة ٢٤٦ من هذا الكتاب .

٢ الزيادة من م ، لاحظ أنّ كلمة الإيداع ، من الأضداد في اللّغة ، فإنّ لفظة أودعت ، تعني تسليم الوديعة للغير للحفظ ، كما تعني قبول الوديعة من الغير ، راجع كتاب الأضداد لأبي الطيّب الحلبي جـ ٢ ص ٦٦٦ ، وهو في هذه القصّة يريد : قبول الوديعة .

٣ في م : فسألته عن سبب يمينه .

٤ الرحل : ما يستصحبه الانسان في سفره .

فشبّهني بصديق له ، وتموّه عليه أمري لسكره .

وكان فيمن عنده ، رجل له غلام أمرد ، فلمّا أخذوا مضاجعهم للنّوم ، أرقت من بينهم .

فلمّا كان بعد ساعة ، رأيت واحداً من الجماعة ، قد قام إلى الغلام الأمرد ، ففسق به ، ورجع إلى موضعه ، وكان قريباً من صاحب الغلام .

واستيقظ في الحال صاحب الغلام ، فتقدّم إلى غلامه ليفسق به .

فقال له : ما تريد ؟ ألم تكن الساعة [١٣٨ ر] عندي ، وفعلت بي كذا وكذا ؟

فقال : لا .

فقال : قد جاءني السّاعة من فعل بي ، وظننته إيّاك ، فلم أتحرّك ، ولم أظنّ أنّ أحداً يجسر عليك .

فنخر الرّجل ، وجرّد سكيناً من وسطه ، وقام ، وأنا أرعد ، فلو كان دنا منّي ، حتّى يجدني أرعد ، لقتلني ، وظنّ أنّي صاحب القصّة .

فلما أراد الله عزّ وجلّ ، من بقاء حياتي ما أراد ، بدأ بصاحبه ، فوضع يده على قلبه ، فوجده يخفق ، وقد تناوم عليه ، يرجو بذلك السلامة ، فوضع السكّين في قلبه ، وأمسك فاه ، فاضطرب الرّجل ، وتلف .

فأخذ الرّجل بيد غلامه ، وفتح الباب ، وانصرف .

فورد عليّ أمر عظيم .

وقلت : أنا غريب ، وينتبه صاحب البيت ، فلا يعرفني ، ولا يشكّ في انّي صاحب الجناية ، فأقتل .

فتركت رحلي ، وأخذت ردائي ، ونعلي ، وطلبت الباب ، فلم أزل أمشي ، لا أدري أين أقصد ، والليل منتصف ، وخفت العسس[٥] ، فرأيت

---

٥ العسس : الذين يطوفون بالليل ويكشفون أهل الريبة .

أتّون حمّام[6] لم يوقد بعد .

فقلت : أختبئ فيه ، إلى أن يفتح الحمّام ، فأدخله ، فجلست في كسر الأتّون .

فما لبثت حيناً ، حتّى سمعت وقع حافر ، وإذا برجل يقول : قد رأيتك يا ابن الفاعلة ، ودخل الاتّون ، وأنا كالميت من الفزع ، لا أتحرّك ، فلمّا لم يجد حسّاً ، أدخل رأسه ، ويده ، يومئ بسيف معه في الأتّون ، وأنا بعيد عن أن ينالني السّيف ، صابر ، مستسلم .

فلمّا لم يحسّ أحداً ، خرج إلى بابه ، وإذا معه جارية ، فأدخلها الأتّون ، فذبحها ، وتركها ومضى .

فرأيت بريق خلخالين[7] في رجليها ، فانتزعتهما منها ، وخرجت ، وما زلت أمشي في الطريق متحيّراً ، إلى أن صرت إلى باب حمّام قد فتح ، فدخلته ، وخبّأت ما معي في ثيابي [١٣٠ م] ، عند الحمّامي .

وخرجت وقد أصبحت ، فضممت [الخلخالين إلى][8] ما معي ، وطلبت الطريق ، فعرفت أنّي بالقرب من دار صديق لي ، فطلبتها ، فدققت بابه ، ففتح لي ، وسرّ بمقدمي ، وأدخلني .

فدفعت إليه منديلي الّذي كان فيه دراهمي والخلخالين ، ليخبّئهما ، فلمّا نظر إليهما تغيّر وجهه .

فقلت : مالك ؟.

---

٦ الأتّون ، وجمعها أُتُن ، وأتاتين : موقد نار الحمّام ، وفي بغداد يسمّونه : طمّه .

٧ الخلخال ، وجمعه خلاخل ، والبغداديّون يجمعونه على خلاخيل ، حلية من الذهب أو الفضّة ، تلبس في الساق ، كالسوار في المعصم ، وإذا وضع في الخلخال جلاجل ، سمّاه البغداديّون : جناجل ، بالنون ، محرّفة عن جلاجل ، جمع جلجل ، وهو الجرس الصغير .

٨ الزيادة من م .

فقال : من أين لك هذان الخلخالان ؟

فأخبرته بخبري كلّه في ليلتي ، فدخل مسرعاً إلى دار حرمه ، وخرج إليّ .

فقال : أتعرف الرّجل الّذي رأيته قتل الجارية ؟.

قلت : أمّا بوجهه فلا ، لأنّ اللّيل والظلمة كانت حائلة بيننا ، ولكن إن سمعت كلامه عرفته .

فأعدّ طعاماً ، وغدا في أمره ، وعاد بعد ساعة ، ومعه رجلٌ شابّ من الجند ، فكلّمه ، وغمزني عليه .

فقلت : نعم ، هذا هو الرّجل .

ثمّ أكلنا ، وحضر الشراب ، فحمل عليه بالنّبيذ[٩] ، فسكر ، ونام موضعه ، فأغلق باب الدار ، وذبح الرّجل .

وقال لي : إنّ المقتولة أختي ، وكان هذا قد أفسدها ، ونمى الخبر إليّ منذ أيّام فلم أصدّق ، إلاّ أنّي طردت أختي ، وأبعدتها عنّي ، فمضت إليه ، ولست أدري ما كان بينهما ، حتّى قتلها ، وإنّما عرفت الخلخالين [١٦٧ ظ] ودخلتُ فسألت عنها .

فقيل لي : هي عند فلان .

فقلت : قد رضيت عنها ، فوجّهوا ، فردّوها ، فلجلجوا في القول ، فعلمت أنّ الرّجل قد قتلها كما ذكرتَ ، فقتلته ، فقم حتّى ندفنه .

فخرجنا ليلاً ، أنا والرّجل ، حتّى دفنّاه ، وعدت إلى المشرعة ، هارباً من البصرة ، حتّى دخلت بغداد .

وحلفت ألّا أحضر دعوة أبداً ، [ولا أودع وديعة أبداً][٨] .

وأمّا الجنازة ، فإنّي خرجت ببغداد ، نصف النّهار ، في يوم حار ، [لحاجة][٨] فاستقبلتني جنازة يحملها نفسان .

---

٩ حمل عليه بالنبيذ : أسكره .

فقلت : غريب ، فقير ، أحملها معهما فأثاب ، فدخلت تحتها ، بدلاً من أحد الحمّالين .

فحين استقرّت على كتفي ، افتقدتُ الحمّال ، فلم أجده ، فصحت : يا حمّال ، يا حمّال .

فقال الآخر : إمش ، واسكت ، قد انصرف الحمّال .

فقلت [١٣٩ ر] : السّاعة ، والله ، أرمي بها .

فقال الحمّال : والله ، لئن فعلتَ لأصيحنّ .

فاستحييت ، وقلت : ثواب ، فحملناها إلى مسجد الجنائز[١٠] ، فلمّا حططنا الجنازة في مسجد الجنائز ، هرب الحمّال الآخر .

فقلت : ما لهؤلاء الملاعين ، والله، لأُتِمَّنَّ الثواب ، فأخرجت من كمّي دراهم ، وصحت : يا حفّار ، أين قبر هذه الجنازة ؟.

فقال : لا أدري .

فقلت : أحفر ، فأخذ منّي درهمين ، وحفر قبراً .

فلمّا صوّبت عليه الجنازة ، ليأخذ الميت فيدفنه ، وثب الحفّار من القبر فلطمني ، وجعل عمّامتي في رقبتي ، وصاح : يا قوم قتيل ، فاجتمع الناس ، فسألوه .

فقال : هذا الرّجل ، جاء بهذا الميت ، بلا رأس ، لأدفنه ، وحلّ الكفن ، فوجدوا الأمر على ما قاله الحفّار .

فدهشت ، وتحيّرت ، وجرى عليّ من مكروه العامّة ، ما كادت نفسي تتلف معه .

ثمّ حملت إلى صاحب الشرطة ، وأخبر الخبر ، فلم يُرِدْ شاهداً عليّ ، فجرّدت للسياط ، وأنا ساكتٌ باهت .

---

١٠ في م : فحملناها إلى الشونيزيّة ، والشونيزيّة : مقبرة بالجانب الغربي من بغداد (معجم البلدان ٣/٣٣٨) ، أقول : اسمها الآن مقبرة الشيخ جنيد .

وكان له كاتب عاقل ، فحين رآني ، ورأى حيرتي ، قال له : أنظرني[11] ، حتّى أكشف حال هذا الرّجل ، فإنّي أحسبه مظلوماً ، فأمهله .

فقام ، وخلا بي ، وساءلني ، فأخبرته خبري ، ولم أزد فيه ولم أنقص .

فنحّى الميت عن الجنازة ، وفتّشها ، فوجد عليها مكتوباً : أنّها للمسجد الفلاني ، في النّاحية الفلانية .

فأخذ معه رجاله ومضى ، فدخل المسجد متنكّراً ، فوجد فيه خيّاطاً ، فسأله عن جنازة هناك ، كأنّه يريد أن يحمل عليها ميتاً له .

فقال الخيّاط : للمسجد جنازة ، إلّا أنّها قد أخذت منه الغداة ، لحمل ميت ، ولم تردّ .

قال : من أخذها ؟

قال : أهل تلك الدار ، وأومأ إليها .

فكبسها الكاتب برجّالة الشرطة ، فوجد [١٣١ م] رجالاً عزّاباً[12] ، فقبض عليهم ، وحملهم إلى الشرطة ، وأخبر صاحب الشرطة بالخبر .

وقرّر القوم ، فأقرّوا أنّهم تغايروا على غلام أمرد كان معهم ، فقتلوه ، وطرحوا رأسه في بئر حفروها في الدّار ، وحملوه على تلك الصورة ، وأنّ الحمّالين كانا من جملة القوم ، وعلى أصلٍ[13] هربا .

فضربت أعناق القوم ، وخلّي سبيلي .

فهذا سبب يميني في ألّا أحضر جنازة[14] .

---

١١ أنظرني : أمهلني .

١٢ العَزَب ، وجمعه : عزّاب ، وأعزاب : من لا أهل له من الرجال والنساء .

١٣ على أصل : على اتّفاق وتفاهم سابق .

١٤ لم ترد هذه القصّة في غ ، ولا هـ ، وفي م أعتبرت هذه القصّة بداية الباب السابع ، وقد وردت في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي على هيأة ثلاث قصص بالأرقام ٥٩/٥ و ٦١ و ٦٣ .

٢٧٠

ابن قمير الموصلي

وقع في ورطة وتخلّص منها

وحدّثني عبيد الله بن محمّد الصرويّ ، قال : حدّثني ابن قمير[١] ، مجلّد الكتب - كان - بالموصل ، قال :

أعطاني أبو عبدالله بن أبي العلاء بن حمدان[٢] ، دفتراً ، أجلّده ، وأكّد عليّ الوصيّة في حفظه ، فأخذته منه ، ومضيت إلى دكاني .

وكان طريقي على دجلة ، فنزلت إلى مشرعة أتوضّأ ، فسقط الدفتر من كمّي في الماء ، فتناولته عجلاً قبل أن يغرق[٣] ، وقد ابتلّ ، فقامت قيامتي ، ولم أشكّ أنّه سيجري عليّ مكروه شديد من أبي عبد الله ، من ضرب ، وحبس ، وأخذ مال ، فعملت على الهرب من الموصل .

ثمّ قلت : أجفّفه ، وأجلّده ، وأجتهد في أن أسلّمه إلى غلام له ، وهو لا يعلم ، واستتر ، فإن ظهر الحديث ، هربت ، وإن كفى الله تعالى ذلك ، وتمّت عليه الحيلة [١٦٨ ظ] ظهرتُ .

---

١ في م : ابن نمير .

٢ أبو عبد الله الحسين بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون التغلبيّ : أمير ، شجاع ، ممدوح ، أخو أبي فراس الحمداني ، وابن عمّ ناصر الدّولة ، وكان من قوّاد ناصر الدّولة ، وولّي له في السنة ٣٢٦ المعاون بأذربيجان ، وفي السنة ٣٣٠ كان في جيش ناصر الدّولة يحارب البريديّين على أبواب بغداد ، واستمرّ في خدمة ناصر الدّولة ، حتى ولاّه في السنة ٣٣٢ طريق الفرات ، وديار مضر ، وجند قنسرين ، والعواصم ، وحمص ، فحارب أهل الرقّة ، واستقرّ بحلب ، وهو أوّل من حكمها من بني حمدان ، وتوفّي بالموصل في السنة ٣٣٨ (الكامل لابن الأثير ٨/٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ووفيات الأعيان ٣/٤٠٥ و٤٠٦ ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزمباور ٢٠٢ و٢٠٣) .

٣ في م : قبل أن يغوص .

فحللته ، وجفّفته ، وثقّلته ، حتّى رجع واستوى ، أكثر ما يمكن من مثله ، وجلّدته ، وتأنّقت في التجليد .

فلمّا فرغت منه ، جئت إلى الحاجب لأسلّمه إليه من باب الدّار وأمضي ، فصادفت الحاجب جالساً في الدهليز ، فسلّمت إليه الدفتر .

فقال : ادخل إليه ، وادفعه من يدك إلى يده ، فلعلّه يتوقّعك ، ولعلّه يأمر لك بشيئ .

فقلت : لا أريد ، فإنّي مستعجل .

فقال : لا يجوز ، ولم يدعني حتّى دخلت إليه ، فلم أشكّ أنّ ذلك من سوء الاتّفاق علـيّ ، المؤدّي إلى المكروه ، ومشيت في الصّحن وأنا في صورة عظيمة من الهمّ .

فوجدت أبا عبد الله جالساً على بركة ماء في صحن [١٤٠ ر] داره ، والغلمان قيام على رأسه ، فأخرجت الدفتر من كمّي .

فقال لأحد غلمانه : خذه من يده ، وهاته .

فجاء الغلام من جانب البركة ، وأنا من الجانب الآخر ، ومدّ يده ليأخذه ، فأعطيته إيّاه ، فلم يتمكّن في يده ، حتّى سقط الدفتر في البركة ، وغاص إلى قعرها .

فجنّ أبو عبد الله ، [وشتم الغلام] [٤] ، وقال : مقارع ، مقارع .

فحمدت الله عزّ وجلّ ، على استتار أمري [٥] من حيث لا أحتسب ، وكفايتي ما كنت أخافه .

وخرجت ، والغلام يضرب [٦] .

---

٤ الزيادة من م .

٥ في م : فحمدت الله تعالى على استتار جنايتي ، وكشف محنتي .

٦ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٧١

واسطيّ أتلف ماله وافتقر

ثم صلح حاله بعد أهوال

حدّثني عبيد الله بن محمّد الصروي ، قال : حدّثني أبي ، قال :

كان في جوارنا بواسط ، شاب أتلف ماله في اللّعب[١] ، فافتقر فقراً شديداً ، ثمّ رأيته بعد ذلك بمدة ، وقد أثرى ، وصلحت حاله ، وأقبل على شأنه .

فقلت له : ما سبب هذا ؟، فدافعني .

ثمّ قال : أحدّثك ، وتكتم عليّ ؟.

فقلت : نعم .

فقال : إنّ الفقر بلغ بي إلى حال تمنّيت معها الموت ، وولدت امرأتي ذات ليلة ، وكانت ليلة العيد ، فلم يكن معي ما أشتري لها ما يمسك رمقها ، فخرجتُ على وجهي ، أطلب من أتصدّق منه شيئاً أعود به إلى امرأتي .

فافضيت إلى زقاق طويل لا أعرفه ، فدخلت ، فإذا هو لا ينفذ ، وإذا فيه باب دار مفتوح ، ومستراح .

فدخلت الدار بغير إذن ، فإذا برجل يطبخ قدراً ، فصاح عليّ ، وقال : من أنت ، ويلك ؟ ، فقصصت عليه خبري .

فقال : إمض إلى ذلك البيت ، واجلس إلى أن أفرغ من القدر ، فأعطيك منها مع الخبز شيئاً تحمله إلى امرأتك ، ونفقة تكفيك أيّاماً .

فدخلت البيت ، فرمى إليّ كساءً[٢] ، وقال : تغطّ به ، ونم ساعة .

---

١ اللعب : اللّهو .

٢ الأصل في الكساء ، أنّه الثوب بصورة عامة ، أي كلّ ما يكسو الجسد ، ثم صرف إلى ما يلبس فوق الثياب ، فيكون بمثابة المعطف ، راجع معجم دوزي ص ٣٨٣-٣٨٦ .

وكانت ليلة باردة ، و كنتُ بقميص واحد ، فتغطّيت بالكساء ، وانضجعت [٣] ، ولم يدخل عيني النّوم ، لما بي من الجوع والغمّ .

فما لبثت أن جاء رجل عريان ، فدخل وعلى رأسه شيءٌ ثقيل ، فقام [١٣٢ م] الّذي يطبخ ، فأغلق الباب ، وأنزل ما كان على رأسه .

وقال له : ويلك ، غبتَ ، حتّى أيستُ منك .

فقال : كنت يومي وليلتي ، مختبئاً خلف حطب لهم ، حتّى تمكّنت من أخذ هذه البدرة [٤] ، وما أدري أدنانير هي أم دراهم ؟ ، وأنا ميت جوعاً ، فأطعمني شيئاً .

قال : فأخذ الرّجل يغرف من القدر ، ومضى العريان فلبسّ شيئاً ، وجاء إلى الآخر ، وقد غرف ، فجعلا يأكلان ، وقد خرجت [١٤٢ ر] نفسي فزعاً .

فلمّا أكلا ، أخرجا شراباً ، وجعلا يشربان ، وأنا متحيّر لا أدري ما أصنع ، ولست أجترئ أطلب من الرّجل شيئاً .

وأقبل العريان يشرب أكثر من الآخر الّذي كان يطبخ ، وجعل الّذي كان يطبخ ، يقول له : استكثر من الشرب لتدفأ ، إلى أن سكر العريان ، ونام .

فقام الأوّل ، فطاف في الدّار ، ثمّ جاءني ، فكلّمني ، فسكتُّ ، خوفاً من أن يعلم أنّي قد علمت بقصّتهما ، فيقتلني ، فظنّ أنّني قد نمت .

فمضى إلى النّائم ، فذبحه ، ثمّ أمسكه حتّى مات ، ثمّ لفّه في كساءٍ ، وحمله على عاتقه ، وخرج من الدار .

فقلت لنفسي : لأيّ [١٦٩ ظ] شيءٍ قعودي ؟.

---

٣ في م : واضطجعت ، وكلاهما فصيح ، والانضجاع ، والاضطجاع : وضع الجنب بالأرض .

٤ البدرة : كيس يحتوي على عشرة آلاف قطعة من النقد .

فقمت ، فجئت إلى البدرة ، فجعلتها في الكساء الّذي كان عليّ ، وخرجت أسعى سعياً شديداً .

فلم أزل كذلك ، حتّى رأيت مسجداً قد فتحه إنسان ، وخرج منه ، وجلس يبول ، فدخلته ، وجاء الرّجل الّذي كان يبول ، فدخله ، وأغلق بابه .

وقال لي : أيّ شيئ أنت ؟.

فقلت : غريب ، جئت الساعة من السواد[5] ، ولم أجسر أن أتجاوز هذا الموضع ، فأجرني ، أجارك الله .

فقال : نم مكانك ، فتركت البدرة تحت جنبي[6] واتّكأت عليها .

فلم ألبث حتّى سمعت في الطريق صوت رجل يسعى سعياً شديداً ، وإذا كلام صاحبي بعينه ، وهو يقول : عملها ابن الزانية ، ويلي على دمه .

فأبصرته من شبّاك المسجد ، وإذا في يده خنجر مجرّد ، وهو يتردّد ذاهباً وجائياً ، وأعماه الله عن دخول المسجد ، إلى أن مضى .

ولم أزل ساهراً لا يحملني النوم[7] ، خوفاً منه ، وإشفاقاً على ما معي ، إلى أن أضاء الصّبح ، وأذّن في المسجد .

وخرجت كأنّي أتوضّأ ، وحملت ما معي ، ومشيت ، والنّاس قد كثروا في الطّريق ، حتّى انتهيت إلى بيتي ، فأخفيت ما جئت به ، وأصلحت حالي ، وحال زوجتي .

ثمّ خرجت إلى ضيعة -كانت لأبي - خراب ، فأقمت بها مدّة ، حتّى عمّرتها بأكثر ذلك المال ، وعلمت أنّه لا يتّفق مثل هذا الاتّفاق أبداً ، ولزمت شأني ، وصلحت حالي .

---

٥ من السواد : أي من الريف ، من خارج البلد ، ويقال للريفيّ : سوادي .

٦ كذا في ظ ور ، وفي م : تحت رأسي .

٧ في م : لا يقربني النوم .

قال : فقال أبي : ما حدّثت بهذا الحديث حتّى مات الرّجل ، ولا أسمّيه أبداً[8] .

---

8 هذه القصّة لم ترد في غ ولا هـ .

٢٧٢
اللّجاج شؤم

حدّثني أبو الحسن محمّد بن محمّد بن جعفر الأنباري الشّاهد ببغداد ، أحد كتّاب قضاتها ، وخلفائهم ، ويعرف أيضاً بصهر القاضي ابن سيّار[١] ، الّذي كان يخلف القاضي أبا القاسم التنوخي ، رحمه الله ، على أعمال نواحي واسط ، وكور الأهواز ، وخلف بعده عدّة قضاة رؤساء ، وكان من شيوخ غلمان أبي الحسن الكرخي ، [وقد رأيت أنا أبا الحسن هذا كثيراً عند أبي رضي الله عنه ، ولم اسمع هذا الحديث منه][٢] ، قال :

حدّثني شيخ من البصريّين ، أثق به ، قال : عادلت[٣] فلاناً القاضي – ذكره ابن مرغول رحمه الله ، وأنسيه محمّد بن محمّد – إلى الحجّ[٤] .

قال : وتشاجر رجلان ، في الرفقة الّتي كنّا فيها من القافلة .

قال : وجذبهما ذلك القاضي إليه ، ولم يزل يتوسّط بينهما ويترفّق بهما ، وقد استعمل كلّ واحد منهما اللّجاج والمشاحنة ، وأقاما عليها ، وهو يصبر عليهما ، ويقول : اللّجاج شؤم ، فلا تستعملانه ويكرّر هذه اللّفظة ، إلى أن فصل بينهما .

فقال لي : أذْكِرْني حديثاً في اللّجاج ، جرى على يدي ، لك فيه ، ولكلّ من سمعه ، أدب[٥] .

قال : فأذكرته بعد وقت .

---

١ في ر و ظ : ابن بيان ، والتصحيح من م .

٢ الزيادة من م ، وقوله في هذه الزيادة : لم أسمع هذا الحديث منه ، يناقض ما ورد في صدر القصّة في قوله : حدّثني ، والغالب على ظنّي ، أنّ كلمة : حدّثني ، أصلها : حدّث ، وقد حرّفها النسّاخ .

٣ المعادلة : الركوب متقابلين في المحمل ، ويسمّى الراكب : عديلاً .

٤ كذا في ظ ور ، وفي م : عادلت فلاناً القاضي ، واسمه محمد بن محمد إلى الحج .

٥ في م : ولكل من يسمعه فائدة .

فقال : كنت أتولّى القضاء ، في البلد الفلاني ، فتقدّم إليّ [١٣٣ م] رجلان ، فادّعى أحدهما على الآخر عشرين ديناراً .

فقلت للمدّعى عليه : ما تقول ؟.

فقال : له عليّ ذلك ، إلّا أنّي عبد لآل فلان ، مُكاتب[٦] ، مأذون لي في التصرّف ، واتّجرت ، فخسرت ، وليس معي ما أعطيه ، وقد عاملني هذا الرّجل سنين كثيرة ، وربح عليّ أضعاف هذه الدنانير مراراً ، فإن رأى القاضي أن يسأله الرّفق بي ، فإنّي عبدٌ ، وضعيف ، ولا حيلة لي .

فسألته أن يرفق به ، ويؤخّره ، فامتنع .

فقلتُ : قد سمعتَ .

فقال : ما لي حيلة .

فقال الرّجل : احبسه لي .

فعاد العبد يسألني ، فسألته [١٤٣ ر] أن لا يفعل ، وبكى العبد ، فرققت له ، وسألت خصمه أن لا يحبسه ، وأن ينظره .

فقال : لا أفعل .

فقال العبد : إن حبسني أهلكني ، ووالله ما أرجع إلى شيء ، وإنّه ليضايقني ، ويلجّ في أمري ، وقد انتفع منّي بأضعاف هذه الدنانير ، وورث منذ أيّام من أخي ألوف دنانير ، فأشير عليّ بمنازعته إلى القاضي في الميراث ، فلم أفعل .

قال : فحين قال ذلك ، توجّه لي وجه طمع في خلاصه من لجاج ذلك الغريم ، وقد كان غاظني بلجاجه ومحكه[٧] .

فقلت : [١٧٠ ظ] كيف ورث أخاك ، وأردت منازعته ؟ .

---

٦ المكاتب : الرقيق الذي يتّفق مع سيده على أن يؤدّي إليه مبلغاً معيّناً ، فإذا أدّاه صار حرًّا ، ويكتبان بذلك كتاباً .

٧ المحك : التمادي في اللجاجة والخصومة .

فقال : إنّ أخي كان عبداً له ، مأذوناً له في التصرّف ، وكان يتّجر ويتصرّف ، ويؤدّي إليه ضريبته ، وجمع مالاً وأمتعةً ، بأكثر من ثلاثة آلاف دينار ، ثمّ مات ، ولم يخلّف أحداً غيري ، وأنا رجل ضعيف ، مملوك ، ولي ابنان طفلان من امرأة حرّة ، وهما حرّان ، فأنا أعولهما ، وأعول نفسي ، وزوجتي ، وأؤدّي إلى مولاي ضريبته[8] فطمعت في أن أنازعه في الميراث ، وآخذ شيئاً أعود به على نفسي ، وأولادي ، وعيالي ، فقيل لي : إنّك لا ترث ، فلم أحبّ منازعته ، صيانة له ، وهو الآن يضايقني .

قال : فقلت للرّجل : هو كما قال ، إنّ أخاه كان عبدك ، ومات ، وخلّف عليك تركة قيمتها ثلاثة آلاف دينار ؟.

قال : نعم .

فقلت له : ولهذا العبد طفلان حرّان ؟ .

قال : نعم .

فقلت : قم ، فأخّره بالدنانير ولا تطالبه بها .

فقال : ما أبرح إلّا بالدّنانير ، أو بحبسه .

فقلت : اقبل رأيي ، ولا تلجّ .

فقال : لا أفعل .

فقلت : إنّك متى لم تفعل ، خرج من يدك مال جليل .

فقال : لا أفعل .

قال : فقلت للعبد : قد أذنت لك أن تتكلّم عن ابنيك الطفلين ، وهما – على مذهب عبد الله بن مسعود ، وهو مذهبي – أحقّ بالميراث من مولاه ، وإن كنت أنتَ حيّاً ، فإنّك بمنزلة الميت للعبوديّة ، فطالبه عن ابنيك الحرّين الطفلين بالتركة .

---

٨ الضريبة : راجع حاشية القصّة ٢٥٤ .

قال : فطالبه بها .

فأحضرت الشهود ، فأعاد الخصومة ، والدعوى ، ولم أزل بالمولى ، حتّى أسمعت الشهود إقراره بما كان أقرّ به عندي ، ثمّ حكمتُ للإبنين الطفلين بالتركة ، وانتزعت جميعها من يده ، وسلّمت إليه منها عشرين ديناراً ، لما أقرّ له العبد به ، وجعلت ذلك ديناً عليه لابنيه .

وسلّمت مقدار ثمن العبد ، من مال الطفلين ، إلى أمين من أمنائي ، وقلت : اشتر أباهما من مولاه بهذه الدنانير ، واعتقه عليهما ، ففعل .

وجعلت باقي مال الطفلين في يد أبيهما ، وأمين جعلته عليه مشرفاً ، وأمرت الأب أن يتّجر لهما بالمال ، ويأخذ ثلث الرّبح ، بحقّ قيامه ، وحكمت بالجميع ، وأشهدت على إنفاذي الحكم له الشهودَ .

فقام العبد ، وهو فرحان ، وقد فرّج الله عنه ، وآمنه أن يحبس ، وعتقت رقبته ، وصار موسراً .

وقام اللّجوج خاسراً حائراً ، وقد أخذ عشرين ديناراً ، وأعطى ثلاثة آلاف دينار[9] .

٩ لم ترد هذه القصّة في غ ولا ه .

٢٧٣
ابن الجصّاص الجوهري

يلتقط جواهره المبعثرة لم يفقد منها شيئاً

حدّثني أبو علي بن أبي عبد الله بن الجصّاص ، قال : سمعت أبي يقول :

إتّفق أنّي كنت يوم قبض عليّ المقتدر جالساً في داري ، وأنا ضيّق الصّدر ، ضيقاً شديداً ، لا أعرف سببه .

وكان من عادتي إذا لحقني مثل ذلك ، أن أخرج جواهر عندي في درج معزولة لهذا ، من ياقوت أحمر ، وأزرق ، وأصفر ، وحبّاً كباراً ودرًّا فاخراً ، يكون [١٣٤ م] قيمة الجميع خمسين ألف دينار[1] ، وأكثر ، وأستدعي صينيّة[2] ذهب لطيفة ، فأجعله فيها ، وألعب به ، وأقلّبه ، فيزول ضيق صدري .

فاستدعيت ذلك الدرج ، فجاءوني به بلا صينيّة ، فأنكرتُ ذلك ، وأمرت بإحضارها ، وفتحت الدرج ، وفرّغت ما فيه في حجري ، ورددته على الخادم ، وأنفذته يجيئني بالصينيّة ، [١٤٤ ر] ، وأنا جالس في بستان ، في صحن داري ، في يوم بارد ، طيّب الشّمس ، وهو مزهر بصنوف الشقائق[3] ، والمناثير[4] ، وأنا ألعب بتلك الجواهر ، إذ دخل النّاس إليّ بالصّياح ، والمكروه ، والكبس ، فقربوا منّي .

---

١ في م : عشرين ألف دينار .

٢ الأصل في الصينيّة ، أنّها الآنية المنسوبة إلى الصين ، ثم صرفت إلى كلّ أناء يشبه الطبق يتّخذ لتقديم الأشياء عليه ، هذا إذا كان من المعدن ، فإن لم يكن من المعدن ، فهو طبق .

٣ الشقائق : زهور ربيعيّة ذات لون أحمر جميل ، سمّيت شقائق النعمان ، لأنّ النعمان بن المنذر ، نزل بأرض فيها هذه الزهرة ، فاستحسنها ، وأمر أن تحمى ، فنسبت إليه .

٤ المناثير ، مفردها : المنثور : نبات ذو زهر ، ذكيّ الرائحة ، سمّي منثوراً لأنّه كان ينثر ويفرش في =

فدهشت ، ولم أحبّ أن يظهروا على ما في حجري ، فنفضت جميعه في ذلك الزّهر في البستان ، ولم ينتبهوا له .

فأخذتُ ، فحملت ، وجرى عليّ ما جرى من المصادرة ، وبقيت في الحبس المدّة الطويلة ، وتقلّبت الفصول على البستان ، فجفّ ما فيه ، ولم يفكّر أحد في قلعه ، أو زراعته ، وإثارته ، وأغلقت الدّار ، فما قربها أحد [١٧١ ظ] من أصحابي ، ولا أعدائي ، بعد الّذي أخذ منها ، وفرغت ، ووقع اليأس من وجود شئ فيها .

ثمّ سهّل الله إطلاقي ، فأطلقت ، فحين جئت إلى داري ، ورأيت الموضع الّذي كنت جالساً فيه ذلك اليوم ، ذكرت حديث الجوهر الّذي كان في حجري ، ونفضي إيّاه في البستان .

فقلت : ترى بقي منه شئ ؟ .

ثمّ قلت : هيهات ، هيهات ، وأمسكت .

فلمّا كان في الغد ، أخليت الدّار ، وقمت بنفسي ومعي غلام يثير البستان بين يدي ، وأنا أفتّش شيئاً ، شيئاً ، ممّا يثيره ، وأجد الواحدة بعد الواحدة ، من ذلك الجوهر ، وكلّما وجدت شيئاً ، حرصت على الإثارة ، وطلب الباقي ، إلى أن أثرت جميع البستان ، فوجدت جميع ذلك الجوهر ، ما ضاع لي منه واحدة .

فأخذته ، وحمدت الله ، وعلمت أنّه قد بقيت لي بقيّة من الإقبال صالحة[٥] .

= مجالس الشراب ، وما كان منه أصفر اللون فهو الخيري ، راجع القصّة ٩٦/٣ و ١٣٤/٧ من كتاب نشوار المحاضرة .

٥ وردت هذه القصّة في نشوار المحاضرة برقم ١٣٤/٧ ولم ترد في غ ولا هـ .

٢٧٤
الوزير ابن مقلة ينكب رجلاً ثمّ يحسن إليه

حدّثني أبو محمّد يحيى بن سليمان بن فهد رحمه الله ، قال : حدّثنا أبو علي إسماعيل بن محمّد بن الخبّاز ، قال :

كان أبو علي بن مقلة[1] ، نكبني ، وصادرني ، لشيءٍ كان في نفسه عليّ ، فأفقرني ، حتّى لم يدع لي شيئاً على وجه الأرض .

وأطلقني من الحبس ، فلزمتُ بيتي حزيناً ، فقيراً ، يتعذّر عليّ القوت .

ثمّ لم أجد بدًّا من الاضطراب في معاشي ، فأشير عليّ أن ألزم ابن مقلة ، وأستعطفه ، وقيل لي إنّه إذا نكب إنساناً فخدمه ، رقّ عليه .

قال : فلزمته مديدة ، لا أراه يرفع إليّ رأساً ، ولا يذكرني[2] .

قال : وكان يعرفني بحسن الثياب ونظافتها ، والتفقّد في أمر نفسي[3] ، أيّام يساري .

واتّفق أنّي حضرت داره في يوم جمعة ، غدوة ، ولم أكن دخلتُ الحمام قبل ذلك بأسبوع ، ولا حلقت شعري ، ولا غيّرت ثيابي ، وأنا وسخ الجسد والثّياب ، طويل الشعر ، وإنّما أخّرت ذلك لإضاقتي عن مقدار ما أحتاج إليه ، ولشغل قلبي أيضاً ، وغمّي بالفقر المدقع الّذي دفعت إليه ، وهوان نفسي عليّ .

فخرج ابن مقلة ليركب ، فقمت إليه في جملة النّاس ، فدعوت له .

---

١ الوزير أبو عليّ محمد بن علي المعروف بابن مقلة : ترجمته في حاشية القصّة ٧٨ من هذا الكتاب .

٢ في م : ولا يفكّر فيّ .

٣ كذا في م ، وفي ظ : والتنقية في أمر نفسي .

فحين رآني ، تأمّلني طويلاً ، ثمّ أومأ إلى خادم له بكلام لا أفهمه ، وركب .

فجاءني الخادم ، فقال : الوزير يأمرك أن لا تبرح من الدار ، إلى أن يعود ، وأخذني إلى حجرة ، فأجلسني فيها .

فقامت قيامتي ، وخفت أن يكون قدّر أن تكون لي بقيّة حال ، ويريد الرّجوع عليّ بالمطالبة ، وليس ورائي شيئ ، فأتلف .

فتداخلني من الجزع أمر عظيم ، وحصلت في شدّة كانت أشدّ عليّ ممّا مرّ بي ، فلم يكن بأسرع من أن عاد .

فجاءني الخادم ، فقال : قم إلى الوزير ، فقد طلبك .

فجئت ، حتّى دخلت عليه ، وهو خالٍ وحده ، وليس بين [١٣٥ م] يديه غير أبي الحسين ، ابنه[٤] ، فرحّب بي ، وأكرمني ، ورأيت من برّه ما زال عنّي معه الجوف .

ثمّ قال : يا أبا علي ، أعرفك نظيف الثوب ، حسن القيام على نفسك ، فلِمَ أنت بهذه الصورة ؟.

قال : ففطنت أنّه لما رآني على صورتي تلك ، رقّ لي .

فقلت : أيّها الوزير ، لم يبقَ لي – والله – حال ، وإنّه ليتعذّر عليّ ما أغيّر به هذا المقدار من أمري ، وفتحت أبواب الشكاية ، إلى أن بكيت .

فقال : إنّا لله ، إنّا لله[٥] ، ما ظننت أنّ حالك بلغت إلى هذا ، ولقد أسأنا إليك .

---

٤ الوزير أبو الحسين علي بن محمد بن علي بن مقلة : هو ابن الوزير أبي عليّ ، لما قلّد الراضي ولديه ، المشرق والمغرب ، استكتب لهما أبا الحسين ، ثمّ استخلفه أبوه على جميع الدواوين ، ثم ولّاه الراضي الوزارة مع أبيه ، ولما قبض على أبيه استتر ، ثم وزّر للمتّقي ، وسافر معه إلى الموصل ، ولما عاد معه إلى بغداد ، قبض عليه توزون ، وتوفّي في السنة ٣٤٦ (تجارب الأمم ١/٣٠٩–٣٨٨ و ٢/٤٣–١٦٧) .

٥ في م : إنّا لله وإنّا اليه راجعون .

قال : ثمّ مدّ يده إلى الدواة ، فكتب لي على الجهبذ ، بألف دينار صلة ، ووقّع توقيعاً آخر ، بأن أبايع ضيعة من المبيع بألفي دينار ، بحيث أختار ذلك ، ثمّ قال : خذ هذه الدنانير فاتّجر بها ، وأصلح منها [١٤٥ ر] حالك ، وابتع بهذه الألفي دينار ضيعة من المبيع ، تغلّ لك ألف دينار في السنة ، واخترها ، وشاور فيها ، فإذا وقع اختيارك عليها ، فأسمها لي ، لأكتب بمبايعتك إيّاها ، لتستكفي بغلّتها سنتك ، إلى أن [١٧٢ ظ] أنظر لك بعد هذا ، فأردّ جاهك ، فشكرته ودعوت له ، ونهضت .

فقال : قف ، فوقفت .

فقال لابنه أبي الحسين : بحياتي عليك ، عاون أبا عليّ حتّى يحصل له هذا كلّه في أسبوع ، وفي دفعة واحدة ، ولا ينمحق عليه .

قال : فوعدني أبو الحسين بذلك ، وأمرني بالمصير إليه ، فانصرفت .

ورحت إلى أبي الحسين ، فأعانني ، فحصل ذلك كلّه لي في أيّام قليلة ، وحصلت لي الضيعة ، فاستغللتها في تلك السنة ألف دينار .

ولزمت أبا عليّ ، فعوّضني بمكاسب جليلة ، عاد إليّ منها أكثر ممّا خرج عن يدي بنكبته[٦] .

---

٦ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٧٥

إبن عبدونِ الأنباري الكاتب

يكسب في ليلة واحدة مائة ألف دينار

قال محمّد بن عبدوس في كتاب الوزراء : حكي عن محمّد بن خلف ، المعروف بابن عبدون الأنباري الكاتب ، إنّه قال :

بينما أنا يوماً أدرج في بعض سكك المدينة[1] ، وكانت حينئذ لا يدخلها راكباً إلّا من له نباهة ، إذ سمعت خلفي وقع حوافر ، فنظرت فإذا يوسف[2] بن الوليد الأنباري ، وكانت بيني وبينه مودّة وقرابة ، فلم أسلّم عليه .

فقال لي : من أين يا أبا عبد الله ؟ .

فقلت : إنّي كسرت[3] هذه السنة ثلاثة آلاف فرسخ ، وانصرفت وأنا سبروت[4] .

---

١ المدينة : مدينة المنصور .

٢ في م : يونس .

٣ كسر : هنا ، بمعنى قطع مسافة .

٤ السبروت : كناية بغداديّة عن المفلس ، فصيحة ، والسبروت من الأرض : القفر الذي لا نبات فيه ، وللبغداديّين في الإفلاس تعابير وأوصاف وكنايات يضيق عنها هذا البحث ، ومن جملة كناياتهم عن المفلس : هلكان ، مهلوس ، يريشان ، (فارسية : سيئ الحال) ، نابديد (فارسية : غير ظاهر ، مختفي ، وربما كان أصلها نابود : مفلس ، فقير ، معدوم) ، هتيان (أحسبها تركية ، أصلها هايتان) قال الشاعر البغداديّ :

إجتمع البعـــض مـن الشبّـان   من مفلسٍ حـافٍ ومن هتيـان

ويكنون عن المفلس ، بقولهم : ضربه جويريد ، وجويريد هو الخريف الذي يجرد الأشجار من أوراقها كما يكنون عن المفلس ، بقولهم : يقرأ بجيبه أبو الربّاز ، وهذه الكناية لا بدّ لها من شرح ، فإنّ أبا الربّاز ، أحد المغنّين المشهورين ببغداد في القرن التاسع عشر ، وكان له صوت معروف به ، يبزّ به المغنّين كافّة ، =

فقال لي : ثلاثة آلاف فرسخ ؟ .

قلت : نعم ، مضيت إلى مصر [5] ، فأخفقت ، ثمّ مضيت إلى فارس [6] ، ثمّ إلى كرمان [7] ، ثمّ إلى خراسان [8] ، وانقلبت إلى أذربيجان [9] ، وانصرفت بغير شيء ، وأنا أتمنّى أن يهب الله تعالى قوتاً ، فأتموّنه في بلدي .

فقال لي : كم يكفيك من الرزق ؟ .

= وهو غناؤه في هذين البيتين :

هو الحبّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهل	فما اختاره مضنىً به وله عقل
وعش خالياً فالحبّ راحته عنىً	وأوّله سقم وآخره قتل

والبغداديّون في قولهم عن المفلس : يقرأ بجيبه أبو الربّاز ، يشيرون إلى صدر البيت الثاني ، الذي يقول فيه : وعش خالياً ، ومن الأمثال البغداديّة اللطيفة عن الإفلاس قولهم : المفلس يتعثّر بخصيانه (فصيحه بخصاه) ، وأنا أروي منذ أكثر من خمسين سنة ، قصّة بغدادي أملق ، فقال يسلّي نفسه :

لا بـدّ مـا تنقـضي	والفقـر مـا هـو عيـب
وأوقـف بـراس الجسر	واخرخشـك يـا جيـب

لاحظ أنّ القاف ، يلفظها البغداديّون كافاً فارسية ، كالجيم المصرية .

٥ مصر : أرض مصر أربعون ليلة في مثلها ، عرضها من برقة إلى أيلة ، وطولها من أسوان إلى الشجرتين اللتين بين رفح والعريش (معجم البلدان ٥٤٦/٤) فتح المسلمون مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وأنشأوا مدينة الفسطاط ، راجع حاشية القصّة ٢٢٣ من هذا الكتاب .

٦ فارس : راجع حاشية القصّة ٧٨ من هذا الكتاب .

٧ كرمان : إقليم واسع . يشتمل على مدن كثيرة . وبلدان واسعة . وخيرات وافرة . وهو بين فارس وسجستان ومكران . وحدّ منها يتّصل بخراسان (المشترك وضعاً ٣٧٢) .

٨ خراسان : بلاد واسعة في شمالي إيران . كانت قصبتها مرو . ثم نيسابور ، لما إنتقل إليها عبد الله بن طاهر لمّا ولي خراسان (لطائف المعارف ٢٠١) و (معجم البلدان ٤٠٩/٢) ، أقول : خراسان اليوم قصبتها طوس . وفيها قبر الإمام علي بن موسى الرضا . وقبر الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وقد زرت طوس في السنة ١٩٥٥ ثم في السنة ١٩٦٨ .

٩ أذربيجان : صقع جليل . ومملكة عظيمة . الغالب عليها الجبال . وفيها خيرات واسعة ، وفواكه جمة ، وأكبر مدنها تبريز . وهي قصبتها (معجم البلدان ١٧٣/١) .

فقلت : إن كان في بلدي ، فخمسة عشر ديناراً في كلّ شهر ، أتقوّت بها أنا وعيالي ، وهو ما لا فضل فيه لشهوة ولا نائبة .

فقال : كن معي .

فاتّبعته ، فصار بي إلى ديوان فيه كتّاب ، وحجرة لطيفة ، فدخلتها ، فإذا في صدرها الفضل بن مروان[10] ، وهو يكتب حينئذٍ للمعتصم[11] ، وهو أمير ، فوصفني للفضل ، ورغّبه في استخدامي ، فرمى إليّ الفضل بكتاب .

وقال : أجب عنه بما يجب .

فاستعلمت منه الدعاء[12] ، وأجبت الرّجل عن الكتاب ، وعرضته عليه ، فرضي خطّي ، ولفظي .

وقال لي : كم يكفيك في كلّ شهر من الرزق ؟ .

فقال له يوسف : الّذي ذكر إنّه يقنعه خمسة عشر ديناراً في كلّ شهر .

فقال : هذا قوت ، ولا بدّ من استظهار لنائبة ، ولكن قد جعلتها ثلاثين ديناراً في كلّ شهر ، فقبّلت يده .

فقال : الزمني ليلك ونهارك ، طلبتك أم لم أطلبك ، فإنّ الملازمة رأس مال الكاتب .

قال : فلزمته كما رسم .

---

١٠ الفضل بن مروان ، وزير المعتصم : ترجمته في حاشية القصّة ١٧ من هذا الكتاب .

١١ أبو إسحاق محمد المعتصم بن أبي جعفر هارون الرشيد (١٧٩–٢٢٧) : ترجمته في حاشية القصّة ١٧ من الكتاب .

١٢ يريد بالدعاء ما يورد في صدر الكتاب ، بعد إسم المخاطب ، فإنّ آيين الدواوين يفرض أن يكون لكلّ واحد من الأشخاص ، دعاء خاص ، وقد أفرد صاحب كتاب الوزراء ، فصلاً خاصّاً في هذا الموضوع ، وأورد في ضمنه ثبتاً ذكر فيه كيفية الدعاء ، بدأ فيه بالأمراء أولاد الخليفة ، ثم السيّدة أمّ الخليفة ، ثم خالة الخليفة ، ثم الأمراء العباسيّين ، ثم كبار أصحاب الأطراف ، ثم القوّاد ، ثم أصحاب الدواوين ، ثم العمّال ، ثم القضاة ، وهكذا ... راجع كتاب الوزراء للصابي : ١٦٦–١٧٨ وكتاب رسوم دار الخلافة ١١٣–١٢١ .

وكان صالح بن شيرزاد[13] ، يخلفه في دار المعتصم ، وقد استولى على المعتصم [١٣٦ م] بحيلته ، وتلطّفه ، على حماريّة كانت فيه[14] ، وكره ذلك الفضل بن مروان ، واجتهد في قلعه ، فلم يتمكّن .

فقال لي يوماً ، ما في نفسه من ذلك ، وقال : أنا أحبّ أن أجعلك مكانه ، إلّا أنّي أتخوّف أن تسلك مسلكه[15] ، فهل فيك خير ؟.

فقلتُ : قد عرفتَ أخلاقي وطبعي ، فإن كنتُ عندك ممّن يصلح للخير ، وإلّا فلا تتقْ إليّ .

فكان في هذا التدبير ، حتّى حدث أمر القبط بمصر ، فندب المأمون أخاه أبا إسحاق ، لمحاربتهم ، في سنة اثنتي عشرة ومائتين[16] .

فخرج أبو إسحاق إلى مصر ، ومعه الفضل بن مروان ، واستخلف صالح بن شيرزاد بحضرة المأمون ، فيما لا يضرّه أن يغلب عليه ، وسلّه عن المعتصم ، وجعلني مكانه ، وشخصنا .

فكسبت مع المعتصم ، في ليلة واحدة ، مائة ألف دينار حلالاً طيّباً ، وذلك إنّ القتل كثر في أهل مصر ، وجلا الباقون ، وأشرف البلد على الخراب .

---

١٣ صالح بن شيرزاد : كان يخلف الفضل بن مروان في دار المعتصم ، ثم استخلفه المعتصم بحضرة المأمون ، لما خرج المعتصم إلى مصر . وفي السنة ٢١٣ ولي خراج مصر ، فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أسفل الأرض بمصر (الولاة والقضاة للكندي ١٨٥) وهو والد أحمد بن صالح بن شيرزاد وزير المعتمد (الفخري ٢٥٤) .

١٤ كذا ورد في ر وظ ، وفي م : على خيانة كانت فيه ، والصحيح ما أثبتناه ، ويريد بالحماريّة ، العناد والجمود .

١٥ في م : أن تسلك سبيله .

١٦ في ابن الأثير ٤٠٩/٦ : في السنة ٢١٣ خلع عبد السلام . وابن جليس ، المأمون ، بمصر ، في القيسيّة واليمانيّة ، وظهرا بها ، ثم وثبا بعامل المعتصم ، وهو عمير بن الوليد الباذغيسي فقتلاه في السنة ٢١٤ ، فسار المعتصم إلى مصر ، وقاتلهما ، فقتلهما ، وافتتح مصر ، فاستقامت أمورها واستعمل عليها عمّاله ، الطبري ٦٢٢/٨ .

وشقّ ذلك على المأمون ، وأنكره [على أبي إسحاق][17] ، إنكاراً شديداً ، فكان [١٤٦ ر] فيما رآه ، تسكين النّاس ، وردّهم إلى مصر .

فوردت عليّ في يوم واحد ، كتب جماعة [١٧٣ ظ] من رؤساء البلد ، يسألون الأمان لهم .

فقلت للفضل في ذلك .

فقال : أجبهم إلى ما التمسوا ، وأجب كلّ من سأل مثل ذلك .

فكتبت في ليلة ، لمائة رجل ، أماناً ، فظهروا ، وبعث إليّ كلّ واحد منهم ، من ثلاثة آلاف دينار ، إلى ألف دينار ، إلى خمسمائة دينار ، وبعضهم لم يبعث إليّ شيئاً .

فحصّلت ما اجتمع لي ، فكان مائة ألف دينار ، وأحييت مائة إنسان ، وفرّجت عنهم ، [وعن أتباعهم ، ومن يلوذ بهم ، وكشفت كربة عظيمة عن أبي إسحاق][18] .

---

١٧ الزيادة من م .

١٨ الزيادة من م ، لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٧٦

الفضل بن سهل ومسلم بن الوليد الأنصاري

أخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، قال : أخبرني حبيب ابن نصر المهلّبي ، قال : حدّثنا عبد الله بن أبي سعد ، قال : حدّثني محمّد بن عبد الله بن سليمان[١] ، عن أبي الخطاب الأزدي ، قال :

كان مسلم بن الوليد[٢] ، والفضل بن سهل ، متجاورين في قنطرة البردان[٣] ، وكانا صديقين .

قال مسلم : فأعسرت إعساراً شديداً ، ولحقتني محنة ، وولي الفضل بن سهل الوزارة بمرو[٤] ، فتحمّلت إليه على مشقّة .

فلمّا رآني رحّب بي وأدناني ، وقال : ألست القائل ؟

فاْجْرِ مع الدّهر إلى غاية ترفع فيها حالك الحال

فقلت : نعم .

قال : صرنا إلى هذه الحال ، وصرت بنا إليها ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم ،

---

١ في م : محمد بن طهمان .

٢ أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري ، المعروف بصريع الغواني : شاعر غزل ، كوفي ، نزل بغداد ، واتّصل بالفضل بن سهل ، فولاّه بريد جرجان ، فاستمر فيها إلى أن مات ، لقّبه الرشيد بصريع الغواني ، لأنّه أنشده قوله : (الأعلام ٨/١٢٠)

وما العيش إلاّ ألفا تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

٣ قنطرة : البردان : محلة ببغداد (معجم البلدان ٤/١٨٧) .

٤ مرو : واسمها مرو الشاهجان ، قصبة خراسان ، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً (مراصد الاطلاع ٣/١٢٦٢) .

وولّاني عملاً اخترته[٥] .

فانصرفت عنّي المحنة الّتي كنت أعانيها ، وحصلت لي نعمة طائلة .

قرئ على أبي بكر الصولي وأنا أسمع ، في كتابه ، كتاب الوزراء ، بالبصرة ، في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، حدّثكم أحمد بن يزيد المهلّبي ، قال : حدّثنا عبد الله بن أبي سعد ، فذكر بإسناده نحوه ، إلّا أنّه ذكر في الشّعر زيادة أربعة أبيات ، لا تتعلّق بكتابي هذا فأذكرها ، وذكر أنّ الفضل ولّى مسلماً بريد جرجان .

---

٥ ذكروا أنّ الفضل بن سهل ضمّن مسلم بن الوليد ضياعاً بجرجان ، بخمسمائة ألف درهم ، وقد بذل له فيها ألف ألف درهم (معجم البلدان ٢/٥٠) .

٢٧٧

كيف طهّر عثمان بن حيّان المريّ المدينة من الغناء

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني ، قال : أخبرني الحرمي بن أبي العلاء ، قال : حدّثنا الزبير بن بكّار ، قال : حدّثني عمّي مصعب ، عن عبد الرّحمن بن المغيرة الحرامي[١] الأكبر ، قال :

لما قدم عثمان بن حيّان المرّي[٢] المدينة[٣] والياً عليها ، قال له قوم من وجوه النّاس : قد وليت المدينة على كثرة من الفساد ، فإن كنت تريد أن تصلح ، فطهّرها من الغناء والزناء .

---

١ في م : الحراني ، وفي الأغاني ٣٤١/٨ الحزامي .

٢ أبو المغراء عثمان بن حيّان بن معبد المرّي : من الظلمة ، ولاّه الوليد بن عبد الملك ، المدينة ، خلفاً لعمر بن عبد العزيز ، والسبب في ذلك ، أنّ عمر بن عبد العزيز ، وكان يلي الحجاز ، كتب إلى الوليد ، يشكو إليه عسف الحجّاج للناس بالعراق ، واعتدائه عليهم ، وظلمه لهم ، فاغتاظ الوليد ، وعزل عمر ، وولّى بدلاً منه عثمان بن حيّان ، بإشارة من الحجّاج (الطبري ٤٨١/٦ ، ٤٨٢ وابن الأثير ٥٧٧/٤) وكانت أوّل خطبة خطبها عثمان بالمدينة ، شتم فيها أهل العراق ، ورماهم بكلّ نقيصة ، وأمر فنودي في الأسواق : ببراءة الذمّة ممّن آوى عراقيًّا ، وأمر بهم فشرّدوا في كلّ وجه ، واعتقل قوماً منهم بعث بهم إلى الحجّاج في العراق (الطبري ٤٨٥/٦ و٤٨٦) ويكفي للدلالة على ظلم عثمان ، ما قاله عمر ابن عبد العزيز ، وقد جرى ذكر المظالم : الحجّاج بالعراق ، والوليد بالشّام ، وقرّة بمصر ، وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكّة ، أللّهم إنّ الدنيا قد امتلأت ظلماً وجوراً (ابن الأثير ٥٨٤/٤) .

٣ المدينة : يوجد ستة عشر موضعاً يسمّى باسم المدينة ، منها : يثرب ، مدينة الرسول صلوات الله عليه (المفترق صقعاً ٣٨٨–٣٩٢) ، وبها قبره ومسجده ، وبها نخل كثير على مياه الآبار والسواقي (مراصد الاطلاع ١٢٤٦/٣) أقول : زرت المدينة لمّا حججت في السنة ١٩٦٤ فوجدتها من أطيب البلدان هواء ، وأعذبها ماء ، وفيها أنواع كثيرة من الفواكه والتمور ، والأسعار فيها رخيصة ، وأهلها طيبوا الأخلاق ، معاملتهم حسنة ، ورأيت العمران فيها قائماً على ساق ، وقد استملكت الحكومة السعودية مساحة عظيمة من العقار المحيط بقبر رسول الله ومسجده ، وبنت بجوار القبر مسجداً ، شاهق البنيان ، بديع الصنعة ، واسع الأكناف ، واحاطته برحبة واسعة .

فصاح في ذلك[4] ، وأجّل أهله ثلاثاً ، يخرجون فيها من المدينة .

وكان ابن أبي عتيق[5] غائباً ، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح ، فلمّا كان في آخر ليلة من الأجل ، قدم [١٣٧ م] .

فقال : لا أدخل منزلي حتّى أدخل على سلّامة القس[6] .

فقال لها ، وقد دخل عليها : ما دخلت منزلي ، حتّى جئتكم أسلّم عليكم .

قالوا : ما أغفلك عن أمورنا ، فأخبروه الخبر .

فقال : اصبروا لي اللّيلة .

فقالوا : نخاف أن لا يمكنك شيئ ، ونؤذى[7] .

فقال : إن خفتم شيئاً ، فاخرجوا في السّحر .

ثمّ خرج ، واستأذن على عثمان بن حيّان ، فأذن له ، فسلّم عليه ، وذكر غيبته ، وأنّه جاء ليقضي حقّه ، ثمّ جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزناء .

وقال : أرجو أن لا تكون عملت عملاً ، هو خير لك من ذلك .

---

٤ صاح في ذلك : أمر أن ينادى به في البلدة .

٥ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ، المعروف بابن أبي عتيق : كان من أجلّ أهل زمانه ، من أهل الفضل ، والعفاف ، والصلاح ، كريماً ، حليماً ، يهتزّ للشعر الرائق ، ويطرب للغناء الحسن ، وكان محبوباً ، محترماً من أهل الحجاز على اختلاف آرائهم ، وهو الذي جمع بين لبنى وقيس بعد طلاقها منه ، روى له الحصري في كتاب الملح والنوادر ملحتين مع عمته عائشة أمّ المؤمنين (الملح ٣ و٤٥) ، راجع أخباره في كتاب الأغاني ، في جميع أجزائه ، وفي كتاب الملح ص ٢٥ و ٤٢-٤٥ وله قصّة من أطرف القصص مع عبد الله بن عمر ، راجعها في التاج ص ١٣١ وقصص أخرى ظريفة في الأغاني ١٢/١٥٧ و١٥/٣٣٥ ، وراجع كذلك حاشية القصّة ٤٨٢ من هذا الكتاب .

٦ سلّامة القس : مغنّية ، شاعرة ، نشأت بالمدينة ، ومهرت في الغناء وضرب العود ، وشغف بها عبد الرحمن بن أبي عمّار التابعي ، الملقّب بالقسّ ، لعبادته وزهده ، فغلب لقبه عليها ، واشتراها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار ، وورثته لما مات (الأعلام ١٦٣/٣) .

٧ في الأغاني ٣٤١/٨ : وننكظ ، يقال : أنكظه ، إذا أعجله عن حاجته .

قال عثمان : قد فعلتُ ما بلغكَ ، وأشار عليّ به أصحابك .

قال : قد وفّقت ، ولكن ما تقول يرحمك الله في امرأة كانت هذه صناعتها ، ثمّ تركتها ، وأقبلت على الصيام والصدقة والخير ، وإنّي رسولها إليك تقول : أتوجّه إليك ، وأعوذ بك أن تخرجني من جوار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومن مسجده .

فقال : إنّي أدعها لك ولكلامك .

فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك النّاس ، ولكن تأتيك ، وتسمع كلامها ، وتنظر إليها ، فإن رأيت أنّ مثلها يسع أن تترك ، تركتها .

قال : نعم .

فجاءه بها ، وقال لها : احملي معك سبحة[8] ، وتخشّعي ، ففعلَتْ .

فلمّا دخلت على عثمان ، حدّثته ، فإذا هي من أعلم النّاس بأمور النّاس ، فأعجب بها ، وحدّثته عن آبائه وأمورهم [١٧٤ ظ] ففكه لذلك .

فقال لها ابن أبي عتيق : اقرئي للأمير[9] ، فقرأت .

---

٨ راجع ما كتبناه عن المسبحة في حاشية القصّة ٢٢٨ من هذا الكتاب .

٩ القراءة : الدراسة والتفهّم (مفردات الراغب الأصبهاني ٤١٢) وقد ورد في القرآن الكريم : سنقرئك فلا تنسى ، (٦ ك الأعلى ٨٧) ، والقارئ : الناسك المتعبّد (أساس البلاغة للزمخشري ٢٣٩/٢) ، والقارئ : قارئ القرآن ، والقراءات السبع : قراءة كلّ من أبي عمر زبان بن العلاء المازني ، وأبي رويم نافع بن عبد الرحمن المدني ، وأبي معبد عبد الله بن كثير المكّي ، وأبي بكر عاصم بن أبي النجود بهدلة الكوفي ، وأبي عمران عبد الله بن عامر اليحصبي ، وأبي عمارة حمزة بن حبيب الزيات ، وأبي الحسن علي بن حمزة الكسّائي (الفهرست ٢٨) ، فاذا قيل القراءات العشر : أضيفت إليها قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي ، وأبي محمّد خلف بن هشام الأسدي البزاز ، وأبي محمّد يعقوب بن إسحاق البصري ، وكان ابن عبّاد النجار ، يقرأ بالسبعة ، وكان فقيراً ، يخرج بالنهار يتصدّق ، فيشد الرقائق والزهديات ، فسئل لماذا لا يتصدّق بقراءة القرآن . فقال : والله ، لا أعرّض القرآن للمسألة أبداً (القصّة ٤/٣ من نشوار المحاضرة) وخالفه في ذلك سائل كان يتصدّق بقراءة القرآن ، فقيل له : أما تستحي =

فقال لها : احدي له[10] ، ففعلت ، فكثر عجبه بها .

فقال : كيف لو سمعتها في صناعتها ، فلم يزل ينزله شيئاً شيئاً ، حتّى أمرها بالغناء ، فقال لها ابن أبي عتيق ، غنّي :

سددن خصاص البيت[11] لما دخلنه بكلّ لبـان[12] واضـح[13] وجبين

فغنّته ، فقام عثمان بن حيّان ، فقعد بين يديها ، ثمّ قال : لا والله ، ما مثل هذه تخرج .

فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك النّاس ، يقولون أقرّ سلّامة ، وأخرج غيرها .

فقال : دعوهم جميعاً ، فتركوهم .

وأصبح النّاس يتحدّثون بذلك ، يقولون : كلّم ابن أبي عتيق الأمير في سلّامة القس ، فتركوا جميعاً[14] .

= تسأل بالقرآن ؟ فقال : أسكتوا ، فوالله ، لو جعتم كما أجوع ، لبعتم جبرائيل ، وميكائيل ، فضلاً عن القرآن (البصائر والذخائر ٤٢/٤) .

١٠ الحداء ، بضم الحاء : غناء يغنّيه الحادي للإبل ، فتسرع في سيرها ، وما يزال هذا النوع من الغناء معروفاً في البلاد العربية ، ويسمّى : الركباني .

١١ الخِصاص ، بكسر الخاء ، ومفردها : الخصّ ، بضم الخاء : حواجز البيت إذا كانت من قصب أو أغصان الأشجار .

١٢ اللّبان ، بفتح اللام : الصدر ، أو ما بين الثديين .

١٣ الواضح : الأبيض .

١٤ وردت القصّة في الأغاني ٣٤١/٨ و ٣٤٢ ، ولم ترد في غ ولا هـ .

٢٧٨
أضاع كيسه واستعاده بعد سنة

أخبرني محمّد بن الحسن بن المظفّر ، الكاتب اللّغوي ، المعروف بالحاتمي[١] ، قال : أخبرنا أبو عمر محمّد بن عبد الواحد ، قال : أخبرنا ثعلب ، قال : أخبرنا عمر بن شبّه ، قال : حدّثني سعيد بن عامر ، قال : حدّثنا هشام بن خالد الربعي ، قال :

دخلت المسجد ، ومعي كيس فيه ألف درهم ، لا أملك غيره ، فوضعته على ركن سارية[٢] ، وصلّيت ، ثمّ ذهبت ونسيته .

فكربني أمره ، وفدحت حالي لفقده ، فما حدّثت بذلك أحداً سنة ، وجهدني الضرّ .

قال : فصلّيت من بعد ذلك ، إلى تلك السارية ، ودعوت الله ، وسألته ردّه عليّ ، وعجوز إلى جانبي تسمع قولي .

فقالت : يا عبد الله ما الّذي أسمعك تذكر ؟ .

قلت : كيساً أنسيته على هذه السارية عام أوّل .

قالت : هوذا عندي ، وأنا منذ سنة أراقبك ، فجاءت به بخاتمه .

---

١ أبو علي محمّد بن الحسن بن المظفر ، المعروف بالحاتمي : ترجمته في حاشية القصّة ١٣ من الكتاب .

٢ في م : على تربيع السارية ، والسارية : الأسطوانة ، والبغداديّون يسمّونها : دلك ، بفتح الدال واللام ، وبالكاف الفارسية .

٢٧٩

عبد الله بن الزبير

يطالب بني هاشم بالبيعة أو يضرب أعناقهم

أخبرني محمّد بن الحسن بن المظفر ، المعروف بالحاتمي ، قال : أخبرني عيسى بن عبد العزيز الطاهري[١] ، قال : أخبرني الدمشقي ، عن الزبير بن بكار ، قال :

جمع [عبد الله بن] الزبير بني هاشم بمكة ، وقال : لا تمضي الجمعة حتّى تبايعوا ، أو آمر بضرب أعناقكم .

فنهض إليهم قبل الجمعة يريد قتلهم ، فناشده المسوّر بن مخرمة الزهري[٢] أن يدعهم إلى الوقت الّذي وقّت لهم ، وهو يوم الجمعة ، ففعل .

فلمّا كان يوم الجمعة ، دعا محمّد بن الحنفيّة رضي الله عنه خادماً له بغسل[٣] وثياب ، وهو لا يشكّ في القتل .

وقد كان المختار بن أبي عبيد بعث أبا عبد الله[٤] وأصحابه إليهم ، فجاءهم الخبر بحال محمّد بن الحنفيّة ، وما دفع إليه من ابن الزّبير ، وقد نزلوا ذات

---

١ هو عيسى بن عبد العزيز بن عبد الله بن طاهر ، روى له المرزباني في الموشّح ٤٩٩ خبراً وأورد نسبه كما ذكرنا .

٢ أبو عبد الرحمن المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري (٢-٦٤) : من فضلاء الصحابة وفقهائهم ، أدرك النبيّ صلوات الله عليه وهو صغير وسمع منه ، وهو ابن أخت عبد الرحمن بن عوف ، وانحاز إلى جانب ابن الزبير في حربه مع بني أميّة ، أصابه حجر من حجارة المنجنيق في محاصرة الكعبة فقتله (الأعلام ٨/١٢٤) .

٣ الغِسل ، بكسر الغين وسكون السين : ما يغتسل به من أشنان وماء .

٤ أبو عبد الله الجدلي : من كبار القوّاد الكوفيّين ، نسبته إلى جديلة بطن من قيس عيلان ، وجديلة أمّهم نسبوا إليها (اللباب ١/٢١٤) .

عرق[٥] ، فتخلّل منهم سبعون رجلاً حتّى وافوا مكّة صبيحة يوم الجمعة ، فشهروا السلاح ، ونادوا يا محمّد[٦] .

فبلغ الخبر ابن الزّبير ، فراعه ، وتخلّص محمّد رضي الله عنه ، ومن كان معه ، وأرسل محمّد ، عليَّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فنادى في القوم الّذين أنفذهم المختار : من كان يرى لله تعالى عليه حقّاً ، فليستأمر نفسه ، فإنّه لا حاجة لي بأمرٍ النّاسُ له كارهون ، وأنا إن أعطيتها عفواً قبلتها ، وإن كرهوا ذلك لم أختره .

فبعث ابن الزّبير إلى محمّد : إنّي أصالحك على أن تتنحّى عنّي ، فتلحق بأيلة[٧] ، فأجابه إلى ذلك ، ولحق بأيلة .

وكفّ الله تعالى ابن الزّبير ، وقبض يده عمّا حاوله من قتله ، وقتل أهل بيته[٨] .

---

٥ ذات عرق : مهلّ أهل العراق المتوجّهين إلى الحجاز ، وذات عرق هي الحدّ بين نجد وتهامة (معجم البلدان ٦٥١/٣) .

٦ في الطبري ٧٥/٦-٧٧ إنّهم نادوا : يا لثارات الحسين .

٧ أيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشّام ، كانت ملتقى القوافل بين مصر وأواسط بلاد العرب ، وبين موانئ فنيقيا وجنوبي بلاد العرب (معجم البلدان ٤٢٣/١ والمنجد) .

٨ انفردت بها ن ، وقد ورد الخبر في الطبري ٧٥/٦-٧٧ وفي الكامل لابن الأثير ٢٤٩/٤-٢٥٤ ، راجع القصّة ٥٦ من هذا الكتاب .

٢٨٠
عاقبة الظلم

وجدت في بعض الكتب : حدّث علي بن المعلّى ، عن الزهري البصري ، قال :

كنّا جلوساً عند أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السّلام ، وذكر حديثاً فيه : أنّ أبا عبد الله [١٤٧ ر] قال : إنّ قوم سدوم ، هلكوا بمجوسيّ .

قيل : ما سبب ذلك ؟.

قال : أما تعرفون بالبصرة عندكم جسراً ، يقال له : جسر الخشب ؟.

قلنا : بلى .

قال : ذاك جسر سدوم ، جاءه رجل مجوسي ، ومعه زوجته حاملاً ، راكبة حماراً ، تريد العبور ، فمنعوها إلّا أن يأخذوا خمسة دراهم ، فأبيا أن يعطيا ذلك ، فطلبوا منهما عشرة دراهم ، فأبيا أن يعطيا ذلك ، فشمصوا الحمار[1] ، وقطعوا ذنبه ، فاضطربت المرأة ، فأسقطت جنينها ، فاشتدّت بالمجوسي محنته .

وقال : إلى من نتظلّم فيما فعل بنا ؟.

فقيل : إلى صاحب هذا القصر .

فدخل إليه ، وقال : فعل بي كيت وكيت .

قال : لا بأس ، ادفع إليهم حمارك ، يعملوا عليه إلى أن ينبت ذنبه ، وادفع إليهم زوجتك ، حتّى يطؤوها إلى أن تحمل .

فرفع المجوسي رأسه الى السماء ، وقال : اللّهم ، إن كان هذا حكم من عندك ، وأنت به راضٍ ، فأنا به أرضى ، وأرضى .

---

١ . شمص الدابّة : أعجلها ، وطردها طرداً عنيفاً .

فبعث الله إليه ملكاً من الملائكة ، فأخذ بعضده ، وعضد زوجته ، فعبر بهما الجسر .

فقال له : يا عبد الله من أنت ؟ فلقد مننت عليّ .

قال : أنا ملك من الملائكة ، لما أن قلت : أللّهم إن كان هذا حكم من عندك ، وأنت به راضٍ ، فأنا أرضى وأرضى ، بعثني الله لأخلّصك ، فالتفِتْ إلى القوم ، وانظر ما أصابهم .

فالتفت المجوسي ، فإذا القوم قد خُسِفَ بهم[٢] .

---

٢ لم ترد هذه القصة في غ ولا ه .

٢٨١

دواء عجيب وضعه الطبيب للكاتب زنجي

أخبرني علي بن نصر بن فنن[١] ، الكاتب النصراني : أنّ أبا عبد الله زنجي الكاتب[٢] ، سرق منه مال جليل ، وكان شديد البخل ، فناله غمّ شديد ، حتّى أنحل جسمه ، واجتهد في صرف الهمّ والغمّ عنه ، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً .

فشاور الأطبّاء في ذلك ، وعملوا له أشياء وصفوها له ، فما نجعت ، إلى أن استشار علي [١٣٩ م] بن نصر ، الطبيب النصراني[٣] ، جدّه ، وكان يطبّ زنجي ويلزمه ، فأشار عليه أن يصوغ إهليلجة من ذهب[٤] ، ويمسكها في فيه .

ففعل ذلك ، فلم تمض إلّا أيّام ، حتّى زال غمّه ، وعاد إلى صحّة جسمه[٥] .

---

١ كذا في ظ ور ، وأحسب أنّه أبا الحسن علي بن نصر النصراني الكاتب المعروف بابن الطبيب ، ترجمته في حاشية القصّة ٥٠ من هذا الكتاب .

٢ أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل الكاتب ، الملقّب زنجي : ترجمته في حاشية القصّة ١١٧ من هذا الكتاب .

٣ في م : علي بن بشر النصراني .

٤ الإهليلجة : نوع من الحلي ، إهليلجيّ الشكل ، كالبيضاويّ ، وهو ما يسمّى بالانكليزية Elliptical ، وقد أخبرنا أحد البرامكة ، إنّه كان معه ثلاثون ألف دينار ، صاغها عشرة آلاف إهليلجة ذهباً (وفيات الأعيان ٣/٤٧٣) .

٥ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٨٢
يا غياث المستغيثين أغثني

وجدت في بعض الكتب :

حكي أنّ رجلاً خرج في وجه شتاء ، فابتاع بأربعمائة درهم ، كان لا يملك غيرها ، فراخ الزرياب[1] للتجارة .

فلمّا ورد دكّانه ببغداد ، هبّت ريح باردة ، فأماتتها كلّها إلّا فرخاً واحداً ، كان أضعفها وأصغرها ، فأيقن بالفقر .

فلم يزل يبتهل إلى الله تعالى ليلته أجمع بالدّعاء والاستغاثة ، ويسأله الفرج ممّا لحقه ، وكان قوله : يا غياث المستغيثين ، أغثني .

فلمّا انجلى الصبح ، زال البرد ، وجعل ذلك الفرخ الباقي ينفش ريشه ، ويقول : يا غياث المستغيثين ، أغثني .

فاجتمع النّاس على دكّان الرّجل ، يرون الفرخ ، ويسمعون الصوت .

فاجتازت جارية راكبة ، من جواري أمّ المقتدر ، فسمعت صوت الطائر ، ورأته ، واستامته ، وتقاعد الرّجل ، فاشترته بألفي درهم ، وأعطته الدراهم ، وأخذت الطّائر[2] .

---

١ الزرياب : طائر على قدر الحمامة ، أصدأ اللّون ، أسود الذنب ، مخطّط الجناحين ، وهو ألوف يقبل التعليم ، سريع الإدراك لما يعلّم ، وربما زاد عن الببغاء ، راجع التفصيل في معجم الحيوان لمعلوف ١١٢ و ١٣٥ .

٢ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٨٣
قصّة سلمة الأنباري النصراني

وجدت في بعض الكتب :

كان بسرّ من رأى ، ثلاثة إخوة نصارى أنباريون ، أحدهم موسر ، ولم يسمّ ، والثاني متجمّل ، يقال له عون ، والثالث ، يقال له سلمة ، فقير ، فآل أمر سلمة فيما يكابده من شدّة الفقر ، إلى أن تعذّر عليه قوت يومه .

فمضى إلى أخيه عون ، وسأله أن يتلطّف إلى أخيه الموسر ، في أن يشغّله فيما يعود عليه نفعه ، ويخدمه فيه ، بدلاً من الغريب .

فامتنع [١٧٦ ظ] الأخ الموسر من ذلك ، وعاوده دفعات ، واستعطفه ، وضرّه يتزايد .

فقال الموسر ، على سبيل الولع[١] : إن شاء أن أصيّره مكان الشاكريّ ، وصَبَرَ على العدو ، فعلتُ .

فعرض عون على سلمة ذلك ، فقال سلمة : ما عرض أخونا عليّ هذا إلّا لأمتنع ، ويجعله حجّة ، وأنا أستجيب إليه وأصبر ، وأرجع إلى الله تعالى ، في كشف الحال الّتي أكون فيها معه ، وأرجو الفرج ببغيه عليّ ، ولا أضع نفسي بمسألة النّاس ، ففعل ذلك [١٤٨ ر] .

فكان أخوه يركب ، وهو يمشي في أثره بطليسان ونعل ، حتّى لا يظهر أنّه غلامه ، وإذا نزل في موضع ، لحقه ، وأخذ ركابه ، وتسلّم المركوب ، وحفظه إلى أن يخرج .

---

١ الولع : العبث .

فلم يزل على هذا ، إلى أن طلب وصيف الكبير[2] ، رفيق بُغا[3] ، من يجلسه بباب داره ، فيكتب ما يدخل إلى المطبخ ، من الحيوان ، والحوائج ، ليقايس به ما يحتسب عليه .

فوصف عون ، أخاه سلمة ، لذلك ، ووجّه إليه فأحضره ، فامتنع ، وذكر أنّه لا دربة له به ، ولا فيه آلة له .

فضمن له عون معاونته ، وإجمال الحساب في كلّ عشيّة ، وأجري عليه رزقٌ يسيرٌ .

وجلس بالباب ، وصار يدعو بالحمّالين ، فيثبت ما يحضرونه ، ويرفع في كلّ يوم مدرجاً[4] بتفصيل ذلك .

فلمّا انقضى الشّهر جمع وصيف المدارج ، وأحضر كاتباً غريباً ، وتقدّم إليه أن يؤرّجها[5] على أصنافها .

وعمل كاتب ديوانه عملاً بما رفعه الوكلاء في ذلك الشّهر ، فظهرت فيه زيادة عظيمة ، فحطّت وتوفّر مالها .

وحسن موقع ذلك من وصيف ، وأحضر سلمة ، وما كان رآه قبل ذلك ، وصرف المتصرّفين في المطبخ به ، وأسنى جائزته .

فتوفّر على يده في الشّهر الثاني ، ممّا كان حطّ من الأسعار ، ما حسن موقعه .

---

٢ وصيف : القائد التركي ، من موالي المعتصم ، وأحد قوّاده الكبار ، كان يحجب المعتصم ، وعند وفاة الواثق . اشترك في استخلاف المتوكّل ، وتولّى حجابته ، ثم اشترك في قتله ، وسيطر على الدولة مشاركاً للقائد بغا ، وقتل سنة ٢٥٣ (العيون والحدائق ٤٠٩/٣ وتجارب الأمم ٤٨٥/٦–٥٧٨ ، والطبري ٣٧٤/٩) .

٣ أبو موسى بغا الملقّب بالكبير : ترجمته في حاشية القصّة ١٩٠ من الكتاب .

٤ المدرج ، بضم الميم : الرقعة الملفوفة ، يريد بها القائمة الّتي دوّن فيها ما أحضره الحمّالون إلى المطبخ .

٥ التأريج : تنظيم فقرات الحساب وصفّها تحت عدّة أبواب يحتاج إلى علم جملها ، ليسهل عقد الحساب (مفاتيح العلوم ٣٧) .

فردّ إليه قهرمة[6] داره ، فتتابعت التوفيرات ، واتّصلت جوائزه إيّاه ، وزيادته في جاريه[7] .

وطالت مدّة خدمته لوصيف ، وغلب على حاله ، واتّفق له خلوة المتوكّل ، وحضور وصيف .

فقال لوصيف : قد كثر ولدي ، وأريد لهم شيخاً ، عفيفاً ، ثقة ، ليس فيه بأو[8] ، ولا مخرقة[9] ، لأفرد لهم على يده إقطاعات أجعلها [١٤٠ م] لهم ، فلست أحبّ أن أوسّط كتّابي أمره .

فوقع في نفس وصيف ، أن يصف سلمة ، وبخل به ، فلم يزل يتردّد ذلك في قلبه .

ثمّ قال : إعلم يا مولاي ، إنّ الله قد رزقني هذه الصفة الّتي تريدها منّي ، والرّجل عندي ، فإذا فكّرتُ في حقوقك ، وأنّ نعمتي منك ، لم أستحسن أن أكتمك ، وإذا فكّرت فيما أفقده منه ، توقّفتُ ، والآن ، فقد أنطقني إقبالك بذكره ، وهو سلمة بن سعيد النصراني .

فقال : أحضرنيه السّاعة .

فأحضره في الوقت ، فحين عاينه المتوكّل وقع في نفسه صحّة ما وصفه ، فوقّع لكل ابن بإقطاع ثلثمائة ألف درهم ، ولكل ابنة بمائة وخمسين ألف درهم ، وقيل أنّ المتوكّل مات عن خمسين إبناً ، وخمس وخمسين إبنة ، ودفع إليه التوقيع .

---

٦ القهرمة : مهمّة القهرمان ، قال صاحب الألفاظ الفارسيّة ١٣٠ : إنّ القهرمان فارسيّة ، ومعناها : الوكيل ، وصاحب الحكم ، وقال صاحب تفسير الألفاظ الدخيلة ٥٩ : إنّ أصلها يوناني ، ومعناها : مدبّر البيت ، ويراد به أمين الدخل والخرج ، لزيادة التفصيل راجع حاشية القصّة ٤٧٨ من هذا الكتاب .

٧ الجاري : الراتب .

٨ البأو : الزهو .

٩ المخرقة : التمويه والكذب ، والبغداديّون يكنون عن المخرقة ، بأنّها حنقبازيات أو بهلوانيات ، وعن =

وقال له : نجّز هذا ، واختر من الضّياع ما ترى ، وانصب لها ديواناً ، ووصله ، وجعل له منزلة كبيرة ، بكتابة الولد .

فلمّا فرغ من ذلك ، وقام به ، جرى أمر آخر ، أوجب أن ردّ إليه أيضاً أمر سائر الحرم ، وجعل له قبض جراياتهنّ ، وأرزاقهنّ ، وإنفاق ذلك عليهنّ ، وصَرَفَ وكلاءهنّ ، وأسبابهنّ عنهنّ ، وزادت منزلته بذلك لكثرة الحرم[10] .

فبينما سلمة يتردّد في دار المتوكّل ، إلى مقاصير الولد والحرم ، وقعت عين المتوكّل عليه ، فاستدعاه .

وقال له : يا سلمة ، ما أكثر ما يذهب على الملوك ، حفظتُ بك ولدي ، وحرمي ، وأضعت نفسي ، وليس لي منك عوض ، قد رددت إليك بيت المال ، وخزائن الفرش ، والكسوة ، والطيب ، وسائر أمر الدار ، فتسلّم ذلك ، واستخلف عليه من تثق به .

وكان قد أنكر عليه ، في بعض خدمته ، شيئاً [١٧٧ ظ] فأمر باعتقاله ، ففرشت له حجرة ، وتُرِكَ خلفاؤه يعملون .

ثمّ ذكره في اللّيل ، وهو يشرب ، فقال لخادم : امض إلى الحجرة الّتي فيها سلمة ، فاطّلع عليه ، وعرفني الصورة الّتي تجده عليها .

فعاد وذكر أنّه وجده يسوّد[11] ، ثمّ أعاده بعد وقت آخر ، فوجده على ذلك ، وأعاده الثالثة ، فكانت الصورة واحدة .

فاستحضره ، وقال : أنت شيخ كبير ، تسوّد ليجود خطّك في الآخرة ، أو لتصل به في الدنيا إلى أكثر ممّا وصلتَ إليه ؟.

قال : لا هذا ولا هذا ، ولكنّك لما اعتقلتني [١٤٩ ر] ، وأقررت أصحابي ،

= الممخرق بأنّه بهلوان أو حنقباز .

١٠ الحرم : أنظر البحث في آخر القصّة .

١١ يسوّد : يكتب بالحبر على الورق مسودات ، والذي يكتب لتمرين يده على تجويد الخط ، يقال عنه : يسوّد .

وثقتُ بحسن رأيك ، فلم أقطع التأهّب لخدمتك ، لأنّي أكاتبك كثيراً ، فيما أستأمرك به ، فأنا أحبّ أن لا تقع عينك على ما تستقبحه من الخطّ .

فحسن موقع هذا القول من المتوكّل ، وأمر بإحضار حقّة[12] ، فيها خاتم الخاصّة ، فدفعه إليه .

وقال : هذا خاتمي ، وقد رددت إليك ختم ما كنت أختمه بيدي ، من غير أن تستأمرني فيه ، ليعلم الخاصّ والعامّ ، أنّي رفعت منك ، وزدت في محلّك ، ولا يخلقك عندهم الاعتقال ،

ثمّ رآه المتوكّل بعد ذلك ، في وقت من الأوقات ، ماشياً في الدّار ، فقال : سلمة شيخ كبير ، هوذا يهرم ويتلف بهذا المشي ، لأنّه يريد أن يطوف في كلّ يوم ، على الحرم والولد ، وقد رأيت أن أجريه مجرى نفسي ، في إطلاق الركوب له في داري .

وكان المتوكّل يركب حماراً[13] يتخطّى به في الممرّات ، ويركب سلمة حماراً أيضاً ، ولم يكن في الدّار من يركب غيرهما[14] .

---

١٢ الحقّة : الوعاء الصغير .

١٣ الحمار : أنظر البحث في آخر القصّة .

١٤ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

الحرم

الحرم : النساء لرجل واحد ، وحريم الرجل : ما يدافع عنه ويحميه ، ولذلك سميت نساء الرجل : الحريم .

وكان حريم المتوكّل يشتمل على أربعة آلاف سريّة (تاريخ الخلفاء ٣٥٠) منهنّ خمسمائة لفراشه (شذرات الذهب ١١٤/٢) وقد أهدى إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، أربعمائة جارية ، مرّة واحدة ، (المستطرف من أخبار الجواري للسيوطي ٦٣) .

أما المعتصم ، والد المتوكّل ، فإنّه لما توفّي سنة ٢٢٧ كان من جملة ما ترك ثمانية آلاف جارية (شذرات الذهب ٦٣/٢) .

وأمّا المأمون ، حكيم بني العبّاس ، فقد كان حريمه يشتمل على مائتي جارية فقط (المستطرف من أخبار الجواري ٦٩) .

أمّا الرشيد ، فقد كان حريمه يشتمل على أكثر من ألفي جارية ، سوى ما كان لزوجه زبيدة من الجواري ويزيد عددهن عن ألفي جارية أيضاً (الأغاني ١٧٢/١٠ ونهاية الأرب ٢١٤/٤ و ٢١٥ ونشوار المحاضرة رقم القصّة ٦٤/٥) .

وكان في دار المقتدر ، أربعة آلاف امرأة ، بين حرّة ومملوكة (رسوم دار الخلافة ٨) .

ولم يكن الإكثار من الجواري مقصوراً على الخلفاء وحدهم ، وإنّما تعدّى ذلك إلى أتباعهم ، والمترفين من الأمراء ، والرعيّة .

وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، نورد أنّ عتّابة ، أم جعفر البرمكي ، كانت تخدمها أربعمائة وصيفة (وفيات الأعيان ٣٤١/١) .

وأنّ عمر بن فرج الرخجي ، أحد العمال الأشرار ، كانت لديه مائة جارية (الطبري ١٦١/٩) .

وأنّ زوجة يعقوب بن اللّيث الصفّار ، كانت لديها ألف وسبعمائة جارية (وفيات الأعيان ٤٢٩/٦) .

وأنّ بلكّين الصنهاجي ، خليفة المعزّ الفاطمي على أفريقية (ت ٣٧٣) كانت لديه أربعمائة حظية (وفيات الأعيان ٢٨٧/١) .

وأنّ العزيز الفاطمي توفي سنة ٣٨٦ عن عشرة آلاف جارية (إتّعاظ الحنفا ٢٩٥) .

وأنّ ستّ النصر ، أخت الحاكم الفاطميّ (ت ٤١٥) ، تركت أربعة آلاف جارية بين بيضاء وسوداء ومولّدة (بدائع الزهور ٥٨/١) .

وأنّ نصر الدولة الحميدي ، صاحب ميافارقين (ت ٤٥٣) ، كانت لديه ثلثمائة وستّون جارية ، بعدد أيّام السنة (وفيات الأعيان ١٧٧/١ والوافي بالوفيات ١٧٦/٨) .

وكان للمعتمد بن عباد اللّخمي ، صاحب أشبيلية (ت ٤٨٨) ثمانمائة سريّة (شذرات الذهب ٣٨٦/٣ ومرآة الجنان ١٤٧/٣) .

وكان لأبي زنبور ، الوزير بمصر (ت ٣١٤) سبعمائة جارية (شذرات الذهب ١٧٣/٦) .

وكان عند الوزير يعقوب بن كلس ، وزير العزيز الفاطمي (ت ٣٨٠) ثمانمائة حظية ، سوى جواري الخدمة (خطط المقريزي ٨/٢) .

وكان في دار ابن نجيّة الواعظ (ت ٥٩٩) عشرون جارية للفراش ، تساوي كل جارية ألف دينار (الذيل على الروضتين ٣٥) فأعجب لواعظ يرتبط لفراشه عشرين جارية .

ومات السلطان الناصر محمّد بن قلاوون (ت ٧٤١) ، عن ألف ومائتي وصيفة مولّدة ، سوى من عداهنّ من بقيّة الأجناس (خطط المقريزي ٢١٢/٢) وماتت زوجته الخونده طغاي سنة ٧٤٩ عن ألف جارية (خطط المقريزي ٤٢٦/٢) ، أما الخونده أردوتكين ، زوجة الملك الأشرف خليل ، وزوجة الملك الناصر محمد بن قلاوون من بعده ، (ت ٧٢٤) ، فقد كان لها من المماليك أكثر من ألف ، ما بين جارية وخادم (خطط المقريزي ٦٣/٢) .

وكان مقبول خان وزير فيروز شاه ملك الهند (٧٥٢ — ٧٩٠) يملك ألفي جارية ، من بينهنّ الروميّة ، والصينيّة ، والفارسيّة (الاسلام والدول الاسلامية في الهند ص ٢٢) .

وفي مقابل من ذكرنا ، نورد أن الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز لما استخلف ، خيّر جواريه ، وأعتق من رغبت في العتق ، واقتصر على زوجته ابنة عمّه ، فاطمة بنت عبد الملك (تاريخ الخلفاء ٢٣٥) .

أما أبو العبّاس السفّاح ، أوّل الخلفاء العباسيّين ، فانه تزوّج أمّ سلمة المخزوميّة ، قبل الخلافة ، فلم يتزوّج عليها ، ولم يتسرّ ، ولما استخلف ظلّ على وفائه لها ، فلم يدن إلى امرأة غيرها ، حرّة ولا أمَة ، إلى أن مات (راجع التفصيل في مروج الذهب للمسعودي ٢٠٦/٢ — ٢٠٨) .

وكذلك كان المتّقي ، ابراهيم بن المقتدر (ت ٣٥٧) ، فانه لما استخلف لم يتسرّ على جاريته التي كانت له (تاريخ الخلفاء ٣٩٤) .

وتابعهم في ذلك ملك العرب سيف الدولة ، صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي (ت ٥٠١) ، فإنّه اكتفى بزوجة واحدة ، لم يتزوّج عليها ، ولم يتسرّ (المنتظم ١٥٩/٩) .

وكذلك كان المستعصم ، آخر الخلفاء العبّاسيين ببغداد (ت ٦٥٦) فقد كانت له – وهو أمير – جاريتان ، فلما استخلف لم يتغيّر عليهما (خلاصة الذهب المسبوك ٢٩١) .

الحمار

قسم صاحب معجم الحيوان ، الحمير ، إلى أربعة أنواع ، حمار البيت ، وحمار قبّان ، وحمار الزرد ، والحمار العتّابي (معجم الحيوان ٢١ ، ٩٨ ، ١٧٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠) وفي دائرة المعارف الاسلامية ٦٥/٨ قسم الحمار إلى أهليّ ووحشيّ ، والأهليّ إلى دابة ركوب ، ودابّة حمل ، ووصف حمار الركوب ، بأنّه سريع العدو ، يهتدي إلى الطريق ، ولو سلكه مرّة واحدة ، وأنّه حادّ السمع ، قليل المرض ، وذكر أنّ العرب لا يركبون الحمير استنكافاً .

أقول : إنّ العرب في صدر الاسلام ، لم يكونوا يستنكفون من ركوب الحمار ، فإنّ النبيّ صلوات الله عليه كان يركب الحمار (المخلاة للبهائي ٢٩٢) والخليفة عمر بن الخطاب ، وهو قدوة ، ركب حماراً أرسنه بحبل أسود (العقد الفريد ٢٧١/٤) ولما قدم الشام ، قدمها على حمار (العقد الفريد ٣٦٥/٤ و ١٤/١ والبصائر والذخائر ٣٠/٤) .

ثم تغيّر الحال ، فأصبحت الخيل مركب الخلفاء ، والأمراء ، والأميرات ، والوزراء ، والقوّاد ، وقد روى ياقوت في معجم الأدباء ٤٨٥/٥ و٤٨٦ قصّة عن جمال الدين بن القفطي ذكر فيها أنّ والده قدم مصر ، لم تكن دوابّه معه ، فأبى أن يركب حماراً .

واستمرّ على ركوب الحمار ، التجّار البغداديّون (القصّة ٥٤/٢ و٥٦/٣ من نشوار المحاضرة) والشعراء ومتوسّطو الحال (نهاية الأرب ٧١/٤ و٩٩/١٠ و١٠٠ وفوات الوفيات ١٤٠/٣) والفقهاء والقضاة (القصّة ٤٠/٣ من نشوار المحاضرة ، وشذرات الذهب ٢٢٠/٢) وكذلك عقيلات النساء (القصّة ٣١٧ من هذا الكتاب) .

وممّن عرف بركوب الحمار خالد بن صفوان (البصائر والذخائر م٢ ق٢ ص ٥٨٨ و٥٨٩) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنّى (مرآة الجنان ٤٥/٢) ، وابن جامع القرشي المغنّي (الأغاني ٢٩١/٦ ونهاية الأرب ٣٠٦/٤) ، وعيسى بن مسكين فقيه المغرب وقاضي القيروان (مرآة الجنان ٢٢٤/٢) ، وأبو يزيد النكاريّ ، الخارج بالمغرب على الفاطميّين (اتعاظ الحنفا

ص ٧٠) . وأبو العيناء محمد بن القاسم بن خلّاد (الملح والنوادر للحصري ص ٢٣٠) .

ومن الطريف أن نذكر أن أبا القاسم الضحّاك بن مزاحم البلخي المفسّر (ت ١٠٥) كان مؤدّباً ، وكان في مكتبه ثلاثة آلاف صبي ، وكان يطوف عليهم على حمار (ميزان الاعتدال ٣٢٥/٢) .

وكان الخلفاء ، يركبون الحمير ، في أوقات التخفّف ، وفي بيوتهم ، وفي بساتينهم ، وخرج الوليد بن يزيد مرّة على المغنّين ، وهو راكب على حمار (الأغاني ٢٧٨/١٣) ، وكان الهادي يركب حماراً فارهاً (تاريخ الخلفاء ٢٧٩) ، وخرج مرّة ليعزّي أحد أفراد حاشيته وهو على حمار أشهب (الطبري ٢٩١/٨) ، وزار عبد الله بن مالك ، وهو على حمار (الطبري ٢١٦/٨) ، وكان الرشيد يركب حماراً مصرياً أسود اللون ، قريباً من الأرض ، يطوف به على جواريه (المحاسن والأضداد ١٧٤ ومطالع البدور ٢٣٨/١) ويخرج به لعيادة من يريد عيادته (الأغاني ٢٥٣/٥ ونهاية الأرب ٣٤١/٤) وزيارة من يزوره (الأغاني ١٧٥/١٠) ، وانتبه مرّة في نصف الليل ، فقال : هاتوا حماري ، وركبه ، وخرج (الأغاني ١٧٦/١٠) ، وعاد المعتصم ولدَه الواثق ، ثم رجع راكباً حماراً (الأغاني ٢٥١/٨ و٢٥٢ ونهاية الأرب ٢٣٢/٤) وكان يركب الحمار عند خروجه من داره متخففاً (القصّة ١٢٥/٧ من نشوار المحاضرة) ، وكان العزيز الفاطمي يركب الحمار (إتعاظ الحنفا ٢٩٤) ، وكان الحاكم الفاطمي ، يركب الحمار ، ويدور في الأسواق (شذرات الذهب ١٩٣/٣ وخطط المقريزي ٢٨٨/٢) ومات الحطيئة الشاعر ، وهو على حمار (فوات الوفيات ٢٧٩/١) .

ومما يجدر ذكره أنّ الرشيد ، لما أمر بقتل جعفر البرمكي ، دخل عليه مسرور ، وأخرجه إخراجاً عنيفاً ، وقيّده بقيد حمار ، ثم ضرب عنقه (الطبري ٢٩٥/٨) .

وكان الحمار مركب المتحابّين إذا خرجوا لموعد (الأغاني ٣٩٥/١) ومركب القهرمانات إذا بارحن القصور من أجل أشغال السادة (القصّة ٤٧٨ من هذا الكتاب) ، ومركب المغنّين والمغنّيات والجواري (القصّة ٤٧٩ من هذا الكتاب ، ونهاية الأرب ٣١/٥ و١١٠) ومركب رجال الدولة إذا خرجوا متنكّرين (القصّة ٤٧١ من هذا الكتاب ، والقصّة ٢/٢ من نشوار المحاضرة) .

وكان المتوكّل يركب الحمار في داره (كما في هذه القصّة) ، وكان يصعد إلى أعلى منارة سامراء ، وهو على حمار مريسي (لطائف المعارف ١٦١) ، أقول : هذه المنارة ، ما زالت شامخة في الجوّ ، يسميها الناس : الملويّة ، والطريق إلى أعلاها ، يتلوّى حولها ، من خارجها .

ولما بنى المكتفي قصر التاج ، بنى قبّة على أساطين رخام ، عرفت بقبّة الحمار ، لأنّه كان يصعد إليها ، في مدرج حولها ، كمنارة جامع سامراء ، على حمار صغير الجرم ، وكانت عالية مثل نصف دائرة (كتاب دليل خارطة بغداد ص ١٢٦) .

أقول : لما زرت بلاد الأندلس في السنة ١٩٦٠ ، أبصرت في أشبيلية ، من آثار المسلمين الباقية ، مأذنة ، يسمّونها : الجيرالدا ، ذات علوّ شاهق ، يصعد إليها من باطنها ، في طريق يتّسع لستّة أشخاص ، يسيرون جنباً إلى جنب ، وذكروا لنا أنّ المؤذن كان يصعد إلى أعلى هذه المأذنة ، راكباً حماراً ، ووجدت أهالي أشبيلية ، يفتخرون بهذه المأذنة ، ويقولون : إنّ من صعد إلى أعلى برج إيفل بباريس ، أبصر باريس كلّها ، أمّا من صعد إلى أعلى الجيرالدا ، فإنّه يرى الدنيا كلّها .

وكان الناس يغالون في حمير مصر ، وهي موصوفة بحسن المنظر ، وكرم المخبر (لطائف المعارف ١٦١ ونهاية الأرب ٩٣/١٠) ، وأهل مصر يعنون بتربية الحمير ، والقيام عليها ، لما يجدونه فيها من الفراهة ، وسرعة الحضر ، والنجابة ، ويبالغون في أثمانها ، حتى بيع في بعض السنين ، حمار ، بمائة دينار وعشرة دنانير ، وكان صاحبه يسمع أذان المغرب بالقاهرة ، فيركب ، ويسوقه ، فيلحقها بمصر ، وبينهما ثلاثة أميال (مطالع البدور ١٨٢/٢) .

وذكر ابن سعيد : أنّ المغاربة كانوا يأنفون من ركوب الحمار ، خلافاً لأهالي مصر ، فإنّ أعيان مصر ، والفقهاء ، والسادة ، يركبون الحمير (خطط المقريزي ٣٤١/١ ونفح الطيب ٣٣٩/٢) حتى إنّ ابنة الإخشيد محمّد بن طغج ، كانت تقطع الأزقّة في القاهرة وهي على ظهر حمار (خطط المقريزي ٣٥٣/١) .

أقول : لم تقتصر الأنفة من ركوب الحمار على المغاربة المسلمين ، وإنّما تعدّتهم إلى إفرنج أسبانيا ، فإنّ الملك الفونس ، لما انكسر في السنة ٥٩١ في المعركة بينه وبين السلطان أبي يوسف الموحّدي ، حلق ألفونس رأسه ، وركب حماراً ، وأقسم لا يركب فرساً حتى ينتصر (ابن الأثير ١١٥/١٢) ، وكذلك صنع علاء الدين الغوري ، في السنة ٦٠٢ ، فإنّ أهالي غزنة نهبوا جميع ما كان لديه ، فلما وصل إلى باميان ، لبس ثياب سواديّ ، وركب حماراً ، وقال : أريد أن يراني الناس وما صنع بي أهل غزنة ، حتى إذا عدت إليها وأخربتها لا يلومني أحد (ابن الأثير ٢٢٠/١٢) .

وذكر القزويني ، في آثار البلاد ٢٦٢ : أنّ الحمر المريسيّة ، نسبة إلى المريسة في ناحية

الصعيد بمصر ، من أجود حمر مصر ، وأمشاها ، وأحسنها صورة ، وأكبرها ، تحمل إلى سائر البلاد للتحف ، وليس في شيء من البلاد مثلها ، والبلاد الباردة لا توافقها ، فتموت فيها سريعاً .

وخرج توقيع عبد الله بن طاهر : إذا وجدتم البرذون الطخاري ، والبغل البرذعي ، والحمار المصري ، والرقيق السمرقندي ، فاشتروها ، ولا تستطلعوا رأينا فيها ، (لطائف المعارف ٢١٩) .

وروى صاحب مطالع البدور ١٨٣/٢ طريفتين عن الحمار ، الأولى : ذكر إنّه ركب حماراً ، من مصر إلى القاهرة ، فلما كان في أثناء الطريق ، حاد به عن السكّة ، وجهد أن يردّه ، فلم يطق ، حتى انتهى إلى جدار بستان ، فوقف ، وبال ، وعاد إلى الطريق ، وكذلك جرى له مع حمارين آخرين ، والطريفة الثانية : إنّ حماراً كان بمصر ، يجتمع عليه الناس ، ويجمعون له مناديل ، تلقى على ظهره ، ثم يأمره صاحبه بإعادة كلّ منديل إلى صاحبه ، فيدور في الحلقة ، ولا يقف إلاّ على من له في ظهره منديل ، فإن أخذه ، ذهب عنه ، وإن أخذ غيره ، لا يذهب ، ولو ضرب مائة ضربة ، ويأخذ الخاتم من إصبع الرجل ، ويسأله عن وزنه ، فيقول : كم وزن الخاتم ؟ فان كان وزنه درهماً ، مشى خطوة واحدة ، وإن كان درهماً ونصفاً ، مشى خطوة ونصفاً ، وهكذا ، وبينما هو واقف ، يقول له شخص : الوالي يسخّر الحمير ، فما يتمّ كلامه ، إلاّ ويلقي الحمار نفسه على الأرض ، وينفخ بطنه ، ويقطع نَفَسَهُ ، كأنّه ميت من زمان ، فإذا قيل له ، بعد ذلك ، ما بقيت سخرة ، ينهض قائماً .

وكان القاضي ، أو الوالي ، إذا أمر بإشهار شخص ، داروا به على حمار (المنتظم ٢٩٤/٨ و ٢٣٧/١٠ ومهذّب رحلة ابن بطوطة ١٤٧/٢) ، ومن طريف ما يذكر أنّ شخصاً حجَره القاضي للسفه ، وأمر بإشهاره في البلد ، ليمتنع الناس من التعامل معه ، فحمل على حمار ، وداروا به في الأسواق ، فلما انتهى النهار ، طالبه المكاري بالأجر ، فالتفت إليه ، وقال له : في أيّ شيء كنّا منذ الصباح ؟ .

وكان الشماخ الشاعر ، أوصف الناس للحمير ، أنشد الوليد بن عبد الملك ، شيئاً من شعره في وصف الحمير ، فقال : ما أوصفه لها ، إنّي لأحسب أنّ أحد أبويه كان حماراً (الأغاني ١٦١/٩) .

راجع في الملح للحصري ص ٢٨٣ قصّة العاشق الذي حلّ محلّ الحمار في الطاحون .

وقيل لمزبّد ، وقد اشترى حماراً : ما في حمارك عيب ، إلاّ أنّه ناقص الجسم ، يحتاج إلى عصا ، فقال : إنّي كنت أغتمّ ، لو كان يحتاج إلى بزماورد ، فأمّا العصا ، فأمرها هيّن (البصائر والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٦٨٩) .

وقيل لمخنّث عليل ، كان يشرب لبن الأتان : كيف أصبحت ؟ قال : لا تسل عمّن أصبح أخا الحمار (البصائر والذخائر م ٢ ق ١ ص ٢٩) .

ومن مشهوري الحمير : يعفور ، حمار النبي صلوات الله عليه ، أهداه له المقوقس ، صاحب مصر ، ونفق منصرف النبي صلوات الله عليه من حجّة الوداع (الطبري ١٧٤/٣) .

ومن مشهوري الحمير : حمار بشّار بن برد ، وقد زعم بشّار أنّ حماره هنا كان شاعراً غزلاً ، وروى أبياتاً من شعره ، راجع القصة في الأغاني ٢٣١/٣ و٢٣٢ .

ومن مشهوري الحمير ، الحمار الذي كان يركبه الحاكم الفاطمي ، وكان يسميه : القمر (النجوم الزاهرة ٥٤٩) .

ومن مشهوري الحمير : حمار الحكيم توما ، الذي قال فيه الشاعر :

قال حمار الحكيم توما   لو أنصفوني لكنتُ أركَب
لأنني جاهل بسيط   وصاحبي جاهل مركَّب

ومن مشهوري الحمير ، حمار أبي الحسين الجزار ، جمال الدين يحيى بن عبد العظيم ، وهو من عائلة جزّارين ، تكسّب بالشعر مدّة ، ثم عاد إلى الجزارة ، واحتج لعدوله عن الشعر إلى الجزارة ، بقوله :

لا تلمني يا سيّدي شرف الديـ   ـن إذا ما رأيتني قصّابا
كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ   ـت حفاظاً وأترك الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجّيـ   ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكان الجزّار ، كثير الشكوى من حماره ، قال فيه :

هذا حماري في الحمير حمار   في كلّ خطو كبوة وعثار
قنطارُ تبنٍ في حشاه شعيرةٌ   وشعيرةٌ في ظهره قنطار

ولما مات حمار هذا الشاعر ، داعبه شعراء عصره ، بمراثٍ وهزليّات ، فقال بعضهم :

قولوا ليحيى لا تكن جازعاً   لا يرجع الذاهب بالليت

طامن أحشاءك فقدانه وكنت فيه عالي الصوت
وكنت لا تنزل عن ظهره ولو من الحشّ إلى البيت
ما مات من داءٍ ولكنّه مات من الشوق إلى الموت

وقال آخر :

مات حمار الأديب ، قلت قضى وفات من أمره الذي فاتا
مات وقد خلّف الأديب ومن خلّف مثل الأديب ما ماتا

فأجابه أبو الحسين قائلاً :

كم من جهولٍ رآني أمشي لأطلب رزقا
وقال لي : صرتَ تمشي وكلّ ماشٍ ملقّى
فقلت : مات حماري تعيش أنت وتبقى

ومات لابن عُنَين الدمشقي (٥٤٩ – ٦٣٠) حمار ، بالموصل ، فرثاه بقصيدة مثبتة في ديوانه (١٤٠ – ١٤٢) ، منها :

لا تبعدَنْ تربةً ضمّت شمائلَهُ ولا عدا جانبيها العارض الهطل
قد كان إن سابقته الريحُ غادرها كأنّ أخمصها بالشوك ينتعل
لا عاجزاً عند حمل المثقلاتِ ولا يمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوَجِل
وإنّ لي بنظام الدين تعزية عنه وفي النجب من أبنائه بدل

وقرأت في كتاب من تأليف أديب مغربي ، أنّ مغربياً باع حماره من آخر ، وشرط عليه المشتري ، أن يسلّمه الحمار في حلّته ، وخرجا إليها معاً ، ولما دخلا بين البيوت ، أبصر البائعُ حماراً أدبر ، قد أهمله أصحابه ، فالتفت إلى صاحبه ، وقال : أهكذا يعامل الحيوان الأعجم ؟ أنتم قوم سوء ، وأعاد إلى المشتري ماله ، وكرّ عائداً بالحمار .

وعرض محمّد بن واسع الأزدي ، بسوق مرو ، حماراً ، فقال له رجل : يا عبد الله ، أترضاه لي ؟ فقال : لو رضيته لما بعته (نشوار المحاضرة ، القصّة ٦١/٤) .

ولزيادة التفصيل في هذا الموضوع راجع نهاية الأرب ٩٣/١٠-١٠٢ والغيث المسجم في شرح لاميّة العجم ١٣٧/٢ و ١٣٨) ، وكتاب الحيوان للجاحظ .

أقول : أدركت الناس ببغداد ، قبل انتشار استعمال السيارات ، يركب الوجهاء منهم ،

الحمير ، ويختارونها بيضاء ، عالية ، ويسمّونها : الحساويّة ، لأنّها تجلب من الأحساء ، وكانوا يتأنّقون في اختيار الجلّ ، ويسمّونه : المعرقة (تلفظ القاف كافاً فارسية) .

وقد وصف حمير بغداد البيض ، سائح أمريكي اسمه بيري فوك ، مرّ ببغداد في السنة ١٨٧٢ ، في عهد الوالي محمد رديف باشا ، الذي خَلَفَ مدحت باشا ، فقال :

إنّ الحمير البيض في بغداد مشهورة في أنحاء الشرق ، وأثمانها عالية ، وقسم منها كبير الحجم ، وتزيّن بصبغها بالحنّاء ، فتبدو آذانها وأذنابها حمراء اللون ، وأبدانها منقّطة بالحنّاء ، وهي ما زالت – كما كانت في قديم الزمان – مركب رجال الدين و كبار الحكّام ، كما أنّ السيدات يفضّلنها على بقيّة الدواب ، وهم يشرحون منخر الحمار ، ويشقّونه شقّاً مستطيلاً ، ويقولون إنّ هذا الشقّ يجعل الحمار أطول نَفَساً ، ولكنّي كلّما سمعت حماراً ينهق ، أيقنت أنّه لا ضرورة لهذا التصرّف ، ولا محلّ له (كتاب عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة) .

والبغداديون يسمّون الحمار : زمال ، من الزِمْل (بكسر الزاي وميم ساكنة) أي الحمل ، ويقال : زَمَلَ (بفتح) ، أي حَمَلَ ، والزاملة ، مؤنث الزامل : الدابّة من الإبل وغيرها يحمل عليها (المنجد) ، قالت السيدة أسماء بنت أبي بكر : كانت زِمالة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وزمالة أبي بكر ، واحدة ، أي مركوبهما (لسان العرب) ، راجع ما كتبه الدكتور سليم النعيمي في مجلّة المجمع العلمي العراقي م ٢٥ ص ٢٥ و٢٦ .

وكانت «زمالة الزهاوي» الشاعر جميل صدقي الزهاوي (ت ١٩٣٦) مضرب المثل في جمال الهيئة والنظافة ، وكانت بيضاء ، عالية الظهر ، حساوية ، وكان الزهاوي يعنى عناية فائقة ، بعلفها ، ونظافتها ، وكان – رحمه الله – مصاباً بارتخاء في عضلات ساقيه لا يمكّنه من المشي إلاّ بمعونة ، فكان يركبها في روحاته وغدواته .

وللبغداديين أمثال تتعلّق بالحمار ، أذكر منها ثلاثة :

أوّلها : مثلٌ يضرب لمن يكدّ ليله ونهاره ، من دون راحة ، فيقولون : مثل زمال الطمّة ، يروح محمّلاً ، ويعود محمّلاً ، والطمّة : فصيحة ، ما طمّ من الجمر في الرماد ، ويطلق البغداديّون هذه الكلمة على موقد الحمّام ، وكان يوقد فيه النفايات والقمامة ، وكلّ ما يحترق ، فكان «زمال الطمّة» يروح إليها حاملاً الوقود ، ويعود منها حاملاً الرماد المتخلّف .

وثانيها : مثلٌ يضرب لمن ورّط نفسه في ورطة يصعب التخلّص منها ، فيقولون : تعال طلّع هذا الزمال من هذي الوحلة .

وثالثها : مثلٌ يضرب لمن يتحايل بحيلة مكشوفة ، فيقولون : إحنا دافنيه سوا ، وأصل المثل : إنّ بغداديّين تعطّلا ، وحاولا أن يجدا عملاً ، فلم يوفّقا ، ثم وجدا حماراً نافقاً ، فأخذاه ، ودفناه ، ووضعا على قبره شاهداً ، وادّعيا إنّه قبر ولي من أولياء الله ، وأصبح أحدهما سادناً للقبر ، والثاني واعظاً وإماماً للجماعة فيه ، وظلاّ على ذلك حيناً ، ثم أحسّ أحدهما أنّ صاحبه يغتال قسماً من الواردات ، ويستأثر بها ، فخاصمه ، فبادر صاحبه وضرب بيده على القبر ، يحلف على براءته من التهمة ، فصاح به صاحبه : ويحك ، إحنا دافنيه سوا .

وللبغداديّين نوادر ، فيها ذكر للحمار ، يتندّرون بها ، أذكر منها نادرتين :

الأولى : نادرة يتندّر بها البغداديون على أهل الموصل ، والمعروف عن أهل الموصل تعصّبهم لبعضهم ، بحيث لا يتسنّى للغريب أن يجد فيها رزقاً ، وخلاصتها : أنّ سقّاءً بغداديّاً هاجر إلى الموصل ، واستقرّ فيها ، وأراد أن يمارس فيها مهنته ، فاشترى حماراً وقربة ، وباشر بحمل الماء من النهر إلى المدينة ، وفي اليوم الأول لم يتعامل معه أحد ، وكذلك في اليوم الثاني ، وجاع السقّاء ، وجاع حماره ، فأخذه في اليوم الثالث ، وذهب إلى سوق المدينة ، وقال : يا جماعة ، إنّ حرمانكم إيّاي من الرزق أمر مفهوم ، لأنّي بغداديّ ، ولكنّ هذا الحمار موصلي ، وهو يكاد يموت جوعاً ، فإن لم ترفقوا بي ، فارفقوا به .

والثانية : نادرة يتندّر بها البغداديّون على أحد القضاة ، وخلاصتها : أنّ اثنين اختصما على حمار ، كلّ واحد منهما يدّعي ملكيته ، وتداعيا عند القاضي ، وقدّم المدعي للقاضي عشرة مجيديّات رشوة ، وبلغ المدعى عليه ما صنعه خصمه ، فذهب إلى القاضي وأعطاه عشرة مجيديّات أيضاً ، ونظر القاضي في الدعوى ، وأراد أن يرضي الطرفين ، فحكم بأن يباع الحمار ويقسم ثمنه بين المتداعيين ، وبيع الحمار بعشرين مجيديّاً ، وتسلّم كل واحد من المتداعيين عشرة مجيديّات ، فتوجّها إلى القاضي ، وقالا له : يا أفندينا ، تبيّن أنّ الحمار لا يعود لواحد منّا ، وإنّما يعود لك ، لأنّك استوفيت ثمنه كاملاً .

ودخل أحمد بن محمّد القزويني إلى سوق النخّاسين في الكوفة ، وطلب حماراً ، لا بالصغير المحتقر ، ولا بالكبير المشتهر ، إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرت علفه شكر ، لا يدخل تحت البواري ، ولا يزاحم براكبه السواري ، إذا خلا الطريق تدفّق ، وإذا كثر الزحام ترفّق ، فقال النخّاس : أصبر حتى يمسخ القاضي حماراً ، وأشتريه لك ، (أخبار الحمقى والمغفّلين ص ١٢٦) .

ونهيق الحمير ، يسمّى : الزرّ (البصائر والذخائر ٢٩٧/٤ ، راجع أخلاق الوزيرين ١٤٩) وفي بغداد ، يلفظونها : زعرّ ، وإذا صيح بها أمام الحمار ، نهق .

وذكر الجبرتي في تاريخه ٥٣٩/٢ و١٥٥/٣ أنّ العسكر العثماني ، بالقاهرة ، باشروا في السنة ١٢١٧ بخطف حمير الناس من أولاد البلد ، فأخفى الناس حميرهم ، فكان الجماعة من العسكر ينصتون بآذانهم على أبواب الدور ، ويقف بعضهم على الدار ، ويقول (زرّ) ، ويكرّرها ، فينهق الحمار ، فيؤخذ .

وكان إبراهيم بن الخصيب المديني ، أحمق ، وكان له حمار أعجف ، وكان إذا علّق الناس المخالي بالعشيّ ، أخذ مخلاة حماره ، وقرأ عليها «قل هو الله أحد» ، وعلّقها عليه فارغة ، وقال : لعن الله من يرى كيلجة شعير ، أنفع من «قل هو الله أحد» ، فما زال هكذا حتى نفق الحمار ، فقال : إنّ قل هو الله أحد ، تقتل الحمير ، فهي للناس أقتل ، لا قرأتها ما عشت (البصائر والذخائر م ١١٨/٤ و ١١٩ ، وراجع كتاب أدب الغرباء للاصبهاني ٤٦) .

ومما يروى عن السيد عبد الحسين الغريفي ، من علماء البحرين ، وكان فقيهاً من العلماء الأتقياء ، أنّه هجم عليه يوماً ، وهو في حلقة درسه ، معيديّ ، أوسعه إزعاجاً ، وألحّ عليه أن يستخير له ، فإنّه بصدد عمل يريد أن يقوم به ، فعمد السيد إلى كتاب الله ، وفتحه ، ثم التفت إليه وقال : أنت تريد أن تشتري حماراً ، فقال له : إي والله يا سيّدنا ، فقال له : امض فاشتره ، ولما بارح المعيديّ المكان ، سأله تلامذته : كيف عرف مراد المعيديّ ؟ فقال له : استفتحت له ، فظهرت الآية : سنشدّ عضدك بأخيك .

أقول : أنا في شكّ من صحّة هذه الحكاية ، لأنّ السيد عبد الحسين ، وهو من الفقهاء الزهّاد ، أتقى لله من أن يتّخذ من آيات القرآن مورداً للتملّح .

وقال عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) [شذرات الذهب ٣٤١/٣] :

تكبّر على العقل لا ترضه ... ومل إلى الجهل ميل هائم
وعش حماراً تعش سعيداً ... فالسعد في طالع البهائم

وصديقنا المصوّر أرشاك ببغداد ، يخالف الناس في وصف الحمار بالبلادة ، وهو يقول : إنّ الحمار عاقل حكيم ، وإنّ النظرة التي نراها في عينه ونحسب أنها نظرة بلادة ، إنّما هي نظرة استهانة بنا ولا مبالاة ، وكأنّه يقول لنا : أنتم تقولون عنّي أنّي حمار ، وفي الحقيقة ، إنكم أنتم الحمير .

للتوسّع في البحث ، راجع الطبري ٥٢٢/٥ و ٦/٤٠-٤٢ و ٥٢/٧ و ٢٤٠ و ٥٥٥ و ١٢٢/٨ و ١٩٤ و ٨/٣٠٠-٣٠٢ و ٨/١٠ ، والولاة للكندي ٤٦٩ و ٤٧١ ، والأغاني ١٥٧/١٢ و ٣٠٣/١٨ و ٣٤٧ و ٦٩/٢٠ و ١٨٢/٢٢ ، والعقد الفريد ٤٤٢/٦ ، والأغاني ط بولاق ٣١/٢٠ .

٢٨٤

ابن الطبري الكاتب النصراني

تجلب له التوفيق رفسة حصان

وجدت في بعض الكتب : أنّ عبد الله المعروف بابن الطبري النصراني الكاتب ، قدم سرّ من رأى يلتمس التصرّف ، فلزم الدواوين مدّة ، إلى أن نفدت نفقته ، وانقطعت حيلته ، ولم يبق إلّا ما عليه من كسوته ، [فعدم القوت ثلاثة أيّام بلياليها ، وهو صابر خوفاً من أن يبيع ما عليه ، فيتعطّل عن الحركة ، فلمّا كان في اليوم الرّابع][1] عمل على بيع ما عليه ليأكل [١٤١ م] ببعضه ، وليشتري بالبعض الآخر تاسومة[2] ، ومرقّعة[3] ، وركوة[4] ، ويخرج في زيّ فيج[5] إلى بلد آخر ، لأنّه بقي ثلاثة أيّام لم يأكل شيئاً .

ثمّ شرهت نفسه إلى الرّجوع إلى الدّيوان ، مؤمّلاً فرجاً يستغني به عن هذا ، من تصرّفٍ أو غيره .

فمشى يريد الديوان ، وهو مغموم مفكّر ، إذ سمع صوت حافر من ورائه ، وقوم يصيحون : الطّريق ، الطّريق .

فلشدّة ما به ، غفل عن التنحّي عن الطّريق ، فكبسه شهريّ[6] كان راكبه

---

١ الزيادة من م .

٢ التاسومة : ضرب من الأحذية (الألفاظ الفارسيّة المعربّة ٣٣) .

٣ المرقّعة : كساء من الصوف لبسه الصوفيّة أوّلاً ، وكانوا يخيطون فيه رقاعاً عدّة إظهاراً للزهد ، ولبسه غيرهم من الناس ، وأصبح اسمه مرقّعة حتى لو خلا من الرقاع .

٤ الركوة : إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء .

٥ راجع حاشية القصّة ٢٢١ من هذا الكتاب .

٦ الشهريّ : برذون بين الرمكة والفرس العتيق (أساس البلاغة للزمخشريّ ١/٥١١) .

المؤيّد بالله[7] بن المتوكّل على الله ، وهو إذ ذاك أحد أولياء العهود[8] ، فداسه ، وسقط على وجهه .

فصعب ذلك على المؤيّد ، ولم يكن يعرفه ، فاغتمّ أن يجرى منه على إنسان مثل ذلك ، فأمر أن يحمل إلى داره ، ففعل ذلك ، وأفردت له حجرة ، ومن يخدمه ، وعولج بالدواء ، والطعام ، والشراب ، والطّيب ، والفرش ، حتّى برئ بعد أيّام ، فأنفذ إليه ألفي درهم ، وسأله إحلاله ممّا جرى عليه .

فقال : لا أقبلها ، أو تقع عيني على المؤيّد ، فأشافهه بالدّعاء .

فأوصل إليه ، فشكره ، ودعا له ، وقصّ عليه قصّته ، وسأله استخدامه .

فخفّ على قلب المؤيّد ، واستكتبه ، وأمر أن يصرّف في داره ، وفي دار والدته إسحاق ، جارية المتوكّل ، فتصرّف فيها مدّة ، وصلحت حاله .

وكان الموفّق ، أخو المؤيّد من أمّه[9] ، قد رأى ابن الطبري ، فاجتذبه إلى خدمته ، ونفق عليه ، وانتهى أمره معه إلى أن جعل إليه تربية المعتضد[10] ، وأكسبه الأموال الجليلة[11] .

---

٧ المؤيّد : إبراهيم بن جعفر المتوكّل ، كان أحد أولاد المتوكّل الثلاثة الذين عقد لهم العهد في السنة ٢٣٥ ، ولما قتل المتوكّل ، خلع المنتصر أخويه المعتزّ والمؤيّد من ولاية العهد ، ولما ولّي المستعين جرّد المعتزّ والمؤيّد من كلّ ما لديهما من أموال وعقار ، وترك للمعتزّ ما قيمته عشرين ألف دينار ، وللمؤيّد ما قيمته خمسة آلاف دينار ، وحبسهما ، ثم اختلف الأتراك مع المستعين ، فأخرجوا المعتزّ والمؤيّد من حبسهما ، وبايعوا المعتزّ بالخلافة ، ولما قوي المعتزّ ، بادر في السنة ٢٥٢ إلى خلع أخيه المؤيّد ، وحبسه ، ثم قتله في حبسه ، والمؤيّد والموفق أبو أحمد طلحة من أمّ واحدة وهي إسحاق الأندلسية ، راجع تجارب الأمم ٥٤٥/٦ ، ٥٥٨ ، ٥٧٩ وابن الأثير ١٧١/٧ و١٧٢ والمستظرف من أخبار الجواري ص ١٠ .

٨ يعني أنّ ذلك في حياة المتوكّل ، أي قبل السنة ٢٤٧ ، إذ أنّ المؤيّد عزل من ولاية العهد بعد قتل أبيه .

٩ المستظرف من أخبار الجواري ص ١٠ .

١٠ راجع القصّة ٥٦/٧ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي .

١١ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٨٥

أبو بكر محمّد بن طغج

ينتقل من ضعف الحال إلى ملك مصر

وجدتُ في بعض الكتب : حدّث أبو الطّيب بن الجنيد ، الّذي كان صاحباً لأبي جعفر محمّد بن يحيى بن زكريا بن شيرزاد[١] ، وكان قبل ذلك جاراً لأبيه أبي القاسم ، قال :

كان أبو بكر محمّد بن طغج بن جف[٢] ينزل قديماً بالقرب من منازلنا ببغداد ، بقصر فرج[٣] ، وكان رقيق الحال ، ضعيفاً جدّاً .

وكان له على باب دويرته[٤] دكّان[٥] يجلس عليها دائماً ، ودابّته مشدودة

---

١ أبو جعفر محمّد بن يحيى بن زكريا بن شيرزاد : ترجمته في حاشية القصّة ٣٧٨ من هذا الكتاب .

٢ أبو بكر محمّد بن طغج بن جف ، الملقّب بالإخشيد (٢٦٨–٣٣٤) : مؤسّس الدّولة الإخشيديّة بالشّام ومصر ، فرغاني الأصل ، من أبناء المماليك ، ولد ونشأ في بغداد ، وتقلّب في الأعمال ، إلى أن ولّاه الراضي إمرة الديار المصريّة ، واستقرّ بها سنة ٣٢٣ بعد حروب وفتن ، ولقبه الراضي بالإخشيد لأنّه لقب ملوك فرغانة ، توفّي بدمشق ، ودفن ببيت المقدس بباب الأسباط (الأعلام ٤٤/٧) .

٣ قصر فرج : وتسمّى دار فرج أيضاً ، محلّة كانت ببغداد فوق سوق يحيى ، نسبت إلى فرج بن زياد الرخجي ، مملوك حمدونه بنت الرّشيد إذ كان قصره فيها على دجلة ، ولم يكن على شاطئ دجلة أحكم بناء منه . أبصره أعرابي فأعجبه ، وسأل عن صاحبه ، فلمّا أخبر به ، قال :

لعمرك ما طول البناء بنافع   إذا كان فرع الوالدين قصير

معجم البلدان ٥٢٢/٢ ومراصد الاطلاع ٥٠٧/٢ والهفوات النادرة ٧٧ .

٤ الدويرة : مصغّر دارة ، وكلّ ما يدور عليه سور فهو دارة ، يريد بذلك الدار الصغيرة .

٥ الدكّان : فارسية ، دكّة كالمصطبة ، يقعد عليها ، ثم استعملت للحانوت الصغير ، لأنّ صاحبه يجلس في صدره على دكّة ، والبغداديّون يسمّون الحانوت الصغير : دكّاناً ، فإن كبر ، سمّوه : مغازة ، والكلمة محرّفة عن الإفرنجية Magazine المنقولة عن الكلمة العربية : مخزن .

إلى جانبها ، وهو يراعيها [١٧٨ ظ] بالعلف والماء بنفسه[٦] .

وكان له رزق سلطانيّ يسير ، يتأخّر عنه أبداً ، فلا يقبضه إلّا في الأحايين .

وكان شديد الاختلال ، ظاهر الفقر ، وكان له عدّة بنات لا ذَكَر فيهنّ .

وكان يجتاز به أبو القاسم يحيى بن زكريا بن شيرزاد ، أو أحد ابنيه ، أبو الحسن ، وأبو جعفر ، فيقوم قائماً ، ويظهر التعبّد لهما ، ولا يزال واقفاً إلى أن يبعدا عنه .

وكنت ربّما جلست إليه ، فيأنس بي ويحدّثني ، ويشكو بثّه ، وما يقاسيه من كثرة العائلة ، وضيق الحال .

ويقول : ليت كان لي فيما رزقته من الولد ، ذَكَرٌ واحدٌ ، فكنت أتعزّى به قليلاً [١٥٠ ر] ، ويخفّ بالرّجاء له ، والسّرور به ، بعض كربي وهمّي بهؤلاء البنات .

قال أبو الطّيب : وضرب الدّهر من ضربه ، وتقلّب من تقلّبه ، وطال العهد بابن طغج ، وخرج في جملة تجريد[٧] جرّد إلى الشّام ، وأنسيناه ، وترجّمت به الظنون ، وترامت به الأحوال ، حتّى بلغ أن يقلّد مصر وأعمالها[٨] ، وكان من علوّ شأنه ، وارتفاع ملكه ، وحصول الأمر له ، ولولده من بعده ، ما كان ، ممّا هو مشهور .

وكان قد طرأ إلى تلك النّاحية أحد التجّار الواسعي الأحوال ، من جوارنا ، ممّن كان يعرف ابن طغج على تلك الأحوال الأول ، فلمّا كان بعد سنين ،

---

٦ يعني إنّه لم يكن لديه سائس أو شاكري أو خادم يعنى بدابّته ، وهذا أقصى ما يصل إليه الجنديّ من الاختلال في ذلك الحين .

٧ الجريدة : جماعة الخيل لا رجّالة فيها ، والتجريدة : جماعة مقتطعة من الجند ، والتجريد : تهيأة التجريدة وإرسالها .

٨ في السنة ٣٢١ ولّى القاهر أبا بكر بن طغج ، مصر ، وهو مقيم بدمشق ، فلم يرحل إليها ، وفي السنة ٣٢٣ ولّاه الراضي مصر ، فرحل إليها واستقرّ بها (الولاة والقضاة للكندي ٢٨١ و ٢٨٦) .

عاد الرّجل إلى الحضرة ، فحدّثنا بعظم أمر ابن طغج ، واتّساع ملكه .

وقال : رأيته غير الرّجل الّذي كنّا نعرفه ، مكانة ، ورجاحة ، وحين رآني ، قرّبني ، وأكرمني ، وما زال مستبشراً بي ، يحادثني ، وأحادثه ، ويسألني عن واحد واحد ، من بني شيرزاد ، وغيرهم من الجيران ، وأنا أخبره .

حتّى قال في بعض قوله : الحمد لله الّذي بيده الأمور ، ما شاء فعل ، يا فلان ، ألستَ ذاكراً ما كنت فيه ببغداد ، من تلك الأحوال الخسيسة [١٤٢ م] وما كنت ألاقي من الشدّة ، والفقر ، والفاقة ، والغرض بالعيش[٩] ، والهمّ باولئك البنات ؟.

قلت : نعم يا سيّدي .

قال : والله لقد كنت أتمنّى وأسأل الله أن يرزقني ابناً ، فكلّما اجتهدت في ذلك جاءتني ابنة ، حتّى تكاملن في بيتي عشراً .

وكنت أتمنّى منذ سنّ الحداثة أن أرزق دابّة أبلق[١٠] ، واستشعر أنّي اذا ركبت ذلك ، فقد حصلت لي كلّ فائدة ونعمة ، لشدّة شهوتي لها ، فما سهّل الله لي ما طلبته من هذا الباب أيضاً شيئاً .

وتكهّلت ، وعلت سنّي ، وأنا على تلك الأحوال .

وضرب الدّهر ضربه ، وخرجت من بغداد ، فابتدأ الإقبال يأتي ، والإدبار ينصرف .

وكان الله تعالى يرزقني في كلّ سنة ابناً ، ويقبض عنّي ابنة ، حتّى مات البنات كلّهنّ ، ونشأ لي هؤلاء البنون ، وأومأ إلى أحداث بين يديه كأنّهم الطواويس حسناً وجمالاً .

---

٩ الغَرَض : الضجر والملال . وفي م : وتنغيص العيش .

١٠ الدابّة : يجوز فيها التذكير والتأنيث ، والأبلق : الذي في لونه سواد وبياض .

ثمّ قال : وملكت من الخيل العتاق[11] ، والبراذين[12] ، والبغال[13] ، والحمير البلق[14] ، ما لم يملك أحد مثله ، ولا اجتمع لأحد ما يقاربه ، وأكثر من أن يحصى ، وصار لغلمان غلماني ، الكراع الكثير ، فقم بنا حتّى ندخل الاصطبلات ، فنشاهدها ، وتعجب .

فأخذ بيدي ، ومشينا حتّى دخلنا إلى إصطبل البلق ، فما أشكّ ، أنّا عددنا من صنوف الدواب البلق أكثر من خمسمائة رأس ، ثمّ ضجرنا ، وما زلنا نجتاز في الاصطبل ، سنة ، سنة .

فيقول : هذا اصطبل الفلانيّات ، وهو يسأل صاحب كراعه ، كم في هذا ؟ .

فيقول : في هذا خمسمائة ، وفي هذا أربعمائة ، ونحو ذلك .

---

١١ العتيق : الكريم ، والخيار من كلّ شيئ ، والفرس العتيق : الكريم الرائع .

١٢ البرذون : راجع حاشية القصّة ٢٣٧ .

١٣ البغل : حيوان متولّد من الحمار والرمكة (الحيوان للجاحظ ١٦٢/٣ ومعجم الحيوان ١٦٤) وهو موصوف بالصبر والعناد ، ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان ٢٠٧/٥ ، وقال : ليس في الحيوان أطول عمراً منه ، وروى عنه قصصاً ٢٠٣/٣ و ٢٠٤ و ١١٨/٧ وكتب عنه كتاباً مفرداً ، سمّاه : القول في البغال ، وبالنظر لاختلاف جنس أبويه ، سموه نغلاً ، وقالوا : البغل نغل ، وهو لذلك أهل ، (أساس البلاغة للزمخشري ٥٦/١) ، واشتقّ من اسمه : التبغيل ، وهو : التهجين ، يقال : بغّل أولادهم ، إذا هجّنهم (أساس البلاغة ٥٦/١ والمنجد) ، وتزوّج الحجّاج بن يوسف الثقفي ، هند بنت أسماء ، فسمعها تقول :

وما هند إلاّ مهرة عربيّة ... سليلة أفراس تزوّجها بغل
فإن ولدت مهراً كريماً فبالحرى ... وإن ولدت بغلاً فما أنجب الفحل

فطلّقها ، وبعث إليها رسولاً يحمل مائة ألف درهم ، فقال لها : يقول الأمير ، كنتِ ، فبنتِ ، وهذا المال صداقك ، فقالت للرسول : ما سررنا به إذ كان ، ولا جزعنا عليه إذ بان ، وهذا المال لك ، بشارة لما جئتنا به ، فكان هذا القول على الحجّاج ، أشدّ عليه من فراقها (المحاسن والأضداد للجاحظ ١٢٠ و ١٢١) ، لزيادة التفصيل راجع نهاية الأرب ٧٩/١٠–٩٢ .

١٤ الحمار : راجع حاشية القصّة ٢٨٣ .

ثمّ عدنا إلى المجلس ، وقد أبهجني ما رأيت ، وهو يحمد الله على تفضّله وإحسانه ، ولازمته ، وما فارقت داره حتّى قضيت حوائجي ، ونفعني ، وأحسن اليّ ، وما قصّر ، وعدت إلى الشام مكرّماً[١٥] .

١٥ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٨٦

غريب الدار ليس له صديق

ذكر عن رجل كان بالبصرة ، أنّه كان ذا يسار ، وتغيّرت حاله ، فخرج عن البصرة ، ثمّ عاد إليها وقد أثرى ، فجعل [١٧٩ ظ] يحدّث بألوان لقيها إلى أن قال :

تغيّرت حالي ، إلى أن دخلت بغداد ، غريباً ، سليباً[1] ، لا أهتدي إلى مذهب ولا حيلة .

قال : فجعلت أسأل : أين السّوق ، أين الطريق ، إلى أن ضجرت ، فقلت وأنا مكروب :

غريب الدّار ليس له صديق ... جميع سؤاله أين الطريق
تعلّق بالسؤال بكلّ صقع ... كما يتعلّق الرّجل الغريق

وجعلت أردّد ذلك وأمشي ، وإذا برجل مشرف من منظر[2] ، فقال لي : [١٥١ ر]

ترفّق يا غريب فكلّ عبد ... تطيف بحاله سعةٌ وضيق
وكلّ مصيبة تأتي ستمضي ... وإنّ الصّبر مسلكه وثيق

فخفّ ما بي ، ورفعت رأسي إليه ، وسألته عن خبره .

فقال : اصعد إليّ أحدّثك ، فصعدت إليه .

فقال : وردتُ هذا البلد ، وأنا غريب ، فتحيّرت – والله – كتحيّرك ،

---

١ السليب ، وجمعه : سَلْبى : المستلب العقل أو المال .

٢ المنظر ، والمنظرة : ما ارتفع من الأرض أو البناء ونظرت منه .

إلى أن مررت بهذه الغرفة[3] ، فأشرف عليّ رجل كان فيها ، لا أعرفه ، فقال لي : اصعد .

فصعدتُ ، فأسكننيها ، ثمّ تقلّبت بي الأحوال ، فابتعت الدّار ، وأثريت ، وأنا أتبرّك بها ، وأجلس فيها كثيراً ، فلعلّها أن تكون مباركة عليك أيضاً ، فإنّ لي فيما سواها من الدّور ، مساكن تجذبني .

ففعلت ، وأقبلَتْ أحوالي ، واحتجتُ إلى الاتّساع ، فانتقلتُ عنها[4] ،

---

[3] الغرفة : المخدع ، أو العلّية : أي الغرفة العالية من الأرض .

[4] لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٨٧

عبد الله بن مالك الخزاعي

يتسلّم كتاباً من الرّشيد يخبره بمقتل جعفر البرمكي

وجدت في بعض الكتب :

أنّ البرامكة[١] ، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي[٢] ، بالعداوة ، وكان الرّشيد [١٤٣ م] حسن الرأي فيه ، فكانوا يغرونه به ، حتّى قالوا له : لا بدّ من نكبته .

فقال : ما كنت لأفعل هذا، ولكن أبعده عنكم .

فقالوا : ينفى .

فقال : لا ، ولكن أولّيه ولاية دون قدره ، وأخرجه إليها .

فرضوا بذلك ، فكتبوا له على حرّان[٣] والرّها[٤] فقط ، وأمروه بالخروج عن الخليفة .

قال عبد الله : فودّعتهم واحداً ، واحداً ، حتّى صرت إلى جعفر لأودّعه .

فقال لي : ما على الأرض عربيّ أنبل منك يا أبا العبّاس ، يغضب عليك الخليفة ، فيولّيك حران والرّها ؟ .

---

١ البرامكة : يريد بالبرامكة يحيى بن خالد وولديه الفضل وجعفر .

٢ أبو العبّاس عبد الله بن مالك الخزاعي : ترجمته في حاشية القصّة ١٣٠ من الكتاب .

٣ حرّان : قصبة ديار مضر ، على طريق الموصل والشام والروم ، فيها حبس مروان بن محمّد إبراهيم الامام حتى مات في حبسه (معجم البلدان ٢/٢٣٠) . أقول : ذكر سديف حرّان في قوله :

أذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس

والامام الذي بحرّان أضحى ثاوياً بين غربة وتناسي

٤ الرها ، وفي المنجد إنّها تسمّى أورفا أيضاً : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان ٢/٨٧٦) .

فقلت : فما ذنبي حتّى غضب عليّ ، وأيّ شيءٍ جرى منّي حتّى أوجب الّذي أن يفعل بي هذا ؟.

قال [جزاؤك أن] : يضرب وسطك ، وتصلب نصفاً في جانب ، ونصفاً في جانب .

فقلت : العجب منّي حيث صرت إليك ، ونهضت ، وخرجت .

وقطعت طريقي بالهمّ ، والغمّ ، ممّا دفعت إليه ، وأنّي لا آمنهم ، مع غيبتي ، على السعاية[5] عليّ .

فبينما أنا في عشيّة يوم ، على باب الدّار الّتي نزلتها ، جالساً على كرسي ، إذ أقبل إليّ مولى لي ، فقال لي سرّاً : قد قتل جعفر بن يحيى البرمكي .

فتوهّمت أنّه هو أمره بذلك ليجد عليّ حجّة ينكبني بها ، فبطحته ، وضربته ثلثمائة مقرعة ، وحبسته ، وبتّ بليلة طويلة على السّطح في داري .

فلمّا كان في السّحر ، إذا صوت حلق البريد[6] . فارتعت ، ونزلت عن السّطح .

وقلت في نفسي : إن هجم عليّ صاحب البريد فهي بليّة ، وإن ترجّل لي ففرج .

فلمّا بصر بي صاحب البريد ترجّل لي ، فطابت نفسي ، ودفع إليّ كتاباً من الرّشيد ، يخبرني فيه بقتله جعفر ، وقبضه على البرامكة ، ويأمرني بالشخوص إلى حضرته .

فشخصتُ ، فلمّا وصلت إليه ، عاملني من الإكرام والإنعام بما زاد على أمنيّتي .

---

٥ السعاية : النميمة ، والوشاية .

٦ في م : خلق البريد ، وفي ر ، وظ : على البريد ، وأحسب أنّ الصحيح ما أثبته ، وحلق البريد تتّخذ من النحاس ، وإذا ضربت الواحدة الأخرى ، سمع لها رنين خاص به يعرف البريد ، فلا يعطّل سيره ولا يؤخّر استقباله .

وخرجت ، فأتيت الجسر ، فوجدت جعفراً ، قد ضرب وسطه ، وصلب نصفه في جانب ، ونصفه في الجانب الآخر[٧] .

٧ لم ترد هذه القصّة في غ ولا ه .

٢٨٨

نجاح بن سلمة ينصح سليمان بن وهب

برغم ما بينهما من عداوة

حكي أنّ الواثق سخط على سليمان بن وهب[١] ، فردّه إلى محمّد بن أبي اسحاق[٢] ، وأمره أن يأخذ خطّه بثلاثة آلاف ألف درهم ، يؤدّيها بعد خمسة عشر يوماً ، فإن أذعن لذلك ، وإلّا ضربه خمسمائة سوط .

فطالبه محمّد بكتب الخطّ ، فامتنع ، فدعا له بالسياط ، وجرّد لضربه .

ودخل [١٨٠ ظ] نجاح بن سلمة[٣] ، فلمّا رآه سليمان أيقن بالموت ، واستغاث به سليمان .

فقال نجاح لمحمّد : خلّه ، وأخلني وإيّاه ، ففعل .

فقال نجاح لسليمان : أتعلم أنّ في الدنيا أحداً أعدى لك منّي ؟ .

قال : لا .

قال : فهوذا أحامي عنك اليوم لأجل الصناعة ، أيّما أحبّ إليك وآثر

---

١ أبو أيّوب سليمان بن وهب الحارثي : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من الكتاب .

٢ أبو صالح محمّد بن إبراهيم بن مصعب : أخو إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، أمير بغداد (العيون والحدائق ٤٠٠/٣ والطبري ١٢٢/٩) وكان من قوّاد المعتصم (العيون والحدائق ٣٩١/٣ ، ٤٠٠ ، والطبري ٥٧/٩ ، ٧٧) ، وكان يثني عليه (الطبري ١٢٢/٩) وهو الذي أحضر مازيار إلى سامراء ، لما آستسلم (العيون والحدائق ٤٠٢/٣ و٤٠٣ ، وتجارب الأمم ٥١١/٦) ، وكان يخلف أخاه إسحاق بن ابراهيم ، على إمارة بغداد ، إذا غاب (تجارب الأمم ٥٣٠/٦ ، والطبري ١٣٦/٩) ، ولما تحرّك أحمد بن نصر الخزاعي ببغداد ، على الواثق ، كان محمّد ، أمير بغداد ، بالوكالة عن أخيه ، فحمل نصر إلى سامراء ، في السنة ٢٣١ ، حيث قتله الواثق بيده (تجارب الأمم ٥٢٩/٦ والطبري ١٣٧/٩) ، وفي السنة ٢٣٢ ولّاه الواثق فارس (الطبري ١٥٠/٩) ، وتوفي بها في السنة ٢٣٦ (الطبري ١٨٣/٩) .

٣ أبو الفضل نجاح بن سلمة الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من الكتاب .

في نفسك ، أن تموت الساعة بلا شكّ ، أو يكون ذلك إلى خمسة عشر يوماً ، قد يفرّج الله فيها عنك ؟ [١٥٢ ر]

قال : بل أكون إلى خمسة عشر يوماً بين الأمرين .

قال : فاكتب خطّك بما طولبت به ، فكتب خطّه[٤] .

قال سليمان : فما مضت ستّة أيّام ، حتّى مات الخليفة ، وبطل ذلك المال . [وصار نجاح بن سلمة بمشورته تلك على سليمان ، أحبّ إليه من أخيه وولده ، وزالت العداوة من بينهما][٥] .

قال مؤلّف الكتاب : هذا الخبر عندي أنّه مضطرب ، لأشياء كثيرة ، ولكنّي كتبته ، كما وجدته ، وقد مضى فيما تقدّم من هذا الكتاب خبر نكبة الواثق لسليمان بن وهب ، بما هو أصحّ من هذه الحكاية[٦] .

---

٤ في م : فكتب سليمان ، بمشورته تلك ، بخطه .

٥ الزيادة من م .

٦ لم ترد هذه القصّة في غ ولا ه .

٢٨٩

المعتمد يأمر بقطع يد غلام من غلمانه ثمّ يعفو عنه

بلغني أنّ أبا محمّد بن حمدون[١] ، قال :

إشتهى المعتمد[٢] أن يتّخذ له فرش ديباج ، بستوره ، وجميع آلاته[٣] ، على صورة صوّرها ، وألوان اقترحها .

فعمل ذلك بتنّيس[٤] ، وحمل إليه ، فسرّ به غاية السرور ، وتقدّم ، فنجّد ، ونضّد ، ونصب ، وأحضرني والندماء ، وهو يأكل فيه ، فما منّا إلّا من وصفه واستحسنه ، ثمّ قام لينام وينتبه ، فيشرب فيه ، وصرفنا[٥] .

فما شعرنا إلّا وقد امتلأت الدّار ضجّة وصياحاً ، ودعا بنا ، فوجدناه يزأر كالأسد .

وإذا نصف ستر [١٤٤ م] من تلك الستور قد قطع ، وهو يقول : ليس بي قطعه ، ولا قيمته ، لأنّه يمكنني أن أستعمل مكانه ، وإنّما بي أنّه نغّص عليّ السّرور به أوّل يوم ، واجترأ عليّ بمثل هذا الفعل ، وأصعب من هذا أنّه

---

١ أبو محمّد عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الملقّب حمدون : ترجمته في حاشية القصّة ٦٥ من الكتاب .

٢ أبو العبّاس أحمد بن أبي الفضل جعفر المتوكّل : ترجمته في حاشية القصّة ٦٥ من الكتاب .

٣ الفَرْش ، في اللغة : المفروش من متاع البيت ، ثم صرف التعبير إلى ما يفرش في البيت من السجّاد ، وما يزال هذا التعبير مستعملاً ببغداد ، وقد فصّلنا ذلك في حاشية القصّة ١٦٥ من هذا الكتاب ، والظاهر أنّ الفرش الذي أوصى عليه المعتمد ، لا يخرج عمّا ذكرنا ، ويريد بآلاته ، ما يتبع الفرش ، من ستائر ، ومساور ، ودسوت ، ومصلّيات ، ومما يجدر ذكره أنّه لا يوجد الآن فَرْش من الديباج ، والفرش الآن مقصور على الصوف وهو الغالب ، والحرير ، وهو الأقلّ ، ومن القطن ، وهو أقلّ من القليل .

٤ تنّيس : جزيرة في بحر مصر ، قريبة من البحر ، ما بين الفرما ودمياط ، تعمل بها الثياب الملوّنة والفرش الأبوقلمون ، وهو الذي إذا قوبل به عين الشمس تلوّن بألوان شتّى (معجم البلدان ١/٨٨٢ و ٤/١٦٦) .

٥ في م : وتفرّقنا .

قطعه وأنا أراه ، وغاص الّذي قطعه عن عيني فلم أثبته .

ثمّ دعا بنحرير الخادم وحلف له بأيمان مغلّظة ، أنّه إن لم يبحث إلى أن يحضر الجاني ، ليضربنّ عنقه ، وجلس على حاله مغضباً .

ومضى نحرير ، فما أبعد حتّى أحضر صبيّاً من الفرّاشين ، كأنّه البدر حسناً ، والقطعة الديباج معه ، وقد أقرّ بقطعها ، واعتذر ، وبذل التوبة ، وهو يبكي ، ويسأل الإقالة .

فلم يسمع المعتمد منه ذلك ، وأمر نحرير أن يخرجه ، فيقطع يده ، فأخرج ، وما منّا إلّا من آلمه قلبه عليه ، لملاحة وجهه ، وصغر سنّه ، وليس منّا من يجسر على مسألة المعتمد فيه ونحن قيام سكوت .

حتّى صرخ المعتمد على الله من يده صراخاً عظيماً ، وتأوّه ، وقال : قد دخل شيئ في أصبعي الساعة ، وزاد الألم عليه ، وجيئ بمن رآها ، فأحضر منقاشاً ، فأخرجت من إصبعه شظيّة من قصب كالشعرة ، فما ندري ممّ يتعجّب ، من صغرها ؟ أو من دخولها في لحمه مع ضعفها ؟ ، أو من شدّة إيلامها إيّاه ؟ ومن كونها فوق الديباج ساعة طرح ونفض .

فلمّا استراح ، قال : يا قوم ، إن كان هذا القدر اليسير قد آلمني هذا الالم الكثير ، فما حال هذا الصبيّ الّذي أمرنا بقطع يده ؟ .

قلنا : أسوأ حال وأشدّها ، فيجب أن تجعل العفو عنه شكراً لما كفيته .

فقال : ابعثوا إلى نحرير من يلحقه ، فإن كان لم يقطعه ، منع من قطعه .

فتسابق الغلمان ، فلحقوه ، والزّيت يغلي[6] ، وقد مدّت يده لتقطع ، فخلّوه ، وسلم[7] .

---

٦ إذا كانت العقوبة مقصورة على قطع اليد ، أغلي الزيت ، وغمس المعصم بعد قطع الكفّ ، في الزيت المغليّ لقطع النزيف ، وإن كان قطع اليد مقدّمة للقتل ، ترك المعصم ينزف ، راجع القصّة ٧٤/١ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي .

٧ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٩٠

مروءة عديّ بن الرقاع العاملي

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني ، قال : أخبرني محمّد بن خلف بن المرزبان[١] ، قال : حدّثنا أحمد بن جرير[٢] ، عن محمّد بن سلام[٣] ، قال :

عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الله بن عبد الرحمان[٤] عن الأردن ، وضربه ، وحَلَقَهُ[٥] ، وأقامه للناس .

وقال للموكّلين به : من أتاه متوجّعاً ، وأثنى عليه ، فأتوني به .

فأتاه عديّ بن الرقاع العاملي[٦] ، وكان عبيدة محسناً إليه ، فوقف عليه ، وأنشأ يقول : [١٨١ ظ]

وما عزلوك مسبوقاً ولكن ... إلى الغايات سبّاقاً جوادا

وكنت أخي وما ولدتك أمّي ... وصولاً باذلاً لا مستزادا

---

١ أبو بكر محمّد بن خلف بن المرزبان بن بسّام المعروف بالمحوّلي : نسبته إلى بلدة المحوّل ، وهي قرية قريبة من بغداد ، في غربيّها ، كان مترجماً ينقل الكتب الفارسيّة إلى العربيّة ، وترجم أكثر من خمسين كتاباً ، وله تصانيف عدّة (الأعلام ٣٤٨/٦) .

٢ أحمد بن جرير الكشي : ذكره صاحب ميزان الاعتدال ٨٧/١ .

٣ أبو عبد الله محمّد بن سلام بن عبيد الله بن سالم : ترجم له الخطيب في تاريخه ٣٢٧/٥ وقال : إنّه توفّي سنة ٢٣٢ .

٤ عبيدة بن عبد الرحمن بن أبي الأغرّ السلمي : من عمّال الأمويّين ، ولاّه الوليد ، ثم ولاّه هشام في السنة ١٠٩ إفريقية ، وكانت الأندلس وجزر البحر المتوسّط تابعة لولايته ، واستعفى في السنة ١١٣ ، فأعفاه ، (الكامل لابن الأثير ١٤٦/٥ و ١٧٤ و ١٧٥) .

٥ حَلَقَهُ : يعني حلق لحيته ، وكان ذلك من مظاهر الإهانة ، ويدخل في باب العقوبة .

٦ أبو داود عديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرقاع العاملي : شاعر دمشقي ، كان مقدّماً عند بني أميّة ، مدّاحاً لهم ، واختصّ بالوليد بن عبد الملك ، مات بدمشق سنة ٩٥ (الأعلام ١٠/٥) .

فقـد هيضـت بنكبتـك القدامى		كذاك الله يفعـل مـا أرادا

فوثب الموكّلون به ، فأدخلوه إلى الوليد ، وأخبروه بما جرى .

فتغيّظ عليه الوليد ، وقال له : أتمدح رجلاً قد فعلتُ به ما فعلت ؟.

قال : يا أمير المؤمنين ، إنّه كان إليّ محسناً ، ولي مؤثراً ، ففي أيّ وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم ؟ .

قال : صدقتَ ، وكرمتَ ، وقد عفوت عنك ، وعنه لك ، فخذه وانصرف .

فانصرف به إلى منزله[7] .

---

٧ لم ترد هذه القصّة في غ ولا ه .

٢٩١

غدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلوليّة ؟

أخبرني محمّد بن الحسن[١] ، قال : حدّثنا ابن أبي غسّان البصري[٢] ، قال : حدّثنا أبو خليفة[٣] ، قال : أخبرنا محمّد بن سلّام[٤] .

قال محمّد بن الحسن ، وأخبرني علي بن الحسين الأصبهاني ، قال : أخبرني عبد العزيز بن أحمد ، عمّ أبي[٥] ، قال : حدّثنا الزّبير بن بكّار ، قال : [١٥٣ ر] حدّثتني كلما بنت عبد العزيز بن موله ، قالت :

كان عامر بن الطفيل[٦] ، فارس قيس ، وكان عقيماً ، وكان أعور .

وكان النّبي صلّى الله عليه وسلّم ، قد رمي منه ، ومن أربد ، أخي لبيد بن ربيعة ، بما أهمّه [١٤٥ م] عليه السّلام .

---

١ أبو علي محمّد بن الحسن بن المظفر الحاتمي : ترجمتهفي حاشية القصّة ١٣ من الكتاب .

٢ أبو الحسن محمّد بن غسّان بن عبد الجبّار بن أحمد الداري ، الطبيب الصيدلاني ، البصري : طبيب من أهل البصرة ، خدم بصناعته ملوك بني بويه ، وكان شاعراً ، أديباً ، ترجم له القفطي ، وروى أبياتاً من شعره (تاريخ الحكماء ٤٠٢) وجاء في حكاية أبي القاسم البغدادي انّه انتحر غرقاً في كرداب كلواذى ، أنظر سبب ذلك في الصفحة ٨٣ ، ونقل عنه التنوخي في نشوار المحاضرة قصصاً منها ٣/١٤٠ و٨/٢٧ و١٠١ و١٠٢ .

٣ أبو خليفة الفضل بن الحباب بن محمّد الجمحي القاضي : ترجمته في حاشية القصّة ٣٩ .

٤ أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم : ترجمته في حاشية القصّة ٢٩٠ من هذا الكتاب .

٥ عبد العزيز بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مهران بن عبد الله بن مروان الحمار ، وعبد العزيز هذا عم أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني .

٦ أبو علي عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري : فارس قومه ، وكان شاعراً ، سيّداً ، فاتكاً ، ولد ونشأ بنجد ، وأدرك الإسلام شيخاً ولم يسلم ، وكان أعور عقيماً ، وهو ابن عمّ لبيد الشاعر وأخيه أربد ، توفّي سنة ١١ هجرية (الأعلام ٤/٢٠) .

[وذلك إنّهما أتياه][7] ، فلقيهما ، فوسّد عامراً وسادة ، وقال : اسلم يا عامر .

قال : على أن تجعل لي الوبر ، ولك المدر ، فأبى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال : فعلى أن تجعلني الخليفة بعدك ، إن أنا أسلمتُ .

قال : لا .

قال : فما الّذي تجعل لي ؟

قال : أعنّة الخيل ، تقاتل عليها في سبيل الله .

قال : أو ليست أعنّة الخيل بيدي اليوم ؟ ، وولّى عامر مغضباً وهو يقول : لأملأنّها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً ، ولأربطنّ على كلّ نخلة فرساً .

وقال عامر لأربد : إمّا أن تقتله ، وأكفيكه ، وإمّا أن أقتله ، وأكفنيه .

قال أربد : اكفنيه ، وأنا أقتله .

فانصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال عامر : إنّ لي إليك حاجة .

قال : اقترب .

فاقترب ، حتّى حنى على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وسلّ أربد سيفه ، وأبصر رسول الله بريقه ، فتعوّذ منه بآية من كتاب الله تعالى ، فأعاذه الله منه ، ويبست يده على السّيف ، فلم يقدر على شئ .

فلمّا رأى عِامرُ أربدَ لا يصنع شيئاً ، انصرف عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وقال لأربد : ما منعك منه ؟.

قال : إنّي لما سللت بعض سيفي ، يبست يدي ، فوالله ما قدرت على سلّه .

---

٧ الزيادة من م .

قال ابن سلّام : وذكر بعضهم أنّه قال : لما أردت سلّ سيفي ، نظرت فإذا فحل من الإبل ، قطم [8] ، فاغرفاه ، بين يديه ، يهوي إليّ ، فوالله ، لوسللته ، لخفت أن يبتلع رأسي .

ثمّ دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقال : اللّهم أرحني منهما ، واكفنيهما .

فأمّا أربد ، فأرسل الله تعالى عليه صاعقة ، فأحرقته .

وأمّا عامر فطعن في عنقه ، فأخذته غدّة كغدّة الجمل ، فلجأ إلى بيت امرأة من سلول .

فلمّا غشيه الموت ، جعل يقول : غدّة كغدّة البعير ، وموت في بيت سلولية ؟ ثم مات [9] .

وفي أربد ، نزل قوله تعالى : ويرسل الصواعق ، فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله ، وهو شديد المحال .

وفي أربد يقول لبيد أخوه :

---

٨ وردت هذه الكلمة في م فقط ، وجاءت بالفاء : فطم ، وهو خطأ ، والصواب : قطم ، بالقاف ، أي غضبان .

٩ الذي أرويه ، أنّه قال : غدّة كغدّة البعير ، وموت على الفراش ، وفي بيت سلولية ، وكان العربي لا يرضى لنفسه أن يموت على فراشه ، ويعدّ الموت في المعركة أكرم ، ولما قتل مصعب بن الزبير بمسكن في السنة ٧١ في المعركة بينه وبين عبد الملك بن مروان ، قال أخوه عبد الله يفخر بموت أخيه في المعركة ، ويعيّر بني مروان بأنهم يموتون على فراشهم : إنّا والله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص ، ما قتل منهم رجل في زحف ، في جاهليّة ولا إسلام ، وإنّما نموت قصعاً بالرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف (الطبري ١٦٧/٦) .

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السمـاء والأسل
أفجعني الرّعد والصواعق بـالـ ـفارس يوم الكريهة النجل[١٠]

---

١٠ لم ترد هذه القصّة في غ ولا في ه ، ووردت في نهاية الأرب ٤٢/٣ وفي الوافي بالوفيات ٣٣٣/٨ و ٣٣٤ وورد فيهما الشعر كما يلي :

أخشى عـلى أربـد الحتوف ولا أرهـب نـوء السماك والأسـد
فجعـني الـرعد والصـواعق بالـ ـفارس يـوم الكريـهـة النجـد

٢٩٢
خرج ليغير فوقع على زيد الخيل

أخبرني محمّد بن الحسن ، قال : أخبرني عبد الله بن أحمد ، قال : حدّثنا ابن دريد ، بإسناد ذكره عن هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ ، قال : أخبرني شيخ من بني شيبان ، قال :

أصابت بني شيبان سنة ذهبت بالأموال [١٨٢ ظ] فخرج رجل منهم بعياله حتّى أنزلهم الحيرة .

وقال لهم : كونوا قريباً من الملك يصيبكم من خيره ، إلى أن أرجع إليكم .

وخرج على وجهه لما قد حلّ به ، يؤمّل أن يكسب ما يعود به على عياله ، وقد جهده الفقر ، وبلغ به الطوى .

فحدّث ، قال : مشيتُ يوماً وليلة ، بحيث لا أدري إلى أين أتوجّه ، غير أنّي أجوب في البلاد .

فلمّا كان من الغد عشاءً ، إذا بمهرٍ مقيّدٍ حول خباء ، فقلت : هذا أوّل الغنيمة .

فحللته ، فلم أذهب إلّا قليلاً ، حتّى نوديت : خلّ عن المهر ، وإلّا اختلجت مهجتك .

قال : فنزلت عنه ، وتركته ، ومضيت وقد تحيّرت في أمري ، واغتممت غمّاً شديداً .

فسرت سبعة أيّام ، حتّى انتهيت إلى موضع عطن[1] أباعر ، مع تطفيل[2] الشمس ، فإذا خباءٌ عظيم ، وقبّة من أدم .

---

١ العطن : مبرك الإبل ، ومربض الغنم حول الماء .

٢ طفول الشّمس : دنوّها للغروب .

فقلت : ما لهذا الخباء بدّ من أهل ، وما لهذه القبّة بدّ من ربّ ، وما لهذا العطن بدّ من إبل [١٥٤ ر] .

فنظرت في الخباء فإذا شيخ قد اختلفت ترقوتاه ، وكأنّه نسر[٣] .

قال : فجلست خلفه ، فلمّا وجبت الشمس ، إذا أنا بفارس قد أقبل ، لم أر قطّ فارساً [١٤٦ م] أجمل منه ، ولا أجسم ، على فرس عظيم ، ومعه أسودان يمشيان إلى جنبيه ، وإذا مائة من الإبل مع فحلها ، فبرك الفحل ، وبركن حوله .

ونزل الفارس ، وقال لأحد عبديه : احلب فلانة ، ثمّ اسق الشيخ .

قال : فحلب في عسٍّ[٤] حتّى ملأه ، ثمّ جاء به فوضعه بين يدي الشيخ ، وتنحّى .

فكرع منه مرّة ، أو مرّتين ، ثمّ نزع[٥] ، فثرتُ ، فشربته .

فرجع العبد ، فأخذ العسّ ، فقال : يا مولاي ، قد أتى على آخره .

قال : ففرح بذلك ، وقال : احلب فلانة ، فحلبها ، ثمّ جاء بالعسّ ، فوضعه بين يدي الشّيخ .

فكرع منه كرعة واحدة ، ثمّ نزع فثرت إليه ، فشربت نصفه ، وكرهت أن أتّهم ، إن أتيت على آخره .

ثمّ جاء العبد ، وأخذ العسّ ، وقال : يا مولاي ، قد شرب .

قال : دعه ، ثمّ أمر بشاة ، فذبحت ، وشوى للشّيخ منها ، وأكل هو وعبداه .

فأمهلت حتّى ناموا ، وسمعت الغطيط ، فثرت إلى الفحل ، فحللت عقاله ،

---

٣ في م : كأنّه شنّ بال ، والشنّ : القربة الخلقة الصغيرة .

٤ العسّ ، وجمعه عساس : القدح العظيم .

٥ نزع : كفّ .

ثمّ ركبته ، فاندفع بي ، واتّبعته الابل ، فسللتها ليلتي كلّها حتّى أصبحت .

فلمّا أسفر الصّبح ، نظرت فلم أر أحداً ، فسللتها سلّا عنيفاً[٦] ، حتّى تعالى النّهار ، فالتفتّ التفاتة ، فإذا بشيء كأنّه طائر ، فما زال يدنو حتّى تبيّنته ، فإذا هو فارس على فرس ، وإذا هو صاحبي البارحة .

فعقلت الفحل ، ونثلت كنانتي[٧] ، ووقفت بينه وبين الإبل .

فدنا منّي ، وقال : حلّ عقاله .

فقلت : كلّا – والله – لقد أضرّ بي الجهد ، وخلّفت نسيّات ، وصبية بالحيرة ، وآليت أن لا أرجع إليهنّ إلّا بعد أن أفيدهنّ خيراً ، أو أموت .

قال : فإنّك ميت ، حلّ عقاله .

قلت : هوذاك .

قال : إنّك لمغرور ، أنصب لي خطامه[٨] ، وفي خطامه خمس عجر[٩] ، فنصبته .

قال : أين تريد أن أضع سهمي ؟.

قلت : في هذا الموضع .

قال : فكأنّما وضعه بيده ، حتّى والى بين خمسة أسهم .

قال : فرددت نبلي ، ودنا هو ، فأخذ القوس والسّيف .

وقال : ارتدف خلفي ، ففعلت .

فقال لي ، وقد عرف أنّي أنا الّذي شربت اللّبن عند الشّيخ : ما ظنّك بي ؟

قلت : أحسن الظنّ ، مع ما لقيت منّي من تعب ليلتك ، وقد أظفرك الله بي .

---

٦ يقال : فرس سريع السلّة ، إذا كان مندفعاً في سباقه ، ويريد بالسلّ ، هنا ، السير السريع .

٧ نثل الكنانة : استخرج سهامها ونثرها .

٨ الخطام : حبل يجعل في عنق البعير ويثنى في خطمه .

٩ العجرة : العقدة .

فقال : أترى كنّا يلحقك منّا سوء ، وقد بتّ تنادم مهلهلاً[10] ليلتك .

قلت : زيد الخيل أنت ؟.

قال : نعم ، أنا زيد الخيل[11] .

قلت : كن خير آخذ .

قال : ليس عليك بأس .

فمضى إلى موضعه الّذي كان به ، ثمّ قال : أما لو كانت هذه الإبل لي لسلّمتها إليك ، ولكنّها لابنة مهلهل ، فأقم عندي ، فإنّي على شرف غارة .

فأقمت أيّاماً ، ثمّ أغار على بني نمير بالملح[12] ، فأصاب مائة بعير .

فقال : هذه أحبّ إليك ، أم تلك ؟

فقلت : هذه ، فأعطانيها .

قال : فقلت : ابعث [١٨٣ ظ] معي خفراء ، ففعل .

وعدت إلى وطني ، وفرّج الله بكرمه عنّي ، وأصلح حالي[13] .

---

١٠ المهلهل بن مُنهب بن عبد رضا ، والد زيد الخيل ، وفي م : أترى إنّا كنّا نهيجك بسوء وقد بتّ تنادم مهلهلاً .

١١ أبو مكنف زيد بن مهلهل بن منهب بن عبد رضا ، المعروف بزيد الخيل : من طيّئ ، كان بطلاً ، طويلاً ، جسيماً ، جميلاً ، شاعراً ، خطيباً ، كريماً ، أدركِ الإسلام ، ووفد على النبي صلوات الله عليه . فأسلم ، وقفل إلى نجد فمات في الطريق سنة ٩ (الأعلام ١٠٢/٣) .

١٢ الملح : موضع في ديار بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم (معجم ما استعجم) وقال زيد الخيل في يوم الملح : [معجم البلدان ٦٣١/٤]

ولو كانت تكلّم أرض قيسٍ ... لأضحت تشتكي لبني كلاب

ويوم الملح يوم بني سليم ... صدمناهم بأظفار وناب

وقد علمت بنو عبس وبدر ... ومرّة أنّني مرّ عقابي

١٣ لم ترد هذه القصّة في غ ولا ه ، ووردت في المستجاد للتنوخي ٦٦–٦٩ .

٢٩٣

منع الله سوّاراً من الطعام والشراب

وجاء به حتّى أقعده بين يديك

ذكر محمّد بن إسحاق بن أبي العشير ، عن إسحاق بن يحيى بن معاذ[١] ، وقال : حدّثني سوّار ، صاحب رحبة سوّار[٢] ، قال :

انصرفت من دار المهدي ، فلمّا دخلت منزلي ، دعوت بالغداء ، فحاشت نفسي[٣] ، فأمرت به فردّ .

ثمّ دعوت بالنرد[٤] ، ودعوت جارية لي ألاعبها ، فلم تطب نفسي بذلك ، ودخلت القائلة ، فلم يأخذني النّوم .

فنهضت ، وأمرت ببغلة لي شهباء ، فأسرجت ، فركبتها ، فلمّا خرجت استقبلني وكيل لي ومعه ألفا درهم .

فقلت له : ما هذا ؟.

فقال : ألفا درهم ، جبيتها من مستغلّك الجديد .

قال : قلت : أمسكها معك ، واتبعني .

قال : ومضيت ، وخلّيت رأس البغلة ، حتّى عبرت الجسر ، ثمّ مضت بي في شارع دار الرّقيق[٥] ، حتّى انتهيت إلى الصحراء ، ثمّ رجعت إلى [١٥٥ ر]

---

١ لم أعثر على ترجمة لإسحاق بن يحيى بن معاذ ، أما أبوه يحيى ، فهو أبو زكريا يحيى بن معاذ الواعظ الرازي ، ترجم له الخطيب في تاريخه ١٤/٢٠٨-٢١٢ .

٢ راجع بحثنا عن الرحبة في حاشية القصّة ٢٢١ من هذا الكتاب .

٣ في م : فجاشت ، وفي ه : فخاشت ، والصحيح ما أثبتناه : فحاشت : أي نفرت ، والحوش : النفار .

٤ النرد : راجع حاشية القصّة ٤٠٨ من هذا الكتاب .

٥ شارع دار الرّقيق : محلّة متّصلة بالحريم الطاهري ، وبها السوق ، وجادّة الطريق إلى باب التبن (مراصد =

[باب الأنبار[6] ، فطوّفت ، فلمّا صرت في شارع باب الأنبار[7] ، انتهيت إلى][8] باب دار لطيف ، عنده شجرة ، وعلى الباب خادم ، فوقفت ، وقد عطشت ..

فقلت للخادم : أعندك ما تسقينيه ؟.

قال : نعم فأخرج قلّة[9] نظيفة [١٤٧ م] طيّبة الرّيح ، عليها منديل ، فناولنيها ، فشربت .

وحضر وقت العصر ، فدخلت مسجداً ، فصلّيت فيه ، فلمّا قضيت صلاتي ، إذا أنا بأعمى يتلمّس .

قلت : ما تريد يا هذا ؟.

قال : إيّاك أريد .

قلت : وما حاجتك ؟.

فجاء ، حتّى قعد إليّ ، فقال : شممت منك رائحة الطيب فتخيّلت أنّك من أهل النّعمة ، فأردت أن ألقي إليك شيئاً .

الاطلاع ٢/٧٧٣) ، أقول : هذا الوصف يعني أنّ هذه المحلّة كانت بين مسجد المنطقة وبستان العطيفيّة ، وفيها الشارع المؤدّي إلى مدينة الكاظمية .

٦ باب الأنبار : إحدى أبواب مدينة المنصور (مراصد الاطلاع ٢/٧٧٢) وكان عليها خندق (الطبري ٨/٤٦١) ، وفيها بستان عظيم ، نزل به طاهر بن الحسين لمّا حاصر الأمين (الطبري ٨/٤٤٣) وعلى باب الأنبار علّق رأس الأمين لمّا قتل (الطبري ٨/٤٨٨) وحصلت عليه معارك بين جيش المستعين لمّا التجأ إلى بغداد وبين جيش المعتزّ (الطبري ٩/٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٠) ومن هذا الباب أدخل رؤساء القرامطة ، صاحب الشامة والمدّثّر والمطوّق مع بقيّة الأسرى في السنة ٢٩١ حيث أُحتفل بتعذيبهم وقتلهم ، راجع التفاصيل في الطبري ١٠/١١٢-١١٤ .

٧ شارع باب الأنبار : محلّة خارج باب الأنبار من مدينة المنصور ، فيها قبر إبراهيم الحربي (مراصد الاطلاع ٢/٧٧٢) ، وفي شارع باب الأنبار قتل الأمين (تاريخ بغداد للخطيب ١/٦٨) .

٨ الزيادة من م .

٩ القلّة : الكوز الصغير .

فقلت : قل .

قال : أترى هذا القصر ؟.

قلت : نعم .

قال : هذا قصر كان لأبي ، فباعه ، وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه ، فزالت عنّا النّعمة الّتي كنّا فيها ، فأتيت صاحب الدّار ، لأسأله شيئاً يصلني به فإنّي في ضنك شديد ، وضغطة عظيمة ، [ورزوح حال قبيح][8] ، وأصير إلى سوّار ، فإنّه كان صديقاً لأبي .

قلت : ومن أبوك ؟.

قال : فلان بن فلان ، فإذا أصدق النّاس – كان – لي .

فقلت : يا هذا ، إنّ الله قد أتاك بسوّار ، منعه الطعام والشراب والنّوم ، حتّى جاء به فأقعده بين يديك .

ثمّ دعوت الوكيل ، وأخذت منه الألفي درهم ، فدفعتها إليه ، وقلت له : إذا كان غداً ، فصر إليّ ، إلى المنزل .

ثمّ مضيت ، فقلت : ما أحدّث المهدي ، بشيءٍ أطرف من هذا ، فأتيته ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فحدّثته بالحديث ، فأعجب به ، وأمر لي بألفي دينار ، فأحضرت .

فقال لي : ادفعها إليه .

[قال : فنهضت ، فقال لي : اجلس ، أعليك دين ؟.

قلت : نعم .

قال : كم مبلغه ؟.

قلت : خمسون ألف دينار .

فقال : تحمل إليك ، فاقض بها دينك ، فقبضتها .

فلمّا كان من الغد ، أبطأ عليّ المكفوف ، وأتاني رسول المهدي ، يدعوني ، فجئته .

فقال : فكّرت في أمرك ، فقلت : يقضي دينه ، ثمّ يحتاج إلى الحيلة والقرض ، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى .

قال : فقبضتها ، وانصرفت ،][8]

فجاءني المكفوف ، [فدفعت إليه الألفي دينـار][8] ، وقلت له : قد رزق الله خيراً كثيراً ، [وأعطيته من مالي ألفي دينار أخرى ، فقبض أربعة آلاف دينار ، ودعا لي][8] ، وقال : والله ، ما ظننت أنّي أصل منك ، ولا من أحد من أهل هذه البلاد ، إلى عشر هذا المال ، فجزاك الله خيراً[10] .

---

١٠ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٩٤

عروة بن أذينة يفد على هشام بن عبد الملك

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني ، قال : حدّثنا محمّد بن جرير الطبري ، عن يحيى بن عروة بن أذينة ، قال :

أضاق أبي[1] ، إضاقة شديدة ، وتعذّرت عليه الأمور ، فعمل شعراً امتدح به هشام بن عبد الملك .

ودخل عليه في جملة الشعراء ، [فلمّا دخلوا عليه ، نسبهم ، فعرفهم جميعاً][2] وقال لأبي : أنشدني قولك : لقد علمتُ .... ، فأنشده :

---

١ أبو عامر عروة بن يحيى (أذينة) بن مالك بن الحارث الليثي : من الفقهاء المحدّثين ، ومن شعراء الغزل المقدّمين ، شعره كلّه غرر ، وهو في الحديث ثقة ثبت ، سمع ابن عمر ، وروى عنه مالك بن أنس ، وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين (وفيات الأعيان ٣٩٤/٢ والشعر والشعراء ٣٦٧ و٣٦٨ وفوات الوفيات ٧٤/٢ والأغاني ٣٢٢/١٨) ، وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنّين (العقد الفريد ١٦/٦) ، مرّت به سكينة بنت الحسين ، تحفّها جواريها ، وهو في مجلسه يفتي ، فمالتَ نحوه ، وقالت : ألست الذي تقول :

قالت وأبثثتها سرّي وبحت به ... قد كنتَ عندي تحبّ الستر فاستتر

ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها : ... غطّي هواكِ ، وما ألقى ، على بصري

كلّ من ترى حولي من الجواري أحرار ، إن كان هذا الكلام خرج من قلب سليم قطّ (الأغاني ٣٢٨/١٨ وديوان الصبابة ٩٧/١) وهو القائل [العقد الفريد ٢٨٩/٥ والأغاني ٣٢٩/١٨ و٣٣٠] :

إذا وجدت أوار الحبّ في كبدي ... عمدت نحو سقاء القوم أبترد

هبني بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنار على الأحشاء تتّقد

وأنا أرتفع بجيّد غزله إلى جيّد غزل عمر بن أبي ربيعة ، على أن جيّد غزل عمر فيه رقّة وأنوثة ، وجيّد غزل عروة فيه رقّة ورجولة ، راجع أخبار عروة في الأغاني ٣٢٢/١٨–٣٣٥ وفي العقد الفريد ٢٨٩/٥ و١٦/٦ و٤٨ وفي وفيات الأعيان ٣٩٤/٢ وفي الأعلام ١٨/٥ .

٢ الزيادة من م .

لقد علمتُ وما الإشراف[3] من خُلُقي
أنّ الّذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعنّيني تطلّبه[4] ولو جلست أتاني لا يعنّيني
وأيّ حظّ امرىءٍ لا بدّ يبلغه يوماً ولا بدّ أن يحتازه دوني
لا خير في طمع يهدي إلى طَبَعٍ[5] . وعلقة من قليل العيش تكفيني
لا أركب الأمر تزري بي عواقبه وَلا يعاب به عرضي ولا ديني
أقوم بالأمر إمّا كان من أربي وأكثر الصمت فيما ليس يعنيني
كم من فقير غنيّ النّفس تعرفه ومن غنيّ فقير النّفس مسكين
وكم عدوّ رماني لو قصدت له
لم يأخذ البعض منّي[6] حين يرميني [١٨٤ ظ]
وكم أخ لي طوى كشحاً فقلت له
إنّ انطواءك عنّي سوف يطويني [١٤٨ م]
لا أبتغي وصل من يبغي مفارقتي ولا ألين لمن لا يبتغي[7] ليني

فقال هشام : ألا جلست في بيتك ، حتّى يأتيك رزقك ؟.

قال : وغفل عنه هشام ، فخرج من وقته ، وركب راحلته ، ومضى منصرفاً . فافتقده هشام ، فسأل عنه ، فعرف خبره ، فأتبعه بجائزة .

---

٣ في الأصل : الاسراف ، والتصحيح من محمد كرد علي ، قال : الإشراف : الحرص والتهالك ، راجع المستجاد للتنوخي ص ٩٨ .

٤ في م : أسعى إليه فيعييني تطلّبه .

٥ الطَبَعُ : التدنّس بعيب ، وفي المستجاد :

لا خير في طمع يدني لمنقصة وغبّر من كفاف العيش يكفيني

٦ في المستجاد ، وفي م : لم يأخذ النصف منّي .

٧ في المستجاد : لمن لا يشتهي .

فمضى الرّسول ، فلحقه على ثلاثة [١٥٦ ر] فراسخ ، وقد نزل على ماء يتغدّى عليه .

فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : أردت أن تكذّبنا ، وتصدّق نفسك ؟ هذه جائزتك .

فقال : قل له : قد صدّقني الله ، وأتاني برزقي بحمده .

قال يحيى : وفرض له فريضتين [٨] ، كنت في إحداهما [٩] .

---

٨ الفريضة هنا ، ما يتقرّر أداؤه من بيت المال ، وفي حديث عديّ : أتيت عمر بن الخطّاب في أناس من قومي ، فجعل يفرض للرجل من طيء في ألفين ألفين ويعرض عنّي ، أي يقطع ويوجب لكلّ رجل منهم في العطاء ألفين من المال ، وفيما يتعلّق بالمعاني الأخرى للفريضة ، راجع لسان العرب ، مادة : فرض .

٩ لا توجد هذه القصّة في غ ولا هـ ، ووردت في المستجاد للتنوخي ٩٨–١٠٠ .

٢٩٥
أبو أيّوب المورياني
يجيز ابن شبرمة بخمسين ألف درهم

قرئ على أبي بكر الصولي ، وأنا أسمع ، في المسجد الجامع بالبصرة ، حدّثكم الغلابيّ ، قال : حدّثنا عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا علي بن ميثم ، وقد كان جاز المائة سنة ، قال : سمعت ابن شبرمة[١] ، يقول :

زوّجت ابني على ألفي درهم ، وما هي عندي ، فطولبت بها ، فصرت إلى أبي أيّوب المورياني[٢] ، فقلت له : إنّي اخترتك لحاجتي ، وعرّفته خبري ، فأمر لي بألفي درهم ، فشكرته وقمت .

فقال : اجلس ، ألا تريد خادماً ؟.

قال : فقلت : إن رزق الله .

قال : وهذه ألفان لخادمك ، ألا تريد نفقة ؟ ألا تريد كذا ؟ ، وجعل يعدّد ويعطيني .

حتّى قمت على خمسين ألف درهم ، وصلني بها[٣] .

ذكر القاضي أبو الحسين في كتابه ، هذا الخبر ، بلا إسناد ، على قريب من هذا .

---

١ أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة الضبّي القاضي : كان عاقلاً ، ناسكاً ، عفيفاً ، صارماً ، جواداً ، شاعراً ، ولّي قضاء الكوفة في السنة ١٢٠ و ١٢١ وتوفّي في السنة ١٤٤ (شذرات الذهب ٢١٥/١ والكامل لابن الأثير ٢٢٨ و٢٤٢) .

٢ أبو أيّوب سليمان بن مخلد المورياني الخوزي : كان من مماليك المنصور ، وأخذه منه أبو العبّاس السفّاح ، فأعتقه ، وقدّمه ، وبعدموفاة السفّاح استوزره المنصور ، ثم قتله سنة ١٥٤ ، وموريان : قرية من قرى الأهواز (الأعلام ١٩٨/٣) .

٣ لا توجد هذه القصّة في غ ، ولا ه .

٢٩٦

الواثق يطرد أحمد بن الخصيب من حضرته

ثمّ يعفو عنه

حدّثني أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن رجاء بن أبي الضحّاك الكاتب ، وكان يعرف بالديناريّ[١] ، لما بين أبيه الحسن بن رجاء[٢] ، وبين دينار بن عبد الله[٣] ، من القرابة ، فإنّهما كانا ابني خالة ، على ما أخبرني ، قال : حدّثني أبو عيسى محمّد بن سعيد الديناريّ الكاتب ، جدّ أبي الحسن علي بن محمّد بن علي بن مقلة لأمّه[٤] ، قال :

لما تخلّص أبو أيّوب سليمان بن وهب[٥] ، من نكبة المعتمد ، وكنت أكتب له ، وجلس في منزله ، أمرني أن أكتب إلى العمّال الّذين ضياعه في أعمالهم ، كتباً أعرّفهم فيها رجوع الخليفة له ، وتبيّنه باطل ما أنهي إليه ، وحمل به عليه ،

---

١ أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن رجاء بن أبي الضحّاك ، المعروف بالديناري : نقل عنه التنوخي القصّة ٣/١٦١ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وأثبت في القصّة ٣/١٦١ شيئاً من شعره ، وهو شعر متوسّط .

٢ الحسن بن رجاء الكاتب : من كتّاب الدّولة العبّاسية ، كان ذكياً ، سريع الجواب ، أديباً ، وكان من أصحاب الحسين الخليع (الديارات ٦٠ و ٦١) ، دخل المأمون الديوان ، فرأى الحسن ، وكان غلاماً ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا الناشئ في دولتك ، المتقلّب في نعمتك ، المؤمّل لخدمتك ، الحسن بن رجاء ، فقال المأمون : بالإحسان في البديهة تتفاضل العقول ، يرفع عن مرتبة الديوان ، إلى مراتب الخاصّة ، ويعطى مائة ألف درهم تقوية له (المحاسن والأضداد ٧) راجع أخباره في الأغاني ٧/٢٠٠ و ٢٠١ وقطب السرور ٥٠ ، ٦٠ ، و٦١ و٧١ .

٣ دينار بن عبد الله ، القائد العبّاسي : ترجمته في حاشية القصّة ٢٣٨ من الكتاب .

٤ راجع القصّة ٢/٦١ و٣/١٦١ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي .

٥ أبو أيّوب سليمان بن وهب الحارثي ، وزير المهتدي والمعتمد : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من الكتاب .

وأخاطبهم عنه في أمر ضياعه وأسبابه .

فكتبت نسخة ، قلت فيها : إنّ أمير المؤمنين – أعزّه الله – لما وقف على تمويه من موّه عليه في أمرنا ، فَعَلَ وصَنَعَ .

فلمّا وقف على هذا الفصل ، خطّ على هذا الحرف ، وأبدله بغيره ، ولم يغيّر في النّسخة سواه .

وقال لي : إذا فرغتَ من تحرير الكتب ، فأذكرني بالتمويه ، أحدّثك بما كرهته له .

قال : فحرّرت الكتب ، فلمّا خلا ، سألته : لِمَ ضرب على التمويه ؟ ، فقال : نعم لما غضب عليّ الواثق ، وعلى أحمد بن الخصيب[6] ، بسبب إيتاخ[7] ، وأشناس[8] ، كانت موجدته علينا بسبب واحد ، وحبسه لنا في معنى واحد ، فمكثنا في الحبس والقيد ، إلى أن كلّم فينا ، فأمر بإحضارنا .

فقلت لأحمد بن الخصيب : قد دعانا ، وأظنّ أنّه سيوبّخنا ، ويعدّد علينا ما قرفنا به عنده ، ليخرج ما في نفسه ، فيعظّم منّته علينا ، بما يأتيه من إطلاقنا ، وأعرف عَجَلتك ، وتسرّعك إلى ما يضرّك ، وكأنّي بك حين يبتدئ

---

٦ أبو العبّاس أحمد بن الخصيب ، وزير المستعين : ترجمته في حاشية القصّة ٨٢ من الكتاب .

٧ أبو منصور إيتاخ القائد الخزري : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من الكتاب .

٨ أبو جعفر أشناس : القائد التركي ، من مماليك المعتصم ، حامى عنه في إحدى المعارك لمّا كان المعتصم من قوّاد إبراهيم بن المهديّ ، فقدّمه ، وقوّده ، وتوّجه ، ووشّحه ، وولاّه حجابته وكذلك فعل الواثق معه لما استخلف ، واشترك أشناس في صوائف المأمون ، وقام في فتح عمورية مقاماً محموداً ، ومزّق المؤامرة الّتي قام بها بعض القوّاد لقتل المعتصم ومبايعة العبّاس بن المأمون ، وكان أثيراً عنده لدرجة أنّ ابنته أترنجة لما تزوّجت الحسن بن الإفشين ، أمر المعتصم بأن يكون العرس في قصره ، وكان يباشر تفقّد الحاضرين بنفسه ، ولما حجّ في السنة ٢٢٦ ولاّه المعتصم كلّ بلدة يدخلها ، فدعي له على جميع المنابر في البلدان التي دخلها من سامراء إلى مكّة ، وتوفّي أشناس في السنة ٢٣٠ (الطبري ٥٥٨/٨ ، ٦٢٣ ، ١٠/٩ ، ٥٧ ، ٧٣–٧٨ ، ١٠١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، وتجارب الأمم ٤٣٨/٦ ، ٤٨٥–٥٠٢ و٥١٦ و٥١٨ ، والقصّة ٣١٦ من هذا الكتاب) .

بتقريعنا ، قد قطعت كلامه ، وأنحيت عليه بلسانك ويديك ، فأنشأت لنا استئناف غضبٍ وموجدةٍ ، وأكسبتنا شرّاً ممّا قد أمّلنا الخلاص منه .

فقال لي : فما أعمل ؟.

قلتُ : لست أحسبك تتّهمني على نفسي ولا عليك ، ولا تشكّ أنّنا حبسنا لقضية واحدة ، فولّني جوابه ، وأعرني سكوتك[9] ، ودعني أرفق به ، وأخدعه بما تخدع به الملوك ، فلعلّنا نتخلّص من المكروه الّذي نحن فيه .

قال : أفعل .

فاستحلفته على ذلك ، فحلف لي .

فلمّا دخلنا الصّحن ، وجدنا الخليفة يستاك[10] ، وبين يديه طست ذهب ، وإبريق ذهب ، بيد فراش قائم ، [١٤٩ م] ، وبيد الخليفة مسواك طوله ذراعان .

فلمّا رآنا ، قال : أحسنتُ اليكما ، واصطنعتكما ، فخنتماني ، وكفرتما نعمتي ، وفعلتما ، وصنعتما .

فكأنّي – والله – إنّما أوصيت أحمد بن الخصيب ، ألّا يدعه ينطق .

فقال له ، وقد رفع يديه في وجهه : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما بلغك عنّا الحقّ ، ولا فعلنا شيئاً ممّا سعي بنا ، ولقد موّه عليك في أمرنا .

فقال : إنّما يموّه على غبيّ مثلك ، فأومأت إليه بعيني ، فأمسك [١٨٥ ظ] بعض الإمساك .

وعاد الواثق يتمّم كلامه ، ويعدّد علينا نعمه ومننه ، فما ملك أحمد نفسه ، أن رفع يده ، وقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما كفرنا نعمتك ، ولا فعلنا ، ولا صنعنا ، إنّما موّه على أمير المؤمنين في أمرنا .

---

٩ التعبير البغداديّ الآن : أكرمنا سكوتك .

١٠ يستاك : ينظّف أسنانه بالسواك ، وهو عود تنظّف به الأسنان .

فقال : يا جاهل ، قد عدت لها ، إنّما يجوز التمويه على أحمق مثلك ، وأومأت إليه بعيني ، فأمسك .

وعاد الواثق في كلامه ، فما انضبط أحمد أن ردّ قوله ، وجاء بالتمويه .

فحين سمعها الواثق ، انقلبت عيناه في أمّ رأسه ، واستشاط غضباً ، وأغلظ له في الشتم ، وحذفه بالمسواك ، فلولا أنّه زاغ عنه ، لهشم وجهه ، وأعمى عينه .

ثمّ قال : يا غلمان ، أخرجوه إلى لعنة الله ، فأخرج أخزى خلق الله .

ونالني من الجزع ، والغمّ ، والحيرة في أمره ، أمر عظيم ، ولم أدر ، أقفُ ، أم أمضي ، وخفت إن وقفت ، أن يقول : ما وقوفك بين يديّ ، وقضيّتكما واحدة ، وإن مضيت أن نردّ جميعاً إلى الحبس ، فرجعت أتقهقر عن موضعي قليلاً ، كأنّي أريد الخروج .

فقال لي : مكانك أنت يا سليمان ، هب هذا على ما هو عليه ، أنت أيضاً ، تنكر أنّك فعلتَ كذا ، وصنعتَ كذا ؟ .

فوجدت السبيلَ إلى ما أردت ، فلم أزل أعترف ، وألزم نفسي الجناية ، وأديم الخضوع والاستعطاف [١٥٧ ر] ، وأسأل الصفح والإقالة ، إلى أن قال : قد عفوتُ عنك ، فقبّلت الارض ، وبكيت .

فقال : إخلعوا عليه ، وأصرفوه إلى منزله ، وليلزم الدّار على عادته ورسمه .

فلمّا ولّيت ، قال : وذلك الكلب ، قد كنت أردت العفو عنه ، فأخرجني عن حلمي سوء أدبه ، فاخلعوا عليه أيضاً .

فخرجت ، وإذا بأحمد في بعض الممرّات ، فعرّفته الخبر ، ثمّ قلت له : يا هذا كدت أن تأتي علينا ، أرأيت أحداً يكرّر على الخليفة لفظة قد كرهها ، وأنكرها ، ثلاث مرّات ؟ أو ما علمت أنّ التمويه في الحقيقة ضرب من السخرية ؟

قال : فلم يخرج من قلبي فزع التمويه ، من ذلك الوقت ، إلى الآن[١١] .

---

١١ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٩٧

غضب الرّشيد على مروان بن أبي حفصة لمدحه

معن بن زائدة وضربه مائة سوط

حدّثني عبد الله بن عمر بن الحارث الواسطي [السرّاج ، المكفوف][١] المعروف بأبي أحمد الحارثي[٢] ، قال : حدّثنا ابن دريد ، قال : حدّثنا عبد الرّحمن بن أخي الأصمعي ، عن عمّه ، قال :

بعث إليّ الرّشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في مثله ، وجاءني الرّسول بوجه منكر ، فأحضرني إحضاراً عنيفاً منكراً مستعجلاً ، فوجلت وجلاً شديداً ، وخفت ، وجزعت .

فدخلت ، فإذا الرّشيد على بساط عظيم ، وإلى جانبه كرسي خيزران ، عليه جويرية خماسيّة[٣] ، فسلّمتُ ، فلم يردّ عليّ ، ولا رفع رأسه إليّ ، وجعل ينكت الأرض بإصبعه .

فقلت : سعي بي عنده بباطل ، يهلكني قبل كشفه ، وأيست من الحياة .

فرفع رأسه ، وقال : يا أصمعيّ ، ألا ترى الدعيّ بن الدعيّ ، اليهودي ، عبد بني حنيفة ، مروان بن أبي حفصة ، يقول لمعن بن زائدة ، وإنّما هو عبد من عبيدنا :

---

١ الزيادة من م .

٢ أبو أحمد عبد الله عمر بن الحارث السرّاج الواسطي المعروف بالحارثي : نقل عنه القاضي التنوخي كثيراً من القصص في كتابه نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وفي هذا الكتاب ، ويتّضح من القصّة ٢/١٧١ من النشوار أنّ أبا الحارثي كان يعمل في خزانة السلاح للمعتمد ، ومن القصّة ٣/٢٢ من النشوار ، أنّ أبا الحارثي استمرّ يخدم في دار الموفق والمعتضد من بعده ، كما يتّضح من هذه القصّة أنّه قد كفّ بصره .

٣ الخماسيّة : بنت خمس سنوات .

أقمنا باليمامة بعد معنٍ مقاماً لا نريد به زيالا [4]

وقلنا أين نذهب بعد معنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالا

وكان النّاس كلّهمُ لمعنٍ إلى أن زار حفرته عيالا .

فقال : إنّ النوال قد ذهب ، مع بقائنا ، فما يصنع بنا إذن ؟ ، ولم يرض [١٥٠ م] حتّى جعلني وخاصّتي ، عيالاً لمعن ، والله ، لأفعلنّ به ولأصنعنّ .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، عبد من عبيدك ، أنت أولى بأدبه ، أو العفو عنه .

فقال : عليّ بمروان ، فدخل عليه .

فقال : السياط ، فأخذ الخدم يضربونه بها ، وهو يصيح : يا أمير المؤمنين ، ما ذنبي ؟ يا أمير المؤمنين ، استبقني ، إلى أن ضرب أكثر من مائة سوط [5] .

فقال : يا أمير المؤمنين ، اعف عنّي ، واذكر قولي فيك ، وفي آبائك .

فقال : يا غلام ، كفّ عنه ، ثمّ قال : ما قلت ، يا كلب ؟ .

فأنشده قصيدته الّتي يقول فيها : [١٨٦ ظ]

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفّكم أم تسترون هلالها

---

٤ الذي أرويه :

أقمنا باليمامة بعد معنٍ مقاماً لا نريد له زوالاً

٥ السوط : ما يضرب به من جلد مضفور أو نحوه ، سمّي بذلك لأنّه يسوط اللحم بالدم ، أي يخلطهما ، وكلّ ما يقرع به ، فهو مقرعة ، سوطاً كان أو عصا ، وإنّما سمّيت عصا ، لأنّ اليد والأصابع ، تعصو عليها ، أي تجتمع ، والضرب بالسياط ، هو الجلد ، والذي يضربُ بها ، هو الجلاّد ، على وزن فعّال ، ثم صرف الاسم إلى السيّاف الذي يقطع العنق ، ثم شمل كلّ من يقوم بالإعدام ، بجميع أنواعه ، والحكم الشرعيّ في الجلد ، أنّه لا يجوز إلاّ بسوط معتدل ، بين القضيب والعصا ، لا رطب ولا يابس ، وتفرّق السياط على الأعضاء ، ويتّقى الوجه والرأس والمقاتل ، ولا يلقى المضروب على وجهه ، ولا يمدّ ، ولا يجرّد عن ثيابه . بل عن مقدار ما يدفع وصول الألم ، ويترك عليه قميص ، أو قميصان ، ولا يقام حدّ الخمر في السكر ، بل يؤخّر حتى يفيق ، فإن أقامه في السكر ، أخطأ ، ولم يعده إذا أفاق (معيد النعم ومبيد النقم للسبكي ٣٣) .

أم تدفعون مقالة عن ربّه   جبريل بلّغها النّبيّ فقالها
شهدَتْ من الأنفال آخرُ آيةٍ   بتراثهم فأردتمُ إبطالها
فدعوا الأسود خوادراً في غيلها   لا تولغنّ دماءكم أشبالها

قال : فأمر بإطلاقه ، وأن يدفع إليه ثلاثون ألف درهم .

فلمّا خرج ، قال : يا أصمعي تدري من هذه الصبيّة ؟.

قلت : لا أدري .

قال : هذه مؤنسة بنت أمير المؤمنين ، فدعوت له ولها ، وتأمّلته ، فإذا هو شارب ثمل .

قال : قم فقبّل رأسها .

فقلت : أفلتّ من واحدة ، ودفعت إلى أخرى أشدّ منها ، إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني ، وإن عصيته قتلني بمعصيتي له ، فلما أحبّ اللهُ عزّ وجلّ من تأخيرُ أجلي ، ألهمني أن وضعت كمّي على رأسها ، وقبّلت كمّي .

فقال : والله يا أصمعي ، لو أخطأتها لقتلتك ، أعطوه عشرة آلاف درهم ، والحق بدارك .

[فخرجت وأنا ما أصدّق بالسّلامة ، فكيف بالحباء والكرامة .][6]

---

٦ لم ترد هذه القصّة في غ ولا ه ، والزيادة من م .

٢٩٨
أمدح بيت قالته العرب

قال المفضل بن محمّد الضبّي[1] :

أصبحت يوماً ببغداد ، في خلافة المهدي ، [١٥٨ ر] وأنا من أشدّ النّاس إضاقة وضرّاً ، لا أدري ما أعمل ، حيرة وفكراً .

فخرجت ، فجلست على باب منزلي بالصراة[2] ، أفكّر فيما أصنع ، فإذا أنا برسول المهدي ، قد وقف عليّ .

فقال : أجب أمير المؤمنين ، فراعني ، وساء ظنّي .

فقلت : أدخل ، فألبس ثيابي .

فقال : ما إلى ذلك سبيل .

فاشتدّ جزعي ، وخشيت أن يأخذني بما كان بيني وبين إبراهيم بن عبد الله ابن حسن بن حسن رضي الله عنهم .

فاستدعيت ثيابي ، وجدّدت وضوءاً على الباب ، ولم أخبر أهلي بقصّتي ،

---

١ أبو العبّاس المفضل بن محمّد بن يعلى بن عامر الضبي الكوفي : راوية ، علاّمة بالشعر والأدب وأيّام العرب ، قيل أنّه توفي سنة ١٦٨ (الأعلام ٨/٢٠٤) .

٢ نهر الصراة : نهر يأخذ من نهر عيسى ، من عند بلدة يقال لها : المحوّل ، بينها وبين بغداد فرسخ ، ويسقي ضياع بادوريا ، وتتفرّع منه أنهار ، إلى أن يصل إلى بغداد ، ويصب في دجلة (معجم البلدان ٣/٣٧٨) ، قالوا : ما كان في شرقي الصراة ، فهو بادوريا ، وما كان في غربيّها ، فهو قطربّل (معجم البلدان ١/٤٦٠) ، أقول : يتّضح من هذا الوصف أنّ مصبّ الصراة في دجلة ، في منطقة أعلى الجعيفر ، وبين مصبّ الصراة ، وجسر باب الطاق (جسر الصرافية الحديد) ، كان قصر الخلد الذي حلّ محلّه المارستان العضدي وأسفل منه قصر أمّ جعفر المعروف بقصر القرار الذي هو في قرن الصراة (الطبري ٨/٤٧٦ و ٥١٠) واستولى على هذه الرقعة من بعدهم الوزير أبو الفضل العبّاس بن الحسين الشيرازي ، صهر الوزير المهلبيّ ، وعمّر عليها داره المشهورة المطلّة على دجلة والصراة ، وأولم فيها لمعزّ الدولة وعسكره الوليمة التي سار بذكرها الركبان ، راجع تفصيل ذلك في الملح والنوادر للحصري ٢٧٦–٢٧٩ .

ولا بما هجم من الغمّ عليّ .

وقلت : إن كان خيراً أو شرّاً ، فسيبلغهم ، فما معنى تعجيل الهمّ لهم .

ومضيت مع الرّسول ، حتّى دخلت على المهدي ، وأنا في نهاية الجزع ، فسلّمت ، فردّ عليّ السلام .

فقلت في نفسي : ليس إلّا خيراً .

فقال : اجلس يا مفضّل ، فجلست .

فقال : أخبرني عن أمدح بيت قالته العرب .

فتبلّدت[3] ساعة ، لا أذكر شيئاً ، ثمّ أجرى الله على لساني ، أن قلت : قول الخنساء[4] .

فأشرق وجهه ، وقال : حيث تقول ماذا ؟ .

فقلت : حيث تقول :

وإنّ صخراً[5] لوالينا وسيّدنـــا ... وإنّ صخراً إذا نشتو لنحّار

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة بـــه ... كأنّـــه علـم في رأسه نـــار

فاستبشر به ، وقال : قد أخبرت هؤلاء بهذا ، وأومأ إلى جماعة بين يديه ، فلم يقبلوا منّي .

قلت : كان أمير المؤمنين ، أحقّ بالصواب منهم .

قال : يا مفضّل ، حدّثني الآن .

قلت : أيّ الأحاديث ؟.

---

٣ كذا في جميع النسخ ، وأحسب أنّ الصحيح : تلدّدت ، أي تحيرت وتلفتّ ، والتبلدّ والتلدّد بمعنى واحد .

٤ تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، المعروفة بالخنساء : ترجمتها في حاشية القصّة ٢٥٤ من الكتاب الكتـاب .

٥ صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحي السلمّي : أخو الخنساء الشاعرة ، كان من فرسان بني سُلَيم ، جرح في غزوة له ، ومرض سنة ، ثم مات ، سنة ١٠ قبل الهجرة (الأعلام ٢٨٨/٣) .

قال : أحاديث الأعراب

فلم أزل أحدّثه ، بأحسن ما احفظ منها ، إلى أن كاد المنادي بالظهر أن ينادي .

ثمّ قال لي : كيف حالك يا مفضّل ؟.

قلت : ما يكون حال رجل عليه عشرون ألف درهم ديناً حالّاً ، وليس في رزقه فضل لقضائها ، وقصصت عليه قصّة حالي ويومي في الإضافة .

فقال : يا عمر بن بزيع ، ادفع إليه السّاعة ، عشرين ألف درهم يقضي بها دينه ، [١٥١ م] ، وعشرين ألف درهم يصلح بها حاله ، وعشرين ألف درهم يجهّز بها بناته ، ويوسّع بها على عياله .

ثمّ قال : يا مفضّل ، ما أحسن ما قال ابن مطير ، في مثل حالك :

وقد تغدر الدنيا فيضحي غنيّها	فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها
وكم قد رأينا من تكدّر عيشة	وأخرى صفا بعد اكدرار غديرها

فأخذت المال ، وانصرفت إلى بيتي بستّين ألف درهم ، بعد الإياس ، وتوطين النفس على ضرب الرّقبة[٦]

---

٦ لم ترد هذه القصّة في غ ولا هـ .

٢٩٩

بين الأصمعي والبقال الّذي على باب الزقاق

وجدت في بعض الكتب عن الأصمعي ، قال :

كنت بالبصرة ، أطلب العلم ، وأنا مقلّ ، وكان على باب زقاقنا[١] بقّال ، إذا خرجتُ باكراً [١٨٧ ظ] يقول لي : إلى أين ؟ فأقول : إلى فلان المحدّث ، وإذا عدت مساء ، يقول لي : من أين ؟ فأقول : من عند فلان الأخباريّ ، أو اللّغوي .

فيقول : يا هذا ، اقبل وصيّتي ، أنت شابّ ، فلا تضيّع نفسك ، واطلب معاشاً يعود عليك نفعه ، وأعطني جميع ما عندك من الكتب ، حتّى أطرحها في الدنّ ، وأصبّ عليها من الماء للعشرة أربعة ، وأنبّذه ، وأنظر ما يكون منه ، والله ، لو طلبت منّي ، بجميع كتبك ، جرزة بقل[٢] ، ما أعطيتك .

فيضيق صدري بمداومته هذا الكلام ، حتّى كنت أخرج من بيتي ليلاً ، وأدخله ليلاً ، وحالي – في خلال ذلك – تزداد ضيقاً ، حتّى أفضيت إلى بيع آجرّ أساسات داري ، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي ، وطال شعري ، وأخلق ثوبي ، واتّسخ بدني .

فأنا كذلك ، متحيّراً في أمري ، إذ جاءني [١٥٩ ر] خادم للأمير محمّد بن سليمان الهاشمي[٣] ، فقال : أجب الأمير .

---

١ الزقاق : الطريق الضيّق ، ولذلك سمي مجاز البحر الذي بين طنجة والجزيرة الخضراء ، بالزقاق ، لضيقه : إذ أنّ عرضه لا يتجاوز اثني عشر ميلاً (معجم البلدان ٩٣٦/٣) أقول : اسمه الآن مضيق جبل طارق ، ما بين المغرب العربي واسبانيا .

٢ الجرزة : الحزمة .

٣ أبو عبد الله محمد بن سليمان بن علي العبّاسي (١٢٢–١٧٣) : أمير البصرة ، وليها في أيام المهدي ، ثم عزله ، وأعاده الرشيد ، وزوّجه أخته العبّاسة ، واستمرّ على ولايته البصرة ، إلى أن توفّي [الأعلام ١٩/٧]

فقلت : ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى ؟.

فلمّا رأى سوء حالي ، وقبح منظري ، رجع فأخبر محمّد بن سليمان بخبري ، وعاد إليّ ، ومعه تخوت ثياب[4] ، ودرج فيه بخور[5] ، وكيس فيه ألف دينار .

وقال : قد أمرني الأمير ، أن أدخلك الحمّام ، وألبسك من هذه الثياب ، وأدع باقيها عندك ، وأطعمك من هذا الطعام ، وإذا بخوان كبير فيه صنوف الاطعمة ، وأبخّرك ، لترجع إليك نفسك ، ثمّ أحملك إليه .

فسررت سروراً شديداً ، ودعوت له ، وعملت ما قال ، ومضيت معه ، حتّى دخلت على محمّد بن سليمان ، فسلّمت عليه ، فقرّبني ، ورفعني .

ثمّ قال : يا عبد الملك ، قد اخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين ، فاعمل على الخروج إلى بابه ، وانظر كيف تكون ؟.

فشكرته ، ودعوت له ، وقلت : سمعاً وطاعة ، سأخرج شيئاً من كتبي وأتوجّه .

فقال : ودّعني ، وكن على الطريق غداً .

فقبّلت يده ، وقمت ، فأخذت ما احتجت إليه من كتبي ، وجعلت باقيها

---

٤ التخت : وعاء من خشب أو نسيج تصان فيه الثياب ، قاله كوركيس عواد في الديارات ٢٨٠ .

٥ البخور : مادة صمغية ، إذا أحرقت فاحت منها رائحة طيبة (المنجد) ، وكان البخور في العصور الوسطى ، من الضروريات ، لا يكاد يخلو منه بيت ، وكيفية استعماله : أن يوضع في المبخرة ، ويؤرّث ، حتى يتصاعد دخانه ، ثم يوضع تحت ذيل المتبخّر ، لتعبق ثيابه بالرائحة ، وكانوا يغالون في أثمان البخور ، ويتأنّقون فيه ، ويخلطون أنواعاً منه ، ليكون ريحها أعبق ، وكانوا يركّبون من ثلاثة أصناف منه بخوراً طيّب الرائحة جداً ، يسمّونه المثلّثة ، اقرأ في الأغاني ١٨٩/١٠ وفي الهفوات النادرة ٣٨٠ خبر المثلّثة الّتي اعدت ليعقوب بن المهدي العبّاسي ، وراجع بعض وصفات البخور المخلوط في مطالع البدور ٦٣/١ و ٦٤ ، وكان للظرفاء بخور خاص ، وهو العود المعنبر بماء القرنفل المخمّر ، والندّ السلطاني (الموشى في الظرف والظرفاء ١٨٢) ، أمّا الآن ، فإنّ البخور يكاد أن ينقرض ، ولا يرى إلاّ في المعابد ، وفي الاحتفالات الدينيّة ، وفي المآتم .

في بيت ، وسددت بابه ، وأقعدت في الدّار عجوزاً من أهلنا ، تحفظها .

وباكرني رسول الأمير محمّد بن سليمان ، وأخذني ، وجاء بي إلى زلّال قد اتّخذ لي ، وفيه جميع ما أحتاج إليه ، وجلس معي ، ينفق عليّ ، حتّى وصلت إلى بغداد .

ودخلت على أمير المؤمنين الرّشيد ، فسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام .

وقال : أنت عبد الملك بن قريب الأصمعي .

قلت : نعم ، أنا عبد أمير المؤمنين بن قريب الاصمعي .

قال : إعلم ، أنّ ولد الرجل مهجة قلبه ، وثمرة فؤاده ، وهوذا أسلم إليك ابني محمّداً بأمانة الله ، فلا تعلّمه ما يفسد عليه دينه ، فلعلّه أن يكون للمسلمين إماماً .

قلت : السمع والطاعة .

فأخرجه إليّ ، وحوّلتُ معه الى دار ، قد أخليت لتأديبه ، وأخدم فيها من أصناف الخدم ، والفرش[٦] ، وأجرى عليّ[٧] في كلّ شهر عشرة آلاف درهم ، وأمر أن تخرج إليّ في كلّ يوم مائدة ، فلزمته .

وكنت مع ذلك ، أقضي [١٥٢ م] حوائج النّاس ، وآخذ عليها الرغائب ، وأنفذ جميع ما يجتمع لي ، أوّلاً ، فأوّلاً ، إلى البصرة ، فأبني داري ، وأشتري عقاراً ، وضياعاً .

فأقمت معه ، حتّى قرأ القرآن ، وتفقّه في الدّين ، وروى الشعر واللّغة ، وعلم أيّام النّاس وأخبارهم .

---

٦ من تقاليد الخلفاء العبّاسيّين ، أنّهم اذا استخدموا مؤدّباً لأولادهم ، أفردوا له داراً مجهّزة بجميع ما يحتاج إليه من فرش وخدم ، فإذا جلس أوّل مجلس ، أمروا – بعد قيامه – بحمل كلّ ما في المجلس إلى منزله ، مع ما يوصل به ، ويوهب له (معجم الأدباء ٥/١١٠) .

٧ في م : وأجري له .

واستعرضه الرّشيد ، فأعجب به ، وقال : يا عبد الملك ، أريد أن يصلّي بالنّاس ، في يوم الجمعة ، فاختر له خطبة ، فحفّظه إيّاها .

فحفّظته عشراً ، وخرج ، فصلّى بالنّاس ، وأنا معه ، فأعجب الرّشيد به ، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصّة والعامّة ، وأتتني الجوائز والصلات من كلّ ناحية ، فجمعت مالاً عظيماً .

ثمّ استدعاني الرّشيد ، فقال : يا عبد الملك ، قد أحسنتَ [١٨٨ ظ] الخدمة ، فتمنَّ .

قلتِ : ما عسى أن أتمنّى ، وقد حزت أمانيّ .

فأمر لي بمال عظيم ، وكسوة كثيرة ، وطيب فاخر ، وعبيد ، وإماء ، وظهر ، وفرش ، وآلة .

فقلت : إن رأى أمير المؤمنين ، أن يأذن لي في الإلمام بالبصرة ، والكتاب إلى عامله بها ، أن يطالب الخاصّة والعامّة ، بالسّلام عليّ ثلاثة أيّام ، وإكرامي بعد ذلك[٨] .

فكتب إليه بما أردت ، وانحدرت إلى البصرة ، وداري قد عمرت ، وضياعي قد كثرت ، ونعمتي قد فشت ، فما تأخّر عنّي أحد .

فلمّا كان في اليوم الثالث ، تأمّلت أصاغر من جاءني ، فإذا البقّال ، وعليه عمامة وسخة ، ورداء لطيف ، وجبّة قصيرة ، وقميص طويل ، وفي رجله جرموقان[٩] ، وهو بلا سراويل .

فقال : كيف أنت يا عبد الملك ؟.

فاستضحكت من حماقته ، وخطابه لي بما كان يخاطبني به الرّشيد .

وقلت : بخير ، وقد قبلت وصيّتك ، وجمعت ما عندي من الكتب ،

---

٨ في م : وإعادتي بعد ذلك .

٩ الجرموق : ما يلبس فوق الخفّ لوقايته من الطّين ، وتسميه العامّة ببغداد : كالوش .

وطرحتها في الدنّ ، كما أمرتَ ، وصببت عليها من الماء للعشرة [١٦٠ ر]
أربعة ، فخرج ما ترى .

ثمّ أحسنت إليه بعد ذلك ، وجعلته وكيلي[١٠] .

---

١٠ هذه القصّة لم ترد في غ .

٣٠٠

المنذر بن المغيرة الدمشقي أحد صنائع البرامكة

قال مسرور الكبير[١] : استدعاني المأمون ، فقال لي : قد أكثر عليّ أصحاب أخبار السرّ[٢] ، أنّ شيخاً يأتي خرائب البرامكة ، فيبكي وينتحب طويلاً ، ثمّ ينشد شعراً يرثيهم به ، وينصرف ، فاركب أنت [وأيّوب الخادم ، والأصمعي ،][٣] ودينار بن عبد الله ، واستترا بالجدران ، فإذا جاء الشيخ ، فأمهلاه ، حتّى تشاهدان ما يفعل ، وتسمعان ما يقول ، فإذا أراد الانصراف ، فاقبضا عليه ، وأتياني به .

قال مسرور : فركبت أنا ودينار [وأيّوب الخادم][٣] مغلّسين ، فأتينا الموضع ، فاختفينا فيه ، وأبعدنا الدوابّ .

فلمّا كان آخر اللّيل ، إذا بخادم أسود قد أقبل ، ومعه كرسي حديد ، فطرحه ، وجاء على أثره كهل ، فجلس على الكرسي ، وتلفّت يميناً وشمالاً ، فلم ير أحداً ، فبكى وانتحب ، حتّى قلت : قد فارق الدنيا ، وأنشأ يقول :

[أما والله لولا خوف واشٍ وعينٍ للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للنّاس بالحجر استلام[٤]

ثمّ بكى طويلاً ، وأنشأ يقول :][٣] .

---

١ أبو هاشم مسرور الخادم المعروف بمسرور الكبير : ترجمته في حاشية القصّة ١٨٨ .

٢ يريد بهم أصحاب الخبر ، راجع حاشية القصّة ٣٥٥ من هذا الكتاب .

٣ الزيادة من م .

٤ للبيتين تتمة ، وهي :

فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى حساماً حتفه السيف الحسام
على اللّذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمكٍ السلام

ولما رأيت السيف جلّل جعفراً ونادى منادٍ للخليفة في يحيي
بكيت على الدنيا وزاد تأسّفي عليها وقلت الآن لا تنفع الدنيا[٥]

وذكر أبياتاً طويلة ، لا تدخل في كتابي هذا ، فأرويها .

قال : فلمّا فرغ من إنشاده وقام ، قبضنا عليه ، فقال : ما تريدون ؟ .

قلت : هذا دينار بن عبد الله ، [وهذا أيّوب الخادم بالحرم ، وهذا عبد الملك بن قريب الاصمعي][٦] ، وأنا مسرور خادم أمير المؤمنين ، وهو يستدعيك .

فأبلس[٧] ، ثمّ قال : إنّي لا آمنه على نفسي [١٥٣ م] فامهلاني حتّى أوصي[٨] .

فقلت : شأنك وما تريد ، فقام ، وسار ، ونحن معه ، حتّى أتى بعض دكاكين العلّافين[٩] ، بفرضة الفيل[١٠] .

---

٥ هذا البيت لا يوجد في ظ ، وقد أضفناه من هـ ، وورد في م كما يلي :

بكيت على الدنيا وأيقنت إنّما قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا

٦ الزيادة من م .

٧ أبلس : انكسر وحزن .

٨ في م : فالتبس عليّ ساعة ، ثم قال : السمع والطاعة لأمير المؤمنين ، إنّي لا آمنه على نفسي ، وأعلم أنّه آخر أيّامي ، فأمهلني حتى أوصي .

٩ العلّاف : في الأصل بائع العلف ، ثم شملت التسميّة بائعي الحبوب عامّة ، وما يزال هذا التعبير سارياً في شمالي العراق ، على بائعي الحبوب . أما في بغداد ، فإنّ باعة الحبوب يسمّون : العَلْوَجيّة ، والمفرد : عَلْوَجي ، نسبته إلى العلوة ، أي الموضع العالي من الأرض ، لأنّ الحبوب كانت توضع في العالي من الأرض لئلاّ تفسدها الرطوبة ، وأصبح موضع بيع الحبوب يسمّى : العلوة ، حتى وإن لم تكن في الموضع العالي .

١٠ الفُرضة : موضع وقوف السفن والزوارق في النهر ، ومنها فرضة الفيل المذكورة في هذه القصّة ، حيث دكاكين العلّافين ، وقد ذكر صاحب النشوار في القصّة ١١٤/٤ فرضة جعفر على دجلة ، وهي منسوبة =

فاستدعى دواةً وبياضاً ، وكتب فيها وصيّته ، ودفعها إلى الخادم الّذي كان معه ، وأنفذه إلى منزله ، وسرنا به ، حتّى أدخلناه على المأمون ، فلمّا مثل بين يديه ، زبره ، وانتهره .

ثمّ قال له : من أنت ؟ وبم استحقّ منك البرامكة ما تصنع [في دورهم وخراباتهم ؟][6] .

فقال : غير هائب ، ولا محتشم : يا أمير المؤمنين ، إنّ للبرامكة عندي أياد ، فإن أمر أمير المؤمنين حدّثته بإحداها .

فقال : هات .

قال : أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، من ذوي الحسب ، نشأت في ظلّ نِعَمٍ قديمة ، فزالت عنّي ، كما تزول النّعم عن النّاس ، حتّى أفضيت إلى بيع مسقط رأسي وروس آبائي ، وأملقت حتّى لا غاية ، فأشير عليّ بقصد البرامكة .

فخرجت من الشّام إلى بغداد ، ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيّاً وصبيّة ، فدخلت بهم مدينة السّلام ، فأنزلتهم في مسجد .

ثمّ عمدت إلى ثويبات كنت قد أعددتها للقاء النّاس ، والتذرّع بها للبرامكة ، فلبستها ، وسلكت الطّريق ، لا أدري أين أقصد ، [وكنت كما قيل :

وأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقـدّامـه خـير لـه أم وراءه

فلمّا قال ذلك ، بكى المأمون ، فقال له مسرور : أقصر يا رجل ، فقد أتعبت أمير المؤمنين بوصفك .

فقال له المأمون : دعه يتحدّث بما يريد .

= الى جعفر بن أبي جعفر المنصور ، أقطعها المنصور لولده جعفر (الطبري ٧/٦٢٠) ، وهي في الجانب الغربي من بغداد ، وهناك فرضة البصريّين ، تصعد إليها السفن من البصرة وواسط ، وتنحدر منها السفن التي تريد البصرة وواسط ، وهي عند الكتبيّين ، في الجانب الغربي من بغداد (الطبري ١٠/١١٨ والقصّة ٤٦٩ من هذا الكتاب) .

قال : نعم][6] ، وتركت عيالي جياعاً لا نفقة لهم ، ولا معهم ما يباع ، فأفضيت إلى مسجد مزخرف ، فيه جمع شيوخ ، بأحسن زيّ ، وأجمل هيأة ، فطمعت في مخاطبتهم ، فصعدت إلى المسجد ، فجلست معهم ، لم أزد على السّلام ، وجعلت أردّد في صدري كلاماً أخاطبهم به ، فيحصرني التشوّر[11] ، ويخجلني ذلّ المسألة ، ويحبسني عن الكلام ، [وأتصبّب عرقاً ، حياءً وخوفاً من أن يقال لي : من أنت ، وما تريد ؟ وما يمكنني الجواب ، ولا أدري ما أخاطبهم به][6] ، إذ لم تكن لي عادة بالخوض في مثله .

فأنا كذلك ، إذ جاء خادم فاستدعى القوم ، فقاموا ، وقمت معهم ، ومضينا ، فأدخلوا [١٨٩ ظ] داراً ذات دهليز طويل ، فدخلت معهم ، وأفضينا إلى صحن واسع ، وإذا شيخ بهيّ ، فإذا هو يحيى بن خالد ، على دكّة [أبنوس في صحن الدّار][6] ، في وسط البستان ، وله ميدان عنده بركة ، وقد نصب عليها كراسي أبنوس .

وأقبل القوم ، فجلسوا ، وجلست معهم ، وتأمّل الخدمُ القومَ وعددهم ، فإذا نحن مائة رجل ورجل ، فدخل الخدم وغابوا ، ثمّ خرج مائة خادم وخادم ، في يد كلّ واحد منهم مجمرة من ذهب ، فيها قطعة كالفهر[12] من عنبر ، والخدم بأفخر الثياب ، عليهم مناطق الذّهب المرصّعة بالجوهر ، وهم يطيفون بغلام ، حين اخضرّ شاربه ، حسن الوجه ، فسجروا العنبر .

وأقبل يحيى على الزريقي القاضي[13] ، وقال : زوّج ابن أخي هذا ، بابنتي عائشة على صداق قدره مائة ألف درهم .

فخطب ، وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، وبنادق العنبر ،

---

١١ التشوّر : الخجل .

١٢ الفهر ، بكسر أوّله وسكون ثانيه : الحجر ملئ الكفّ (لسان العرب) .

١٣ الزريقي : نسبة إلى زريق بطن من الأنصار ، من الخزرج (اللباب ١/٤٩٩) .

وتماثيل النّدّ الصغار ، والتقط النّاس ، والتقطتُ .

ثمّ جاء مائة خادم وخادم ، [١٦١ ر] في يد كلّ واحد منهم صينيّة فضّة فيها ألف دينار ، مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كلّ رجل منّا صينيّة .

فأقبلت الجماعة تكوّر الدنانير في أكمامها ، وتأخذ الصواني تحت آباطها ، وتنصرف ، ألأوّل ، فالأوّل ، حتّى بقيت وحدي ، لا أجسر على أخذ الصينيّة وما فيها ، والأسف ، والحاجة ، يمنعاني أن أقوم وأدعها ، وأنا مطرق ، مفكّر .

حتّى ضاق صدري [١٥٤ م] ، فرفعت رأسي ، فغمزني بعض الخدم على أخذها والقيام ، فأخذتها وقمت ، وأنا لا أصدّق ، وجعلت أمشي وأتلفّت ، خوفاً من أن يتبعني من يأخذها ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أعلم .

فلمّا قاربت الستر ، رددت ، فأيست من الصينيّة ، فجئت – وهي معي – حتّى قربت منه ، فأمرني بالجلوس ، فجلست .

فسألني عن حالي ، وقصّتي ، ومن أنا ، فصدقته ، حتّى إذا بلغت إلى تركي عيالي في المسجد ، بكى .

ثمّ قال : عليّ بموسى ، فجاء .

فقال : يا بنيّ ، هذا رجل من أبناء النعم ، قد رمته الأيّام بصروفها ، والنوائب بحتوفها ، فخذه ، واخلطه بنفسك ، واصطنعه .

فأخذني موسى إلى داره ، فخلع عليّ من أفخر ثيابه ، وأمر بحفظ الصينيّة لي ، وقضيت على ذلك يومي وليلتي .

ثمّ استدعى أخاه العبّاس من الغد ، وقال له : إنّ الوزير سلّم إليّ هذا الفتى ، وأمرني فيه بكذا وكذا ، وأريد أن أركب اليوم إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم حتّى أرتجعه غداً ، فكان يومي عنده مثل أمسي .

وأقبلوا يتداولوني كلّ يوم ، واحداً بعد واحد ، وأنا قلق بأمر عيالي ، إلّا أنّني لا أذكرهم إجلالاً لهم .

فلمّا كان في اليوم العاشر ، أدخلت إلى الفضل بن يحيى ، فأقمت في داره يومي وليلتي .

فلمّا أصبحت ، جاءني خادم من خدمه ، فقال : يا هذا قم إلى عيالك وصبيانك .

فقلت : إنّا لله ، لم أحصل لهؤلاء الصبيان على الأكل والشرب ، والصينيّة وما فيها ، وما حصّلته من النثار ، ذهب[14] ، فليت هذا كان من أوّل يوم ، وكيف أتوصّل الآن إلى يحيى ، وأيّ طريق لي إليه .

وتلاعبت بي الأفكار مخافة اليأس ، وأظلمت الدنيا في عيني ، وقمت أجرّ رجلي ، والخادم يمشي بين يديّ ، [حتّى أخرجني من الدار ، فازداد إياسي ، وما زال يمشي بين يديّ][٦] حتّى أدخلني الى دار كأنّ الشّمس تطلع من جوانبها ، وفيها من صنوف الفرش والأثاث والآلات ، ما يكون في مثلها .

فلمّا توسّطتها ، رأيت عيالي أجمعين فيها ، يرتعون في الديباج والشفوف[15] ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، والصينيّة والنثار ، وسلّم إليّ الخادم ، صكّ ضيعتين جليلتين .

وقال : هذه الدار ، وما فيها ، والضياع بغلّاتها ، لك .

فأقمت مع البرامكة في أخفض عيش ، وأجلّ حال ، حتّى نزلت بهم النازلة .

ثمّ قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين ، فألزمني في خراجهما ، ما لا يفي به دخلهما .

---

١٤ في ظ : حسب .

١٥ الشف ، وجمعه شفوف : الثوب الرّقيق ، قالت الفتاة البدويّة الشاعرة :

ولبس عباءة وتقرّ عيني ... أحبّ إليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحبّ إليّ من أكل الصنوف
وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحبّ إليّ من قصر منيف

فلحقتني شدّة عظيمة ، فكلّما لحقتني نائبة [١٩٠ ظ] واشتدّت بي بليّة ، قصدت دورهم ومنازلهم ، فبكيتهم ، ورثيتهم ، وشكرتهم ، ودعوت لهم ، على ما كان منهم إليّ ، وشكوت ما حلّ بي بعدهم ، فأجد لذلك راحة .

قال : فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة ، فلمّا أتي به ، قال له : أتعرف هذا الرّجل ؟ .

قال : يا أمير المؤمنين ، هو بعض صنائع البرامكة .

فأمره أن يردّ على الرّجل ، كلّما استخرج منه ، وأن يقرّر خراجه على ما كان عليه أيّام البرامكة [وأن يجعل له ضيعة أخرى من جملة الإيغارات يكون دخلها له ويتّخذ به سجلّاً][٦] وأن يقضي حقّه ويكرمه ، فبكى الشيخ بكاءً شديداً .

فقال له المأمون : ألم أستأنف إليك جميلاً فما بكاؤك ؟ .

فقال : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وزدت على كلّ فضل وإحسان ، ولكن هذا من بركة الله ، وبركة البرامكة[١٦] عليّ ، وبقيّة إحسانهم إليّ ، فلو لم [١٥٥ م] آت خراباتهم ، فأبكيهم ، وأندبهم ، حتّى اتّصل خبري بأمير المؤمنين ، ففعل بي ما فعل ، من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين .

فقال له المأمون : إمض مصاحباً ، فإنّ الوفاء مبارك ، وحسن العهد من الايمان[١٧] .

---

١٦ البرامكة : راجع البحث في آخر القصّة .

١٧ هذه القصّة لم ترد في غ .

البرامكة

جاء في الفخري ١٩٧ : إنّ دولة آل برمك ، كانت غرة في جبهة الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر ، فانّ يحيى وبنوه ، كالنجوم زاهرة ، والبحار زاخرة ، والسيول دافقة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الأدب عندهم نافقة ، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيّامهم عامرة ، وأبّهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ الضعيف ، ومعتصم الطريد ، وفيهم يقول أبو نؤاس :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمكٍ من رائحين وغاد .

وقال الجاحظ : البرامكة محض الأنام ، ولباب الكرام ، وملح الأيّام ، عتق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، (العقد الفريد ٥/٢٨) ، وقال عنهم أيضاً : إنّ أيّامهم كانت رياض الأزمنة (وفيات الأعيان ٣/٤٧٤) .

وقال محمد بن جميل الكاتب : كان البرامكة شفاء سقام دهرهم ، وغياث جدب عصرهم ، وما زالوا كهفاً للاّجئين ، ومفزعاً للملهوفين (قطب السرور ٦٣) .

وقال القاضي التنوخي ، في امتداح مجلس من مجالس الوزير المهلّبي : كأنّه من مجالس البرامكة (نشوار المحاضرة القصّة رقم ١/٢٨) .

وقال سليمان بن وهب ، لشخص أحسن إليه : إنّك قد فعلت ما لم تفعله البرامكة (القصّة ١٦٥ من هذا الكتاب) .

وقال صالح ، صاحب المصلّى : إنّ الدهر لا يخلف مثل يحيى أبداً (القصّة ٣٧١ من هذا الكتاب) .

وقال إسحاق الموصليّ ، في الفضل بن يحيى البرمكي : سبحان الذي خلق هذا الرجل ، وجبله على كرم بذّ به من مضى ومن غبر (المحاسن والمساوىء ٢/٢٢) .

وحلف إسحاق الموصلي ، بالله الذي لا إله إلاّ هو : ما رأيت أذكى من جعفر بن يحيى قط ، ولا أفطن ، ولا أعلم بكلّ شيء ، ولا أفصح لساناً ، ولا أبلغ في المكاتبة (الأغاني ٤/٣٢٥) .

وقال ثمامة بن أشرس : ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى البرمكي والمأمون (تاريخ الخلفاء ٣٢٦) .

وقال إبراهيم بن المهدي : ما رأيت أكمل من جعفر قط (الأوراق للصولي ، أشعار أولاد الخلفاء ٣٤) .

وأبو حيّان التوحيدي ، الذي كان كثير الغرام ، بثلب الكرام (معجم الأدباء ٢/٢٨٢) إذ لم يترك أحداً من رؤساء زمانه ، إلاّ وشتمه ، أثنى على البرامكة في كتابه أخلاق الوزيرين ، فذكر أنّ معروفهم كان يسع الصغير والكبير ، ويعمّ الغني والفقير (أخلاق الوزيرين ٤٨٩) ، ونقل في كتابه كذلك ما أورده محمّد بن داود الجرّاح ، في كتابه أخبار الوزراء ، في الثناء عليهم ، فقال : كان آل برمك أندى من السحاب (أخلاق الوزيرين ٣٨٠) .

وفي محاضرات الأدباء ٣/١٩٨ : إنّ امرأة مرّت بجعفر بن يحيى ، وقد صلب ، فقالت : لئن صرت اليوم راية ، لقد كنت بالأمس غاية .

وفي تحفة المجالس ١٧٩ : إنّ البرامكة كانوا يُقصدون من آفاق الأرض ، وقال أعرابيّ قصدهم من اليمن : قصدت هؤلاء الأمجاد ، الذين انتشر صيتهم في البلاد .

وكان للبرامكة من السخاء والكرم ، ما لم يكن لأحد من الناس ، وكانوا يخرجون بالليل سرّاً ، ومعهم الأموال يتصدّقون بها ، وربما دقّوا على الناس أبوابهم ، فيدفعون إليهم الصرّة ، بين الثلاثة آلاف إلى الخمسة آلاف ، أو الأكثر من ذلك ، والأقل ، وربما طرحوا ما معهم في عتب الأبواب ، فكان الناس – لاعتيادهم ذلك – يعدون إلى العتب ، إذا أصبحوا ، يطلبون ما التي فيها (المحاسن والمساوىء ١/١٥٠) .

وقال فيهم الشاعر : [وفيات الأعيان ٤/٣٥]

عنـد الملـوك مضرّة ومنافـــع	وأرى البرامك لا تضرّ وتنفـع
إن كـان شرّ كـان غيرهم لـه	والخـير منسوب إليهم أجمـع

وقال أبو نؤاس : [وفيات الأعيان ٥/٥٩]

إنّ البرامـكة الكرام تعلّمـــوا	فعـل الجميـل فعلّمـوه النـاسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنـوا	لم يهدمـوا مما بنـوه أساسا
وإذا همُ صنعوا الصنائع في الورى	جعلوا لهـا طـول البقـاء لباسا

وقال أشجع السلميّ ، يذكر أيّامهم : [وفيات الأعيان ١/٣٣٦]

كأنّ أيّامهم من حسن بهجتها مواسم الحجّ والأعياد والجمع

وأصبح جود البرامكة ، على تمادي الأيّام ، مضرب المثل ، قال الجمّاز : جاءنا فلان ، بمائدة ، كأنّها زمن البرامكة على العفاة (زهر الأداب ٣/٢ والملح والنوادر ٢٣٦) .

والبغداديون ، إلى وقتنا هذا ، يذكرون البرامكة ، ويصفون الرجل الكريم النفس ، السخيّ اليد ، بأنّه : برمكي .

وعمّت شهرة البرامكة بالجود ، جميع أنحاء الدنيا ، بحيث أنّ المقري في نفح الطيب ١٠٩/٣ امتدح أحد أمراء الموحّدين بالأندلس ، فوصفه بأنّ «له حكايات في الجود برمكيّة» .

وقد أنكر صاعد ، وزير الموفّق ، ما يذكر عن البرامكة ، وقال : هذه أقاصيص من صنع الورّاقين ، فقال له أبو العيناء : لم لا يكذب على الوزير – أعزّه الله – مثل هذا الكذب ، وهو حيّ ، يرجى ويخاف ، وأولئك موتى ، مأيوس من خيرهم وشرهم ، (القصّة ١/١ من نشوار المحاضرة) .

وبالنظر لعدم وجود سبب واضح عن نكبتهم ، فقد خبط المؤرخون خبطاً في الاستنتاج ، وذكر كلّ واحد منهم سبباً ، أو أكثر من سبب ، فادّعى بعضهم أنّ السبب سياسي ، وأنّهم أرادوا قلب الدولة ، وقال بعضهم : أنّ ثمة سبباً يتعلّق بزواج جعفر ، زواجاً لم يرضه الخليفة ، وهذا كلّه لا أصل له ، فإنّ البرامكة ، لو أرادوا قلب الدولة ، لحاولوا ذلك عندما كانت خراسان في قبضتهم ، وأمّا قضية الزواج ، فهي أقصوصة لا تعلق بقبول ، ولا تدخل في معقول ، والذي يظهر للمتأمّل ، أنّ استئثار البرامكة بالحكم ، وانقياد الناس لهم ، ولهجتهم بالثناء عليهم ، والتعلّق بهم ، أثار غيرة الرشيد ، وأشعل نار هواجسه ، وصادف وجود دسّاسين ، من رجال الحاشية ، ممن يرغب في انتقال السلطة من البرامكة إليهم ، مثل الفضل بن الربيع ، وعلي بن عيسى بن ماهان ، وأحمد بن صبيح ، فتظافروا ، وأغروا الرشيد بهم ، فوجدوا منه أذناً سامعة ، وكانت الخيزران ، أمّ الرشيد ، حامية البرامكة ، قد توفيت في السنة ١٧٣ ، فلم يكد الرشيد يودعها قبرها ، حتى دعى الفضل ابن الربيع ، وأمره بأخذ الخاتم من جعفر ، وحلف له إنّه كان يهمّ بأن يولّيه ، فتمنعه أمّه ، فيطيع أمرها (الطبري ٢٣٨/٨) .

ولعلّ أصحّ ما ورد في هذا الباب ، ما ذكره ابن خلّكان في كتاب وفيات الأعيان ٣٣٥/١ ، قال : سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد ، فقال : والله ، ما كان منهم ما يوجب بعض ما عمل الرشيد بهم ، ولكن طالت أيّامهم ، وكلّ

طويل مملول ، ووالله ، لقد استطال الناس ، الذين هم خير الناس ، أيّام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما رأوا مثلها عدلاً ، وأمناً ، وسعة أموال ، وفتوح ، وأيّام عثمان رضي الله عنه ، حتى قتلوهما ، ورأى الرشيد – مع ذلك – أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بآمالهم دونه ، والملوك تتنافس بأقلّ من هذا ، فتعنّت عليهم ، وتجنّى ، وطلب مساويهم ، ووقع منهم بعض الإدلال ، خاصّة جعفر والفضل ، دون يحيى ، فإنّه كان أحكم خبرة ، وأكثر ممارسة للأمور ، ولاذ من إعدائهم قوم بالرشيد ، كالفضل بن الربيع ، وغيره ، فستروا المحاسن ، وأظهروا القبائح ، حتى كان ما كان .

ويؤيّد هذا الرأي ، ما روي عن هرون الرشيد أنّه قال : إنّ الدالّة تفسد الحرمة ، وتنقص الذمّة ، ومنها أتي البرامكة (كتاب الآداب لمجد الملك جعفر بن شمس الخلافة ص ٢٠) .

وقد ذهب المؤرخ ابن خلدون ، إلى هذا الرأي ، قال : إنّما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرّف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم ، وبَعُدَ صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها ، بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمّن سواهم ، من وزارة ، وكتابة ، وقيادة ، وحجابة ، وسيف ، وقلم ، ويقال إنّه كان بدار الرشيد ، من ولد يحيى بن خالد ، خمسة وعشرون رئيساً ، من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ، وليّ عهد ، وخليفة ، حتى شبّ في حجره ، ودرج من عشّه ، وغلب على أمره ، وكان يدعوه : يا أبتِ ، فتوجّه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالّة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم ، هدايا الملوك ، وتحف الأمراء ، وسيّرت إلى خزائنهم ، في سبيل التزلّف والإستمالة ، أموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة (يريد شيعة بني العبّاس) وعظماء القرابة ، العطاء ، وطوّقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف ، المعدم ، وفكّوا العاني ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغصّوا أهل الولاية (تاريخ ابن خلدون ١٣/١ و١٤) .

وذكر صاحب الأغاني ٣٠٣/١٨ : أنّ الرشيد ندم على قتله البرامكة ، وربما بكى عليهم في بعض المجالس .

وذكر ابن خلّكان في وفيات الأعيان ٢٢٨/٦ و ٢٢٩ نقلاً عن الجهشياري : أنّ الرشيد ندم على ما كان منه في أمر البرامكة ، وتحسّر على ما فرط منه في أمرهم ، وخاطب جماعة من إخوانه ، بأنّه لو وثق منهم بصفاء النيّة ، لأعادهم إلى حالهم ، وكان الرشيد كثيراً ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنّهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا ، لم يغنوا عنّا ، وأنشد :

أقِلّوا عليهم لا أبا لأبيكم   من اللّوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

راجع بعض أخبار البرامكة في المحاسن والمساوىء ١٤٠/١ و١٤١ و١٥١ - ١٦٢ وراجع في العقد الفريد ٦٢/٥ - ٦٥ الحوار الذي جرى بين هارون الرشيد وبين فاطمة بنت محمّد بن الحسن بن قحطبة ، أمّ جعفر البرمكي . وهي أمّ الرشيد بالرضاعة ، وراجع بشأن الثناء على البرامكة ، القصّة ٢/١ و٣/١ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي ، وراجع كذلك في كتاب الأوراق للصولي أشعار أولاد الخلفاء ص ٤٧ الحوار الذي جرى بين الرشيد وبين أخته عليّة حول مقتل جعفر البرمكي ، وراجع في كتاب جواهر الأدب من خزائن العرب ص ٤١٨ قصّة عن الفضل وجعفر ، رواها محمّد بن عبد الرحمن الهاشمي ، صاحب صلاة الكوفة ، وراجع الطبري ٣٠٠/٨-٣٠٢ والأغاني (ط بولاق) ٣١/٢٠ .

٣٠١
هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان

بلغني أنّه كان بالكوفة رجل من أهل الأدب والظرف ، يعاشر النّاس ، وتأتيه ألطافهم ، فيعيش بها .

ثمّ انقلب الدّهر عليه ، فأمسك النّاسُ عنه ، وجفوه حتّى قعد في بيته ، والتجأ إلى عياله ، فشاركهنّ في فضل مغازلهنّ ، واستمرّ ذلك عليه ، حتّى نسيه النّاس ، ولزمه الفقر .

قال : فبينما أنا ذات ليلة في منزلي ، على أسوء حال ، إذا وقعُ حافرِ دابّة ، ورجل يدقّ بابي ، فكلّمته من وراء الباب .

فقلت : ما حاجتك ؟.

فقال : إنّ أخاً لك لا أسمّيه ، يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إنّي رجل مُستتر ، ولست آنس بكلّ أحد ، فإن رأيت أن تصير إليّ ، لنتحدّث ليلتنا .

فقلت في نفسي : لعلّ جدّي أن يكون قد تحرّك ؟ ثمّ لم أجد لي ما ألبسه ، فاشتملت بأزار امرأتي[١] ، وخرجت ، فقدّم إليّ فرساً مجنوباً كان معه ، فركبته .

إلى أن أدخلني إلى فتى من أجلّ النّاس وأجملهم وجهاً ، فقام إليّ ، وعانقني ، ودعا بطعام فأكلنا ، وبشراب فشربنا ، وأخذنا في الحديث ، فما خضت في شئ إلّا سبقني إليه .

حتّى إذا صار وقت السَحَر ، قال : إن رأيت أن لا تسألني عن شئ من أمري ، وتجعل هذه الزيارة بيني وبينك ، إذا أرسلت إليك فعلتَ ، وها هنا

---

١ اشتمل بالثوب : تلفّف به وأداره على بدنه ، والشمال : شئ كالمخلاة يغطى به ضرع الشاة ، والشمال عند البغداديّين الآن : خرقة تشدّ بين الساقين لستر العورة .

دراهم تقبلها ، ولا تردّها ، ولا يضيق بعدها عنك شيئ ، فنهضت ، فأخرج إليّ جراباً مملوءاً دراهم .

فدخلتني أريحيّة الشراب ، فقلت : اخترتني على النّاس للمنادمة ، ولسرّك ، وآخذ على ذلك أجراً ؟ لا حاجة لي في المال .

فجهد بي ، فلم آخذه ، وقدّم إليّ الفرس ، فركبتـه ، وعدت إلى منزلي ، وعيالي متطلّعون لما أجيئ به ، فأخبرتهم بخبري .

وأصبحت نادماً على فعلي ، وقد ورد عليّ وعلى عيالي ، ما لم يكن في حسابنا .

فمكثت حيناً ، لا يأتي إليّ رسول الرّجل ، إلى أن جاءني بعد مدّة ، فصرت إليه ، فعاودني بمثل ذلك الفعل ، فعاودته بالامتناع ، وانصرفت مخفقاً ، فأقبلت امرأتي عليّ باللوم والتوبيخ .

فقلت لها : أنت طالق ثلاثاً إن عاودني ولم آخذ ما يعطيني .

فمكثت مدّة أطول من الأوّلة[2] ، ثمّ جاءني رسوله ، فلمّا أردت الركوب ، قالت لي امرأتي : يا ميشوم اذكر يمينـك ، وبكاء بناتك ، وسوء حالك .

فصرت إلى الرّجل ، فلمّا أفضينا إلى الشراب ، قلت له : إنّي أجد علّة تمنعني منه ، وإنّما أردت أن يكون رأيي معي .

فأقبل الرّجل يشرب ، وأنا أحادثه ، إلى أن انبلج الفجر ، فأخرج الجراب ، وعاودني ، فأخذته ، فقبّل رأسي ، وشكرني على قبول برّه ، وقدّم إليّ الفرس ، فانصرفت عليه ، حتّى انتهيت إلى منزلي ، فألقيت الجراب .

فلمّا رآه عيالي ، سجدن لله شكراً ، وفتحناه ، فإذا هو مملوء دنانير .

فأصلحت منه حالي ، واشتريت مركوباً ، وثياباً حسنة ، وأثاثاً ، وضيعة قدّرت أنّ غلّتها تفي بي ، وبعيالي بعدي ، واستظهرت على زماني ببقيّة الدنانير .

وانثال النّاس عليّ ، يظهرون السرور بما تجدّد لي ، وظنّوا أنّي كنت غائباً

٢ الأوّلة : لغة بغداديّة ، بمعنى الأولى ، والبغداديّون الآن يقولون الأوليّة : والأولانيّة .

في انتجاع ملك[3] ، فقدمت [١٩١ ظ] مثرياً ، وانقطع رسل الرّجل عنّي .

فبينما أنا أسير يوماً بالقرب من منزلي ، فإذا ضوضاء عظيمة[4] ، وجماعة مجتمعة .

فقلت : ما هذا ؟.

قالوا : رجلٌ من بني فلان ، كان يقطع الطريق [١٤١ ر] ، فطلبه السلطان ، إلى أن عرف خبره هاهنا ، فهجم عليه ، [١٥٦ م] وقد خرج على النّاس بالسّيف ، يمنع نفسه .

فقربت من الجمع ، وتأمّلت الرّجل ، فإذا هو صاحبي بعينه ، وهو يقاتل العامّة ، والشُرَط ، ويكشف النّاس ، فيبعدون عنه ، ثمّ يتكاثرون عليه ويضايقونه .

فنزلت عن فرسي ، وأقبلت أقوده ، حتّى دنوت منه ، وقد انكشف النّاس عنه .

فقلت : بأبي أنت وأمّي ، شأنك والفرس ، والنُجاة ، فاستوى على ظهره ، فلم يلحق .

فقبض عليّ الشرط ، وأقبلوا عليّ ، يلهزوني[5] ، ويشتموني ، حتّى جاءوا بي إلى عيسى بن موسى ، وهو والي الكوفة ، وكان بي عارفاً .

فقالوا : أيّها الأمير ، كدنا أن نأخذ الرّجل ، فجاء هذا ، فأعطاه فرساً نجا عليه .

فاشتدّ غضب عيسى بن موسى ، وكاد أن يوقع بي ، وأنا منكر لذلك .

---

٣ في م : في انتجاع ذلك .

٤ الضوضاء ، والضوضى ، والضوضأة : أصوات الناس إذا اختلطت ، قال الحارث بن حلّزة اليشكري :

أجمعوا أمـــرهم عشـاءِ فلمّـــا ⁂ أصبحوا أصبحت لهم ضوضـاء

من مناد ، ومن مجيب ، ومن تصـ ⁂ ـهال خيلٍ خلال ذاك رغـــاء

٥ اللهز : الضرب بجمع الكفّ في اللهزمة والرقبة .

فلمّا رأيت المصدوقة ، قلت : أيّها الأمير ، أدنني إليك ، أصدقك .

فاستدناني ، فشرحت له ما كان أفضت بي الحال إليه ، وما عاملني به الرّجل ، وأنّي كافأته بجميل فعله .

فقال لي سرّاً : أحسنت ، لا بأس عليك .

ثمّ التفت إلى النّاس فقال : يا حمقى ، هذا يتّهم ؟ إنّما لفظ حافر فرسه حصاة ، فقاده ليريحه ، فغشيه رجل مستقتل ، بسيف ماض ، قد نكلتم عنه بأجمعكم ، فكيف كان هو يدفعه عن فرسه ؟ انصرفوا ، ثمّ خلّى سبيلي .

فانصرفت إلى منزلي ، وقد قضيت ذمام الفتى ، وحصلت النعمة بعد الشدّة ، وأمنت عواقب الحال ، و كان آخر عهدي به[٦] .

---

٦ لم ترد هذه القصّة في غ .

٣٠٢

جعفر بن سليمان أمير البصرة
يصفح عمّن سرق منه جوهراً

سرق لجعفر بن سليمان الهاشمي[1] جوهر فاخر بالبصرة ، وهو أميرها ، فجهد أن يعرف له خبراً ، فخفي عليه ، فأقلقه ذلك ، وغاظه ، وجدّ بالشرط [١٦٢ ر] وضربهم ، وألزمهم إظهاره ، فجدّوا في الطلب .

فلمّا كان بعد شهور ، أتاه بعضهم برجل وجده في ساباط اللؤلؤ ، يبيع درّة فاخرة من ذلك الجوهر ، قد قبض عليه ، وضربه ضرباً عظيماً إلى أن أقرّ ، فأخبر جعفر بخبره ، فأذن بدخوله .

فلمّا رأى الرّجل جعفراً ، استغاث به ، وبكى ، ورقّقه ، فرحمه جعفر ، وقال : ألم تكن طلبت منّي هذه الدرّة في وقت كذا ، فوهبتها لك ؟.

فقال : بلى .

فقال للشرط : خلّوا عنه ، واطلبوا اللصّ[2] .

---

١ جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العبّاس ، العبّاسيّ ، الهاشمي : ترجمته في حاشية القصّة ١٥٦ من الكتاب .

٢ لم ترد هذه القصّة في غ .

٣٠٣
أخذ الصينية من لا يردّها ورآه من لا ينمّ عليه

وروت الفرس قريباً من هذا ، فذكروا أنّ بعض ملوكهم ، سخط على حاجبٍ له سخطاً شديداً ، وألزمه بيته ، وكان فيه كالمحبوس ، وقطع عنه أرزاقه وجراياته ، فأقام على ذلك سنين ، حتّى تهتكّ ، ولم تبق له حال .

ثمّ بلغه أنّ الملك قد اتّخذ سماطاً عظيماً ، يحضره النّاس في غدِ يومه ذلك ، فراسل أصدقاءه ، وأعلمهم أنّ له حقاً[1] يحضره لبعض ولده ، واستعار منهم دابّة بسرجه ولجامه ، وغلاماً يسعى بين يديه ، وخلعة يلبسها ، وسيفاً ، ومنطقة ، فأعير ذلك ، فلبسه ، وركب الدابّة ، وخرج من منزله ، إلى أن جاء إلى دار الملك .

فلمّا رآه البوّابون لم يشكّوا في أنّه ما أقدم على ذلك إلّا بأمر الملك ، وتذمّموا لقديم رئاسته عليهم ، فأشفقوا من عودها أن يحجبوه إلى أن يستثبتوا .

ودخل هو مظهراً القوّة بأمر نفسه ، ولم تزل تلك حاله ، مع طائفة ، حتّى وصل إلى الملك ، وقد أكل ، وهو جالس يشرف .

فلمّا رآه الملك قطّب ، وأنكر حضوره ، وهمّ بأن يأمر به ، وبالحجّاب ، والبوّابين ، فكره أن ينغصّ يوماً قد أفرده بالسرور على نفسه .

وأقبل الرّجل يخدم ، فيما كان يخدم فيه قديماً ، فازدادت الحال تمويهاً على الحجّاب والحاشية ، إلى أن كاد المجلس ينصرم ، وغفل أكثر من كان [١٩٢ ظ] حاضراً عنه .

فتقدّم إلى صينيّة ذهب زنتها ألف مثقال ، مملوءة مسكاً ، فأخذها بخفّة ،

١ الحقّ : موضع الاجتماع من أجل تشييع جنازة المتوفّى ، راجع القصّة ١٣٨/١ و ٩/٤ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي .

وجعل المسك في كمّه ، والصينيّة [١٥٧ م] في خفّه ، والملك يراه .

وخرج ، وعاد إلى منزله ، وردّ العواري إلى أهلها ، وباع المسك ، وكسر الصينية ، وجعلها دنانير ، واتّسع بها حاله .

وأفاق الملك – من غدٍ – من سكره ، وسمع من يخدم في الشراب يطلب الصينيّة ، وقهرمان الدار يضرب قوماً في طلبها ، فذكر حديث الحاجب ، وعلم أنّه ما حمل نفسه على الغرر الشديد في ذلك ، إلّا من وراء شدّة وضرّ .

فقال لقهرمانه : لا تطلب الصينيّة ، فما لأحد في ضياعها ذنب ، فقد أخذها من لا يردّها ، ورآه من لا ينمّ عليه .

فلمّا كان بعد سنة ، عاد ذلك الحاجب ، إلى شدّة الإضاقة ، بنفاد الدنانير ، وبلغه خبر سماط يكون عند الملك ، في غد يومه ، فاحتال بحيلة أخرى ، حتى دخل إلى حضرة الملك ، وهو يشرب .

فلمّا رآه الملك ، قال : يا فلان ، نفذت تلك الدنانير ؟.

فقبّل الارض بين يديه ، وبكى ، ومرّغ خدّيه ، وقال : أيّها الملك ، قد احتلت مرّتين ، على أن تقتلني فأستريح ممّا أنا فيه ، من عظم الضرّ الّذي أعانيه ، أو تعفو عنّي كما يليق بك ، وتذكر خدمتي[٢] ، فأعيش في ظلّك ، وليست لي بعد هذا اليوم حيلة .

فرقّ له الملك ، وعفا عنه ، وأمر برد أرزاقه عليه ونعمته ، وردّه إلى حالته الأولى في خدمته[٣] .

---

٢ في م : وتذكر حرمتي .

٣ لم ترد هذه القصّة في غ ، ووردت باختصار في البصائر والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٧٠٨ .

٣٠٤

سفتجة بثلاث صفعات

يفتديها المحال عليه بخمسمائة وخمسين ديناراً

بلغني عن رجل من أهل ديار ربيعة ، كانت له حال صالحة[1] ، فزالت ، قال : فلزمتني المحنة والإضاقة ، مدّة طويلة ، فتحيّرت ، ولم أدر ما أعمل .

وكان أمير الناحية إذ ذاك ، العبّاس بن عمرو الغنوي[2] ، وكانت بيني وبين كاتبه معرفة قديمة ، فأشير عليّ بأن ألقاه ، وآخذ كتاباً عن العبّاس إلى بعض [١٦٣ ر] أصدقائه من أمراء النواحي وأخرج إليه ، فلعلّي أتصرّف معه ، وأعود من جهته بفائدة أجعلها أصل معيشة .

فلقيت الكاتب ، فقال لي : صِرْ في غدٍ إلى دار الأمير ، حتّى أكتب لك .

فمضيت إليه ، فكتب لي عنه كتاباً مؤكّداً إلى بعض أمراء الأطراف من أصدقاء العبّاس ، فخرجت أريد منزلي .

---

١ في م : كانت له نعمة سنيّة .

٢ العبّاس بن عمر الغنوي : من كبار القوّاد والعمال العبّاسيين كان يلي ديار ربيعة ، وأشخصه المعتضد في السنة ٢٨٦ إلى الأنبار لمحاربة أعراب أغاروا على القرى (الطبري ٧٢/١٠) ثم ولّاه فارس (ابن الأثير ٤٩٩/٧) واحتاج المعتضد إلى من يحارب القرامطة ، فولّاه في السنة ٢٨٧ اليمامة والبحرين ، وأناط به حرب القرامطة (الطبري ٧٥/١٠) وحاربهم ، فظهر عليه أبو سعيد ، وأسره ، وأبقاه حيًّا ، وقتل جميع عساكره وأحرقهم (الطبري ٧٧/١٠) ثم أطلقه وبعثه برسالة إلى المعتضد (القصّة ٦٢/٤ من نشوار المحاضرة وابن الأثير ٥٠٠/٧) ، ثم التحق ببدر مولى المعتضد ، وكان بفارس ، ولما بويع المكتفي ، واختلف بدر معه ، انفصل عن بدر وانصرف عنه إلى مدينة السلام (الطبري ٨٩/١٠ و ٩٠)) فولّاه المكتفي قم وقاشان ، ثم عزله عنها في السنة ٢٩٦ (ابن الأثير ٥٤/٨) وقلّده أعمال الحزب بديار مضر ، ومات فيها سنة ٣٠٥ (ابن الأثير ١٠٧/٨) .

فلمّا صرت في بعض الممرّات وأنا رجل طويل مبدّن[٣] ، وكنت قد حلقت رأسي ، وعليه منديل خفيف ، قد أطارته الرّيح ، فانكشف ، ولعلّة انشغال قلبي بأمري لم أردّ المنديل .

وإذا بصفعة قد جاءت ، كادت تكبّني على وجهي ، وتوالت بعدها اثنتان . فالتفتُّ ، فإذا العبّاس بن عمرو ، وقد خرج إلى موضع من مواضع الدّار ، وكان مشتهراً بالمصافعة[٤] ، مكاشفاً بها ، هو ، وجماعة من قوّاد المعتضد ، أصدقاء ، أخلّاء ، يستعملون ذلك ، ويكاشفون به .

فقبضت على يده ، وقلت : ما هذا أيّها الامير ؟ ما أفارقك ، أو تعطيني شيئاً أنتفع به عوضاً عن هذا الفعل .

فدافعني ، وأنا متشبّث به ، وسقط الكتاب من كمّي ، فقال : ما هذا الكتاب .

قلت : كتابٌ ، كتب لي عنك إلى فلان ، لأخرج إليه ، فلعلّي أتصرّف معه ، أو يبرّني بشيء .

فقال : هوذا ، أكتب لك عليه سفتجة بالصفع ، فإنّه يفتديها منك بما تنتفع به .

واستدعى دواة ، وكتب لي إلى الرجل سفتجة[٥] ، كما يكتب التّجار ، بثلاث مكتوبات ، كناية عن ثلاث صفعات .

فأخذت الكتاب ، وانصرفت متعجّباً ممّا جرى عليّ ، ومن حُرفتي في

---

٣ المبدّن : بتشديد الدال : السمين الجسم ، والبغداديّون الآن يقولون : مبدن ، بلا شدّة .

٤ المصافعة : انظر التفصيل في آخر القصّة .

٥ السفتجة : الحوالة التجارية ، وهي أن تعطي مالاً لرجل ، فيعطيك خطاً يمكّنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر ، وإذا كان الخطّ يشترط أداء المال في وقت مؤجّل ، فهي سفتجة بأجل ، وما زال هذا اسمها ببغداد ، وفي القانون التجاري العراقي كذلك .

أنّ العبّاس لم يسمح لي بشيءٍ ، مع جوده ، وتحمّلت ، وخرجت إلى ذلك البلد ، فأوصلت الكتاب الّذي كتبه لي الكاتب عنه .

فردّني ذلك الأمير أقبح ردّ ، وآيسني ، وقال : قدْ بلينا بهؤلاء الشحّاذين ، يجيئونا في كلّ يوم بكتب لا تساوي مدادها ، ويقطعونا عن أشغالنا ، انصرف ، فمالك عندي تصرّف ، ولا برّ .

فورد عليّ ما لم أر مثله ، وما هالني وقطع بي ، وكنت قد سافرت إليه ، وقطعت [١٩٣ ظ] شقّة بعيدة ، فانصرفت أسوء النّاس حالاً .

وفكّرت ليلتي ، فقلت : ليس إلّا [١٥٨ م] العود إليه ، ومداراته ، فلعلّ أن يعطيني قدر نفقة الطريق ، فأتحمّل بها .

فعدت إليه ، وخاطبته بكلّ رفق وخضوع وسؤال وهو يخشن عليّ ، ويؤيسني ، إلى أن قال لحاجبه : أخرجه عنّي ، ولا تدعه بعدها يدخل إليّ .

فورد عليّ أعظم من الأوّل ، وخرجت أخزى خروج ، وأقمت ايّاماً لا أعود إليه ، ولا أدري ما أصنع ، إلّا أنّ بقّالاً في المحلّة الّتي نزلتها يعطيني خبزاً وإداماً بنسيئة .

فجلست إليه يوماً وأنا متحيّر ، والغمّ بيّن عليّ ، فسمعت قائلاً يقول : إنّ الأمير قد جلس للمظالم ، جلوساً ارتفع عنه الحجاب فيه ، ففكّرت كيف أعمل ؟.

وذكرت الكتاب بالسفتجة ، فقلت : أمشي وأجعلها نادرة كالظلامة ، فإن أعطاني شيئاً ، وإلّا فضحته بين رعيّته ، وانصرفت .

فأخذتُ السفتجةَ ، وجئتُ ، فلم أصادف بالباب من يمنعني ، فدخلت إليه .

فحين رآني اغتاظ عليّ ، وقال لحاجبه : ألم آمرك أن لا تدخل هذا اليّ .

فقال : كان الإذن عاماً ، ولم يميّز .

فأقبل الأمير عليّ ، فقال : ألم أقل لك ، وأؤيسك منّي ؟ فما هذه الملازمة ،

كأنّ لك عليّ ديناً أو سفتجة ؟ .

فقلت : نعم ، لي على الأمير – أعزّه الله – سفتجة .

فازداد غيظه ، وقال كالمتعجّب : سفتجة ، سفتجة ؟ .

فأخرجتها ، فدفعتها إليه ، فلمّا قرأها عرف الخطّ والخطاب ، فنكس رأسه ساعة ، خجلاً ، ثمّ قال لكاتب كان بين يديه ، شيئاً لا أعلمه .

فجذبني الكاتب ، وقال : إنّ الأمير قد تذمّم ممّا عاملك به ، وأمرني بدفع مائة دينار إليك ، فقم معي لتأخذها .

فقلت : ما قصدت الأمير ليبرّني ، أنا رجل أوصلت إليه سفتجة بمال ، فإمّا قبلها [١٦٤ ر] فأعطانيه ، فما أريد غيره ، ولا أستزيد عليه ، ولا أنقص منه شيئاً ، وإمّا كتب لي على السفتجة : راجعة[٦] ، فأخذتها ، وانصرفت .

فسارّه الكاتب بما قلت ، وقوي طمعي في الصنع ، فالتفت إليّ الكاتب ، وقال : قد جعلها لك الأمير مائتي دينار ، فانهض لتأخذها .

فقلت ، لمن يقول هذا : ما عندي غير ما سمعت ، ولانَ الأمير ، وتشدّدت ، ولم يزل الكاتب يتوسّط بيننا ، إلى أن بذل خمسمائة دينار .

فقلت : على شرط أنّي لا أبرح من هذا المجلس حتّى أقبضها وأسلّمها إلى يد تاجر ، وآخذ منه سفتجة بها ، ويدفع إليّ نفقة تكفيني إلى أن أعرف صحّة السفتجة ، ثمّ أتحمّل بباقي ذلك .

فأجبت إلى ذلك ، وأحضر التاجر ، والمال ، وأخذت منه سفتجة ، ودفعوا لي خمسين ديناراً للنفقة ، وأقمت مدّة ، إلى أن عرفت خبر صحّة السفتجة ، وتحمّلت ببقيّة النفقة إلى بلدي .

وحصل لي المال ، فجعلته بضاعة في متجر ، صلحت به حالي ، إلى الآن[٧] .

---

٦ راجعة : كلمة تكتب على السفتجة ، معناها رفض أداء مبلغ الحوّالة ، ويحق للمحال له عندئذ أن يرجع بالمحال به على المحيل .

٧ لم تردِ هذه القصّة في غ .

المصافعة

الصفع : ضرب القفا بالكفّ مبسوطة ، والمصافعة : تبادل الصفعات ، والصفعان : الذي يصفع كثيراً .

والأصل في الصفع أن يكون للعقوبة والتأديب . كأن يأمر القاضي بصفع من أخلّ بالحرمة الواجبة نحو مجلس الحكم (القصص ٢/١٠ و١٧٨/٦ من نشوار المحاضرة للتنوخي) .

وقد يصفع المتشدّق المتقعّر في كلامه (الامتاع والمؤانسة ٥٢/٢) .

وقد أمر الوزير علي بن عيسى بصفع رجل ادّعى النبوة (صلة الطبري ٢٦) .

وصفع بعض العامّة في البصرة ، القاضي أبا خليفة وصحبه ، لما حسبوهم يقرأون القرآن بلغة الدجاج (مروج الذهب ٥٠١/٢) .

وصفع أبو محمّد المافروخي الفأفاء ، عامل البصرة ، ابن أحد خلفائه ، لما فأفأ له ، حاسباً أنّه يحاكيه (نشوار المحاضرة ، رقم القصّة ١٤/٤) .

وقد يجري الصفع لإجبار المكلّف على أداء الضريبة المتحقّقة عليه (القصّة ١٨٤ من هذا الكتاب) أو لإجبار العامل المصروف على سداد ما بذمّته من الأموال الأميريّة (القصّة ٢١/٨ من كتاب نشوار المحاضرة) أو لإجبار من صودر على أداء ما صودر عليه (القصّة ٣٥/١ و ١٢٢/٣ من كتاب نشوار المحاضرة ، والكامل لابن الأثير ١٤٢/٨ ، وتجارب الأمم ١١٠/١ وصلة الطبري ٣٩) ، أو لاستخراج الودائع (تجارب الأمم ٦٥/١) أو لتقرير مبلغ المصادرة (تجارب الأمم ٦٥/١) أو لإجبار المصفوع على ترك عناده (القصّة ٢٦١ من هذا الكتاب ، والقصّة ٥٤/٣ من نشوار المحاضرة) .

وقد يرد الصفع عقاباً للمدعي الذي عجز عن القيام بما ادّعى ، كما حصل لابن المغازلي الذي شرط على نفسه إن لم يضحك المعتضد ، أن يصفع عشر صفعات ، وعجز عن إضحاكه (مروج الذهب ٥١٠/٢ و٥١١) .

ولما أراد المكتفي الخروج لقتال القرامطة ، منعه المنجّم أبو الحسن العاصمي ، بحجّة أنّ طالعه يدلّ على أنّ خروجه هذا ، يؤدّي إلى زوال دولته ، وخرج المكتفي ، واستأصل القرامطة ، وعاد مظفّراً سالماً ، فأمر بالعاصمي فأحضر ، وصفع صفعاً عظيماً (الفلاكة والمفلوكون ٣٧) .

وقد يحصل الصفع للإهانة والايذاء ، فقد ذكر أنّ المتوكّل غضب على عمر بن فرج الرخجي ، أحد كبار العمّال في الدولة ، فأمر بأن يصفع في كلّ يوم ، فأحصي ما صفع ، فكان ستة آلاف صفعة (مروج الذهب ٤٠٣/٢) ، وغضب المتوكّل على ولده المنتصر ، ولي عهده ، فأمر بأن يصفع في مجلسه (تجارب الأمم ٥٥٥/٦ والكامل لابن الأثير ٩٧/٧) ، ولزيادة التفصيل راجع تاريخ الطبري ١٧٥/٩ ، وصلة تاريخ الطبري ص ٥٢ و٥٨ و٨٦ والتكملة ٣٧ و ٤١ ، وتجارب الأمم ١٠٣/١ و ٣٧١ والقصّة ١١٩/١ و ٧/٤ من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي ، والقصّة ٢٥٠ و ٣٠٤ من هذا الكتاب ، والمستطرف من أخبار الجواري للسيوطي ٢٩ والوزراء للصابي ٤٦ و٢٦٤ ووفيات الأعيان ١٥٩/٤ و٥٨/٦ وحكاية أبي القاسم البغدادي ١٣٨ ومرآة الجنان لليافعي ١٨/٤) .

وقد يقع الصفع على المقامر إذا قُمِرَ ، كما وقع لأمير البصرة إسحاق بن العبّاس بن محمّد العباسي ، لما قمر ، فتحقّق عليه حسب الشرط أن يصفع عشر صفعات ، فأحالها هذا على صاحب شرطته ، وطلب هذا أن يكون الصفع ، صفع المداعبة والإخوان ، لا صفع العقوبة والسلطان (الهفوات النادرة ٢٣١) .

وأغرب ما أثر عن الصفع ، وروده لإيقاع الحجة على الخصم في المناظرة (معجم الأدباء ٢٣٧/٥) .

والذي يتضّح من هذه القصّة ، ومن غيرها من القصص ، أنّ المصافعة ، كان لها من يستحسنها ، ويستطيبها ، ويتملّح بذكر فوائدها (البصائر والذخائر ١٨٠/٤) ، وكان لها سوق رائجة .

وكان العبّاس بن عمرو الغنوي ، وهو أحد كبار القوّاد والولاة العباسيين ، من المستهترين بالمصافعة ، المكاشفين بها ، هو وجماعة من قوّاد المعتضد ، أصدقاء ، أخلاّء ، يستعملون ذلك ، ويكاشفون به ، وأنّ المصافعة تجري بينهم للمطايبة ، (القصّة ١١٦ من هذا الكتاب ، والقصّة ١١٩/٨ من نشوار المحاضرة) وأنّها تقع على سبيل المباسطة (القصّة ٥١/١ و ١٦٦ من نشوار المحاضرة ، ومعجم دوزي لأسماء الألبسة ٢٧١) .

وكان زيادة الله بن الأغلب ، أمير أفريقية (١٧٢-٢٢٣) قد اتّخذ ندامى يتصافعون في حضوره (فوات الوفيات ٣٤/٢ و٣٥) .

وكان القاضي محمّد بن الخصيب ، قاضي مصر (ت ٣٤٨) ، وهو ممدوح المتنبّي ، ممن يمازح في المصافعة (أخبار القضاة للكندي ٥٧٩ و ٥٨٠) .

وكان للصفاعنة أرزاق في الدولة ، ولما وزر أبو الحسن علي بن عيسى في السنة ٣١٤ كان من جملة ما صنعه أن أسقط أرزاق الصفاعنة (الكامل لابن الأثير ١٦٥/٨) .

وسئل القاضي ابن قريعة ، عن حدّ القفا ، فقال للسائل : هو ما اشتمل عليه جرّبانك ، وشرطك فيه حجّامك ، وداعبك فيه إخوانك ، وباسطك فيه غلمانك ، وأدّبك فيه سلطانك (اليتيمة ٢٣٨/٢ وتاريخ بغداد للخطيب ٣٢٠/٢) .

وداعب ابن المرزبان ، أبا العيناء ، فقال له : لم لبست جبّاعة ؟ فقال : وما الجبّاعة ؟ قال : التي بين الجبّة والدرّاعة ، فقال : ولم أنت صفديم ؟ قال : وما صفديم ؟ قال : الذي هو بين الصفعان والنديم (الملح للحصري ١٨٣) .

وكان حذّاء ماجن بباب الطاق (اسمها الآن الصرافيّة) يسمّي النعال ، بأسماء من جنس الصفعة ، فنعل راسكية ، ونعل صعلكية ، ونعل قفوية (القصّة ٩٨/٢ من نشوار المحاضرة) .

وأفرد ابن النديم في الفهرست ص ١٥٧ بحثاً في أخبار الصفادمة والصفاعنة ، كما ذكر أنّ الكتنجي ألّف كتاباً سماه : كتاب الصفاعنة (الفهرست ١٧٠) .

والأصل في الصفع أن يحصل ، بالكفّ على القفا ، وربما حصل بجراب فارغ أو محشوّ (مروج الذهب ٥٠٩/٢ – ٥١١) ، وقد يحصل بالنعال (وفيات الأعيان ٤٥٥/٤) ، أو بقشور القرع (اليتيمة ٣٤٠/٢) ، أو بقشور البطيخ الأحمر المسمّى في بغداد بالرقّي ، نسبة إلى الرقّة (راجع سبب هذه التسمية في حاشية القصّة ٢٦٨ من هذا الكتاب) ، ولا يوجد الآن ببغداد من يمارس هذا اللون من المباسطة السمجة ، وقد أدركت بعض باعة الرقّي الأحداث كانوا يتصافعون بقشور الرقّي المقوّ (فصيحة ، والبغداديون يلفظون قافها كافاً فارسيّة) .

وممن أحسن في الإشارة إلى المصافعة ، ابن الحلاوي الموصلي (ت ٦٥٦) قال : [الوافي بالوفيات ١٠٨/٨]

فطبٌ طرطبٌ فـوق راسي   وطـاق طرطـاق في قـذالي

وقال الشاعر الأندلسي ، أبو عبد الله بن الأزرق : [نفح الطيب ٢٢٩/٣]

أفـدي صديقـاً كـان لي   بنفسـه يسـعدني
فـربّمـا أصفعـه   وربّمـا يصفعـني
طَقْطَقِ طَقْ طَقْطَقِ طَقْ   أصـخ بسـمع الأذن

ولأبن الحجّاج شعر كثير في المصافعة ، أورد بعضه صاحب اليتيمة ٣/٨٦ – ٨٨ ، وللأحنف العكبري في المصافعة (اليتيمة ٣/٧٠٤) ؛

لقـد بتّ بماخـــــور على دفّ وطنبـــــور
وصوت الطبل كردم طـع وصـوت النـاي طلّـير
فصرنــا من حمى البيـت كأنّــا وسط تنّــور
وصرنـا مـن أذى الصفـع كمثـل العمـي والعـور

وممّن أحسن في وصف الصفع ، جمال الدين بن شيث ، المتوفي سنة ٦٢٥ وقد أورد له صاحب فوات الوفيات ٢/٣١٣ أبياتاً ، اخترت منها هذين البيتين :

وتخـالفت بيض الأكـفّ كأنّها الـ ـتصفيق عنـد مجـامع الأعراس
وتطابقت سـود الخفـاف كأنّهـا وقـع المطـارق في يـد النحّـاس

ولأبي الرقعمق ، أبي حامد أحمد بن محمّد الانطاكي ، مقطوعات في المصافعة ، راجعها في يتيمة الدهر للثعالبي ١/٣٣٤ – ٣٤٠ .

ولزيادة التفصيل ، راجع كتاب الغيث المسجم للصفدي ١/٢٠٣ – ٢٠٥ وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٢/٦٩٩ و٧٠٠ .

٣٠٥

السبب في خلع المقتدر

الخلع الثاني ، وعودته إلى الحكم

ذكر أصحاب التواريخ ، ومصنّفو الكتب ، وأبو الحسن علي بن الفتح الكاتب المعروف بالمطوّق[١] ، على ما أخبرني به [أحمد بن يوسف بن يعقوب التنوخي عنه][٢] في كتابه « مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم » ، وما شاهده أحمد بن يوسف[٣] من ذلك ، وجماعة حدّثوني به ، ممّن شاهَدَ الحال ، منهم أيّوب بن العبّاس بن الحسن[٤] ، وعليّ[٥] ، والقاسم ، ابنا هشام بن عبد الله الكاتب[٦] ، وأبو الحسين بن عياش الخرزي[٧] ، خليفة أبي رحمه الله على الحكم بسوق الأهواز ، ومن لا أحصي من شيوخنا كثرة ، بالسبب في خلع المقتدر عن الخلافة ، الخلع الثاني ، بعبارات مختلفة ، معنى جميعها أنّ الجيش كلّه ، الفرسان ، والرّجالة ، شغبوا يطلبون الزيادات ، ويتبسّطون في التماس المحالات ، وملّوا أيّام المقتدر وبغوا عليه بأشياء[٨] .

---

١ أبو الحسن علي بن الفتح الكاتب ، المعروف بالمطوّق : ترجمته في حاشية القصّة ١٩٣ من الكتاب .

٢ الزيادة من م .

٣ أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق الأنباري الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ٧٦ من الكتاب .

٤ أيّوب بن العبّاس بن الحسن الجرجرائي : كان أبوه ، أبو أحمد العبّاس بن الحسن وزير المكتفي والمقتدر ، وقتل في السنة ٢٩٦ ، وقد ذكر التنّوخي أنّه واجه أيّوب في السنة ٣٥٠ بالأهواز ونقل عنه بعض القصص .

٥ أبو الحسين عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب ، المعروف بابن أبي قيراط : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من الكتاب .

٦ أبو القاسم هشام بن عبد الله الكاتب ، المعروف بأبي قيراط : ترجمته في حاشية القصّة ١١٧ من الكتاب .

٧ أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن الحارث بن عياش الخرزي (الجوهري) البغداديّ : ترجمته في حاشية القصّة ١٧٩ من الكتاب .

٨ راجع في القصّة ١٥٤/١ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنّوخي ما قاله المقتدر للقاضي أبي طالب =

واتّفق أنّ سائساً لهارون بن غريب الخال[9] ، علق بغلام [١٥٩ م] في الطريق ، للفساد ، فرفع إلى أبي الجود[10] ، خليفة عجيب[11] ، غلام نازوك[12] ، على مجلس الجسر بالجانب الغربي[13] ، فجاء غلمان هارون يخلّصونه ومانعوهم ، إلى أن لحقه بعض أصحاب نازوك [١٩٤ ظ] فصارت بينهم حرب ، وانتهت

= التنوخي ، حول كَلَب غلمانه عليه ، ومطالبتهم إيّاه بالأموال .

٩ هارون بن غريب الخال : هو ، وأبوه غريب ، خال المقتدر ، من قوّاد الدّولة العبّاسيّة . وكان هارون مسيطراً على الدولة في أيّام المقتدر . يشترك في ترشيح الوزراء (تجارب الأمم ١/١٢٧) ونصب العمّال (١/٢٢٨) وكان له دور في قمع ثورة العامّة ببغداد في وزارة حامد بن العبّاس للمقتدر (١/٧٣ و ٧٤) وكان من خصوم الوزير ابن الفرات ، ومن أنصار الوزير علي بن عيسى (١/١١٢ . ١٨٥) ولما أنيطت به مناظرة ابن الفرات عند عزله ، ضربه خمس درر (١/١٣٥) وضرب ولده المحسّن على رأسه بالدبابيس . وقيّده ، وغلّه (١/١٣٣) . واشترك في دفع أبي طاهر القرمطي عن العراق لما هاجمه في السنة ٣١٥ (١/١٨٠) ثم خاصم القائد نازوك (١/١٨٧) ثم خاصم مؤنس المظفّر (١/١٨٨) فأصرّ القوّاد على أن يبرح هارون بغداد ، فقلّده المقتدر الثغور الشاميّة والجزيرة . ولكنّ هارون بارح بغداد ، وأقام بقطربّل (١/١٩٢) فكان ذلك من أسباب خلع المقتدر ومبايعة القاهر (١/١٨٩–٢٠٠) ، ولما أعيد المقتدر للخلافة ، أخرج هارون إلى الجبل ، لمحاربة مرداويج (١/٢١٣) ثم عاد إلى بغداد ، فاستوحش مؤنس مجدّداً (١/٢٢٢) وأصعد إلى الموصل ، ثم كرّ راجعاً ، وحارب المقتدر ، وقتله (١/٢٣٤–٢٣٦) ولما قتل المقتدر ، انحدر هارون إلى واسط ، حيث راسل الحضرة ، وقلّد أعمال المعاون بالكوفة (١/١٥٣–١٥٤) ، ولما ولي الراضي ، أراد هارون أن يعود إلى الحضرة (١/٣٠٦) وسار متوجّهاً إليها ، وكان الراضي يكرهه (١/٣٠٧) فطلب منه أن يعود إلى موضعه ، فأبى (١/٣٠٨) فجرّد إليه جيشاً حاربه ، وقتل هارون في المعركة سنة ٣٢٣ (تجارب الأمم ١/٣٠٩) .

١٠ أبو الجود خليفة عجيب غلام نازوك صاحب شرطة بغداد : ترجمته في حاشية القصّة ٧٦ من الكتاب .

١١ عجيب غلام نازوك القائد التركي صاحب شرطة بغداد : ترجمته في حاشية القصّة ٧٦ من هذا الكتاب .

١٢ أبو منصور نازوك ، صاحب شرطة بغداد : ترجمته في حاشية القصّة ٧٦ من هذا الكتاب .

١٣ صاحب الشرطة ، هو صاحب الجسر (تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٩٩ سطر ١٠ و ١١) وكان له مجلس على رأس الجسر في الجانب الغربي ، يعرض فيه أرباب الجنايات ويعاقبهم (تاريخ بغداد ٣٧ و٣٨) وكان رسم ولاة الشرطة ، أن يبيتوا في هذا المجلس ، في غرفة من غرفه (الهفوات النادرة ١٩٢) ، ثم أصبح لصاحب الجسر مجلس في الجانب الشرقي أيضاً ، راجع القصّة ٣٩٥ من هذا الكتاب .

الحال إلى قصص يطول شرحها .

إلى أن أطبق الجيش بأسرهم على خلع المقتدر ، فزحفوا إلى داره ، بمواطأة من مؤنس المظفّر[14] ، فقبضوا عليه ، وحملوه إلى دار مؤنس[15] ، في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، فحبس فيها ، وخلع نفسه ، وأشهد عليه بالخلع .

وكان رأس الفتنة ، والقائم بها ، عبد الله بن حمدان ، أبو الهيجاء[16] ، ونازوك المعتضدي ، على مساعدة لهما من مؤنس ، وإطباق من الجيش كلّهم ، وجاءوا بأبي منصور محمّد بن المعتضد بالله[17] ، فأجلسوه في دار الخلافة ، وسلّموا عليه بها ، ولقّبوه القاهر بالله ، فقلّد نازوك الحجبة ، مضافاً إلى ما كان إليه من الشرطة ، وجعله صاحب داره .

فلمّا كان في يوم الإثنين لسبع عشرة ليلة خلت منه ، بكّر النّاس إلى دار الخليفة للبيعة ، وجاءت إلى فناء الدار ، ممّا يلي دجلة ، جماعة من الرّجالة ، يطالبون بمال البيعة والزيادة .

فجاء نازوك وأشرف عليهم من الرواق ، ومعه خادم من رؤوس غلمانه يقال له عجيب ، فقال لهم : ما تريدون ؟ نعطيكم ثلاث نوائب . فقالوا : لا ، إلّا أرزاق سنة ، وزيادة دينار ، وزادوا في القول .

فقال لهم : يصعد إليّ منكم جماعة ، أفهم عنهم ، وأكلّمهم ، فصعد إليه جماعة منهم ، من باب الخاصّة ، وتسلّق إلى الرواق جماعة منهم كبيرة ، وثاروا على غير مواطأة ، ولا رأي متقرّر .

---

١٤ مؤنس المظفّر ، القائد التركي : ترجمته في حاشية القصّة ١٦٣ من هذا الكتاب .

١٥ دار مؤنس كانت مجاورة لدار الخلافة ، راجع وصفها في حاشية القصّة ١٦٣ من هذا الكتاب .

١٦ أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبيّ : ترجمته في حاشية القصّة ١٦٣ من هذا الكتاب .

١٧ أبو منصور محمد بن المعتضد : ترجمته في حاشية القصّة ٧٩ من هذا الكتاب .

فقال لهم نازوك : اخرجوا إلى مجلس الإعطاء ، حتّى نخرج المال إلى الكتّاب ، فيقبضونكم .

فقالوا : لا نقبض إلّا هاهنا ، وهجموا على التسعيني[18] ، يبوّقون[19] ، ويشتمون نازوك .

فمضى نازوك من بين أيديهم ، يريد الممرّ في الطريق الّذي ينفذ إلى دجلة ، وكان قد سدّ آخره [١٦٥ ر] بالأمس ، إحتياطاً لحفظ من في الدار ، وتحرّزاً من هربهم ، فلمّا رآه مسدوداً رجع ، فاستقبله جماعة من الرجّالة يطلبونه .

فوثب عليه رجل أصفر منهم ، فضربه بكلّاب[20] ، وثنّاه آخر يكون في مطبخ أمّ المقتدر ، وله رزق في الرجّالة ، يقال له : سعيد ، ويلقّب : ضفدعاً ، فقتلوه ، وقتلوا عجيباً ، وقالوا : لا نريد إلّا خليفتنا جعفر المقتدر ، وقتل الخدم في الدّار أبا الهيجاء ، واختبأ القاهر في بعض الحجر ، عند بعض الخدم .

وأقبلوا برأس نازوك على رمح قد خرج طرفه من وسط الرأس ، إلى دار مؤنس ، وهم يقولون : مقتدر ، يا منصور .

فطالبوا مؤنساً بالمقتدر ، فخافهم على نفسه ، فأخرجه إليهم ، والمقتدر يستعفي من الخروج ، ويظهر الزهد في الخلافة ، ويظنّ أنّ ما سمعه حيلة على قتله .

إلى أن سمع صياح النّاس : مقتدر ، يا منصور ، وأعلم بقتل نازوك وأبي الهيجاء ، فسكن .

وقعد في طيّاره ، وانحدر إلى داره ، والرجّالة يعدون على الشط بأزائه ، إلى أن خرج من الطيّار ، فالتحقوا به يقبّلون يديه ورجليه ، حتّى دخل داره .

وأحضر جماعة من الهاشميين وغيرهم ، فبايعوه بيعةً ثانيةً ، وظهر ابن

---

١٨ التسعيني : صحن في دار الخلافة ، قريب من مجلس الخليفة ، سمّي التسعيني لأنّ ذرعه تسعون ذراعاً .

١٩ يبوّقون : أي ينفخون في البوق ، والعامي البغداديّ يسمّى البوق : برزان .

مقلة وزيره ، وكان مستتراً تلك الأيّام ، فأقرّه على الوزارة[٢٠]، ودبّر أمره ، وزال عنه ما كان فيه من المحنة والنكبة ، ولم ير خليفة أزيل عن سريره ، وأخرج من دار ملكه ، وأجلس آخر في موضعه ، ولقّب لقباً من ألقاب الخلفاء [١٦٦ ر] ، وتسمّى بأمير المؤمنين ، وأجمع على بيعته أهل المملكة والجيش كلّه ، وعلى خلع الأوّل وحبسه [١٦٠ م] ، ثمّ رجع إلى أمره ، ونهيه ، وملكه ، وداره ، في مدّة خمسة أيّام ، بلا سبب ممهّد ، ولا مواطأة لأحد ، ولا مشاورة ، ولا مراسلة ، إلّا ما اتّفق في أمر المقتدر ، وأخيه القاهر[٢١] .

---

٢٠ وزر ابن مقلة للمقتدر في السنة ٣١٦ خلفاً لعلي بن عيسى الذي صرف واعتقل عند زيدان القهرمانة في دار الخلافة ، وعلى أثر فتنة القاهر اتهم المقتدر وزيره ابن مقلة بممايلة القائد مؤنس المظفّر ، فاعتقله في السنة ٣١٨ واستوزر سليمان بن الحسن ، للتفصيل راجع تجارب الأمم ١/١٨٥–٢٠٥ .

٢١ كان سبب خلع المقتدر ونصب القاهر ، ان المقتدر استوحش من القائد مؤنس الخادم الذي كان يعترض على تصرّفات الخليفة ، وأفراد العائلة المالكة ، والحاشية في البلاط ، وكان الخليفة يعده بالاصلاح ، وعداً من دون تنفيذ ، فاتّفق مؤنس مع القوّاد وخلعوا المقتدر ، ونصبوا أخاه القاهر ، غير أنّ أفراد الجند ، تحرّكوا على القوّاد ، وعلى الخليفة الجديد ، وهاجموا دار مؤنس ، حيث كان المقتدر معتقلاً ، واخرجوه ، واعادوه إلى الخلافة ، راجع تجارب الأمم ١/١٨٩–١٩٩ .

٣٠٦

خلع الأمين وعودته إلى الحكم

قال مؤلّف هذا الكتاب : وعلى أنّه قد كان جرى على [١٩٥ ظ] محمّد الأمين[١] قريب من هذا ، لما قبض عليه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان[٢] ، وخلعه ، وحبسه[٣] ، وعزم على أن ينفذه إلى المأمون ، ثمّ أنّ الجيش طالبوه بأرزاقهم ، فلم يكن معه ، ما يعجّله لهم ، فوعدهم ، فشغبوا ، ولم يرضوا بالوعد ، واستخرجوا الأمين من حبسه ، فبايعوه ثانياً ، وردّوه ، وهرب الحسين بن علي ، وزالت عن الأمين تلك الشدّة ، والقصّة في ذلك مشهورة ، رواها أصحاب التواريخ ، بما يطول اقتصاصه هنا ، إلّا أنّه لم يجلس على سريره خليفة آخر[٤] .

---

١ أبو عبد الله محمد الأمين بن هارون الرشيد : ترجمته في حاشية القصّة ١٣١ عن الكتاب .

٢ الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان : هو وأبوه من قوّاد الدولة العبّاسية ، قتل أبوه في المعركة الّتي خاضها مع جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين في الريّ سنة ١٩٥ وبعثه الأمين على رأس جيش إلى الرقّة ، وكان واليها عبد الملك بن صالح ، فأقام بالرقّة حتى مات عبد الملك ، فانصرف بجيشه إلى بغداد ، وخلع محمداً الأمين في السنة ١٩٦ ونقله من قصر الخلد ، فحبسه في قصر أبي جعفر ، وتحرّك أهل بغداد وسكّان الأرباض فحاربوا الحسين وأسروه ، وأخرجوا الأمين من الحبس ، وأحضروا الحسين أمامه ، فعاتبه وصفح عنه ، وأناط به قيادة جيش لحرب المأمون ، فلم يلبث أن هرب ، فركب الناس في طلبه ، وأدركوه ، فقتلوه (الطبري ٨/٤١٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨-٤٣٢) .

٣ راجع تفصيل ذلك في الطبري ج ٨ في أخبار السنة ١٩٦ ، والعيون والحدائق ٣/٣٢٨ .

٤ لم ترد هذه القصّة في غ ، وقد ورد في نسخة ظ في ذيل هذه القصّة : تمّ الجزء الأول من كتاب الفرج بعد الشدّة للتنوخي ، والحمد لله وحده ، وصلواته وسلامه على محمّد خاتم النبيّين ، وعلى الأنبياء أجمعين ، وعباد الله الصالحين أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله ربّ العالمين ، وورد بعدها : قال القاضي أبو علي المحسّن بن القاضي أبي القاسم علي بن محمّد التنوخي رحمه الله تعالى وقد جرت على المقتدر شدّة أخرى ، وفرّج الله عنه ، وورد بعد ذلك : ملك هذا الكتاب المبارك ، وطالعه ، العبد الفقير إلى الله تعالى ماجد بن عبد الوهاب عفا الله عنه ، وغفر لمن نظر فيه ، ودعا له بالمغفرة ، وقال غفر الله له تقدم من ذنبه وما تأخّر ، وللقائل مثله ، كتب في جمادى الآخر سنة سبع وسبعون وسبعمائة ، أحسن الله انقضاءها .

٣٠٧

كيف خلع المقتدر الخلع الأول

قال القاضي أبو علي المحسّن بن القاضي أبي القاسم علي بن محمّد التنوخي رحمه الله تعالى :

وقد جرت على المقتدر بالله شدّة أخرى ، وفرّج الله عنه ، [في قصّة] تشبه قصّة الأمين ، سواء بسواء ، لما أجمع جميع القوّاد والحاشية ، على أن قتلوا العبّاس بن الحسن ، الوزير ، وخلعوا [٢ ن] المقتدر من الخلافة ، الخلع الأوّل ، وبايعوا ابن المعتزّ ، وأحضروه من داره[١] إلى دار سليمان بن وهب ، المرسومة – إذ ذاك – بالوزراء[٢] ، وجلس يأخذ البيعة على القضاة ، والأشراف ، والكافّة ، ويدبّر الأمور ، ووزيره محمّد بن داود ، ابن الجرّاح[٣] ، يكاتب أهل الأطراف ، والعمّال ، والأكناف ، بخبر تقلّدهما ، وقد تلقّب بالمنتصر بالله[٤] ، وخوطب بالخلافة ، وأمره في نهاية القوّة ، وهو على أن يسير إلى دار الخلافة ، فيجلس بها ، ويقبض على المقتدر ، إلاّ أنّه أخّر ذلك ، لتتكامل البيعة ، وتنفذ الكتب ، ويسير من غد .

وكان سوسن حاجب المقتدر[٥] ، والمتولّي لأمور داره ، والغلمان المرسومين بحمايتها ، ممّن وافق ابن المعتز ، ودخل مع القوّاد فيما دخلوا فيه ، وشرط

---

١ كانت دار عبد الله بن المعتزّ على الصراة بالجانب الغربي من بغداد (تجارب الأمم ١/٥) .

٢ يريد بها دار الوزارة بالمخرم (العلوازية) : راجع حاشية القصّة ١٧٩ من الكتاب .

٣ أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ١٧٩ من الكتاب .

٤ في غ : وقد تلقّب بالمنتصف بالله .

٥ سوسن : حاجب المقتدر ، ساهم في مؤامرة ابن المعتزّ ، على أن يقلّد الشرطة إضافة إلى الحجابة ، فلما حجب ابن المعتزّ غيره ، استوحش وعاد إلى نصرة المقتدر ، ثم ظهر أمره للمقتدر ، فقبض عليه ، وقتله من يومه (تجارب الأمم ١/١٢) .

عليه ، أن يُقَرَّ على ما إليه ، ويزاد شرطة بغداد .

فلمّا جلس ابن المعتزّ في اليوم الأوّل ، كان المتولّي لإيصال النّاس إليه ، والخادم بحضرته فيما يخدم فيه الحاجب ، أحد الخدم غيره .

فبلغ ذلك سوسناً ، فشقّ عليه ، وتوهّم أنّ ذلك غدرٌ به ، ورجوعٌ عمّا شرط ، ووُوْقِفَ عليه ، فدعا الخدم ، وغلمان الدار ، إلى نصرة المقتدر ، فأجابوه ، فأغلق الأبواب ، وأخذ أهبة الحرب .

وأصبح ابن المعتز ، في اليوم الثاني من بيعته ، وهو يوم الأحد لسبع[6] بقين من شهر ربيع الأوّل سنة ستّ وتسعين ومائتين ، عامداً على المسير إلى الدار ، فثبّطه محمّد بن داود ، وعرّفه رجوع رأي سوسن ، عمّا كان وافق عليه .

وصغّر القوّاد ذلك في نفسه ، فلم يتشاغل بتلافيه ، وأشاروا عليه بالركوب إلى دار الخلافة ، وهم لا يشكّون في تمام الأمر ، فركب وهم معه .

وانقلبت العامّة مع المقتدر ، ورموا ابن المعتز بالستر[7] ، وحاربوه مع شرذمة أنفذهم سوسن لحربه ممّن أطاعه على نصرة المقتدر .

ولمّا شاهد ابن المعتز الصورة ، انهزم ، وهرب ، وانحلّ ذلك الأمر العظيم كلّه ، وتفرّق القوّاد ، وسار بعضهم خارجاً عن بغداد ، وروسل باقيهم عن المقتدر ، بالتلافي ، فسكنوا ، وعادوا إلى طاعته [١٦١ م] .

وطُلِبَ ابن المعتزّ ، فوجد[8] ، وجيء به إلى دار الخلافة ، فحبِّس فيها ، ثمّ قتل ، وكانت مدّته منذ ظهر يوم السبت ، إلى قريب من الظهر من يوم الأحد .

---

٦ في ر : لست بقين .

٧ الستر : راجع حاشية القصّة ١٨٩ من هذا الكتاب .

٨ التجأ ابن المعتزّ إلى دار ابن الجصّاص الجوهري ، فنمّ عليه أحد الخدم ، وكبست الدار واستخرج ابن المعتزّ ، وحمل إلى دار السلطان ، وحبس إلى اللّيل ، وقتل ، ولفّ في كساء ، وسلم إلى أهله (إبن الأثير ٨/١٦–١٨ ، تجارب الأمم ١/٦–٨) .

وعاد الأمر مستقيماً للمقتدر بالله ، وانفرجت له تلك الشدّة ، عن ثبات الملك له .

وقد شرح هذا أصحاب التواريخ ، بما لا وجه لإعادته ها هنا[٩] .

---

٩ للاطلاع على تفاصيل ما حصل ، راجع تجارب الأمم ١/١٨٨-٢٠١ والتكملة ٥٨-٦٣ وكتاب الوزراء للصابي ، والمنتظم لابن الجوزي ٦/٢٢١ و ٢٢٢ والكامل لابن الأثير ٨/٢٠٠-٢٠٧ .

٣٠٨

بعث الفضل بن سهل

خدابود لقتال خارجي فجاء برأسه

وذكر عبد الله بن بشر ، قرابة الفضل بن سهل[١] ، قال :

كان الفضل إذا دخل مدينة السلام ، من السيب – موضع قرية[٢] – لحوائجه ، وهو – إذ ذاك – صغير الحال ، نزل على فاميّ بها[٣] ، يقال له : خدابود[٤] ، فيخدمه هو وأهل بيته ، ويقضي حوائجه إلى أن يعود .

وتقضّت الأيّام ، وبلغ الفضل مع المأمون ما بلغ ، بخراسان ، وقضي أنّ الفاميّ ألحّ عليه الزمان [١٦١ غ] بنكبات متّصلة ، حتّى افتقر ، فنهض إلى الفضل [بن سهل .

وقدم مرو ، فبدأ بي ، فسررت به ، وأكرمته ، وأصلحت من شأنه ما يجب أن يصلح لدخوله على الفضل ، وقمت فدخلت إلى الفضل][٥] وقد جلس على مائدته .

فقلت له : أتذكر الشيخ الفاميّ ، الّذي كنّا ننزل عليه ببغداد ؟ .

فقال لي : سبحان الله ، تقول لي تذكره ، وله علينا من الحقوق ما قد

---

١ أبو العبّاس الفضل بن سهل السرخسي ، وزير المأمون : ترجمته في حاشية القصّة ٥٥ من الكتاب .

٢ السيب : هما سيبان ، الأعلى ، والأسفل ، عند قصر ابن هبيرة الذي هو بالقرب من سورا ، وسورا من أرض بابل (معجم البلدان ٨٤/٣ و ٢٠٨ و ١٢٣/٤) .

٣ الفاميّ : بائع الفواكه اليابسة ، وقد يطلق على البقّال (اللباب ١٩٥/٢) وقد يكون من أهل فامية ، قرية من قرى واسط بناحية فم الصلح ، أهلها نبط (معجم البلدان ٨٤٦/٣) .

٤ خدابوذ : فارسية ، معناها : الله موجود .

٥ هذه الجملة ساقطة من م .

علمت ؟ فكيف ذكرته ؟ أظنّ إنساناً أخبرك بموته .

فقلت : هوذا في منزلي .

فاستطير فرحاً ، وقال : هاته السّاعة ، ثمّ رفع يده ، وقال : لا آكل أو يجيء .

فقمت ، وجئت به ، فحين قرب منه ، تطاول له[6] ، وأجلسه بين يديه ، فيما بيني وبينه ، وأقبل عليه ، وقال : يا هذا ، ما حبسك عنّا طول هذه المدّة ؟ .

فقال : محن عاقتني ، ونكبات أصابتني .

فاقبل يسائله عن واحدة واحدة من بناته وأهله .

فقال له : لم يبقَ لي بعدك ولدٌ ، ولا أهل ، ولا مال إلّا تلف ، وما تحمّلت إليك ، إلّا من قرض ومسألة ، فكاد الفضل يبكي .

فلمّا استتمّ غداءه ، أمر له بثياب فاخرة ، ومركوب ، ومال لنفقته ، وأن يدفع إليه منزل ، وأثاث ، واعتذر إليه ، ووعده النظر في أمره .

فلمّا كان من غد ، حضر عنده وكلاء تجّار بغداد ، وكانوا قد قدموا عليه ، يبتغون بيع غلّات السواد منه ، وأعطوه عطايا لم يجب إليها .

فأحضرني ، وقال : قد علمتَ ما دارٍ بيني وبين هؤلاء ، فاخرج إليهم ، وأعلمهم أنّي قد أنفذت البيع لهم ، بما التمسوا ، على أن يجعلوا لخدابود معهم الربع .

ففعلت ذلك ، وأجاب التجّار ، وفرحوا بما تسهّل لهم .

ثمّ قال لخدابود : إنّهم سيهوّلون عليك بكثرة المؤن ، ويبذلون لك مائة ألف درهم على أن تخرج من الشركة ، فاحذر أن تفعل ، ولا تخرج باقلّ من خمسين ألف دينار .

ثمّ قال : اخرج معه ، وتوسّط فيما بينهم وبينه [١٦٧ ر] ، ففعلت ذلك ،

---

٦ تطاول له : همّ بالقيام له .

ولم أقنع حتّى قدّم التجّار لخدابود خمسين ألف دينار ، ودخل ، فعرّف الفضل ما جرى ، وشكره ، وأقام معنا مدّة .

ثمّ دخل إليه يوماً ، والفضل مغموم مفكّر ، فقال له : أيّها الأمير ما الّذي قد بلغ بك إلى ما أرى من الفكر والغمّ ؟

قال : أمر لا أحسب لك فيه عملاً يا خدابود .

قال : فأخبرني به ، فإن كان عندي فيه ما يفرّجه عنك ، وإلّا ففي الشكوى راحة .

فقال له الفضل : إنّ خارجيًّا قد خرج علينا ببعض كور خراسان ، ونحن على إضاقة من المال ، وأكثر عساكرنا قد جرّدوا إلى بغداد ، والخارجيّ يقوى في كلّ يوم [١٦٢ م] وأنا مرتبك في هذا الأمر .

فقال : أيّها الأمير ، ما ظننت الأمر ، إلّا أصعب من هذا ، وما هذا حتّى تفكّر فيه ؟ أنت قد فتحت العراق ، وقتلت المخلوع ، وأزلت مثل تلك الدولة ، وتهتمّ بهذا اللصّ الّذي لا مادّة له ؟ أنفذني إليه أيّها الأمير ، فإن أتيتك به ، أو برأسه ، بإقبالك ، فهو الذي تريد ، وإن قُتِلْتُ ، لم تنثلم الدولة بفقدي ، على أنّي أعلم أنّ بختك[7] لا يخطئ في هذا المقدار اليسير .

قال : ففكّر [١٦٢ غ] الفضل ساعة ، ثمّ التفت إليّ ، فقال : لعلّ الله يريد أن يعرّفنا قدرته بخدابود .

ثمّ لفّق رجالاً ، واحتال مالاً ، ففرّقه عليهم ، وخلع على خدابود ، وقلّده حرب الخارجيّ ، والبلد الّذي هو فيه .

فسار خدابود بالعسكر ، [٣ ن] فلمّا شارف عسكر الخارجيّ ، جمع وجوه عسكره وقال لهم : إنّي لست من أهل الحرب ، وأعوّل على نصرة الله تعالى لخليفته على العباد ، وعلى إقبال الأمير ، وليس هذا الخارجيّ من أهل

---

٧ في م : نجمك .

المدد ، وإنّما هو لصّ لا شوكة له ، فاعملوا عمل واثق بالظفر ، ولا تقنعوا بدون الوصول إليه ، ولكم إن جئتم به ، أو برأسه ، كذا وكذا .

قال : فحملوا ، وحقّقوا ، فانجلت الحرب عن الخارجيّ قتيلاً ، فاحتزّ رأسه .

وكتب خدابود إلى الفضل : لستُ ممّن يحسن كتب الفتوح ، ولا غيرها ، ولكنّ الله جلّت عظمته قد أظفرنا بالخارجيّ ، وحصل رأسه معي ، وتفرّق أصحابه ، وأنا أستخلف على الناحية ، وأسير برأسه .

قال : وتلا الكتاب مجيئ خدابود بالرأس ، فعجبنا ممّا تمّ له ، وعلت حاله مع الفضل[8] .

٨ لم ترد هذه القصّة في هـ .

٣٠٩

موت زياد يفرّج عن ابن أبي ليلى

وذكر أبو الحسن المدائني ، في كتابه « كتاب الفرج بعد الشدّة والضيقة » [عن محمّد بن الحجاج][1] ، عن عبد الملك بن عمير[2] ، قال :

كتب معاوية[3] ، إلى زياد[4] : إنّه قد تلجلج في صدري شئ من أمر حجر ابن عديّ[5] ، فابعث لي رجلاً من أهل المصر[6] ، له فضل ، ودين ، وعلم ،

فدعا عبد الرّحمن بن أبي ليلى[7] ، فقال له : إنّ أمير المؤمنين كتب إليّ يأمرني أن أوجّه إليه رجلاً من أهل المصر ، له دين وفضل وعلم ، ليسأله عن حجر بن عديّ ، فكنتَ عندي ذلك الرّجل ، فإيّاك أن تقبّح له رأيه في حجر ، فأقتلك ،

---

١ لا توجد في غ .

٢ عبد الملك بن عمير بن سويد اللخمي الفرسي : ذكره صاحب اللباب ٢/٢٠٦ وقال : إنّه كوفيّ توفّي سنة ١٣٦ ، وانّه لقب بالفرسي ، نسبة إلى فرس له اسمه القبطي .

٣ أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة : راجع ترجمته في آخر القصّة .

٤ زياد بن أبيه : ترجمته في حاشية القصّة ٩٣ من الكتاب .

٥ حجر بن عديّ بن جبلة الكندي : صحابيّ ، شجاع ، من المقدّمين ، يقال له : حجر الخير ، وفد على رسول الله صلوات الله عليه ، وشهد حرب القادسيّة ، وكان من أصحاب عليّ ، شهد معه حرب الجمل ، وحرب صفّين ، وأقام بالكوفة (الأعلام ٢/١٧٦) ولما قدم زياد بن أبيه ، والياً على الكوفة ، كان إذا شتم عليًّا ، ردّ عليه حجر ، فاضطغنها عليه ، وبعث به وبجماعة من أصحابه إلى معاوية ، فأمرهم معاوية أن يلعنوا عليًّا ، وأن يبرأوا منه ، فأبوا ، فأمر فحفرت قبورهم ، ونشرت أكفانهم أمامهم ، وهم أحياء ، ثم قتلهم ببرج عذراء قرب دمشق في السنة ٥١ (ابن الأثير ٣/٤٨٥) .

٦ في م : من أهل البصرة .

٧ أبو علي عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار بن بلال الأنصاري (١٧-٨٣) : ولد لست سنين بقين من خلافة عمر ، وأقام بالكوفة ، وشهد حرب الخوارج مع علي ، وحارب الحجاج مع ابن الأشعث ، فقتل في موقعة دير الجماجم سنة ٨٣ (تاريخ بغداد للخطيب ١٠/١٩٩-٢٠٢) .

وأمر له بألفي درهم ، وكساه حلّتين ، وحمله على راحلتين .

قال عبد الرّحمن : فسرت ، وما في الأرض خطوة ، أشدّ عليّ ، من خطوة تدنيني إلى معاوية .

فقدمت بابه ، فاستأذنت ، فأذن لي ، فدخلتُ ، فسألني عن سفري ، ومن خلّفت من أهل المصر ، وعن خبر العامّة والخاصّة .

ثمّ قال لي : انطلق فضع ثياب سفرك ، والبس الثياب الّتي لحضرك ، وعد .

فانصرفت إلى منزلي ، ثمّ رجعت إليه ، فذكر حُجْراً ، ثمّ قال : أما والله ، لقد تلجلج في صدري منه شيئ ، وودت أنّي لم أكن قتلته .

قلت : وأنا والله يا معاوية ، وددت أنّك لم تقتله ، فبكى .

فقلت : والله ، لوددت أنّك حبسته .

فقال لي : وددت أنّي كنت فرّقتهم في كور الشام ، فتكفينيهم الطواعين .

قلت : وددت ذلك .

فقال لي : كم أعطاك زياد ؟

قلت : ألفين ، وكساني حلّتين ، وحملني على راحلتين .

قال : فلك مثل ما أعطاك ، أخرج إلى بلدك .

فخرجت وما في [١٦٣ م ١٦٨ ر] الأرض شيئ أشدّ عليّ من أمر يدنيني من زياد ، مخافة منه .

فقلت : آتي اليمن ، ثمّ فكّرت ، فقلت : لا أخفى بها .

فأجمعت على أن آتي بعض عجائز الحيّ ، فأتوارى عندها ، إلى أن يأتي الله بالفرج من عنده .

قال : وقدمت الكوفة ، فأمرّ بجهينة الظاهرة[8] ، حين طلع الفجر ، ومؤذّنهم يؤذّن .

---

٨ جهينة الظاهرة : محلّة لقبيلة جهينة في ظاهر الكوفة ، تقابلها جهينة الباطنة ، محلّة أخرى لجهينة في باطن الكوفة .

فقلت : لو صلّيت ، فنزلت ، فصرت في المسجد ، حتّى [١٦٣ غ] أقام المؤذّن .

فلمّا قضينا الصلاة ، إذا رجل في مؤخّر الصف ، يقول : هل علمتم ما حدث البارحة ؟

قالوا : وما حدث ؟

قال : مات الأمير زياد .

قال : فما سررت بشيءٍ ، كسروري بذلك[٩] .

---

٩ لم ترد هذه القصة في هـ .

معاوية بن أبي سفيان

أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة (٢٠ ق – ٦٠) : مؤسس الدولة الأمويّة بالشام ، وأحد دهاة العرب المتميّزين الكبار ، حكم الشام حكماً مستمراً ، دام ما يزيد على الأربعين سنة ، قضى بعضها (١٨ – ٣٥) أميراً ، وقضى الباقي متغلّباً ، ولاّه على الشام الخليفة عمر ، ولما ولي عثمان جمع له الديار الشامية كلّها ، ولما ولي علي عزله ، فخرج على عليّ بحجّة المطالبة بدم عثمان (الأعلام ١٧٢/٨) حتى إذا قتل عليّ ، وتمكن من السيطرة ترك المطالبة بدم عثمان (البصائر والذخائر ٥٨٦/٢) .

وهو أوّل من لعن المسلمين على المنابر (العقد الفريد ٣٦٦/٤ و٩١/٥) وأوّل من حبس النساء بجرائر الرجال ، إذ طلب عمرو بن الحمق الخزاعي ، لموالاته علياً ، وحبس امرأته بدمشق ، حتى إذا قطع عنقه ، بعث بالرأس إلى امرأته وهي في السجن ، وأمر الحرسي أن يطرح الرأس في حجرها (بلاغات النساء ٦٤ واليعقوبي ٢٣٢/٢ والديارات ١٧٩ و١٨٠) .

وكان يفرض على الناس لعن عليّ والبراءة منه ، ومن أبى ، قتله ، أو بعث به إلى عامله زياد ليدفنه حيّاً (العقد الفريد ٢٣٤/٣ و٣٤/٤ والأغاني ١٥٠/١٨ وابن الأثير ٤٨٥/٣ والأغاني ١٥٣/١٧) .

وهو أوّل من سخّر الناس ، واستصفى أموالهم ، وأخذها لنفسه (اليعقوبي ٢٣٢/٢) وهو أوّل من حبس على معارضيه أعطياتهم (أدب الكتاب للصولي ٢٢٤/٢) محتجّاً بأنّ العطاء ينزل من خزائن الله ، فقال له الأحنف : إنّا لا نلومك على ما في خزائن الله ، ولكن على ما أنزله الله من خزائنه ، فجعلته في خزائنك ، وحلت بيننا وبينه (البصائر والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٦٨٩) .

وقيل لشريك بن عبد الله ، إنّ معاوية كان حليماً ، فقال : كلا ، لو كان حليماً ما سفّه الحق ولا قاتل علياً (كتاب الآداب لجعفر ٢٢ و٢٣) .

وروى ابن الجوزي ، عن الحسن البصري ، انّه قال : أربع خصال كنّ في معاوية ، لو لم تكن فيه إلاّ واحدة ، لكانت موبقة ، وهي : أخذه الخلافة بالسيف ، من غير مشاورة ، وفي الناس بقايا الصحابة ، وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه يزيد ، وكان سكّيراً خمّيراً ، يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادّعاؤه زياد أخاً ، وقد قال رسول الله صلى

الله عليه وسلّم : الولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، وقتله حجر بن عديّ وأصحابه ، فيا ويلاً له من حجر ، وأصحاب حجر (خزانة الأدب للبغدادي ٢/٥١٨ و ٥١٩) .

وقال نيكلسون : اعتبر المسلمون انتصار بني أميّة ، وعلى رأسهم معاوية ، انتصاراً للأرستقراطية الوثنية ، التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتي جاهدها رسول الله حتى قضى عليها ، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله ، فقضوا عليها . وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام ، لذلك ، لا ندهش إذا كره المسلمون بني أميّة ، وغطرستهم ، لا سيّما أنّ جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالاً كثيرين ، لم يعتنقوا الإسلام إلاّ سعياً وراء مصالحهم الشخصيّة ، ولا غرو ، فقد كان معاوية يرمي إلى جعل الخلافة ملكاً كسرويّاً ، وليس أدلّ على ذلك من قوله : أنا أوّل الملوك (تاريخ الإسلام ١/٢٧٨ و ٢٧٩) .

وكان مصروف الهمّة إلى تدبير أمر الدنيا ، يهون عليه كلّ شيء إذا انتظم أمر الملك (الفخري ١٠٧) ولما استولى على الملك ، استبدّ على جميع المسلمين ، وقلب الخلافة ملكاً (رسائل الجاحظ ١٤ — ١٦) وكان يقول : إنّا لا نحول بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين السلطان (محاضرات الأدباء ١/٢٢٦) .

وختم معاوية أعماله ، بإرادته أن يظهر العهد ليزيد ، فقال لأهل الشام : إنّ أمير المؤمنين قد كبرت سنّه ، ورقّ جلده ، ودقّ عظمه ، واقترب أجله ويريد أن يستخلف عليكم ، فمن ترون ؟ فقالوا : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فسكت وأضمرها ، ودسّ ابن أثال الطبيب إلى عبد الرحمن ، فسقاه سماً ، فمات (الأغاني ١٦/١٩٧) .

ثم فرض ولده يزيد على الناس فرضاً ، وحملهم على بيعته قسراً ، وأوعز إلى رجل من الأزد ، اسمه يزيد بن المقفّع ، فقام خطيباً وقال : أمير المؤمنين هذا (وأشار إلى معاوية) ، فإذا مات فهذا (وأشار إلى يزيد) ، ومن أبى فهذا (وأشار إلى السيف) ، فقال له معاوية : أقعد ، فأنت سيّد الخطباء (العقد الفريد ٤/٣٧٠ ومروج الذهب ٢/٢١) .

إقرأ بعض أخبار معاوية في تاريخ اليعقوبي ٢/٢١٧ وفي الامتاع والمؤانسة ٢/٧٥ و٣/١٧٨ وفي محاضرات الأدباء ١/٣٥٣ وفي كتاب التاج للجاحظ ٢٠٥ وفي المحاسن والمساوئ ٢/١٤٨ وفي البيان والتبيين للجاحظ ٢/٨٧ و ١١٠ و٤/١٣٣ وفي الأغاني ٤/١٨٩ و ٦/٢٦٦ و١٥/١٦٨ ، ١٩٧ و١٩٨ ، و١٧/١٤٤ وفي وفيات الأعيان ٢/١٦٩ وفي الفخري ١٠٦—١١٠ وفي البصائر والذخائر م٢ ق٢ ص ٦٧١ و ٧٠٢ وفي نفح الطيب ٢/٥٤٢ وفي خزانة الأدب للبغدادي ٢/٥١٨ و ٥١٩ .

٣١٠

خرج يريد خالداً القسري

فأعطاه الحكَم فأغناه

وقد أخبرني علي بن دبيس ، عن الخزاعي المدائني ، [عن أبي عمر الزاهد] وقد لقيت أبا عمر ، وحملت منه شيئاً من علومه ورواياته ، وأجاز لي كل ما صحّ منها ، فدخل هذا في إجازته[1] .

وحدّثنا أحمد بن عبد الله بن أحمد الورّاق ، في كتاب نسب قريش ، قال : حدّثنا أحمد بن سليمان الطوسي ، قال : حدّثنا الزبير بن بكّار ، قال : أخبرني عمّي مصعب ، عن نوفل بن عمارة :

أنّ رجلاً من قريش ، من بني أميّة ، له قدر وخطر ، لحقه دين ، وكان له مال من نخل وزرع ، فخاف أن يباع عليه ، فشخص من المدينة يريد الكوفة ، يقصد خالد بن عبد الله القسري[2] ، وكان والياً لهشام بن عبد الملك على العراق[3] ، وكان يبرّ من قدم عليه من قريش .

فخرج الرجل يريده ، وأعدّ له من طرف المدينة[4] ، حتّى قدم فيد[5] ، فأصبح بها .

فرأى فسطاطاً ، عنده جماعة ، فسأل عنه ، فقيل : للحكم بن عبد المطلب ،

---

١ في ن : وأخبرنا بهذا الخبر محمد بن الحسن بن المظفّر ، قال : أخبرني أبو عمر محمد بن عبد الواحد ، قال : أخبرني علي بن [بياض بالأصل] الكاتب ، قلت : لقيت أبا عمر وحملت منه شيئاً من علومه ...الخ

٢ أبو الهيثم خالد بن عبد الله القسري ، أمير العراقين : ترجمته في حاشية القصّة ١٩١ من الكتاب .

٣ ولي خالد القسري العراقين سنة ١٠٥ وعزل عنها سنة ١٢٠ (الأعلام ٢/٢٣٨) .

٤ الطُرَفُ ، ومفردها : طُرْفَة : المستحدث المعجب (أساس البلاغة ٢/٦٨) .

٥ فيد : أحد منازل الحاج بين الكوفة ومكّة ، وهي نصف الطريق ، كثيرة الأهل ، فيها قناة يزرع عليها ، وفيها ينزل عامل الطريق ، وفيها مسجد جامع (معجم البلدان ٣/٩٣٧ والاعلاق النفيسة ١٧٦) .

يعني أبا عبد الله بن عبد المطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمرو بن مخزوم ، وكان يلي المشاعر[6] ، فلبس نعليه ، وخرج حتّى دخل عليه .

فلمّا رآه ، قام إليه فتلقّاه ، وسلّم عليه وأجلسه في صدر فراشه ، ثمّ سأله عن مخرجه ، فأخبره بدينه ، وما أراد من إتيان خالد بن عبد الله .

فقال الحكم : انطلق بنا إلى منزلك ، فلو علمتُ بمقدمك لسبقتك إلى إتيانك ، فمضى معه ، حتّى أتى منزله ، فرأى الهدايا الّتي أعدّها لخالد ، فتحدّث ساعة معه .

ثمّ قال : إنّ منزلنا أحضر عدّة ، وأنتم مسافرون ، ونحن مقيمون ، فأقسمت عليك إلّا قمت معي إلى المنزل ، وجعلت لنا من هذه الهدايا نصيباً .

فقام الرّجل معه ، وقال : خذ منها ما أحببت ، فأمر بها ، فحملت كلّها إلى منزله ، وجعل الرّجل يستحي أن يمنعه شيئاً ، حتّى صار إلى المنزل .

فدعا بالغداء ، وأمر بالهدايا ، ففتحت ، فأكل منها ، ومن حضره ، ثمّ أمر ببقيّتها فرفعت إلى خزانته ، وقام النّاس .

ثمّ أقبل على الرّجل ، وقال له : أنا أولى بك من خالد ، وأقرب منه رحماً ومنزلاً ، وها هنا مال للغارمين[7] ، أنت أولى النّاس به ، وأقرب ، وليس لأحد عليك فيه منّة ، الّا الله تعالى ، تقضي به دينك، ثمّ دعا له بكيس فيه ثلاثة آلاف دينار ، فدفعت إليه .

ثمّ قال : قد قرّب الله – جلّت عظمته – عليك الخطوة ، فانصرف إلى أهلك مصاحباً ، محفوظاً .

فقام الرّجل من عنده ، يدعو له ويشكره ، ولم يكن له همّة إلّا الرجوع إلى أهله ، وانطلق الحكم يشيّعه .

---

٦ المشاعر : مواضع مناسك الحجّ .

٧ الغارم : الذي أصابه خسر أو ضرر أدى به إلى الحاجة .

ثمّ قال : كأنّي بزوجتك ، قد قالت : أين طرائف العراق[8] ، خزّها[9] ، وبزّها[10] ، وعروضها[11] ، أما كان لنا منها نصيب ؟

ثمّ أخرج صرّة [١٦٤ م] قد كان حملها معه ، فيها خمسمائة دينار ، فقال له : أقسمت عليك ، إلّا جعلت هذه عوضاً عن هدايا العراق ، وانصرف .

وذكر أبو الحسين [٤ ن] القاضي ، هذا الخبر ، في كتابه ، كتاب الفرج بعد الشدّة ، بغير إسناد ، على قريب من هذه العبارة[12] .

---

٨ سمّي العراق عراقاً ، لأنّه سفل عن نجد ، ودنا من البحر ، أخذ الاسم من عراق القربة ، وهو الخرز الذي في أسفلها ، راجع معجم البلدان ٦٢٨/٣ أقول : ما زال البغداديّون ، وسكّان الفرات الأوسط ، يطلقون كلمة العراق على القسم الجنوبي الداني من البحر ، راجع كتاب نشوار المحاضرة للتّنوخي ج ٥ ص ١٧٠ و ٤٤٩ .

٩ الخزّ : ثياب تنسج من صوف وإبريسم ، وبائعة الخزّاز .

١٠ البزّ : الثياب ، وبائعه البزّاز .

١١ العَرْض ، وجمعه عروض : المتاع ، وكل شيء سوى الدراهم والدنانير .

١٢ لا توجد هذه القصّة في ر ولا في غ .

٣١١
لا بارك الله في مال بعد عثمان

وذكر أيضاً في كتابه ، بغير إسناد : أنّ عثمان بن طلحة ، ركبه دين فادح ، مبلغه ألفا دينار ، فأراد الخروج إلى العراق ، لمسألة السلطان قضاءه عنه .

فلمّا عزم على السفر ، اتّصل خبره بأخيه جعفر بن طلحة ، فقال : لا بارك الله في مال بعد عثمان .

فدخل على نسائه ، فجعل يخلع حليهنّ ، حتّى جمع له أكثر من ألفي دينار ، فدفعها إليه .

فقضى دينه ، وأقام[١] .

---

١ لم ترد هذه القصّة في هـ .

٣١٢

رفع صوته بالتلبية

فحملت إليه أربعة آلاف دينار

وحدّثنا أحمد بن عبد الله ، في هذا الكتاب ، كتاب نسب قريش ، قال : حدّثنا أحمد بن سليمان ، قال : حدّثنا الزّبير ، قال : حدّثني مفضّل بن غسّان ، عن أبيه ، عن رجل من قريش ، قال :

حجّ محمّد بن المنكدر[1] ، من بني تيم بن مرّة ، قال : وكان معطاءً ، فأعطى حتّى بقي في إزار واحد ، وحجّ معه أصحابه .

فلمّا نزل الروحاء[2] ، أتاه وكيله ، فقال : ما معنا نفقة ، وما بقي معنا درهم .

فرفع محمّد صوته بالتلبية ، فلبّى ، ولبّى أصحابه ، ولبّى النّاس ، وبالماء محمّد بن هشام[3] .

فقال : والله ، إنّي لأظنّ أنّ محمّد بن المنكدر بالماء ، فانظروا .

فنظروا ، وأتوه فقالوا : هو بالماء .

فقال : ما أظنّ معه درهماً ، احملوا إليه أربعة آلاف درهم[4] .

---

١ محمّد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير (بالتصغير) بن عبد العزّى القرشيّ التيمي (٥٤–١٣٠) : من أهل المدينة ، محدّث ، زاهد ، تابعي (الأعلام ٧/٣٣٣) .

٢ الروحاء : موضع يبعد أربعين ميلاً عن المدينة إلى جهة مكّة (مراصد الاطلاع ٢/٦٣٧) .

٣ محمد بن هشام بن إسماعيل المخزوميّ : ولاّه هشام بنّ عبد الملك إمرة مكّة والطائف سنة ١١٤ ولما ولّي الوليد بن يزيد الخلافة عزله ، واعتقله ، وبعثه وأخاه إبراهيم إلى يوسف بن عمر أمير العراق ، فعذبهما حتّى ماتا (الأعلام ٧/٣٥٥) .

٤ لم ترد في غ .

٣١٣

يزيد بن عبد الملك بن مروان

يصف عمر بن هبيرة بالرجلة ويولّيه العراق

قال : وذكر أبو الحسين القاضي ، في كتابه ، قال :

نالت عمر بن هبيرة[١] ، إضاقة شديدة ، فاصبح ذلت يوم ، في نهاية الكسل ، وضيق الصدر ، والضجر ممّا هو فيه .

فقال له أهله ومواليه : لو ركبست فلقيت أمير المؤمنين ، فلعلّه – إذا رآك – أن يجري لك شيئاً فيه محبّة ، أو يسألك عن حالك ، فتخبره .

فركب ، فدخل على [يزيد بن] عبد الملك ، فوقف بين يديه ساعة ، وخاطبه .

ثمّ نظر [يزيد بن] عبد الملك إلى وجه عمر ، وقد تغيّر تغيّراً شديداً ، أنكره ، فقال : أتريد الخلاء ؟

قال : لا .

قال : إنّ لك لشأناً .

قال : يا أمير المؤمنين ، أجد بين كتفيّ أذىً لا أدري ما هو .

قال [يزيد بن] عبد الملك : انظروا ما هو .

فنظروا ، فإذا بين كتفيه عقرب ، قد ضربته عدّة ضربات .

فلم يبرح حتّى كتب عهده على العراق ، وجعل [يزيد بن] عبد الملك يصفه بالرجلة ، وشدّة القلب[٢] .

---

١ أبو المثنى عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري : ترجمته في حاشية القصّة ١٩١ من هذا الكتاب .

٢ ورد في هذه القصّة ذكر عبد الملك بن مروان على أنّه هو الذي ولّى ابن هبيرة العراق ، وهو سهو من المؤلّف ، فإنّ الذي ولّاه العراق هو يزيد بن عبد الملك وكان ذلك في السنة ١٠٢ وعزله هشام بن عبد الملك في السنة ١٠٥ بخالد القسري راجع الطبري ٦/٦١٥ و٦١٦ و٧/٢٦ والأعلام ٥/٢٣٠ .

٣١٤

كان خالد القسري لا يملك إلّا ثوبه

فجاءه الفرج بولاية العراق

وذكر أبو الحسين في كتابه :

أنّ خالد بن عبد الله القسري ، أصابته إضاقة شديدة ، فبينما هو ذات يوم في منزله ، إذ أتاه رسول هشام بن عبد الملك يدعوه لولاية العراق ، فتلوّم[١] ، فاستحثّه الرّسول .

فقال له خالد : رويداً حتّى يجفّ قميصي ، وقد كان غسله قبل موافاة الرّسول ، ولم يكن بقي له غيره .

فقال له الرّسول : يا هذا ، أسرع في الإجابة ، فإنّك تدعى إلى قمصان[٢] كثيرة .

فجاء إلى هشام ، فولّاه العراق[٣] .

---

١ تلوّم في الأمر : تمكّث فيه .

٢ في غ : فإنّك تدعى إلى قمص كثيرة ، والقميص يجمع على أقمصة ، وقمص وقمصان .

٣ لا توجد هذه القصّة في ر .

٣١٥
يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين

قال : ومن الأعجوبات ، ما ذكر القاضي أبو الحسين في كتابه ، عن علي بن الهيثم[1] ، قال :

رأيت شيئاً قلّما رئي مثله ، رأيت ثقل[2] الفضل بن الرّبيع ، على ألف بعير ، [١٦٥ م] ثمّ رأيت ثقله في زنبيل ، ونحن مستترون ، وفيه أدوية لعلّته ، وهو ينقله من موضع إلى موضع .

ورأيت الحسن بن سهل ، وكان مع طريف خادمي في بيت الدهليز ، وثقله في زنبيل ، فيه نعلان ، وقميصان ، وإزار ، وإسطرلاب[3] ، وما أشبه ذلك ، ثمّ رأيت ثقله على ألف بعير[4] .

---

١ علي بن الهيثم : فقيه من المتكلمين في مجلس المأمون (تاريخ بغداد لابن طيفور ١٥ وتجارب الأمم ٤٤٨/٦) وكان وكيل ولد المأمون من سندس (تاريخ بغداد ٣٥) .

٢ الثقل : متاع المسافرين .

٣ الإسطرلاب : آلة رصد لقياس الكواكب .

٤ لا توجد هذه القصّة في ر .

٣١٦
باع من إضاقته لجام دابته في الصباح
وحصلت له عشرون ألف دينار وقت الظهر

قال : وذكر أبو الحسين القاضي في كتابه ، [قال : حدّثنا أبو القاسم ميمون بن موسى][1] قال :

خرج رجل من الكتّاب[2] في عسكر المعتصم إلى مصر ، يريد التصرّف ، فلم يحظ بشيء ممّا أمّل ، ودخل المعتصم بالله مصر .

قال : فحدّثني بعض المتصرّفين عنه ، قال : نزلت في دار بالقرب منه ، فحدّثني الرّجل بما كنت وقفت على بعضه .

* قال : أصبحتُ ذات [١٦٤ غ] يوم ، وقد نفدت نفقتي ، وتقطّعت ثيابي ، وأنا من الهمّ ، والغمّ ، على ما لا يوصف عظماً .

فقال لي غلامي : يا مولاي ، أيّ شيء نعمل اليوم ؟

فقلت له : خذ لجام الدابّة ، فبعه ، فإنّه محلّى ، وابتع مكانه لجاماً حديداً ، واشتر لنا خبزاً سميذاً[3] ، وجدياً سميناً ، فقد قرمت إلى أكلهما ، وعجّل ، ولا تدع أن تبتاع فيما تبتاعه كوز نبيذ شيرويّ .

فمضى الغلام ، وجلست أفكّر في أمري ، ومن ألاقي ، وكيف أعمل ، وإذا بباب الدار قد دقّ دقاً عنيفاً ، حتّى كاد أن يكسر ، وإذا رهج شديد .

---

١ لا توجد في غ .

٢ في ر وغ : من المتصرفين .

٣ الخبز السميذ : المصنوع من الدقيق الأبيض ، والباعة ببغداد الآن ينادون بكلمة : سميط ، بالطاء ، على نوع من الخبز المسمسم ، يتخذ على هيأة الحلقات ، وهذا النداء موروث عن أسلافهم الذين كانوا ينادون على الخبز السميذ .

فقلت لغلام كان واقفاً بين يدي : بادر ، فانظر ما هذا .

فإلى أن يفتح الباب ، كُسِرَ ، وامتلأت الدار بالغلمان الأتراك وغيرهم ، وإذا بأشناس[4] ، وهو حاجب المعتصم ، ومحمّد بن عبد الملك الزيّات[5] ، وهو الوزير ، قد دخلا .

فطرحتُ لهم زلّية[6] ، فجلسا عليها ، وإذا معهما حفّارون .

قال : فلمّا رأيت ذلك ، بادرت فقبّلت أيديهما ، فسألاني عن خبري ، فخبرتهما إيّاه ، وأنّني قد خرجت في جملة أهل العسكر ، طلباً للتصرّف ، وذكرت حالي [١٦٩ ر] وما قد آلت إليه ، فوعداني جميلاً ، والحفّارون يحفرون في وسط الدار ، حتّى ترجّل النهار[7] ، وأنا واقف بين أيديهما ، وربّما حدّثتهما .

فالتفت أشناس إلى محمّد بن عبد الملك فقال : أنا والله جائع .

فقال له محمّد : وانا - والله - كذلك .

فقلت عند ذلك : يا سيديّ ، عند خادمكما شيئ قد اتّخذ له ، فإن أذنتما في إحضاره أحضره .

فقالا : هات .

فقدّمت الجدي ، وما كان ابتيع لنا ، فأكلا ، واستوفيا ، وغسلا أيديهما .

ثمّ قال لي أشناس : عندك شيئ من ذلك الفنّ ؟

قلت : نعم ، فسقيتهما ثلاثة أقداح .

---

٤ أبو جعفر أشناس ، حاجب المعتصم ، القائد التركي : ترجمته في حاشية القصّة ٢٩٦ من الكتاب .

٥ أبو جعفر محمّد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم : ترجمته في حاشية القصّة ٦٦ من الكتاب .

٦ في ر وغ : زيلونة ، في معجم الألفاظ الفارسية ٧٩ : إنّ الكلمة فارسيّة ، زيلو : بمعنى البساط ، والبغداديّون يسمّونها الآن : زوليّة ، ويجمعونها : زوالي .

٧ ترجّل النهار : علا .

وجعل أحدهما يقول للآخر : ظريف ، وما ينبغي لنا أن نضيعه البائس .

فبينما الحال على ذلك ، إذ ارتفع تكبير الحفّارين ، وإذا هم قد كشفوا عن عشرين مرجلاً[8] دنانير ، فوجّهوا بالبشارة إلى المعتصم ، وأخرجت المراجل .

فلمّا نهضا ، قال أحدهما للآخر : فهذا الشقيّ الّذي أكلنا [٥ ن] طعامه ، وشربنا شرابه ، ندعه هكذا ؟

فقال له الآخر : فنعمل ماذا ؟

قال : نحفن له من كلّ مرجل حفنة ، لا تؤثّر فيه ، فنكون قد أغنيناه ، ونصدق أمير المؤمنين عن الحديث .

ثمّ قالا : افتح حجرك ، وجعل كلّ واحد ، يحفن لي حفنة ، من كلّ مرجل ، وأخذا المال ، وانصرفا .

فنظرتُ ، فإذا قد حصل لي عشرون ألف دينار ، فانصرفت بها إلى العراق ، وابتعت بها ضياعاً [١٦٦ م] ولزمت منزلي ، وتركت التصرّف .

---

٨ المرجل ، وجمعه مراجل : القِدْر .

٣١٧
سبحان خالقك يا أبا قلابة
فقد تنوّق في قبح وجهك

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه ، قال : حدّثني أبي ، عن أبي قلابة المحدّث[١] ، قال :

ضقت ضيقة شديدة ، فأصبحت ذات يوم ، والمطر يجيء كأفواه القِرَبِ ، والصبيان يتضوّرون جوعاً ، وما معي حبّة واحدة[٢] فما فوقها ، فبقيت متحيّراً في أمري .

فخرجت ، وجلستُ في دهليزي ، وفتحتُ بابي . وجعلت أفكّر في أمري ، ونفسي تكاد تخرج غمّاً لما ألاقيه ، وليس يسلك [١٦٥ غ] الطريق أحد من شدّة المطر .

فإذا بامرأة نبيلة ، على حمار فاره ، وخادم أسود آخذ بلجام الحمار ، يخوض في الوحل ، فلمّا صار بإزاء داري ، سلّم ، وقال : أين منزل أبي قلابة ؟

فقلت له : هذا منزله ، وأنا هو .

فسألتني عن مسألة ، فأفتيتها فيها ، فصادف ذلك ما أحبّت ، فأخرجت

---

١ أبو قلابة عبد الملك بن محمّد بن عبد الملك بن مسلم الرقاشي (١٩٠–٢٧٦) : بصري ، أقام ببغداد ، وتوفّي بها ، ترجم له الخطيب في تاريخه ١٠/٤٢٥ وقال عنه : إنّه كان صالحاً خيّراً ، صادق اللّهجة ، وذكره ابن الأثير في الكامل ٧/٤٣٧ .

٢ في غ : حبّة فضة . وفي مفاتيح العلوم ٤١ و ٤٢ : إنّ الحبّة ، هي ١ من ٣٦ من المثقال ، وقال : إنّ المقادير التي ذكرها تختلف باختلاف البلدان ، أقول : أما الآن فإنّ الحبّة في بغداد هي ١ من ٢٤ من المثقال ، ولذلك فإنّ البغداديّين إذا وصفوا شيئاً بالكمال ، قالوا : إنّه كامل على أربع وعشرين حبّاية (حبّة) .

من خفّها[3] خريطة[4] ، فدفعت إليّ منها ثلاثين ديناراً .

ثمّ قالت : يا أبا قلابة ، سبحان خالقك ، فقد تنوّق في قبح وجهك[5] ، وانصرفَتْ[6] .

---

٣ الخفّ : حذاء يغطّي القدم ويرتفع إلى وسط الساق ، وربما وصل إلى الركبة .

٤ الخريطة : كيس من الجلد أو القماش يشدّ على ما فيه .

٥ كان أبو قلابة قبيح الصورة ، إلى درجة أنّ رستم المخنّث ، قال : أعياني وجه أبي قلابة أن أخرجه في الحكاية (خيال الظل) .

٦ لا توجد هذه القصّة في ر .

٣١٨
المنصور العباسي يتذكر
ما ارتكب من العظائم فيبكي وينتحب

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه ، قال :

دخل عمرو بن عبيد ، على أبي جعفر المنصور قبل دولة بني العبّاس ، وكان صديقه ، وبين يديه طبق عليه رغيف ، وغضارة فيها فضلة سكباج ، وهو يتغدّى ، وقد كاد يفرغ ، فلمّا بصر بعمرو ، قال : يا جارية ، زيدينا من هذا السكباج ، وهاتي خبزاً .

قالت : ليس عندنا خبز ، وما بقى من السكباج شيء .

قال : فارفعي الطبق ، ثمّ قال : ﴿ عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ، ويستخلفكم في الأرض ، فينظر كيف تعملون ﴾ .

فلمّا أفضى الأمر إلى أبي جعفر ، وارتكب العظائم[١] ، دخل عليه عمرو بن عبيد ، فوعظه ، ثمّ قال : أتذكر يوماً دخلت عليك ... وأعاد الحديث ، وقد استخلفك ، فماذا عملت ؟

فجعل المنصور يبكي وينتحب ، وفيه حديث طويل[٢] .

---

١ بشأن عظائم المنصور ، راجع التفصيل في آخر القصّة .

٢ هذه القصّة لم ترد في ر .

ارتكب المنصور فظائع من قتل ، وتعذيب ، ودفن الناس أحياء ، ودقّ الأوتاد في الأعين ، وبناء الحيطان على الأحياء ، وكان يشهد تعذيب من يأمر بتعذيبه ، حتّى أنّه كان يشهد تعذيب النساء أيضاً .

راجع في الفخري ١٦٥ سبب حبس آل الحسن ، وقتلهم ، وقد حبسهم المنصور في سرداب تحت الأرض ، لا يفرّقون فيه بين ضياء النهار ، وسواد اللّيل ، وهدم الحبس على قسم منهم ، وكانوا يتوضّؤون (أي يقضون حاجاتهم) في مواضعهم ، فاشتدّت عليهم الرائحة ، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتّى يبلغ القلب ، فيموت صاحبه ، ومات إسماعيل بن الحسن ، فتُرِكَ عندهم حتّى جيف ، فصعق داود بن الحسن ، ومات (مروج الذهب ٢/٢٣٦) .

وبلغ المنصور أنّ عبد الله بن محمد النفس الزكيّة ، فرّ منه إلى السند ، فبعث وراءه من قتله (مقاتل الطالبيين ٣١٠-٣١٣) ، وأمر المنصور بمحمد بن إبراهيم بن الحسن ، فبنيت عليه أسطوانة ، وهو حيّ (الفخري ١٦٤ ، ومقاتل الطالبيين ٢٠٠ ، والطبري ٧/٥٤٦ وابن الأثير ٥/٥٢٦) وأمر بعبد الله بن الحسن بن الحسن فطرح عليه بيت فقتله (مقاتل الطالبيين ٢٢٨) أمّا الباقون فما زالوا في الحبس حتّى ماتوا ، وقيل إنّهم وجدوا مسمّرين في الحيطان (اليعقوبي ٢/٣٧٠) .

وأمر المنصور بإبراهيم بن الحسن بن الحسن ، فدفن حياً (مقاتل الطالبيين ٢٢٨) وجرّد محمّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، وأمه فاطمة بنت الحسين ، فضرب ألف سوط (مروج الذهب ٢/٢٣٦) وأمر بأن يدقّ وجهه بالجرز ، وهو العمود من الحديد (الطبري ٧/٥٤٣) وبلغ من شدّة الضرب أن أخرج وكأنّه زنجي (مقاتل الطالبين ٢٢٠ وابن الأثير ٥/٥٢٥) وجاءت إحدى الضربات على عينه ، فسالت (مقاتل الطالبيين ٢٢٠ والطبري ٧/٥٤٢) ثم قتله ، وقطع عنقه (مقاتل الطالبيين ٢٢٦) .

ولما حمل رأس محمّد بن عبد الله إلى المنصور ، قال لمطير بن عبد الله : أما تشهد أنّ محمّداً بايعني ؟ فقال : أشهد بالله لقد أخبرتني بانّ محمّداً خير بني هاشم ، وأنّك بايعت له ، فشتمه ، وأمر به ، فوتّد في عينيه (المحاسن والمساوئ ٢/١٣٨) .

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله في باخمرى ، بعث المنصور برأسه إلى أبيه عبد الله فوضعه بين يديه (مروج الذهب ٢/٢٣٦ و ٢٣٧) وأمر بسديف بن ميمون الشاعر ، فدفن حيّاً (العقد الفريد ٥/٨٧–٨٩) .

ومن بعد وفاة المنصور عثر المهدي ، وزوجته ريطة ، على أزج في قصر المنصور ، فيه جماعة من قتلى الطالبيين ، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ، وإذا فيهم أطفال ، ورجال ، شباب ومشايخ ، عدّة كثيرة ، فلما رأى المهدي ذلك ، ارتاع لما رأى ، وأمر فحفرت لهم حفيرة دفنوا فيها (الطبري ٨/١٠٥) .

ولما طال حبس عبد الله بن الحسن ، وأهل بيته ، جلست إحدى بناته للمنصور ، فتوسّلت إليه بالقرابة ، وطلبت منه الرحمة ، فقال لها : أذكرتنيه ، وأمر به فحدر إلى المطبق وكان آخر العهد به (تاريخ بغداد للخطيب ٩/٤٣٢) .

وممّا يبعث على العجب أنّ المنصور ، الذي ضرب أسوء الأمثال في القسوة ، أوصى ولده المهدي ، فقال : أحفظ محمّداً في أمّته ، وإيّاك والدم الحرام ، فإنّه حوب عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، وافتتح عملك بصلة الرحم ، وبرّ القرابة (الطبري ٨/١٠٥ و١٠٦) .

٣١٩
إنّ قرح الفؤاد يجرح جرحاً

وذكر القاضي أبو الحسين ، قال : روي لنا عن خالد بن أحمد البطحاوي[١] ، مولى آل جعفر بن أبي طالب ، قال :

تزوّجت امرأة ، فبينا أنا ذات ليلة من ليالي العرس ، وليس عندنا قليل ولا كثير ، وأنا أهمّ النّاس بذلك ، إذ جاءتني امرأتان ، فطرقتا باب منزلي ، فخرجتُ إليهما ، فإذا بجارية شابّة ، وأخرى نَصَف[٢] .

فقالت : أنت خالد البطحاوي[١] ؟ .

قلت : نعم .

قالت : أحبّ أن تنشدنا قولك : خلّفوني ببطن حام ، فأنشدتهما :

خلّفوني ببطن حامٍ صريعاً ... ثمّ ولّوا وغادروني صبحا

جمع الله بين كلّ محبٍّ ... ذبحوه بشفرة الحبّ ذبحا

غادر الحبّ في فؤادي قرحاً ... إنّ قرح الفؤاد يجرح جرحا

قال : فرمت إليّ الشابة بدملج[٣] ذهب ، وانصرفتا ، فبعته بجملة دراهم ، واتّسعت بها[٤] .

---

١ في غ : خالد البطحاني .

٢ النَصَفُ : من كان في متوسط العمر .

٣ الدملج : المعضد من الحلي (لسان العرب) أي الحلية الّتي تلبس في العضد .

٤ هذه القصّة لم ترد في ر .

٣٢٠

أبو عمر القاضي يصبح وليس عنده درهم واحد

فيجيئه الفرج في وقت قريب

وذكر القاضي أبو الحسين[١] في كتابه ، قال : حدّثني أبي[٢] ، قال :

أضقت إضاقة شديدة ، في نكبتي[٣] ، وأصبحتُ يوماً ، وما عندي درهم واحد فما فوقه ، وكان الوقت شتاءً ، والمطر يجيءُ .

فجلست ضيّق الصدر ، مفكّراً في أمري ، إذ جاءني صديق لي ، فقال : قد جئت لأقيم عندك اليوم ، فازداد ضيق صدري ، وقلت له : بالرّحب والسعة ، وأظهرت له السرور بمجيئه .

ودخلتُ إلى النساء ، فقلت لهنّ : احتلن فيما ننفق في هذا [١٦٦ غ] اليوم ، على رهن أو بيع شيءٍ [١٦٧ م] من البيت ، فقد طرقنا ضيف .

وخرجت ، فجلست مع الرّجل ، وأنا على نهاية من شغل القلب ، خوفاً أن لا يتّفق قرض ، ولا بيع ، لأجل المطر .

فأنا كذلك ، إذ دخل الغلام ، فقال : خليفة أبي الأغرّ السلمي بالباب .

فقلت : أيّ وقت هذا لخليفة أبي الأغرّ ؟ وأمرته أن يخرج فيصرفه ، ثمّ تذمّمت من صرفه ، وقد قصدني في مثل هذا اليوم .

فقلت : قل له يدخل .

فدخل ، وحادثني قليلاً ، ثمّ قرب منّي ، وأخرج صرّة فيها مائة دينار .

---

١ أبو الحسين عمر بن محمّد بن يوسف الأزدي القاضي : ترجمته في حاشية القصّة ١٩ من الكتاب .

٢ أبو عمر محمّد بن يوسف الأزدي القاضي : ترجمته في حاشية القصّة ١٧٩ من الكتاب .

٣ راجع قصّة نكبته في القصّة ١٧٩ من الكتاب .

وقال : يقول لك أخوك : وجّهت إليك بهذه الصرّة ، فتأمر بصرفها في مثل هذا اليوم ، في بعض ما يصلح حالك .

فامتنعت من قبولها ، فلم يزل خليفته يلطف بي ، حتّى قبلتها[٤] .

---

٤ لم ترد هذه القصّة في هـ ، وأبو الاغر خليفة بن المبارك السلمي ، أحد الأمراء القوّاد في دولة المعتضد والمكتفي ، وكان مظفراً في كثير من المعارك التي شارك فيها ، راجع أخباره في الطبري ١٠/٧٤ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٤٣ .

٣٢١

بين أحمد بن أبي خالد وصالح الأضجم

حدّثني أبي ، أبو القاسم التنوخي ، في المذاكرة ، بإسناد ذهب عن حفظي ، قال :

كان أحمد بن أبي خالد ، بغيضاً[١] ، قبيح اللهجة ، وكان مع ذلك حرّاً ، وكان يلزمه رجل متعطّل من طلاّب التصرّف يقال له : صالح بن عليّ الأضجم[٢] ، من وجوه الكتّاب ، فحدّث ، قال :

طالت بي العطلة في أيّام المأمون ، والوزير - إذ ذاك - أحمد بن أبي خالد ، وضاقت حالي ، حتّى خشيت التكشّف .

---

١ البغيض : تعبير عبّاسيّ يطلق على من كان شديد التزمّت ، أو كان سيّء المواجهة عبوساً .

٢ سمّاه الجاحظ في كتاب الحيوان ٤٨١/٣ : صالح الأفقم ، وسمّاه صاحب الأغاني ١٣٨/٢٠ و١٥٧ : الأضجم (بالضاد والجيم) ، والأضجم : الذي في فمه عوج ، وفي ر ، وغ : الأضخم (بالخاء) ، وورد اسمه في م : علي بن أبي صالح الأضجم ، وفي القصّة ١١١/٢ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي : ابن أبي الأضخم ، وسمّاه صاحب الأغاني ١٣٨/٢٠ و ١٥٧ : صالح بن عطيّة الأضجم ، ولعلّ عطية اسم جدّه ، وذكر عنه إنّه كان من أبناء الدعوة ، وكان من أقبح الناس وجهاً ، وكان ينزل واسطاً ، وعرضت لدعبل الخزاعي إليه حاجة ، فقصر عنها ، ولم يبلغ فيها ما أحبّه ، فقال يهجوه :

أحسن ما في صالح وجهه ... فقس على الغائب بالشاهد
تأمّلت عيني له خلقة ... تدعو إلى تزنية السوالد

وقال فيه ، مخاطباً المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمّد ... قول أمرئ حدبٍ عليك محام
أنكرتُ أن تفترّ عنك صنيعة ... في صالح بن عطيه الحجّام
إضرب به جيش العدوّ فوجهه ... جيش من الطاعون والبرسام

فبكّرت يوماً إلى أحمد بن أبي خالد مغلّساً ، لأكلّمه في أمري ، فرأيت بابه قد فتح ، وخرج وبين يديه شمعة ، يريد دار المأمون .

فلمّا نظر إليّ ، أنكر عليّ بكوري ، وعبس في وجهي ، وقال : في الدنيا أحد بكّر هذا البكور ليشغلنا عن أمرنا .

فلم تصبر نفسي أن قلت : ليس العجب منك - أصلحك الله - فيما استقبلتني به ، وإنّما العجب منّي ، وقد سهرت ليلتي ، وأسهرت من في داري تأميلاً لك ، وتوقّعاً للصبح ، لأصير إليك ، فأبثّك أمري ، وأستعين بك على صلاح حالي ، وإلّا فعليّ ، وعليّ ، وحلفت يميناً غليظة ، لا وقفت ببابك ، ولا سألتك حاجة ، حتّى تصير إليّ معتذراً ممّا كلّمتني به .

وانصرفت مغموماً ، مكروباً بما لقيني به ، متندّماً على ما فرط منّي ، غير شاكّ في العطب ، إذ كنت لا أقدر على الحنث ، وكان ابن أبي خالد ، لا يلتفت إلى إبرار قسمي .

فإنّي لكذلك ، وقد طلعت [٦ ن] الشمس ، إذ طلع بعض غلماني ، فقال : أحمد بن أبي خالد ، مقبل في الشّارع ، ثمّ دخل آخر ، فقال : قد دخل دربنا ، ثمّ دخل آخر ، فقال : قد وقف على الباب ، ثمّ تبادر الغلمان بدخوله الدهليز ، فخرجت مستقبلاً له .

فلمّا استقرّ به مجلسه في داري ، ابتدأت أشكره على إبراره قسمي ، فقال : إنّ أمير المؤمنين ، كان أمرني بالبكور إليه في بعض مهمّاته ، فدخلت إليه ، وقد غلبني الفكر[٣] ، لما فرط منّي إليك ، حتّى أنكر ذلك ، فقصصت عليه قصّتي معك .

فقال : قد أسأت بالرجل ، قم ، فامض إليه ، فاعتذر ممّا قلت له .

قلت : فأمضي إليه فارغ اليد ؟

٣ في غ : غلبني البهر ، والبهر : انقطاع النفس من الإعياء .

قال : فتريد ماذا ؟

قلت : يقضي دينه .

قال : كم هو ؟ .

قلت : ثلثمائة ألف درهم .

قال : وقّع له بذلك .

قلت : فيرجع بعدُ إلى الدين ؟

قال : وقّع له [١٧٠ ر] بثلثمائة ألف درهم أخرى .

قلت : فولاية يشرّف بها .

قال : ولّه مصر [١٦٧ غ] ، أو غيرها ، ممّا يشبهها .

قلت : ومعونة على سفره ؟

قال : وقّع له بثلثمائة ألف درهم ثالثة .

قال : وأخرج التوقيع من خفّه ، بالولاية ، وبتسعمائة ألف درهم ، فدفع ذلك إليّ ، وانصرف[٤] .

[وقد ذكر محمّد بن عبدوس ، في كتاب الوزراء ، [الخبر] على قريب من هذا[٥] .]

---

٤ وردت القصّة في كتاب نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة للقاضي التنوخي برقم ٢/١١١ .

٥ لم يرد هذا السطر في غ .

٣٢٢

جندي تركي تشتدّ إضاقته ثمّ يأتيه الفرج

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه [١٦٨ م] ، [قال : حدّثنا إبراهيم بن القاسم[١]] ، قال :

كان في جيراني ، بالجانب الشرقي ، من مدينة السلام ، رجل من الأتراك ، له رزق في الجند ، فتأخّر رزقه في أيّام المكتفي ، ووزارة العبّاس بن الحسن ، فساءت حاله ، ورثّت هيأته ، حتّى أدمن الجلوس عند خبّاز كان بالقرب منّا ، وكان يستسعفه ، فيعطيه في كلّ يوم خمسة أرطال خبزاً ، يتقوّت بها هو وعياله .

فاجتمع عليه للخبّاز شيئ ، ضاق به صدر الخبّاز معه أن يعطيه سواه ، فمنعه ، فخرج ذات يوم ، فجلس ، وهو عظيم الهمّ ، ثمّ كشف لي حديثه .

وقال : قد عملتُ على مسألة كلّ من يشتري من الخبّاز شيئاً ، أن يتصدّق عليّ ، فقد حملني الجوع على هذا ، وكلّما أردت فعله ، منعتني نفسي منه .

فبينما هو معي في هذا ، إذ جاء رجل بزيّ نقيب ، يسأل عنه ، فدلّ عليه ، فوجده جالساً عند الخباز .

فقال له : قم .

فقال : إلى أين ؟

قال : إلى الديوان ، حتّى تقبض رزقك ، فقد خرج لك ولأصحابك رزق شهرين ، فمضى معه .

فلمّا كان بعد ساعة ، جاءني ، وقد قبض مائتين وأربعين ديناراً .

فرمّ منزله ، وأصلح حاله ، وحال عياله ، وأبتاع دابّةً وسرجاً وسلاحاً ، وقضى دينه ، وخرج مع قائد كان برسمه ، وحسنت حالته .

١ لم ترد هذه الفقرة في غ .

٣٢٣

أحمد بن مسروق عامل الأهواز

يتحدّث عن الفرج الّذي وجده في قانصة البطّة

[وذكر أبو الحسين في كتابه][1] عن الحسين بن موسى ، أخي ابراهيم بن موسى ، قال :

خرجتُ إلى فارس ، في أيّام المعتمد على الله ، فمررت بالأهواز ، والمتقلّد لخراجها أحمد بن مسروق ، فاجتمعنا ، وتذاكرنا حديث الغمّ والفرج[2] ، وما ينال النّاس منهما ، ومن المرض والصحّة .

فحدّثني : أنّه كان في ناحية إسحاق بن إبراهيم[3] ، فلمّا توفّي ، وقدم محمّد بن عبد الله بن طاهر[4] ، تعطّل ، وافتقر ، حتّى لم يبق له شيئ ، وحالفته أمراض كثيرة ، فكان لا يصحّ له بدن يوماً واحداً .

قال : وكان له رفيق ، فخرج الى سرّ من رأى ، فتعلّق بالفتح بن خاقان[5] ، فحسنت حاله .

قال : فكان يكتب إليّ في الخروج إليه ، فيمنعني من ذلك عوز النفقة .

فإنّي لمغموم ، مفكّر في الحال الّتي أنا عليها ، إذ دخل بعض نسائنا ، فلامتني على طول الهمّ والغمّ ، وقالت : كن اليوم عندي ، حتّى أذبح لك

---

١ في غ : وحكي .

٢ كنا في ر وفي غ ، وفي م : حديث الهمّ والفرج .

٣ أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب المصعبيّ ، أمير بغداد : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من الكتاب .

٤ أبو العبّاس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين المصعبيّ : ترجمته في حاشية القصّة ٢٠١ من الكتاب .

٥ أبو محمد الفتح بن خاقان : ترجمته في حاشية القصّة ٣٤٥ من الكتاب .

مخلفة بطّة[6] سمّنت لنا ، وتجتمع مع جواريك ، فيغنّين لك وتتفرّج[7] .

فقلت : نعم ، وجئت إلى منزلها ، وذبحت البطّة ، فإذا قد خرجت إليّ ، ومعها حجر أحمر ، لم تدر ما هو .

فقالت : خرج هذا من قانصة البطّة ، فما هو ؟

قلت : لا أدري ، ولكن هبيه لي حتّى أريه لمن يعرفه .

فقالت : خذه ، فرأيت شيئاً لم أعرفه ، إلّا أني بعثت به إلى صديق لي بباب الطاق[8] ، وسألته أن يبيعه لي .

فقال : نعم ، ثمّ إنّه غسله بماء حار ، وباعه بمائة وثلاثين ديناراً[9] .

فأخذت الدنانير ، واشتريت مركوباً ، وتجهّزت الى سرّ من رأى ، فلزمت أبا نوح[10] ، وباب الفتح بن خاقان ، فنفدت [١٦٨ غ] نفقتي ، وجعل رفيقي ينفق عليّ ، ويقرضني .

فدعاني الفتح بن خاقان يوماً ، وقد يئست منه ، وإذا بين يديه أبو نوح ، فقال : هذا أحمد بن مسروق ؟

قال : نعم .

قال : كيف أنت إن أنفذتك في أمر ، واصطنعتك ؟

قلت : إنّي كنت مع الخراسانيّة كاتباً [١٧١ ر] أعرف جميع الأعمال .

---

٦ كذا وردت في جميع النسخ ، ويقال : أخلف الطير : إذا نبت له ريش بعد الريش ، كذا ورد في لسان العرب ، مادة : خلف ، وفي أساس البلاغة ٢٤٧/١ ، ولعلّ المقصود أنّها بطة عجوز ، وكان المقتضي أن تكون الصفة تابعة للموصوف ، فيقول : بطة مخلفة .

٧ في غ : ونفرح .

٨ محلّة باب الطاق : هي الآن محلّة الصرافية ، راجع حاشية القصّة ١٧ من الكتاب .

٩ في غ : بمائتين وثلاثين ديناراً .

١٠ أبو نوح عيسى بن إبراهيم ، من كبار الكتاب في الدولة العبّاسية : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من الكتاب .

فأدخلني إلى المتوكّل ، فلمّا وقَفت بين يديه ، قال : إنّا ننفذك في أمر هو محنتك ، وبه ارتفاعك أو سقوطك ، فانظر كيف تكون ؟

قال : فقبّلت الأرض ، ووعدت الكفاية به من نفسي .

وخرج [١٦٩ م] الفتح ، ومعه عبيد الله بن يحيى[١١] ، فوقّع لي عبيد الله بأجر ثلاثة آلاف درهم ، مع الشاكرية الّذين يقبضون عشرة أشهر من السنة ، والإستقبال في أوّل شهر يوضع لهم ، ووقّع إلى خازن بيت المال بأن يدفع إليّ ثلاثين ألف درهم معونة .

وكتب كتبي بالنظر في مصالح الأهواز ، وأشياء هناك بالستر والأمانة ، احتيج إلى كشفها ، فسرت اليها ، وبلغت في الأمور ما أحمد .

فصار رسمي أن أقلّد أعمالها ، فمرّة المعونة ، ومرّة الخراج ، ومرّة يجمعان لي جميعاً .

فزالت تلك العلل والأمراض الّتي كانت قد حالفتني ، ولا أعرف لذلك سبباً غير الفرج .

فقال الحسين بن موسى ، لأحمد بن مسروق : على ذكر وجود الحجر في قانصة البطّة : أخبرك أنّي لما سرت في سفرتي هذه ، إلى الموضع المعروف باصطربند[١٢] ، رأيت بستاناً حسناً ، فيه باقلّى وخضرة ، بعقب مطرة ، فاستحسنته فعدلت إليه .

فقال : عساه البستان الّذي فيه الصخرة الّتي كأنّها نابتة .

قلت : هو .

قال : هيه .

---

١١ أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكّل : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من الكتاب .

١٢ اصطربند : قرية بين السيب ودير العاقول من النهراوان الأوسط (وفيات الأعيان ٦/٤١٤ و٤١٦ و٤١٨) .

قلت : فتغدّينا فيه ، وشربنا أقداحاً ، وكنت مستنداً إلى الصخرة ، فلمّا نهضنا ، رأيت في وسط الصخرة نقرة ، قد اجتمع فيها ماء المطر ، فهو في غاية الصفاء .

فوضعت [٧ ن] فمي لأشرب منه ، فتحرّك فيه شيئ ، فنحّيت فمي عنه ، وتأمّلته ، فبدت لي خرقة ، فجذبتها ، فإذا صرّة .

فقال أحمد بن مسروق : صرّتي ، والله ، كان فيها ثلثمائة دينار .

قلت ; نعم ، فمن أين صارت لك ؟ .

قال : مررت بهذا الموضع ، آخر خرجة خرجتُها إلى الأهواز ، فملتُ إلى الموضع ، كما ملتَ ، وكانت هذه الصرّة في يدي ، فوضعتها[١٣] في الحجر ، وأنسيتها وركبت ، ثمّ طلبتها ، فلم أجدها ، ولا علمت أين وضعتها ، إلّا السّاعة ، فذكرتها بحديثك .

قلت : فالدنانير مع غلامي .

قال : خذها ، بارك الله لك فيها ، وأبرأت ذمّتك منها .

١٣ من هنا انقطعت القصّة وما بعدها في غ ، وعادت في آخر القصّة ٣٢٨ ، وضاع ما بينهما من القصص .

٣٢٤

أصلح بين متخاصمين بدرهم

فوهب الله له درّة بمائة وعشرين ألفاً

قال : وذكر أبو الحسين القاضي ، في كتابه ، بإسناد ، قال : حدّث حمّد بن إبراهيم بن عمر البرقي ، قال : حدّثنا العبّاس بن محمّد البرقي ، ل : حدّثنا أبو زيد ، عن الفضيل بن عياض[1] ، قال : حدّثني رجل :

أنّ رجلاً خرج بغزل ، فباعه بدرهم ليشتري به دقيقاً ، فمرّ على رجلين ، كلّ واحد منهما آخذ برأس صاحبه .

فقال : ما هذا ؟

فقيل : يقتتلان في درهم ، فأعطاهما ذلك الدرهم ، وليس له شيءٌ غيره .

فأتى إلى امرأته ، فأخبرها بما جرى له ، فجمعتْ له أشياء من البيت ، فذهب ليبيعها ، فكسدت عليه ، فمرّ على رجل ومعه سمكة قد أروحت[2] .

فقال له : إنّ معك شيئاً قد كسد ، ومعي شيءٌ قد كسد ، فهل لك أن تبيعني هذا بهذا ؟ فباعه .

وجاء الرّجل بالسمكة إلى البيت ، وقال لزوجته : قومي فأصلحي أمر هذه السمكة ، فقد هلكنا من الجوع .

فقامت المرأة تصلحها ، فشقّت جوف السمكة ، فإذا هي بلؤلؤة ، قد خرجت من جوفها .

---

١ أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي (١٠٥-١٨٧) : شيخ الحرم المكّي ، من أكابر العبّاد الصلحاء ، ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد ، ودخل الكوفة وهو كبير ، وسكن في مكّة ، وتوفّي بها (الاعلام ٥/٣٦٠) .

٢ أروح اللحم : تغيّرت رائحته ، أي أنتن .

فقالت المرأة : يا سيّدي ، قد خرج من جوف السمكة شيءٌ أصغر من بيض الدجاج ، وهو يقارب بيض الحمام .

فقال : أريني ، فنظر إلى شيءٍ ما رأى في عمره مثله ، فطار عقله ، وحار لبّه .

فقال لزوجته : هذه أظنّها لؤلؤة .

فقالت : أتعرف قدر اللؤلؤة .

قال : لا ، ولكنّي أعرف من يعرف ذلك ، ثمّ أخذها ، وانطلق بها إلى أصحاب اللؤلؤ ، [١٧٢ ر] إلى صديق له جوهريّ ، فسلّم عليه ، فردّ عليه السلام ، وجلس إلى جانبه يتحدّث ، وأخرج تلك البيضة .

وقال : أنظر كم قيمة هذه ؟

قال : فنظر زماناً طويلاً ، ثمّ قال : لك بها عليّ أربعون ألفاً ، فإن شئت أقبضتك المال الساعة ، وإن طلبت الزيادة ، فاذهب بها إلى فلان ، فإنّه أثمن بها لك منّي .

فذهب بها إليه ، فنظر إليها واستحسنها ، وقال : لك بها عليّ ثمانون ألفاً ، وإن شئت الزيادة ، فاذهب بها إلى فلان ، فإنّي أراه أثمن بها لك منّي .

فذهب بها إليه ، فقال : لك بها عليّ مائة وعشرون ألفاً ، ولا أرى أحداً يزيدك فوق ذلك شيئاً .

فقال : نعم ، فوزن له المال ، فحمل الرّجل في ذلك اليوم أثنتي عشرة بدرة ، في كلّ بدرة عشرة آلاف درهم ، فذهب بها إلى منزله ، ليضعها فيه ، فإذا فقير واقف بالباب ، يسأل..

فقال : هذه قصّتي الّتي كنت عليها ، أدخل ، فدخل الرّجل .

فقال : خذ نصف هذا المال ، فأخذ الرّجل الفقير ، ستّ بدر ، فحملها ، ثمّ تباعد غير بعيد ، ورجع إليه .

وقال : ما أنا بمسكين ، ولا فقير ، وإنّما أرسلني إليك ربّك عزّ وجلّ ،

الّذي أعطاك بالدرهم عشرين قيراطاً[3] ، فهذا الّذي أعطاك ، قيراط منه ، وذخر لك تسعة عشر قيراطاً[4] .

---

٣ القيراط : واحداً من عشرين من الدرهم أو الدينار (مفاتيح العلوم ٤١) .

٤ لا توجد في غ .

٣٢٥

يحيى البرمكي يتحدّث

عن عارفة في عنقه ليعقوب بن داود

وذكر أبو الحسين القاضي ، في كتابه ، قال :

روي أنّ خالد بن برمك[1] ، قال [١٧٠ م] لابنه يحيى ، في إضاقة نالته : قد ترى ما نحن فيه ، فلو لقيت يعقوب بن داود ، وشكوت إليه ما نحن فيه .

فأتى يعقوب بن داود[2] ، فذكر له ذلك ، فسكت عنه ، فانصرف يحيى ، وهو مكروب ، آيس من خيره ، فأخبر أباه .

فقال : افتضحنا ، فياليت أنا لم نكن كشفنا له خبرنا .

قال : فركب يحيى بن خالد من غد ، فلقيه بعض إخوانه ، فقال : ما زال يعقوب بن داود يطلبك طلباً شديداً ، فمضى إليه .

فقال له يعقوب : أين كنت ؟ والله ، إنّك أوردت على قلبي ما شغله بالفكر في إصلاحه ، وقد عنّ لي أمر رجوت به صلاح حالك ، إمض بنا إلى الديوان ، فسار معه إليه .

فقال يعقوب : عليّ بتجّار السواد ، فأحضروا .

فقال : أشركوا أبا علي معكم بالثلث فيما تبتاعونه من غلّة السلطان[3] ، ففعلوا .

---

١ خالد بن برمك (٩٠–١٦٣) : أبو البرامكة ، سخي ، سري ، عاقل ، نبيل ، ولاّه السفّاح ديوان الخراج ، ثم ديوان الجند ، وقلّده المنصور فارس ، ثم عزله ونكبه ، ثم ولاّه الموصل ، وأعاده المهدي إلى ولاية فارس (الأعلام ٢/٣٣٤) .

٢ أبو عبد الله يعقوب بن داود بن عمر السلمي : ترجمته في حاشية القصّة ٢٠٤ من الكتاب .

٣ غلّة السلطان : كان السلطان يستوفي حصّته من المزروع عيناً ، ثم يعرضها للبيع .

فقال : لعلّ ذلك يشقّ عليكم ؟

فقالوا : أجل .

فقال : أخرجوه ، بربح تجعلونه له .

فأخرجوه بربح ستّين ألف دينار ، فصلحت حاله ، وحال أبيه ، ومضى إليه بالمال[4] .

٤ لم ترد هذه القصّة في ر ولا في غ .

٣٢٦
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

وذكر محمّد بن عبدوس ، في كتاب الوزراء ، هذا الخبر بخلاف هذا ، فقال : حكى يحيى بن خاقان ، قال[١] :

كنت يوماً عند يحيى بن خالد ، وبحضرته ابنه الفضل ، إذ دخل عليه أحمد بن يزيد ، المعروف [بابن] أبي خالد[٢] ، فسلّم وخرج .

فقال يحيى للفضل : في أمر هذا الرّجل ، خَبَرٌ ، فإذا فرغنا من شغلنا فأذكرني به ، حتّى أعرّفك ، فلمّا فرغ من عمله ، أذكره .

فقال : نعم ، كانت العطلة ، قد بلغت منّي ، ومن أبي ، وتوالت المحن علينا ، حتّى لم نهتد إلى ما ننفقه .

فلبستُ ثيابي يوماً ، لأركب ، فقال لي أهلي : إنّ هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوء حال ، وأنا ما زلت أعلّلهم بما لا علالة فيه ، وأصبحتُ ، وما لهم شيء ، وما لدابّتك علف .

فقرعَتْ قلبي ، وقطعتني عن الحركة ، ورميت بفكري ، فلم يقع إلّا على منديل طبريّ ، كان بعض البزّازين أهداه إليّ .

فقلت : ما فعل المنديل الطبريّ[٣] ؟

فقالت : ها هو .

فأخرجته إلى الغلام وقلت له : اخرج إلى الشارع ، فبع هذا المنديل ،

---

١ لم ترد هذه القصّة في ر ولا في غ .

٢ أبو العبّاس أحمد بن أبي خالد الأحول ، وزير المأمون : ترجمته في حاشية القصّة ٨١ من هذا الكتاب .

٣ من خصائص طبرستان : المناديل الخيش ، والدراهم تحمل إليها من الآفاق لاستجلاب مناديل الخيش منها (لطائف المعارف ١٨٦) .

فمضى ، وعاد من ساعته ، فقال : خرجت إلى البقال الّذي يعاملنا ، وعنده رجل ، فأعطاني بالمنديل إثني عشر درهماً صحاحاً ، وقد بعته بشرط ، فإن أمضيتَ البيع ، وإلّا أخرجتُ المنديل إلى سوق قنطرة البردان ، واستقصيت فيه ، كما تحبّ .

فأمرته بإمضاء البيع للحال الّتي خبّرتني بها المرأة ، وأن يشتري ما يحتاج إليه الصبيان ، وعلفاً للدابة ، وركبت ، لا أدري إلى أين أقصد .

فأنا في الشارع ، وإذا أنا بأبي خالد ، والد هذا ، ومعه موكب عظيم ضخم ، وهو يومئذ يكتب لأبي عبيد الله ، كاتب المهدي ، فملت إليه ، ورميت نفسي عليه .

وقلت له : قد تناهت العطلة بأخيك ، وبي ، إلى ما لا نهاية وراءه ، وعليّ ، وعليّ ، إن لم تكن قصّتي في يومي هذا ، كيت وكيت ، وقصصت عليه الخبر ، وهو مستمع لذلك ، ماض في سيره ، فلمّا بلغ مقصده [١٧٣ ر] ، انصرفت عنه ، ولم يقل لي حرفاً .

فانصرفت منكسف البال ، منكراً على نفسي إسرافي في الشكوى ، وإطلاعي إيّاه على ما أطلعته عليه .

وقلت : ما زدت على أن فضحت نفسي ، وقلّلتها في عينه من غير نفع .

ووافيتُ منزلي على حال أنكرتها أهلي ، فسألتني [١٧١ م] .

فقلت : جنيت اليوم على نفسي جناية كنتُ عنها غنيّاً ، وقصصت عليها قصّتي مع يزيد .

فأقبلت توبّخني ، وقالت : ما حملك على أن أظهرت للرّجل حالك ؟ فإنّ أقلّ ما في ذلك ، أن لا يأتمنك على أمر ، فإنّ من تناهت به الحال إلى ما ذكرت ، كان غير مؤتمن ، فنالني من توبيخها ، أضعاف ما نالني أوّلاً .

وأصبحنا في اليوم الثاني ، فوجّهت بأحد ثوبيّ [٨ ن] ، فبيع ، وتبلّغنا بثمنه يومنا .

وأصبحنا في اليوم الثالث ، ونحن في غاية الضيقة ، فطوينا يومنا وليلتنا .

فلمّا كان اليوم الرابع ، ضاقت نفسي ، وقلّ صبري ، وضعفت قوّتي ، واخترتُ الموت على الحالة الّتي أنا فيها .

فقالت لي أهلي : أنا خائفة عليك من الوسواس ، فيكون ما نحتاج لعلاجك ، أضعاف ما نحتاج لمؤونتنا ، فسهّل الأمر عليك ، ولا تضجر ، ولا تقنط من رحمة الله ، فإنّ الله عزّ وجلّ ، الصانع ، المدبّر ، الحكيم .

قال : فركبت ، لا أدري أين أقصد ، فلمّا صرت إلى قنطرة البردان ، لقيني رسول أبي خالد يطلبني ، فدخلت داره .

فقال لي حاجبه : اجلس ، فأقمت ، وخرج مع الزوال ، فدنوت منه .

فقال : يا ابن أخي ، شكوت إليّ بالأمس ، شكوى ، لم يكن في جوابها إلّا الفعل ، وأمر بإحضار حميد ، وداهر ، تاجرين كانا يبيعان الطعام .

فقال لهما : قد علمتما أنّي إنّما بعتكما البارحة ، ثلاثين ألف كرّ ، على أنّ ابن أخي هذا شريككما فيها [بالسعر][4] .

ثمّ قال : لك في هذه عشرة آلاف كر [بالسعر][4] ، فإن دفعا إليك ثلاثين ألف دينار[5] ربحك ، وآثرت أن تخرج إليهما من حصّتك ، فعلتَ ، وإن آثرت أن تقيم على ابتياعك ، فعلتَ .

قال : فتنحّينا ناحية ، وقالا : إنّك رجل شريف ، وابن شريف ، وليست التجارة من شأنك ، ومتى أقمت على الابتياع ، احتجت إلى كفاة وأعوان ، ولكن خذ منّا ثلاثين ألف دينار[5] ، وخلّنا والطعام .

فقلت : قد فعلتُ ، وقمت إلى أبي خالد ، فقلت : قد أجبتهما إلى أخذ المال ، وتركهما والطعام .

---

٤ الزيادة من م .

٥ في م : خمسين ألف دينار .

فقال : هـذا أروح لك ، فخذ المال ، وتبلّغ به ، والزمنا ، فإنّا لا نقصّر في أمرك بكلّ ما يمكننا .

فأخذت من الرّجلين ثلاثين ألف دينار° ، وما كان بين ذلك ، وبين بيع المنديل والثّوب ، إلّا أربعة أيّام .

فسرت إلى أبي ، وخبّرته الخبر ، وقلت له : جعلت فداك تأمر في المال بأمرك ؟

فقال : نعم ، أحكم عليك فيه ، بمثل ما حكم أبو خالد به على التاجرين ، أي أنّ الثلث لي .

فحملت إليه عشرة الآلاف دينار ، واشتريت بعشرة الآلاف دينار ضيعة[٦] ، ولم أزل أنفق الباقي ، إلى أن أدّاني ذلك إلى هذه الحال ، وإنّما حدّثتك بهذا ، لتعرف – يا بنيّ – للرّجل حقّه .

فقلت ليحيى بن خاقان : فما الّذي كان من يحيى بن خالد إلى أحمد بن أبي خالد ؟

قال : ما زال هو وولده ، على نهاية البرّ به ، حتّى نال ما نال من الوزارة ، بذلك الأساس الّذي أسّساه[٧] .

وقرئ على أبي بكر الصولي ، بالبصرة ، سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، بإسناد ، وأنا حاضر ، في كتابه « كتاب الوزراء » حدّثكم عون بن محمّد الكندي ، عن إبراهيم بن الحسن بن سهل ، قال : سمعت أهلي يتحدّثون : أنّ يحيى بن خالد البرمكي ، قال : نالتني خلّة في أيّام المهدي ، فجئت إلى يزيد الأحول ، أبي خالد ، وكان يكتب لأبي عبيد الله ، فأبثثته حالي ، فما أجابني ، ولا أقبل عليّ ، فتأخّرت نادماً ، ثمّ جاءني [١٧٤ ر] رسوله من

---

٦ في ر : عقدة ، والعقدة : العقار المعتقد ، أي المقتنى ملكاً .

٧ لم ترد هذه الفقرة المنقولة عن الجهشياري في غ .

الغد ، فصرت إليه .

فقال لي : إنّك شكوت إليّ شكوى لم يكن جوابها الكلام والتوجّع ، وقد بعتُ جماعة من التجّار ، ثلاثين ألف كرّ ، من غلّات السواد ، واشترطت لك ربع [١٧٢ م] الرّبح ، فخذ كتابي هذا إليهم ، فإن أحببت أن تصبر إلى أن تباع الغلّة ، توفّر ربحك ، وإن ناظرت التجّار ، وخرجت من حصّتك بربح عاجل ، فأقلّ ما يبذلونه لك ثلاثون ألف دينار ، فدعوت له .

ولقيت القوم ، فقالوا : أنت رجل سلطان ، ولا يتهيّأ لك ما نفعل نحن من الصبر على الغلّة ، وانتظار الأسعار ، فهل لك أن تخرج منها بربح ثلاثين ألف دينار معجّلة ؟

فقلت : نعم ، فقبضتها في يوم واحد ، وانصرفت[8] .

وذكر أبو الحسين في كتابه ، قال : حدّث محمّد بن أحمد بن الخصيب ، قال : حدّثني من سمع أحمد بن أبي خالد الأحول ، يحدّث ، قال :

كان السلطان قد جفا خالد بن برمك ، واطّرحه ، حتّى نالته إضاقة شديدة ، وكاد أن ينكشف .

فحدّثت أن يحي بن خالد أصبح يوماً ، فخرجت إليه امرأته ، أمّ الفضل ابنه ، فقالت له : ما أصبح اليوم في منزلك دقيق ، ولا علف للدابّة ، ولا نفقة لشيئ .

فقال لها : بيعوا شيئاً من البيت .

قالت : ما بقي في البيت ما له قدر ، ولا ما يمكن بيعه .

فقال : قد كان فلان ، أهدى إلينا منديلاً فيه ثياب ، فبعنا الثياب ، فما فعل المنديل ؟

قالت : باقٍ .

---

٨ لم ترد هذه الفقرة المنقولة عن الصولي في غ .

قال : فبيعوه .

فبعثت به إلى سوق قنطرة البردان ، فبيع بنيف وعشرين درهماً ، فأنفقوها أيّاماً .

ثمّ خرجت إليه ، فقالت : ما قعودك ؟ ما عندنا نفقة ، ولا دقيق ، ولا علف للدابّة .

فركب يحيى ، فكان أوّل من لقيه أبو خالد الأحول ، فشكا إليه ما هو فيه ، فأمسك ، ثمّ أجابه بجواب ضعيف .

وانصرف يحيى إلى منزله ، وقد كاد يتلف غمّاً وندماً ، ولام زوجته ، وأقام أيّاماً لا يركب ، وزوجته تحتال فيما تنفق .

ثمّ حرّكته على الركوب ، وشكت إليه انقطاع الحيلة ، وتعذّر القوت ، فركب ، فلمّا صار في بعض الطريق ، لقيه أبو خالد .

فقال له : صرت إليّ ، وسألتني أمراً ، حتّى إذا أحكمته لك ، تركت تنجّزه .

فقال : كرهت التثقيل عليك .

فقال : إنّك شكوت إليّ أمرك ، فغمّني ، وذكرته لأبي عبيد الله ، فتقدّم إليّ فيه بأمر ، ثمّ لم تصر إليّ ، فتعال معي الآن إلى الديوان .

قال يحيى : فمضيت معه إلى الديوان ، فأحضر التجّار المبتاعين لغلّات الأهواز ، فقال لهم : هذا الرّجل الّذي جعل له الوزير سهماً معكم فيما ابتعتموه فحاسبوه على ما بينكم وبينه .

قال يحيى : فأخذ التجّار بيدي إلى ناحية ، فواقفوني ، على ربح خمسين ألف دينار ، وأن أدعهم والغلّة ، فما برحتُ ، حتّى راج لي المال ، وحملته إلى منزلي .

وعرّفت أبي الحال ، فأخذ من المال عشرين ألفاً ، وقال : هذه تكفيني

لنفقتي ، إلى أن يفرّج الله تعالى عنّي ، والباقي لك ، فإنّ عيالك كثير .

قال أحمد بن أبي خالد : فرعى لي القوم ذلك ، يعني البرامكة ، فلمّا صار الأمر إليهم ، أشركوني في نعمتهم ، وكان آخر ما وليت لهم جند الأردن .

وانصرفت إلى مدينة السلام ، وقد سخط الرّشيد على يحيى ، ومعي من المال ستّة آلاف دينار ، فتوصّلت إلى أن [١٧٥ ر] دخلت إليه في الحبس ، فتوجّعت له ، وعرضت عليه المال .

فقال : لست أجحف بك ، احمل إلينا منه ثلاثة آلاف دينار ، وكتب رقعة ، بخطّ لا أعرفه ، ثمّ أتربها ، ثمّ قطعها نصفين ، فجعل أحدهما تحت [١٠ ن] مصلّاه ، ودفع إليّ الآخر .

وقال : أمرنا قد ولّى ، ودولتنا قد انقضت ، وهذا الخليفة سيموت ، وستقع فتنة يطول فيها الأمر بين خليفتين ، يكون الظاهر منهما صاحب المشرق ، وسيكون [١٧٣ م] لغلام ، يقال له الفضل بن سهل ، معه حال ، فإذا بلغك ذلك ، فادفع إليه هذا النصف من الرقعة ، فإنّك ستبلغ بها ما تحبّ عنده .

قال أحمد بن أبي خالد : فخرجت من عنده ، وأنا أندم النّاس على إخراجي من يدي ثلاثة آلاف دينار ، إلى رجل قد نعى نفسه إليّ ، فاحتفظتُ بنصف الرقعة .

ومضت الأيّام ، وولي محمّد المخلوع ، ووقعت الفتن ، ولزمتني عطلة ، ودامت ، حتّى رقّت حالي ، واشتدّ إختلالي .

ودخل طاهر مدينة السلام ، فإنّي ذات يوم متفكّر في أمري ، متحيّر فيما أعمله ، سمعت قرع الباب عليّ .

فقلت لزوجتي : أخرجي إلى الدهليز ، وأعرفي الخبر ، ولا تتكلّمي ، ولا تفتحي ، فمضت ، وجاءت مذعورة .

وقالت : ما أدري ، على الباب جماعة من الشرط والمسوّدة[9] ونفّاطات .

فخرجت ، ووقفت خلف الباب ، وقلت : من هذا ؟

فقالوا : هذا منزل أحمد بن أبي خالد الأحول ؟

فقلت : نعم .

فقالوا : نحن رسل الأمير طاهر بن الحسين إليه .

فقلت : لعلّكم غلطتم ، ما يريد الأمير من مثله ؟

فقال بعضهم : يا هذا ، إنّا جئنا في أمر يسرّه ، فأعلمه إيّاه ، وأنّه لا بأس عليه .

قال : وظنّني غلاماً في الدار ، فسكنت إلى هذا القول ، ورجعت إلى مجلسي من الدار ، وأنفذت جارية سوداء كانت لي ، حتّى تفتح الباب .

فدخل قائد جليل ، وبرك بين يدي ، وقال : أنت – أعزّك الله تعالى أحمد بن أبي خالد ؟

قلت : نعم .

قال : الأمير يسألك أن تصير إليه الساعة .

قال : فأردت أن أسبر الأمر الّذي دعيت إليه ، أخير هو أم شرّ .

فقلت : أدخل ، وألبس ثيابي .

قال : افعل .

قال : فدخلت ، وأوصيت زوجتي فيما أحتاج إليه ، وعلمت أنّه لا بأس عليّ ، ولبست مبطّنتي ، وطيلساني[10] ، وشاشيتي[11] ، وخفّي ، ثمّ خرجت .

---

٩ المسوّدة : لابسوا السواد ، أي الجنود العباسيّة .

١٠ الطيلسان : راجع حاشية القصّة ١٦٣ من الكتاب .

١١ الشاشية : تطلق الكلمة على الطاقية التي تقوم مقام القلنسوة ، وقد تطلق على ملاءة من القماش الرّقيق تلفّ على الطاقية ، للتفصيل راجع معجم دوزي للألبسة ٢٤٠–٢٤٤ .

فقلت : ليس لي مركوب .

قال : فاركب من جنائبي[12] ، فركبت دابّة قدّمها إليّ ، وصرت إلى طاهر ، فسلّمت عليه ، فساعة رآني ، قال : أنت أحمد بن أبي خالد الأحول ؟

قلت : نعم .

فألقى إليّ كتاباً في نصف قرطاس ، بخطّ الفضل بن سهل ، وكان أوّل كتاب رأيته ، لأبي فلان ، من فلان ، فإذا عنوانه : لأبي الطيّب أعزّه الله تعالى ، من ذي الرياستين ، الفضل بن سهل ، وصدره : أعزّك الله ، وأطال بقاءك ، أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، بأن تتقدّم ساعة وصول كتابي هذا ، بطلب أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب ، حيثما كان من أقطار الأرض[13] ، فتحضره مجلسك ، وتصله بخمسين ألف درهم ، وتحمله على عشرين دابة من دوابّ البريد ، إلى باب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مصوناً ، ولا ترخّص له في التأخّر ، [فرأيك – أعزّك الله – في العمل بذلك ، موفّقاً ، إن شاء الله تعالى ، وكتب في يوم كذا من شهر كذا][14] .

قال : فلمّا قرأت الكتاب ، اشتدّ سروري ، وقلت : آخذ فيما أحتاج إليه ، وأنهض .

فقال : ما إلى تأخّرك سبيل ، هذا المال ، وهذه الدوابّ ، وتخرج الساعة .

فقلت : أكتب إلى منزلي بما أحتاج إليه ، وأخذتُ المال ، وحملت أكثره [١٧٦ ر] إليهم ، وكاتبتهم بما أحتاج إليه .

وذكرتُ الرقعة الّتي من يحيى بن خالد ، فأمرتهم بإنفاذها إليّ ، وطلبت قماشاً قليلاً ممّا لا بدّ منه .

---

١٢ الجنيبة ، وجمعها جنائب : الدابّة تقاد إلى جانب الراكب .

١٣ في ر : من أقطار بغداد وأعمالها .

١٤ الزيادة من م .

فعاد الجواب بوصول المال ، وأنفذوا النصف من الرقعة ، وما طلبت من القماش ، وشخصت من دار طاهر ، سَحَرَ تلك الليلة .

فما مررت بمدينة إلّا خُدِمْتُ فيها أتمّ خدمة ، إلى أن وافيت الريّ ، فلقيني رجل ذكر لي أنّ ذا الرياستين أنفذه لتلقّي ، والقيام [١٧٤ م] بمصالحي إلى أن أوافي حضرته ، فلم يزل قائماً بما أحتاج إليه ، ويحضّ كلّ من أجتاز به على تفقّدي وخدمتي إلى أن وافيت باب الفضل بمرو ، ومعي صاحبه ، وصاحب طاهر .

فوقفتُ بباب الفضل طويلاً إلى أن تفرّغ ، ودعاني ، فدخلت ، وهو في قبة أدم ، وعليه سواد ، وحوله السلاح كلّه ، وبين يديه جحفة فيها كتب .

فلمّا مثلت بين يديه ، قال لي : أنت أحمد بن أبي خالد الكاتب ؟

فقلت : نعم .

قال : انصرف إلى منزلك ، وارجع إلينا بعد ثلاثة أيّام في سواد ، لأدخلك على أمير المؤمنين .

فولّيت من بين يديه ، وأنا لا أدري إلى أين أمضي ، وإذا خادم قد لحقني ، وأخذ بيدي ، وخرج معي ، حتّى سار إلى دار قد أعدّت لي ، وفيها كلّ ما أحتاج إليه من فرش ، وآلة ، وكسوة ، وغلمان ، ودوابّ ، وقماش ، وغير ذلك من الأطعمة والأشربة ، فجعل يعرّفني ما تحت يد كلّ غلام ، ثمّ قال : هذا كلّه لك ، وانصرف ، فأقمت في كلّ نعمة وسرور ، ثلاثة أيّام .

ثمّ غدوت في اليوم الرّابع في سواد[١٥] ، فألفيت ذا الرياستين خارجاً من داره ، فترجّلت ، ودنوت ، فأعطاني طرف كمّه فقبّلته ، ثمّ أمرني بالركوب ، فركبت ، وسرت في موكبه ، حتّى وافى دار المأمون ، فثنى رجله ، ونزل في محفّة معدّة له ، فجلس فيها ، وحمله القوّاد على أعناقهم ، حتّى أجلسوه مع

---

١٥ كان من آيين الخلافة ، أن لا يدخل أحد على الخليفة في أيّام الموكب ، إلاّ بسواد .

المأمون على السرير ، فمكثت غير بعيد .

فجاء خادم فدعاني ، فدخلت ، والفضل والمأمون على السرير ، وكلّ واحد منهما مقبل على صاحبه .

فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، هذا أحمد بن أبي خالد ، كانت كتبه ترد علينا من مدينة السلام بأخبار المخلوع ، في وقت كذا ، وفي وقت كذا ، وقد وفد على أمير المؤمنين وهو من اليسار ، وحسن الحال ، على أمر يقصر عنه الوصف ، وهو يعرض نفسه ، وماله ، على أمير المؤمنين ، يريد أنّه متى خلا بي ، فسألني عن شئ ، كنت قد عرفته .

قال أحمد : فشيّعت كلامه بما حضرني [١١ ن] .

فقال المأمون : بل ، قد وفّر الله تعالى عليه ماله ، ونضيف إليه أمثاله .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ويشرك بينه وبين خدم أمير المؤمنين ، في تقلّد الأعمال .

قال : نعم .

قال : ويولّى ديوان التوقيع ، وديوان الفضّ والخاتم .

قال : افعل .

قال : ويخلع عليه خلعة هذه الأعمال .

قال : نعم .

قال : وصلة يعرف بها موقعه من أمير المؤمنين .

قال : نعم .

قال أحمد : فما برحت ، حتّى أنجز لي كلّ ذلك ، وانصرفت .

فلمّا كان بعد عشرين يوماً بعث إليّ في اللّيل ، فعلمت أنّه لم يحضرني في هذا الوقت ، إلّا ليسألني عن الرقعة ، فجعلتها في خفّي ، وصرت اليه ، وإذا هو جالس ، والحسن أخوه إلى جانبه .

فقال لي : يا أبا العبّاس ، كانت بينك وبين شيخنا أبي علي رضي الله عنه حرمة ؟

قلت : نعم ، وأيّ حرمة .

فقال : ما هي ؟

فقصصت عليه كيف كانت قصّة أبي معه ، ثمّ وصلت ذلك بخبري ، إلى أن انتهيت إلى حديث الدنانير ونصف الرّقعة .

فقال : أين هي ؟

فأخرجتها من خفّي ، فدفعتها إليه ، فرفع مصلّاه ، فإذا النصف الّذي كان يحيي بن خالد رحمه الله ، جعله تحت مصلّاه ، فقرن بينهما ، والتفت إلى أخيه وقد دمعت عيناه .

فقال : هذا خطّ [١٧٧ ر] أبي علي رضي الله عنه ، ثمّ قال : أقرأت ما فيها ؟ .

قلت : لا .

قال : فيها « أمتعني الله بك – يا بنيّ – طويلاً ، وأحسن الخلافة عليك ، قد وجب عليّ من حقّ أبي العبّاس أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب ، في الحال الّتي أنا عليها ، ما قد [١٧٥ م] أثقلني ، وأعجزني عن مكافأته ، إلى غير ذلك ممّا أعتدّ به لسلفه ، ونجمنا قد أفل ، وأمرنا قد انقضى ، ودولتك قد حضرت ، وجدّك قد علا ، فأحبّ أن تقضي عنّي حقّ هذا الفتى ، إن شاء الله تعالى .

قال أحمد بن أبي خالد : فلم أزل مع الفضل ، تترقّى حالي ، واختصّ بخدمة المأمون ، إلى أن دارت الأيّام ، واستكتبني المأمون ، وزادت النعمة ، ونمت ، والحمد لله على ذلك[١٦] .

---

١٦ لم ترد في غ .

وذكر محمّد بن عبدوس في كتابه « كتاب الوزراء » في أخبار أحمد بن أبي خالد ، قال :

كان سبب اتّصاله بالمأمون ، أنّ الرّشيد لما سخط على البرامكة ، واتّصل خبرهم ، وما هم فيه من الضيق ، بأحمد بن أبي خالد ، شخص نحو الرقّة ، فوافاها وقد أمر الرّشيد بمنع حاشيتهم من الدخول إليهم .

فلم يزل يحتال حتّى وصل إلى يحيي ، فانتسب له ، وعرّفه أنّه قصده لخدمته .

فرحّب به يحيي وأعلمه أنّه كان يحبّ أن يقصده في وقت إمكان الأمور ، ليبلغ من مكافأته وتحقيق ظنّه حسب رغبته .

فشكره أحمد ، وسأله قبول شيءٍ حمله معه ، وإن كان يسيراً ، وضرع إليه .

فدفعه يحيي عنه ، وقال : نحن في كفاية .

فألحّ أحمد عليه ، وأعلمه أنّه لا يثق بقبول انقطاعه إليه إلّا بإجابته إلى ما سأل .

فسأله يحيي عن مقدار ذلك ، فقال : عشرة آلاف درهم .

فقال : ادفعها إلى السجّان .

وقال لأحمد : إنّ حالنا حالٌ لا نرجو معها بلوغ مكافأتك ، ولكنّي سأكتب لك كتاباً إلى رجلٍ سيقوم بأمر الخليفة الّذي يملك خراسان ، فأوصل إليه كتابي ، فسيقوم بقضاء حقّك .

ثمّ كتب له في قريطيس كتاباً ، وطواه ، ووضع عليه خاتمه ، فانصرف أحمد إلى منزله .

فلمّا قلّد الفضل بن سهل أمر المأمون ، قصده أحمد بن أبي خالد ، فوصل إليه في دار المأمون .

فلمّا فرغ من أعماله ، أوصل إليه الكتاب ، فأنكر وجهه ، وسأله عن صاحب الكتاب ، فقال : يقرأه الأمير – أطال الله بقاءه – فإنّه سيعرفه .

فلمّا فضّه ، ونظر إلى الخطّ استبشر ، ثمّ استدنى أحمد بن أبي خالد ،

وأعلمه إنّه من أعظم خلق الله منّةً عليه ، وأوجبهم حقّاً ، وأمره بالمصير إلى منزله .

فصار أحمد بن أبي خالد إلى دار الفضل ، فلمّا وصل إليه فيها ، عانقه ، وقبّله ، وقال : أوجبت – والله – عليّ حقّاً .

وسأله عن خبر الكتاب ، فذكره له ، فوعده ببلوغ المحبّة ، وأمر بإنزاله منزلاً يتّخذ له ، ويفرش بما يحتاج إليه ، ووجّه بحاجبه ، وبعض خدمه ، ومعهم تخوت ثياب ، وخمسون ألف درهم ، واعتذر إليه ، وأمره بالاستعداد للوصول إلى المأمون ، ثمّ أوصله إليه ، ووصفه له ، وقرّظه .

ولم يزل يقوم بحاله عنده ، حتّى أمر المأمون بتصريف أحمد بن أبي خالد ، وأجرى له الأرزاق والأنزال ، وأجراه في الوصول إليه مجرى الخاصّة ، وقلّده من أعمال خراسان ، وما وراء النهر ، أعمالاً جليلة ، وتمكّنت حاله عنده[١٧] .

قال محمّد بن عبدوس : وحدّثني علي بن أبي عون ، قال : حدّثني أبو العبّاس بن الفرات ، قال : حدّثني علي بن الحسن ، قال : حدّثني محمّد بن عمر الجرجاني الكاتب[١٨] : وذكر من خبر أحمد بن أبي خالد ويحيى بن خالد مثل الّذي ذكره يحيى بن خاقان ، وزاد فيه :

إنّ أحمد بن أبي خالد لم يحظ من أيّام يحيى بن خالد بشيء ، وإنّه لزمه عند حبسه ، فلمّا حضرته الوفاة زوّده كتاباً إلى الفضل بن سهل [٩ ن] يعتذر إليه فيه من ولاية ما أولاه ، ويسأله مكافأته عنه ، وأنّه احتفظ بالكتاب مدّة أيّام الرّشيد ، وصدراً من أيّام محمّد ، وساءت حال أحمد بن أبي خالد ، وعظم فقره جدّاً ، واشتدّت عليه العطلة والخلّة ، فلمّا أنفذ محمّد الأمين علي بن عيسى بن ماهان ، لمحاربة طاهر ، عمل أحمد على اتّباع عسكره .

---

١٧ انفردت بها ن .

١٨ محمد بن عمر الجرجاني : روى له المرزباني في الموشّح ، راجع ص ٨٥ ، ٤٤٤ ، ٤٩٤ .

قال محمّد بن عمر الجرجاني : فجاءني يذكر ما عزم عليه ، ويصف إفراط خلّته ، وقصور حيلته ، وسألني أن أسأل سلاماً الأبرش ، لمودّة كانت بينه وبين أبيه ، أن يعينه بمركوب وبألفي درهم .

فقصدت سلاماً ، وسألته في ذلك ، فقال : والله ، لو كان لي بعدد الذباب دوابّ ، ما أعطيته شعرة من ذنب واحد منها ، ولو كان عندي بقدر رمل عالج عَيْنٌ وَوَرِقٌ ، ما أعطيته منها حبّة .

فانصرفت إليه – وقد كان أقام في منزلي ، ينتظر ما يجري – فأخبرته بما قال ، وحلفت له أنّي ما أملك إلّا دابّة ، وبغلة ، وأربعمائة درهم ، فليأخذ منها ما شاء .

فقال : أنت إلى الدابّة في الحضر أحوج ، وأنا إلى البغلة في السفر أحوج ، فأعطنيها ، وأنت مقيم ، وأنا مسافر ، وتقدر – أنت – أن تحتال لنفسك نفقة ، وأنا لا أقدر ، فأعطني أربعمائة الدرهم كلّها .

فدفعتها إليه مع البغلة ، وصحب عسكر علي بن عيسى .

فلمّا حدث على عليّ ما حدث ، صار إلى الفضل ، فأوصل إليه الكتاب ، فقرأه ، وسرّ نهاية السرور ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأنكر عليه تأخّره إلى ذلك الوقت .

وقال : ما أعرف شيئاً أقضي به حقّك ، إلّا أن أشركك في أمري ، وأقلّدك العرض على أمير المؤمنين خلافة لي .

فقلّده ذلك ، وكبر أمره .

ولم يزل أحمد بن أبي خالد ، يضرّب على سلام الأبرش ، ويغري به المأمون ، إلى أن قال له : قد وهبت لك دمه ، وجميع ما يملكه .

فقبض عليه ، وقبض منه ما قيمته أربعة آلاف ألف درهم ، ودعا بالسيف والنطع ، وأمر بضرب عنقه ، بعد أن قرّعه بما كان منه عند مسألة محمّد بن عمر الجرجاني في أمره .

ثمّ أعرض عن قتله ، وأمر بحبسه ، وقال للمأمون : إنّي كرهت أن أتجاوز مذهب أمير المؤمنين في العفو ، فاستصوب رأيه .

وترقّت أحوال أحمد بن أبي خالد ، إلى أن تقلّد وزارة المأمون .

قال محمّد بن عمر الجرجاني : وحدثت الفتن بعد ذلك ببغداد ، وتشرّد أهلها عنها ، فهربت إلى إخوان كانوا لي بالكوفة ، فأقمت عندهم ، واستطبت البلد ، فسكنته ، وأبتعت بجميع ما أملكه ضيعة هناك ، وولينا عامل أحسن إلينا ، فشكرناه ، وانعقدت بيننا وبينه مودّة وكيدة .

ثمّ صرف بعامل آخر ، فحقد علينا المودّة الّتي كانت بيننا وبين المصروف ، فأساء معاشرتنا ، واضطرّنا إلى قصد أحمد بن أبي خالد للتظلّم ، فدخلت بغداد ، فلمّا رآني أكرمني ، واستبطأني ، وذكر تطلّعه إلى لقائي ، وطلبه إيّاي ، وغموض خبري عليه ، وسألني عن أموري ، فشرحتها له ، فكتب بخطّه بصرف العامل ، وتقليد المصروف الّذي كان صديقي .

وأعلمني بما جرى عليه أمر سلام الأبرش ، وقال : قد كنتُ جعلتُ لك فيما قبضت منه الربع ، وهو معزول لك ، فتسلّمه ، وكان قيمته ألف ألف درهم[١٩] .

---

١٩ انفردت بها ن .

٣٢٧
قصّة أبي عبيد الله وزير المهدي
وكيف ارتقت به الحال حتّى نال الوزارة

وذكر أبو الحسين القاضي ، في كتابه ، قال : حدّثني محمّد بن أحمد بن الخصيب ، قال : حدّثني من سمع أحمد بن أبي خالد الأحول ، يقول :

كان أبي صديقاً لأبي عبيد الله وزير المهدي ، وهو إذ ذاك معلّم ، وأبي متخلّ[1] ، فكانا يتعاشران ، ويألفهما أحمد بن أيّوب .

قال أبو خالد : وكنّا نتبيّن في أبي عبيد الله شمائل الرئاسة ، ونصدّره إذا اجتمعنا ، ونرجع إلى رأيه فيما يعرض لنا .

فقلت له ليلة ، ونحن نشرب : نحسبك سترأس ، وتبلغ مبلغاً عظيماً ، فإن كان ذلك ، فما أنت صانع بنا ؟

فقال : أمّا أنت يا أبا خالد ، فأصيّرك خليفتي على أمري ، وأمّا أنت يا ابن أيّوب ، فقل ما أردت .

فقال : أريد أن تولّيني أعمال مصر سبع سنين متوالية ، ولا تسألني بعد الصرف عن حساب .

قال : ذلك لك .

قال أبو خالد : فلم يمض لهذا الأمر إلّا مديدة ، حتّى أمسكت السماء ، وخرج النّاس يستسقون ، وكان عليهم – إذ ذاك – ثعلبة بن قيس ، عاملاً من قبل صالح بن عليّ ، فما انصرف النّاس ، حتّى أتت السماء بمطر غزير .

فقال ثعلبة لكاتبه : اكتب إلى الأمير بما كان من القحط ، وما حدث بعده

---

[1] في م : متجمّل .

من الاستسقاء ، وما تفضّل الله به من الغيث .

فكتب كتاباً ، لم يرضه ثعلبة ، فقال لمن حوله : ألا يصاب لي رجل ، يخاطب السلطان عنّي ، بخطاب حسن .

فقال له بعضهم : ها هنا رجل مؤدّب ، معه بلاغة ، وأدب كثير ، وفيه – مع ذلك – عقل .

فقال : أحضره .

فأحضر أبا عبيد الله ، وأمره بأن يكتب عنه إلى صالح بن علي[2] ، في ذلك المعنى ، فكتب كتاباً استحسنه ثعلبة ، وأنفذه إلى صالح بن علي .

فلمّا قرأه أعجبه ، وكتب إلى ثعلبة : أن أحمل إليّ كاتبك على البريد ، فحمله إليه ، فلمّا وافاه ، امتحنه ، فوجده كافياً في كلّ ما أراده ، فاستكتبه .

فلمّا تتابعت كتبه عن صالح بن علي ، إلى المنصور ، قال المنصور : كنت أرى كتب صالح بن علي ترد ملحونة ، وأراها الآن ترد بغير ذلك الخطّ ، وهي محكمة ، سديدة ، حسنة .

فخبّر بخبر أبي عبيد الله ، فأحضره ، فلمّا فاتشه ، وجده كما أراد ، فاستكتبه لابنه المهدي .

قال أبو خالد : وطعن الرّبيع على أبي عبيد الله ، عند المنصور ، مراراً[3] .

فقال : ويلك ، أتلومني في اصطناع معاوية ، وقد كنت أجتهد بأبي عبد الله – يعني المهدي – أن ينزع عنه لباس العجم ، فلا يفعل ، فلمّا صحبه معاوية ،

---

٢. صالح بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس الهاشمي (٩٦–١٥١) : عم المنصور ، أمير ، قائد ، كان قائد الجيش الذي تعقّب مروان إلى مصر وقتله ، فولاّه السفّاح مصر ، ثم ضمّت إليها فلسطين ، ثم ولّي مصر وفلسطين وأفريقية ، ثم ولّي الجزيرة واستقرّ بها وكانت له الديار الشاميّة كلّها ، وتوفّي بقنسرين (الأعلام ٢٧٨/٣) .

٣ بدأ الربيع يدسّ على أبي عبيد الله عند المنصور ، فخاب سعيه ، فعاود الدسّ عليه عند المهدي ، فظفر به ، وعزله المهدي .

لبس لباس الفقهاء .

قال أبو خالد : ثمّ أشخصني أبو عبيد الله إليه ، لما كتب للمهدي ، فقلّدني خلافته على الديوان ، فلمّا مات المنصور ، وولي المهدي الخلافة ، أنفذت الكتب إلى أحمد بن أيّوب بولاية مصر ، فلم يزل بمصر ، والياً عليها ، إلى أن توفي بها[٤] .

٤ لم ترد هذه القصّة في غ .

٣٢٨

القاضي التنوخي يتحدّث

عن قصّته مع أبي علي أحمد بن محمّد الصولي

قال مؤلّف هذا الكتاب : كنت بالبصرة [١٧٨ ر] في المكتب سنة خمس وثلاثين ، وأنا مترعرع ، أفهم ، وأحفظ ما أسمع ، وأضبط ما يجري .

وكان أبو بكر محمّد بن يحيي الصولي ، قد مات بها في شهر رمضان من هذه السنة ، وأوصى إلى أبي في تركته ، وذكر في وصيته أنّه لا وارث له .

فحضر إلى أبي ثلاثة إخوة شباب ، فقراء ، بأسوء حال ، يقال لأكبرهم : أبو علي أحمد[١] ، والأوسط : أبو الحسن محمّد ، والأصغر أبو القاسم ، بنو محمّد التمّار .

وذكروا لأبي ، أنّ أمّهم تقرب إلى أبي بكر الصولي ، وأنّهم يرثونه برحمها منه ، وذكروا الرحم واتّصالها .

فسامهم أبي ، أن يبينوا ذلك عنده بشهادة شاهدين من العدول ، ليعطيهم ما يفضل – بعد الدين من التركة – عن الثلث ، فاضطربوا في ذلك ، وكانوا يتعكّسون[٢] في إقامة الشهادة شهوراً ، ويلازمون باب أبي .

وكان مكتبي في بيت قد أخرجه من داره إلى سكّة الإثنين الّتي ينزلها ، وجعل بينه ، وبين باب داره ، دكّاناً[٣] ممتدًّا .

---

١ أبو علي أحمد بن محمّد بن جعفر الصولي : ترجم له الخطيب في تاريخه ٤٠٨/٤ وقال عنه إنّه سكن الأهواز بآخرة ، ومات بها .

٢ التعكّس في المشية : السير سير الأفعى يميناً وشمالاً .

٣ الدكّان : الدكّة ، راجع حاشية القصّة ٢٨٥ من الكتاب .

فكنت ، ومعلّمي ، والصبيان ، نجلس طرفي النهار على الدكان ، وفي انتصافه في البيت .

فكان هؤلاء الإخوة يجلسون عندي في المكتب كثيراً ، ويؤانسون معلّمي ، ويلاعبوني ، ويتقربون إليّ ، ويسألوني أن أعرض لهم على أبي ، الرقعة ، بعد الرّقعة ، يعطوني إيّاها .

فقال لي يوماً ، الأكبر منهم ، وهو أبو علي أحمد بن محمّد : إن أعطاك الله تعالى ، الحياة ، حتّى تتقلّد القضاء ، وتصير مثل القاضي أبيك في الجلالة والنعمة ، وجئتك ، أيّ شيء تعطيني ؟

فقلت له ، بالصبا ، وكما جرى عليه لساني : خمسمائة دينار .

قال : فأعطني خطّك بها ، فاستحييتُ ، وسكتُّ .

فقال لمعلّمي : قل له يكتب لي .

فقال لي : اكتب له ، وأملى عليّ المعلم ، وأبو علي ، رقعة في هذا المعنى ، وأخذها أبو علي [١٢ ن] .

فما مضت إلّا أيّاماً حتّى استدّت [٤] لهم الشهادة عند أبي ، على صحّة ما ادّعوه من الرحم ، واستحقاق الميراث بها .

وكان أبي قد باع التركة ، وقضى الدين ، وفرّق قدر الثلث ، وترك الباقي مالاً عنده ، فأمر بتسليمه إليهم ، وأشهد بقبضه عليهم ، وانصرفوا .

فما وقعت لي عين على أحد منهم ، إلّا في سنة ست وخمسين وثلثمائة ، فانّي كنت أتقلّد القضاء والوقوف بسوق الأهواز ، ونهر تيرى ، والأنهار ، والأسافل ، وسوق رامهرمز ، سهلها وجبلها ، وأعمال ذلك ، وأنا في داري بالأهواز ، وأمري في ضيعتي مستقيم .

---

٤ استدّ : استقام ، ومنه قول الشاعر :

أعلّمه الرماية كلّ يوم ... فلما استدّ ساعده رماني

فدخل إليّ بوّابي ، فقال : بالباب رجل يقول : أنا من قرابة الصولي ، قدمت من بغداد بكتبٍ إليك ، وذكره لي ، فلم أذكره .

وقلت : أدخله .

فدخل رجل شيخ لم أعرفه ، فسلّم ، وجلس ، وقال : أنا خادم القاضي منذ كان في المكتب ، أنا قرابة الصولي ، فعرفته ، ولم أذكر الخطّ ، ولا القضية .

فأخرج إليّ كتباً من جماعة رؤساء ببغداد ، يذكرون أنّه قد كان مقيماً منذ سنين ، ببغداد ، ورّاقاً بقصر وضّاح[٥] بالشرقية[٦] ، بحالة حسنة ، فلحقته محنٌ أفقرته ، ويسألوني تصريفه ، ومنفعته ، فوعدته جميلاً .

فقال : إنّما جعلت هذه الكتب ، طريقاً يعرفني القاضي بها ، وما أعوّل الآن عليها ، إذ قد أحياني الله عزّ وجلّ ، إلى أن رأيته قاضياً في بعض عمل أبيه رضي الله عنه ، وجاهه ونعمته ، كجاهه ونعمته ، أو قريب من ذلك ، وقد حلّ لي بذلك دين عليه ، واجب في ذمته ، وما أقنع إلّا به .

فقلت : ما معنى هذا الكلام [١٧٩ ر] .

فقال : أينسى القاضي ديني ؟ ثمّ أخرج رقعتي الّتي كان أخذها منّي في المكتب .

فحين رأيتها ، ذكرت الحديث ، وحمدت الله كثيراً ، وقلت : دين واجب حالّ ، وحقّ مرعيّ وكيد ، ولكن تعرف صعوبة الزمان ، والله ، ما يحضرني اليوم مائة دينار منها ، ولو حضرت ، ما صلح أن أشتهر بصلتك بها ،

---

٥ قصر وضّاح : قال ياقوت في معجم البلدان ١٢٣/٤ إنّها محلّة بالجانب الغربي من بغداد تنسب إلى وضّاح بن شبا مولى المنصور ، قال الشاعر :

سقى الله بـاب الكرخ من متنزّه إلى قصر وضّـاح فبركة زلزال .

٦ الشرقيّة : محلّة بالجانب الغربي من بغداد ، قيل لها الشرقيّة ، لأنّها شرقي مدينة المنصور (معجم البلدان ٢٧٩/٣) .

فيصير لي حديث يعود بضرر عليّ ، ولكن ارض منّي ، بأخذ دينك متفرّقاً .

فقال[7] : قد رضيت ، وما جئت إلّا لأقيم في فنائك ، إلى أن أموت .

وجاء لينهض ، فقلت : إلى أين ؟ اجلس ، فجلس ، فوقّعت له في الحال ، إلى بزّاز كان يعاملني ، أن يعطيه ثياباً بثلثمائة درهم ، وإلى جهبذ الوقوف ، أن يعطيه من أبواب البرّ ، عشرة دنانير ، واستدعيت كيس نفقتي ، وأعطيته منه مائتي درهم .

وقلت له : قم ، فاستأجر داراً ، وتأثّث بما قد حضر الآن ، وأكتس ، وعد إليّ ، لأصرّفك فيما أرجو أن أوصله إليك ، منه ، ومن مالي ، الجملة الّتي في الرّقعة .

فقبّل يدي ، ورجلي ، وبكى ، وقال : الحمد لله الّذي أراني هذا الفضل منك ، وحقّق فراستي فيك ، وقام .

وجاءني بعد يومين ، في ثياب جدد ، فأمرت بوابي ألّا يحجبه عليّ ، وخلطته بنفسي ، وأجريت عليه من أبواب [١٦٩ غ] البرّ بالوقوف ، بالضعف والمسكنة[8] ، دينارين في الشهر ، وقلّدته الإشراف على المنفقين في ديوان الوقوف ، وأجريت عليه لهذا ثلاثة دنانير أخرى في الشهر ، وولّيته[9] جباية عقار الأيتام ، وولّيته عليهم ، وأذنت له في أخذ أعشار الارتفاع ، وجعلته مشرفاً على أوصياء في وصايا في أيديهم ، إلى أن يخرجوها في وجوهها ، [وجعلت له على ذلك أجراً ،][10] .

وركبت إلى عامل البلد ، فسألته له ، فأجرى عليه في كلّ سنة ، من مال

---

٧ في غ : فراغ من منتصف القصّة ٣٢٣ إلى هذه الكلمة .

٨ في ن : من الوقوف بالضعف والمسكنة ، يريد أنّه أجرى عليه المبلغ من الوقوف المشروط فيها صرف غلّتها على الضعفاء والمساكين .

٩ في ن : ورددت إليه .

١٠ الزيادة من ن .

أثمان فرائض الصدقات ، ستّين ديناراً ، [وكان رسم أهل ديوان الصدقات بكور الأهواز ، في ذلك الحين ، أن يسبّب لهم بنصف أرزاقهم ، [ويرتفق العمّال من ذلك النصف بقطعة منه][10] ، ويصل إليهم الباقي تحقّقاً ، أو يسبّب أخذه مستأنفاً ، لضيق المال ، وقلّته عن أصول أرزاق المرتزقة ، فكنت أتقدّم إلى من يقوم له في المطالبة ، أن يلازم العمّال ، حتّى يصل إليه كاملاً][11] .

وكنت أعطيه ، في كلّ شهر أو شهرين ، شيئاً من مالي ، وشيئاً من كسوتي ، وثياباً صحيحة من بزّازيّ ، فوالله الّذي لا إله إلّا هو ، ما صُرِفْتُ عن عملي – وكانت صحبته لي نحو ثلاثين شهراً – إلّا وقد وصل إليه من هذا الوجه ، ومن غيره ، أكثر من خمسمائة دينار ، حتّى أنّه تزوّج فيها بوساطتي ، وبجاه خدمتي ، إلى امرأة موسرة ، من أهل الأهواز ، وصار الرجل من المتوسطين بالأهواز ، وصار ينسب إلى الصولي ، وشهر نفسه بأبي عليّ الصولي .

ثم صرفت عن تلك الولاية في سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، لما ولي الوزارة محمد بن العباس ، فقصدني ، وصرفني ، وقبض ضيعتي ، وأشخصني إلى بغداد ، بعد حقوقٍ كانت لي عليه ، وآمالٍ لي فيه[12] .

فتجرّد أبو علي هذا ، المعروف بالصولي ، لسبّي في المجالس ، وشتمي في المحافل ، والطعن عليّ بالعظائم ، والسعاية عليّ في مكارهي .

فكشف الله تعالى تلك المحن عنّي ، وأجراني على تفضّله ، بغير كثيرِ سعيٍ منّي ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله ، وعدت بعد ثلاث سنين وشهور ، إلى الأهواز ، والياً بها ، وللأعمال الّتي كنت عليها معها ، وأضيف إليّ واسط وأعمالها ، وقد استخلفت عليها ، ورجعت [١٨٠ ر] إلى داري ، فجاءني هذا الرّجل معتذراً .

فقلت له : أتحبّ أن أقبل عذرك ؟

---

١١ وردت الجملة مضطربة فأصلحتها .

١٢ ذكر المؤلّف ظلامته في القصّة ٨٠ من هذا الكتاب .

قال : نعم .

قلت : أخبرني ما السبب الّذي أحوجك إلى ما عملت بي من القبيح ، بعدما عملته معك من الجميل ؟ فجمجم في القول[١٣] .

فقلت له : ما إلى الرضا سبيل .

فقال : أنا أصدقك ، دخلت عليك يوماً ، وعلى رأسك قلنسوة باذان[١٤] جديدة من خرقة حسنة ، فاستملحتها ، فسألتك هبتها لي ، فرددتني ، فلمّا كان بعد أيّام ، رأيتها على رأس ابن نظيف المتكلّم ، المعروف بشهدانه[١٥] .

فسألته : من أين لك هذه ؟

فقال : وهبها لي القاضي .

فوقر ذلك في نفسي منك ، وتزايد ، فلمّا حدثت تلك النكبة ، كان منّي بعض ما بلغك [١٧٠ غ] ، وأكثره كذب ، وأنت وليّ العفو ، وجعل يقبّل يدي ورجلي ، ويبكي .

فعجبت من لؤم طبعه ، ومن كثرة شرّه ، وقبح كفره للنعم ، واختلاف أحكام الأزمنة وأهلها ، وجعلت أكثر من قول : الحمد لله على تفضّله ، ولم أكافه بقبيح البتّة .

واقتصرت به على الحال الّتي كنت ولّيته إيّاه ، لأنّ القاضي الّذي [١٣ ن] ولي القضاء بعدي ، أقرّه على ما كنت ولّيته ، فكان قد استمرّ له أخذ الدنانير من الصدقات ، والجاري من الوقوف ، وأبواب البرّ ، وقبضت يدي عن نفعه بما فوق ذلك[١٦] .

---

١٣ في غ : فلجلج في القول .

١٤ يريد قلنسوة من صنع مدينة باذان ، وتسمّى باذان فيروز ، من مدن أذربيجان وهي مدينة أردبيل المشهورة (معجم البلدان ٤٦١/١) .

١٥ أبو الحسن علي بن نظيف البغداديّ البهشمي ، أي المتكلم على مذهب أبي هاشم الجبائي ، المعتزلي ، المعروف بابن السراج ، وبشهدانه : نقل عنه التنّوخي في نشوار المحاضرة القصّتين ٦٠/٣ و ٢٨/٨ .

١٦ هذه القصّة لم ترد في م .

٣٢٩

فرّ هارباً من الضائقة

فوافاه الفرج في النهروان

وذكر أبو الحسين القاضي في كتابه ، قال : حدّثني أبو علي أحمد بن جعفر بن عبد ربّه البرقي[١] ، قال : حدّثني أبو سعيد الحسين بن سعيد القطربّلي[٢] .

قال مؤلّف هذا الكتاب : وحدّثني صاحب لي من ولد إبراهيم بن إسحاق ، أخي موسى بن إسحاق القاضي الأنصاري الخطمي ، وهو علي بن محمّد بن إسحاق ، أخي موسى بن إسحاق ، قال : سمعت أبا الحسين بن أبي عمر القاضي ، يحدّث أبا القاسم علي بن يعقوب كاتب بجكم ، وكاتب الترجمان بهذا الحديث ، ويقول : إنّني ألّفت كتاباً [١٧٨ م] وسمّيته « كتاب الفرج بعد الشدة » ، وذكرت فيه هذا الخبر ، وعدّة أخبار تجري مجراه ، قال : وأخذ يقرّظ كتابه ، ويشوّق عليّ بن يعقوب إليه ، قال :

حدّثني أبو سعيد الحسين القطربّلي ، قال : كان في جيراني رجل من أهل البيوتات ، وكانت له نعمة ، فزالت عنه ، وساءت حاله جدّاً ، وكانت له زوجة وأربع بنات ، فحبلت زوجته ، وأخذها المخاض في اللّيل .

قال : ولم تكن لي حيلة في الدنيا ، فخرجت ليلاً ، هارباً على وجهي ، أمشي ، حتّى أتيت جسر النهروان[٣] ، وأمّلت أن ألقى عاملها ، وكان يعرفني ،

---

١ أبو عبد الله أحمد بن جعفر بن عبد ربه بن حسان الكاتب المعروف بالبرقي : ترجم له الخطيب في تاريخه ٤/٦٩ .

٢ لعلّه الحسين بن سعد بن الحسين بن سعد القطربّلي : ترجم له الخطيب في تاريخه ٨/٥١ .

٣ لا بدّ للمسافر من بغداد إلى بلاد الجبل أو خراسان ، أن يعبر النهروان ، وهو نهر عظيم يبدأ من قرب تامرا أو حلوان ، ويسقي كورة واسعة خصبة ، ثم يصبّ في دجلة أسفل المدائن ، وكان عليه جسر =

وأسأله تصريفي في شيء ، وتعجيل رزق شهر ، لأنفذه إلى زوجتي .

فوصلت إلى الموضع ، وقد ارتفع النهار ، فقعدت أستريح بالقرب من بقّال .

فإذا فيج[4] – وهو الساعي – قد جاء ، فوضع مخلاته[5] وعصاه ، ثمّ قال للبقّال : أعطني كذا [١٧٢ غ] وكذا ، من خبز ، وتمر ، وإدام[6] ، فأعطاه ، فأكل ، ووزن له الثمن .

ثمّ فتح مخلاته ، فميّز ما فيها من الكتب ، فرأيت فيها كتاباً إليّ ، وعليه اسم منزلي ، واسمي ، وكنيتي ، ولا أعرف كاتبه .

فقلت للفيج : هذا الكتاب إليّ .

فقال : أتدري ما تقول ؟ .

فقلت له : قد قلتُ الصحيح ، فإن مضيت إلى بغداد ، لم تجد صاحب الكتاب .

فقال : أهاهنا إنسان يعرفك ؟

قلت : نعم ، العامل .

قال : قم بنا إليه .

= للعابرين ، وعمرت في ذلك الموضع مدينة على جانبي النهر ، فيها أسواق ، ومسجد جامع في كلّ جانب ، وخانات لنزل المسافرين ، وهي على بعد أربعة فراسخ من بغداد ، قال ياقوت في معجمه : إنّ اختلاف المتحكّمين في العراق أدّى إلى حصول البثوق في النهر ، فاندرس ، واندرست كلّ المدن والقرى التي كانت عليه (معجم البلدان ٤/٨٤٦–٨٥١ والأعلاق النفيسة ١٦٣) .

٤ الفيج : الساعي الذي يرتزق بنقل ما يكلّفه الناس نقله من رسائل وغيرها . راجع حاشية القصّة ٢٢١ من هذا الكتاب .

٥ المخلاة : كيس يجعل فيه العلف ، ويعلّق في عنق الدابّة ، ثم صرف الاسم إلى كلّ كيس يعلّق في العنق ، وتوضع فيه الأشياء ، والبغداديّون يسمّون المخلاة : عليجة ، نسبة للعليج (العليق) ، ويتندّرون على المفلس التيّاه ، بأنّه : مكدّي (شحاذ) وعليجته قديفة (قطيفة) .

٦ الإدام : بكسر أوّله ، الطعام الذي يؤكل مع الخبز ، والبغداديّون يسمّونه إيدام .

فجئت ، فلمّا دخلت على العامل ، قال : ما أقدمك علينا يا فلانُ ؟

فقلت له : قبل كلّ شيئ – أعزّك الله – ، من أنا ؟ وأين منزلي ببغداد ؟

فقال : أنت فلان بن فلان ، ومنزلك بمدينة السلام ، في مدينة المنصور منها ، في سكة كذا وكذا .

فقلت للفيج : عرفتَ صدقي ؟

قال : نعم .

قال : فحدّثت العامل بحديثي ، وأخذت الكتاب من الفيج ، فإذا هو من بعض المستورين بالدينور[7] ، يذكر أنّ ابن عمّ كان لي قد توفي ، بعد أن أوصى إليه أنّي وارثه ، وسمّاني له ، ووصف منزلي ببغداد .

قال : وقد كتب الرّجل يذكر أنّ ابن عمّي أوصى بالثلث من ماله في وجوه من أبواب القرب[8] ، وأن يسلّم باقي ثلثيه إليّ ، وأنّه باع من أثاثه ومنقوله ، ما خاف فساده من تركته ، وصرف الثلث منه في بعض ما كان أوصى به ، وأنفذ إليّ سفتجة بالثلثين من ذلك ، مبلغها سبعمائة ديناراً وكذا وكذا ديناراً ، تحلّ بعد أربعين يوماً ، على تاجر في دار القطن بالكرخ[9] .

وقال : الوجه أن تبادر إلى الدينور ، وتبيع العقار والضياع ، أو أبيع الثلث منها ليصرف في وجوهه ، وتتمسّك بالثلثين إذا شئت .

قال : فورد عليّ من السرور ما لا عهد لي بمثله ، وحمدت الله عزّ وجلّ .

فقلت للفيج : قد وجب حقّك ، وسأحسن إليك ، وشرحت له قصتي ، وأنّه لا حبّة معي فضّة فما فوقها .

---

٧ الدينور : مدينة من أعمال الجبل ، قرب قرميسين (كرمانشاه) ، (معجم البلدان ٢/٧١٤) .

٨ القربة ، وجمعها ، قرب : ما يتقرّب به إلى الله تعالى من أعمال البرّ والطاعة .

٩ دار القطن : محلّة كانت ببغداد في نهر طابق ، بالجانب الغربيّ ، بين الكرخ ونهر عيسى (معجم البلدان ٢/٥٢٣) .

فجاء إلى البقال ، فقال : زِنْ لأستاذي بكذا وكذا خبزاً ، وبكذا وكذا إداماً ، وما يريد غيرهما .

فتغدّيت ، ووزن الفيج ثمن ذلك من عنده ، واستأجر حمارين ، فأركبني أحدهما ، وركب هو الآخر ، ووزن الأجرة من عنده .

وجئنا في بقيّة يومنا إلى بغداد ، وقصدنا دار القطن ، وفي النهار بقيّة صالحة ، فأوصلت السفتجة [١٧٩ م] إلى التاجر ، فنظرها ، وقال : صحيحة ، إذا حلّ الأجل ، فاحضر للقبض .

فقلت له : خذ حديثي ، وافعل بعد ذلك ما يوفّقك الله تعالى له ، وقصصت عليه قصّتي .

فقال لي : والله الّذي لا إله إلّا هو ، إنّك صادق ؟ ، فحلفتُ .

فأخرج كيساً كان بقربه ، فوزن لي منه مال السفتجة .

وصرت من وقتي إلى السوق ، فاشتريت سويقاً[١٠] ، وسكراً ، وعسلاً ، وشيرجاً[١١] ، وخبزاً عظيماً ، وخروفاً مشويًّا ، وحلوى ، مما يصلح للنساء في النفاس ، ومهداً ، وفرشاً حسناً ، وعطراً صالحاً ، وشيئاً من ثياب .

وصرت إلى منزلي ، وقد قرب العشاء الآخرة ، فوجدت كلّ من فيه من النساء يلعنني ، ويدعو عليّ .

فقدّمت الحمالين ، ودخلت وراءهم ، فانقلبت الدار بالدّعاء لي ، وصار الغمّ سروراً ، ووجدت زوجتي قد ولدت غلاماً .

فعرّفت الصبيان خبر السفتجة [١٧٣ غ] ، والميراث ، والفيج ، وأعطيت

---

١٠ السويق : راجع حاشية القصّة ٢٤٧ من الكتاب .

١١ الشيرج ، والسيرج : زيت السمسم ، وكان البغداديّون في عهد صاحب كتاب الفرج بعد الشدّة ، يكثرون من استعمال الشيرج ، ويدخل في كثير من ألوان أطعمتهم ، راجع كتاب الطبيخ للبغدادي ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، والقصّة ٣٤٢ من هذا الكتاب ، أما الآن فالبغداديّون لا يكادون يعرفونه ، وقد أدركت الناس ببغداد ، وهم لا يستعملون الشيرج إلاّ للسراج في الحمّامات ، قبل استعمال الكهرباء .

الزوجة ، والقابلة ، من الدنانير شيئاً .

وأقمت الفيج عندي أيّاماً ، حتّى أصلحت من أمري ، وأمر عيالي ، ما وجب صلاحه ، وخلّفت لهم نفقة ، وأخذت من الدنانير نفقة ، وأعطيت الفيج منها ، فأجزلت له ، واكتريت حمارين ، لي وله ، واستصحبته إلى الدينور .

فوجدت فيها ما تحصّل لي ممّا خلفه ابن عمّي نحو عشرة آلاف دينار ، فبعت ذلك كلّه ، وأخذت بحصّتي سفاتج إلى بغداد .

وعدتُ وقد فرّج الله عنّي ، وقد صلح حالي ، وأنا أعيش في بقيّة تلك الحال إلى الآن .

٣٣٠
خرج مملقاً وعاد قائداً

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه ، قال :

أملق بعض الكتّاب ، وتعطّل ، وافتقر ، حتّى لم يبق له شيئ ، وكاد يسأل ، وخرج على وجهه في الحالة الّتي كان عليها .

ثمّ إنّه ورد بعد قليل من سفرته ، فدخلتُ عليه ، وقلت : ما خبرك يا فلان ؟

فقال : متمثّلاً بهذين البيتين :

فـإبنـا سالمـين كما ترانـا ... وما خابـت غنيمـة سالمينـا
وما تدرين أيّ الأمـر خـير ... أما تهويـن أم ما تكرهينـا

فطيّبت نفسه ، وجعلت أسلّيه .

فأقام أيّاماً ، وتأتّتْ له نفقة ، فخرج إلى خراسان ، فما سمعنا له خبراً سنين ، فإذا هو قد جاءنا بزيّ قائد عظيم ، لكثرة الدواب ، والبغال ، والجمال ، والغلمان ، والمال العظيم ، والقماش .

فدخلت إليه ، وهنّأته ، فقال : تضايقي تنفرجي ، وما تراني بعد هذا أطلب تصرّفاً .

فباع تلك الأشياء ، وترك منها ما يصلح لذي المروءة ، واشترى من المال ضيعة بعشرين ألف دينار ، ولزم منزله [١٨٢ ر] وضيعته .

٣٣١
عودة المرء سالماً غنيمة حسنة

قال مؤلّف هذا الكتاب :

أرجف لبعض رؤساء دولة شاهدناها ، بالوزارة ، واحتدّ أمره ، وبرد ، وأرجف لعدوٍّ له بالوزارة[١] .

فلقيت بعض [١٤ ن] أصدقاء الأوّل ، فسألته عن حقيقة الحال ، فقال لي : أمس لقيته ، فسألته عن سبب وقوف أمره ، واحتداد أمر عدوّه ، فردّ عليّ جوابَ آيس من الأمر .

ثمّ قال لي : وقد جعلتُ في نفسي ، أنّ انصراف هذا الأمر خير لي ، فإنّ فيما ألي من أمور المملكة كفاية ، ثمّ أنشدني كالمستريح إلى ذلك ، يقول :

إذا نحن إبنا سالمين بأنفس ... كرامٍ رجت أمراً فخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنيمة إنّها ... تؤوبُ وفيها ماؤها وحياؤها

فلمّا كان بعد بضعة عشر يوماً ، أمّر ، وولي الوزارة ، وبطل أمر عدوّه .

وكان هذا الخبر ، أجدر بأن يجعل في باب من بشّر بفرج من نُطْقٍ أو فأل ، ولكنّني جئت به هاهنا ، لاشتباك معنى الشعر في الخبرين المتجاورين .

---

١ لما توفّي المهلّبي ، وزير معزّ الدولة ، في السنة ٣٥٢ تطلّع للوزارة كلّ من أبي الفضل العبّاس بن الحسين الشيرازي ، زوج زينة ابنة المهلّبي ، وأبي الفرج محمّد بن العبّاس بن فسانجس ، فأمر معزّ الدولة أن ينظرا سويّة في الأمور ، من غير تسمية لواحد منهما بالوزارة ، ولما مات معزّ الدولة ، سعى كلّ منهما لنفسه مجدّداً ، وترتّبت الوزارة أوّلاً لأبي الفضل ، ثم وافى أبو الفرج من عمان ، وصار الناس حزبين ، ثم تمكّن أبو الفضل بمعاونة شيرزاد ، فتمّت له الوزارة (تجارب الأمم ١٨١/٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨) .

٣٣٢
قضى الله للهبيري رزقاً
على يد الوزير ابن الزيات فاستوفاه على رغم أنفه

وذكر أبو الحسين القاضي ، بإسناد ، قال : حدّثني أبو الحسن علي بن أحمد الكاتب ، عن أحمد بن اسرائيل ، قال :

كنت كاتباً لمحمّد بن عبد الملك الزيّات ، فقدم عليه رجل من ولد عمر بن هبيرة ، يقال [١٧٤ غ] له : إبراهيم بن عبد الله الهبيري ، فلازمه يطلب تصرّفاً .

وكان ابن الزيّات قليل الخير ، لا يرعى ذماماً ، ولا يوجب حرمة ، ولا يحبّ أن يصطنع أحداً ، فأضجره الهبيري من طول تردّده عليه .

فدعاني ابن الزيّات يوماً ، وهو راكب ، وقال : قد تبرّمت بملازمة هذا الرّجل ، فقل له : إنّي لست أولّيه شيئاً ، ولا له عندي تصرّف ، ومره بالانصراف عنّي .

قال : فقلت : أنا والله أستحي أن ألقى مؤمّلاً لك ، عنك ، بمثل هذا .

قال : لا بدّ أن تفعل .

قلت : نعم .

فلمّا صرت إلى منزلي ، وجّهت إلى الهبيري ، فجاءني ، فقلت له : ما كنت تؤمّل أن تنال بصحبة أبي جعفر محمّد بن عبد الملك الزيّات ، خذه من مالي ، ولا تقربه ، وهذه ثلاثة آلاف درهم .

فقال متعجّباً : من مالك ؟ [١٨١ م] .

قلت : نعم .

قال: أنا أؤمّل أن أكسب معه أكثر من ذلك[1] .

فقلت : إنّه قد حمّلني إليك رسالة ، استحيت من أدائها ، فعدلت عنها إلى هذا .

قال : فهات ما حمّلك .

قال : فأعدت عليه ما قال ابن الزيّات .

فقال : قد سمعت منك ، فهل أنت مؤدٍّ عنّي ما أقول ؟

قلت : نعم .

قال : قل له ، قد كنت آتيك في صبيحة كلّ يوم مرّة ، ووالله لآتينّك منذ الآن في كلّ غدوة وعشيّة ، فإن قضى الله عزّ وجلّ على يدك رزقاً ، أخذته على رغمك .

فرجعت إلى ابن الزيّات ، فأعلمته قوله .

فقال : دعه ، فوالله ، لا يرى منّي خيراً أبداً .

قال : ولازمه الرّجل ، غدوة وعشيّة ، فكان إذا رآه ، التفت إليّ ، وقال : قد جاء البغيض ، فمكث كذلك مدّة .

وركب ابن الزيّات يوماً إلى الواثق ، وهو بالهاروني[2] ، بسرّ من رأى[3] ، وكنت معه .

---

١ في غ : أؤمّل أن أكسب معه أكثر مما تناله يدك .

٢ الهاروني : قصر قرب سامراء ، ينسب إلى الواثق هارون ، يبعد عنها ميلاً واحداً ، وبازائه بالجانب الغربيّ ، قصر المعشوق (معجم البلدان ٩٤٦/٤) .

٣ سرّمن رأى : وتسمّى الآن سامراء ، مدينة شمالي بغداد ، تبعد عنها مائة كيلومتر ، بناها المعتصم في السنة ٢٢١ لما ضاقت بغداد بجنوده الأتراك ، فانتقل إليها وسكنها الخلفاء من بعده ، إلى أن استقرّ المعتضد ، ومن بعده ، ببغداد ، فتقلّصت سامراء ، وأصبحت بليدة ، بعد أن كانت حاضرة الدنيا (المنجد ، معجم البلدان ١٤/٣-٢٢) .

فدخل إلى الخليفة ، وجلست في بعض الدور ، أنتظر خروجه ، فخرج ، وهو يكثر التعجّب .

فسألته ، فقال : أنت تعرف مذهبي ، قال : وكان يرى رأي المعتزلة ، ويقول : إنّ الارزاق ، تأتي بالاكتساب .

فقلت له : وماذا تهيّأ عليك ؟

فقال : دخلت إلى الخليفة ، فقال : على الباب أحد نصطنعه[4] ؟ فلم يخطر ببالي غير الهبيري ، فأمسكت .

فقال : ويلك أكلّمك فلا تجيبني ، وأعجلني عن الفكر .

فقلت : على باب أمير المؤمنين ، رجل من أعداء دولته ، وأعداء سلفه ، ومن صنائع بني أميّة ، من ولد عمر بن هبيرة .

قال : فنصطنعه فيشكرنا ، كما اصطنع أباه بنو أمية فشكرهم .

قلت : إنّه معدم .

قال : نغنيه ، [١٨٣ ر] فراودته .

فقال : كم تدفعني [١٦ ن] عنه ؟ أعطه الساعة ثلاثين ألف درهم .

ثمّ قال : من أهل الدراريع[5] هو ، أم من أهل الأقبية[6] ؟ .

قلت : صاحب قباء .

قال : قلّدوه الساعة عملاً يصلح له ، وأثبت له من ولده ، وغلمانه ، وأهله ، مائة رجل .

فلمّا فرغ من كلامه ، قال : قل للهبيري ما عرّفتك ، وادفع إليه ما أمر له الخليفة به ، وسله ألّا يشكرني ، فقد جهدت في دفع الواثق عنه ، فما اندفع ،

---

٤ الاصطناع : إسداء الصنيعة ، أي الإحسان .

٥ أهل الدراريع : يريد بهم الكتاب ، أي المدنيّين .

٦ أهل الأقبية : يريد بهم الجند ، والعمّال .

قال أحمد بن إسرائيل : فلمّا خرجت إلى الشارع ، إذا بالهبيري ينتظر خروج ابن الزيّات ، [فعرّفته ما جرى ، فقال : لا بدّ من شكره على كلّ حال ، وجاء ابن الزيّات][7] [١٧٥ غ] فترجّل له الهبيري ، فشكره .

فقال له : ألم أقل لأحمد يقول لك : لا تشكرني .

فقال : لا بدّ من ذلك ، لأنّ الله تعالى قد أجرى رزقي على يديك .

قال : أحمد بن إسرائيل : فوالله ، ما مضى اليوم ، حتّى قبض المال ، وولي بعض كُوَرِ فارس .

[وذكر هذا الخبر محمّد بن عبدوس الجهشياري ، في كتابه « كتاب الوزراء » عمّن حدّثه به ، عن أحمد بن إسرائيل ، فذكر أنّ الرجل ، يقال له : أحمد بن عبد الله الهبيري ، وذكر قريباً من هذا ، وذكر أنّ الّذي خوطب في أمره من الخلفاء ، كان المتوكّل ، وأنّ الّذي أمر له به ، كان خمسة آلاف درهم ، وأن يضمّ إليه ثلثمائة رجل ، وأنّ حاله بعد ذلك علت عند المتوكّل ، ولم يقل أنّه قلّده بعض كُوَرِ فارس][8] .

وحدّثني أبي رحمه الله تعالى ، هذا الحديث ، وذكر أنّ تردّد الهبيري – ولم يسمّه – إلى ابن أبي خالد الأحول ، وأنّ الّذي حمل الرسالة إلى الهبيري ، قصده إلى منزله ، وحمل معه ثلاثة آلاف درهم ، وقال : إنّ الوزير يقول لك ، ليس لك عندي تصرّف ، فخذ هذه النفقة ، وانصرف عنّي إلى حيث شئت .

فغضب الهبيري ، وقال : جعلني شحّاذاً ، والله لا أخذتها .

قال الرسول : فغاظني ذلك ، فقلت له : والله ، ما المال إلّا من عندي ، لأنّي استحيت أن أعيد عليك رسالته ، فآثرت أن أغرم مالاً في الوسط ، أجمّل به صاحبي ، وأؤجر فيك ، وأرفع نفسي عن قبيح التوسّط الّذي ارتكبته .

---

٧ الزيادة من غ .

٨ الزيادة من م .

فقال : أمّا أنت ، فأحسن الله جزاءك ، وأمّا مالك ، فأنا لا أقبله ، ولو مصصت الثماد ، ولكن تؤدّى إليّ الرسالة بعينها ، فأدّيتها .

فقال : تتفضّل ، وتحمل عنّي حرفين .

فقلت : هات .

قال : تقول له : والله ، ما لزومي لك في نفسك ، ولو تعطّلتَ ، ما مررتُ بك ، ولكنّ الله تعالى ، يقول : وأتوا البيوت من أبوابها ، وأنت باب رزق مثلي ، لأني لا أحسن إلّا هذه الصناعة ، ولا بدّ من أن آتيك طالباً رزقي من بابه ، وليس يمنعني ذلك استقبالك إيّاي بالرّد ، فإن قسم الله تعالى لي على يديك شيئاً ، أخذته منك ، وإلّا ، فلا أقلّ من أن أؤذيك برؤيتي ، كما تؤذيني بتعطيلي .

وقال فيه عن ابن أبي خالد : فصرت في الوقت إلى المأمون ، فقال : هاتم شخصاً أوّله مصراً .

قال : فأراد أن يذكر له رجلاً يعتني به ، يعرف بالزّبيريّ ، لتولّي ذلك العمل ، فلغيظه من الهبيري ، وقرب عهده به وبحديثه ، غلط ، فقال : الهبيري .

فقال الخليفة : أو يعيش ؟ وعرفه ، وذكر له خدمة قديمة .

وأراد ابن أبي خالد أن يزهّده فيه ، قال : فطعنت عليه بكلّ شيءٍ ، وهو يقول : لا أريد غيره ، أنا أعرفه بالجلادة .

الى أن قلت له : أنا غلطت ، وإنّما أردت أن أقول فلان الزبيريّ .

قال : وإن غلطتَ ، فالهبيري ، أقوم بهذا من الزبيريّ ، وأنا أعرفهما ، فلمّا رآني قد أقمت على الدفع عنه ، قال : له معك قصّة ، فاصدقني عنها ، فصدقته .

فقال : قد والله ، أجرى رزقه على يديك ، وأنت راغم ، أخرج فولّه مصر .

فقلت : إنّه ضعيف ، ولا حالة له ، ولا مروءة ، فكيف يخرج في مثل هذه الحال إلى عمله ؟

قال : وهذا من رزقه الّذي يجرى على يديك وأنت راغم ، أطلق له مائة ألف درهم فأخرجه .

فخرجت ، وامتثلت أمره راغماً[9] .

9 الفقرة المنقولة عن كتاب الجهشياري لم ترد في م ، ووردت في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنّوخي برقم القصّة ٢/١١١ .

٣٣٣

تضايقي تنفرجي

وذكر القاضي أبو الحسين رحمه الله تعالى ، [عن رجل][1] ، قال : حدّثتني أمّ أبي ، قالت : كان زوجي [١٨٤ ر] قد نهض إلى مصر ، وتصرّف بها ، وعمل ، ونكب ، وتعطّل ، فأقام هناك .

وأضقنا إضاقة شديدة ، وعرضنا بيع ضيعة لنا [١٧٦ غ] ، فلم نجد لها ثمناً ، وتأخّر كتابه عنّا ، وانقطع خبره ، حتّى توهّمنا أنّ حادثاً قد حدث عليه .

وكان أولادي أصاغر ، فجعلتُ أحتال وأنفق عليهم ، حتّى لم يبق في المنزل شيء .

وحضر وقت عمارة الضيعة ، واحتجنا إلى بذار ونفقة ، فتعذّر ذلك علينا ، حتّى كادت تتعطّل ، ويفوت وقت الزراعة .

فأصبحت يوماً ، وبي من الغمّ لاجتماع هذه الأحوال أمر عظيم ، فوجّهت إلى بعض من كنت أثق به ، وأتوهّم أنّني لو سألته إسعافنا بالكثير من ماله لا يخالفنا ، لأقترض منه شيئاً لذلك ، فردّ رسولي ، واعتذر .

وعرّفني الرّسول الّذي بعثت به إليه ، أنّه قال : إذا بعثت إليهم ما طلبوا ، والضيعة لم تعمر ، ولم تحصل لهم غلّة ، وزوجها لم يعرف له خبر [١٧ ن] ، فمن أين يردون عليّ ؟

فلمّا رجع الرّسول بذلك ، كدت أموت غمّاً ، وامتنعت من الطعام يومي وليلتي .

وأصبحت ، فما انتصف النهار ، حتّى ورد كتاب زوجي بسلامته ، وذكر

---

١ الزيادة من غ وم .

السبب في تأخير كتابه ، وأرسل إليّ في كتابه سفتجة بمائة دينار ، ونحوت ثياب قد أنفذها مع تاجر من أهل مصر ، قيمتها خمسون ديناراً ، فقبضت ذلك ، وعمرنا الضيعة ، وزرعَتْ تلك السنة ، وصلحت حالنا[٢] .

٢ ورد السند في م : حدثتني جدّتي أمّ أبي . قالت حدثتني أمّ جدّي ، قالت : كان زوجي يعقوب بن عليّ قد نهض إلى مصر ، وورد السند في ن : حدّثتني جدّتي أمّ أبي ، قالت : حدّثتني أمّ أبي ، قالت كان زوجي يعقوب بن علي قد نهض إلى مصر .

٣٣٤
من مكارم سعيد بن العاص أمير الكوفة

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه :

حكي أنّ سعيد بن العاص[١] ، قدم الكوفة عاملاً لعثمان بن عفّان[٢] ، رضي الله عنه ، وكان ممّن يتعشّى عنده ، رجل من الفقراء ، قد ساءت حاله .

فقالت امرأته : ويحك ، أنّه قد بلغنا عن أميرنا كرم ، فاذكر له حالك ، وحاجتك ، لعلّه أن ينيلنا شيئاً ، فلم يبق [١٨٣ م] للصبر فينا بقيّة .

فقال : ويحك لا تخلقي وجهي .

قالت : فاذكر له ما نحن فيه على كلّ حال .

فلمّا كان بالعشيّ ، أكل عنده ، فلمّا انصرف النّاس ، ثبت الرّجل .

فقال سعيد : [حاجتك ؟ ، فسكت][٣] .

فقال سعيد لغلمانه : تنحّوا ، ثمّ قال : [إنّما نحن أنا وأنت ، فاذكر حاجتك ، فتعقّد ، وتعصّر ، فنفخ سعيد المصباح فأطفاه .

ثمّ قال له :][٣] يرحمك الله ، لست ترى وجهي ، فاذكر حاجتك .

---

١ سعيد بن العاص (٣-٥٩) : صحابيّ ، أمير ، أمويّ ، قرشيّ ، فصيح ، جواد ، ولّي لعثمان الكوفة ، ولمعاوية المدينة (الأعلام ١٤٩/٣) ، أقول : هو الذي قال فيه الفرزدق :

ترى الغرّ الجحاجحَ من قريش ... إذا ما الخطب في الحدثات غالا

قياماً ينظرون إلى سعيدٍ ... كأنّهم يرون به هلالا

٢ أبو عمرو عثمان بن عفّان (٤٧ ق-٣٥) : ذو النورين ، ثالث الخلفاء الراشدين ، أحد العشرة المبشّرة ، كان غنياً شريفاً في الجاهلية ، وأسلم بعد البعثة بقليل ، وصرف الكثير من ماله في إعلاء شأن الإسلام بويع بالخلافة سنة ٢٣ ، فاتمّ جمع القرآن ، ونقم عليه الناس اختصاصه أقاربه من بني أميّة ، بالولايات والأعمال ، فقتل بالمدينة (الأعلام ٣٧١/٤) .

٣ الزيادة من غ .

فقال : أصلح الله الأمير ، أصابتنا حاجة ، فأحببت أن أذكرها لك .

فقال : إذا أصبحت فالقَ فلاناً وكيلي .

فلمّا أصبح الرّجل ، لقي الوكيل ، فقال : إنّ الأمير قد أمر لك بشيءٍ ، فهات من يحمله معك ، [قال : ما عندي من يحمل ، فانصرف إلى امرأته ، فجعل يلومها ، ويقول : قال لي وكيله هات من يحمل معك][3] ، وما أظنّه أمر لي إلّا بقوصرة تمر ، أو قفيز برّ ، وذهب ماء وجهي ، ولو كانت دراهم أو دنانير لأعطانيها في يدي .

فلمّا كان بعد أيّام ، قالت له امرأته : يا هذا ، قدبلغ بنا الأمر إلى ما ترى ، ومهما أعطاك الأمير ، يقوتنا أيّاماً ، فالق وكيله ، فلقيه .

فقال : أين تكون ؟ إنّي قد أخبرت الأمير أنّه ليس لك من يحمل ما أمر به لك معك ، فأمرني أن أوجّه من يحمل معك ما أمر به لك [١٧٧ غ] .

ثمّ أخرج إليه ثلاثة من السودان ، على راس كلّ واحد منهم بدرة دراهم ، ثمّ قال : امضوا معه .

فلمّا بلغ الرّجل باب منزله ، فتح بدرة ، فأخرج منها دراهم ، فدفعها إلى السودان ، وقال : امضوا .

فقالوا : أين نمضي ، نحن عبيدك ، ما حمل مملوك للأمير هدية قط ، فرجع إلى ملكه .

قال : فصلحت حاله ، واستظهر على دنياه .

٣٣٥

ألجأته الحاجة إلى بيع مقنعة أمّه

ثمّ ملك مصر

وذكر أبو الحسين القاضي ، في كتابه ، بإسناد ذكره ، قال : حدّثني عمّي أبو الطّيبَ محمّد بن يوسف بن يعقوب ، قال : حدّثني بعض إخواني ، قال[١] :

كنت أحضر طعام عبيد الله بن السريّ[٢] ، بمصر ، فكان إذا وضع الخوان[٣] ، وضع رغيفاً ، وعزل بيده من كلّ شيْ ، فإذا فرغ تصدّق به .

فقُدّمَتْ إليه ذات يوم عناق[٤] سمينة ، في أوّل الطعام ، فضرب بإصبعه في جنبها ، فشخبت[٥] حتّى ملأت الخوان دسماً [١٨٥ ر] فأمسك يده ، وقال : الحمد لله ، ذكرت بهذا شيئاً أحدّثكم به .

كنت ببغداد ، نازلاً بسوق الهيثم[٦] ، فأصابتني حاجة شديدة ، وبقيت بلا

---

١ كذا ورد في م ، وفي غ : حدّثني عمي أبو الطيّب محمد بن يوسف بن يعقوب ، قال ... الخ ، وفي ر : وحدّث أبو الطيّب رحمه الله تعالى ، قال ... الخ

٢ عبيد الله بن السريّ : من القوّاد ، تغلّب على مصر ، وخلع الطاعة في السنة ٢٠٦ ، وولّى المأمون خالد ابن يزيد بن مزيد ، مصر ، فدفعه عبيد الله عنها ، فولّى عبد الله بن طاهر ، فلما قدم عبد الله في السنة ٢١٠ مصر ، بعث اليه ابن السريّ هدية جليلة ، وهي ألف وصيف ، يحمل كلّ وصيف كيساً من الحرير فيه ألف دينار ، فردّ عبد الله الهدية ، وأمره بمغادرة مصر ، فتركها إلى العراق حيث أنزل مدينة المنصور ومات بسامراء في السنة ٢٥١ (الأعلام ٣٤٨/٤ وابن الأثير ٣٩٦/٦–٣٩٩ و ٤٠٢ والعيون والحدائق ٣٦٧/٣–٣٦٩ وتجارب الأمم ٤٥٩/٦–٤٦١) .

٣ الخوان : سفرة الطعام ، أو السماط ، أو المائدة ، فارسية .

٤ العناق : الأنثى من أولاد المعز ، قبل استكمالها السنة .

٥ الشخب : صوت اندفاق اللبن من الضرع عند الحلب .

٦ سوق الهيثم : سوق كبيرة متّصلة ، في ربض الهيثم بن معاوية ، في مدينة المنصور ، ويشتمل الربض على السوق وعلى منازل ودروب وسكك (البلدان لليعقوبي ٢٤٧) .

حبّة فضّة فما فوقها ، ولا في منزلي ما أبيعه .

فإنّي لكذلك ، وما عندي طعام ، ولا ما أشتري به قوت يومي ، إلّا أنّ عندي نبيذ قد أدرك ، وأنا جالس على باب داري ضيّق الصدر ، أفكّر فيما أعمله .

إذ اجتاز بي صديق لي ، فجلس اليّ ، فتحدّثنا ، فعرضت عليه المقام عندي ، عرض معذّر[7] ، كما جرى على لساني ، فأجابني ، وقعد .

فانقطع بي ، وتمنّيت أنّي خرست ، فلم أجد بدّاً من إدخاله منزلي ، فأدخلته .

وقمت إلى أمّي فعرّفتها الخبر ، فأعطتني مقنعتها[8] ، وقالت : بعها ، وقم بأمرك اليوم ، فبعتها بثلاثة دراهم ، واشتريت بها خبزاً وسمكاً وبقلاً ، وريحاناً ، وجئت به .

فبينا نحن كذلك ، إذ مرت بي سنّور لبعض الجيران ، فمددت يدي إليها ، فإذا هي ذلول ، فقبضت عليها ، وذبحتها ، وسلختها ، ودفعتها إلى أمّي ، فقلت : اشويها ، ففعلت ، وقدّمتها الى صديقي ، مع ما [١٨٤ م] اشتريته ، فأكلنا .

فذكرتُ لما وقعت يدي على هذه العناق ، حالي تلك ، وحالنا اليوم من السعة والنعمة ، ونفاذ الأمر ، فالحمد لله على ما أنعم .

ودعا بمال عظيم ، وأمر أن يتصدّق بنصفه بمصر ، وبعث نصفه إلى مكة والمدينة ، يتصدّق به هناك .

وأمر بالخوان وما عليه أن يطعم للمساكين ، ودعا بخوان آخر .

---

٧ المعذّر : المقصّر في الأمر ، يريد أنّه دعاه من دون رغبة في دعوته ، ولكن كي يرفع عنه اللوم .

٨ كلّ ما يغطّي الرأس ، فهو قناع ، والمقنعة : غطاء للرأس أصغر من القناع .

٣٣٦
أبى أن يعطيه ديناراً ثمّ أعطاه ألفي دينار

حدّثني أبو بكر محمّد بن عبيد الله بن محمّد الرازي ، المعروف بابن حمدون ، [عن الحسن بن محمّد الأنباري الكاتب ، قال : كان لي أيّام مقامي بأرجان جارٌ تاجر ، يعرف بجعفر بن محمّد ، وكنت آنس به ، فحدّثني][1] ، قال :

كنت أحجّ دائماً ، وأنزل على رجل علويّ ، حسيني فقير ، مستور ، فألطفه ، وأتفقّده .

فتأخّرت عن الحجّ سنة ، ثمّ عاودت ، فوجدته مثرياً ، فسررت ، وسألته عن سبب ذلك .

فقال : كان قد اجتمع معي دريهمات على وجه الدّهر ، ففكّرت ، عام أوّل ، في أن أتزوّج ، فإنّي كنت عزباً[2] ، كما قد علمتَ .

ثمّ علمتُ أنّ فرض الحجّ قد تعيّن عليّ ، فرأيت أن أقدّم أداء الفرض ، وأتوكّل على الله عزّ وجلّ ، في أن يسهّل لي – بعد ذلك – ما أتزوّج به .

فلمّا حججتُ ، طفت طواف الدخول ، وأودعت رحلي ، وما كان معي ، في بيت من خان ، وأقفلت بابه ، وخرجت إلى منى[3] .

---

١ الزيادة من غ و ن .

٢ العزب : بفتح ، الذي لا أهل له من الرجال والنساء .

٣ منى : موضع رمي الجمار في الحرم ، بليدة على فرسخ من مكّة ، تعمر أيام الموسم ، وتخلو بقيّة السنة إلاّ ممن يحفظها (معجم البلدان ٦٤٢/٤) أقول : نزلت بمنى لما حججت في السنة ١٩٦٤ فوجدتها بليدة ، والعمران فيها قليل جداً ، وذكروا أنّ سبب قلّة العمران بها ، أنّ الفقهاء أفتوا بأنّها مشعر من المشاعر ، فلا يجوز لأحد أن يقتطع منها قسماً يستأثر به ويمنع الحاجّ من النزول فيه ، أو بالبناء المبني فيه ، وهي تكاد تكون ، في غير موسم الحاجّ خالية ، فإذا حلّ الموسم اكتظّت بالحجّاج اكتظاظاً عظيماً ، حتى أني في ثالث الأضحى ، استأجرت في الثانية عشرة ظهراً سيارة توصلني إلى مكّة ، فلم أصل إلاّ في الرابعة ، مع وجود أربعة طرق عريضة للسيّارات ، عدا الطرق المخصّصة للمشاة .

فلمّا عدت ، وجدت البيت مفتوحاً ، فارغاً ، فتحيّرت ، ونزلت بي شدّة ما مرّ بي قطّ مثلها .

فقلت : هذا أعظم للثواب ، فما وجه الغمّ ، فاستسلمت لأمر الله عزّ وجلّ .

فجلست في البيت ، لا حيلة لي ، ولا تسمح نفسي بالمسألة ، فاتّصل مقامي ثلاثة أيّام ، ما طعمت فيها شيئاً .

فلمّا كان في اليوم الرابع ، بدأ فيّ الضعف سَحَراً ، وخفت على نفسي ، وذكرت قول جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله : ماء زمزم لما شرب له ، فخرجت أريدها حتّى شربت منها ، ورجعت أريد باب إبراهيم الخليل[٤] على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام لأستريح فيه .

فبينا أنا أسير ، إذ عثرت في الطريق بشيءٍ أوجع إصبعي ، فأكببت عليه لأمسكه ، فوقعت يدي على هميان أدم[٥] أحمر كبير ، فأخذته .

فلمّا حصلَ في يدي ، ندمتُ ، وعلمت أنّ اللقطة – ما لم تعرّف – حرام .

وقلت : إن تركته الآن ، كنتُ أنا المضيّع له ، وقد لزمني أن أعرّفه ، ولعلّ صاحبه ، إذا رجع إليه ، أن يهب لي شيئاً أقتاته حلالاً .

فجئت إلى بيتي ، وفتحت الهميان[٦] ، فإذا فيه دنانير صفر ، تزيد على ألفي دينار .

فسددته ، ورجعتُ إلى المسجد ، فجلست عند الحِجْر[٧] ، وناديت : من ضاع

٤ باب إبراهيم : أحد أبواب الحرم ، اعتبره ابن جبير في رحلته (ص ٧٤) منسوباً للنبيّ ابراهيم الخليل ، فقال : باب ابراهيم الخليل صلّى الله عليه وسلّم ، في زاوية كبيرة ، فيها دار إمام المالكيّة في الحرم ، وفيها خزانة للكتب ، أما ابن بطّوطة ، فقد ذكر في رحلته (ص ٢١١) باب ابراهيم وقال : إنّ البعض ينسبه إلى ابراهيم الخليل عليه السّلام ، والصحيح أنه منسوب إلى ابراهيم الخوزي من الأعاجم .

٥ الأديم : الجلد المدبوغ .

٦ الهميان : راجع حاشية القصّة ٢٤٥ من هذا الكتاب .

٧ الحجر ، بكسر الحاء وسكون الجيم : موضع بجانب الكعبة ، فيه قبر هاجر أم اسماعيل عليه السلام (معجم البلدان ٢/٢٠٨) .

له شيءٌ ، فيأتيني بعلامته ، ويأخذه .

فانقضى يومي ، وأنا أنادي ، وما جاءني أحد ، وأنا على حالي من الجوع .

وبتّ في بيتي ، ليلتي كذلك ، وعدت إلى الصفا والمروة[8] ، فعرّفته عندهما يومي ، حتّى كاد [١٨٨ غ] ينقضي ، فلم يأتني أحد .

فضعفت ضعفاً شديداً ، وخشيت على نفسي ، فرجعت متحاملاً ، ثقيلاً ، حتّى جلست على باب إبراهيم الخليل ، على نبيّنا وعليه السلام ، وقلت قبل انصرافي : إنّي قد ضعفت عن الصياح وأنا ماضٍ أجلس على باب إبراهيم ، فمن رأيتموه يطلب شيئاً ضاع منه ، فأرشدوه إليّ .

فلمّا قرب المغرب ، وأنا في الموضع ، إذا أنا بخراسانيّ ينشد ضالّة ، فصحت به ، وقلت له : صف لي ما ضاع منك [١٩٣ م] ، فأعطاني صفة الهميان بعينه ، وذكر وزن الدنانير وعددها .

فقلت : إن أرشدتك إلى من يردّه عليك ، تعطيني منه مائة دينار ؟ .

قال : لا .

قلت : فخمسين ديناراً ؟

قال : لا .

قلت : فعشرة دنانير ؟

قال : لا .

فلم أزل أنزل معه ، حتّى بلغت إلى دينار واحد .

فقال : لا ، إن رأى من هو عنده ، أن يردّه إيمانا واحتساباً ، وإلّا فهو أبصر ، وولّى لينصرف [١٨٩ ر] .

فورد عليّ أعظم وارد ، وهممت بالسكوت ، ثمّ خفت الله سبحانه وتعالى ،

---

٨ الصفا والمروة : أكمتان في مكّة ، قرب المسجد الحرام ، والسعي بينهما من مناسك الحجّ ، راجع معجم البلدان ٣/٣٩٧ و ٤/٥١٣ .

وأشفقت أن يفوتني الخراسانيّ .

فصحت به : إرجع ، إرجع ، وأخرجت الهميان ، فدفعته إليه ، فأخذه ، ومضى ، وجلست ، ليس لي قوّة على المشي إلى بيتي .

فما غاب عنّي إلّا قليلاً ، حتّى عاد ، فقال لي : من أي البلاد أنت ، ومن أيّ النّاس ؟ .

قال : فاغتظت منه غيظاً شديداً ، وقلت : ما عليك ، هل بقي لك عندي شيئ ؟

قال : لا ، ولكنّي أسألك با لله العظيم ، من أي النّاس والبلاد أنــتَ ؟ فعرّفني ، ولا تضجر .

فقلت : رجلٌ من العرب ، من أهل الكوفة .

فقال : من أيّهم أنت ، واختصِرْ ؟

فقلت : رجل من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم .

فقال : ما حالك ومالك ؟

قلت : لا أملك في هذه الدنيا كلّها إلّا ما تراه ، وقصصت عليه حال محنتي وما كنت طمعت فيه أن يعطينيه من الهميان ، وما قد انتهيت إليه من الضعف من الجوع .

فقال : أريد من يعرّفني صحّة نسبك وحالك ، حتّى أقوم بجميع أمرك كلّه .

فقلت : ما أقدر على المشي للضعف ، ولكن إئت الطواف ، وصح بالكوفيّين ، وقل : رجل من بلدكم ، علويّ ، بباب إبراهيم ، يريد أن يجيئه منكم من ينشط لحالٍ هو فيها ، فمن جاء معك فهاته .

فغاب غير بعيد ، ثمّ جاء ومعه من الكوفيين جماعة اتّفق أنّهم كلّهم كانوا يعرفون باطن حالي .

فقالوا : ما تريد أيّها الشّريف[9] ؟

---

٩ الشريف : تعبير يطلق على من كان من السلالة النبويّة .

فقلت : هذا رجلٌ يريد أن يعرف حالي ، ونسبي ، لشيءٍ بيني وبينه ، فعرّفوه ما تعرفون من ذلك .

قال : فعرّفوه صحّة نسبي ، ووصفوا له طريقتي ، وعدمي .

فمضى ، وجاء فأخرج الهميان بعينه ، كما سلّمته إليه ، فقال : خذ هذا بأسره ، بارك الله لك فيه .

فقلت : يا هذا ، ما كفاك ما عاملتني به ، حتّى تهزأ بي ، وأنا في حال الموت .

قال : معاذ الله ، هو لك ، والله .

فقلت : فلِمَ بخلتَ عليّ بدينار منه [١٨٩ غ] ، ثمّ وهبت لي الجميع ؟

فقال : ليس الهميان لي ، وما كان يجوز لي أن أعطيك منه شيئاً ، قلّ أو كثر ، وإنّما أعطانيه رجل من بلدي ، وسألني أن أطلب في العراق ، أو في الحجاز ، رجلاً علوياً ، حسينياً ، فقيراً ، مستوراً ، فإذا علمت هذا من حاله ، أغنيته ، بأن أسلّم إليه هذا المال كلّه ، ليصير أصلاً لنعمة تنعقد له ، فلم تجتمع لي هذه الصفات قبلك في أحد ، فلمّا اجتمعت فيك ، بما شاهدته من أمانتك ، وفقرك ، وعفّتك ، وصبرك ، وصحّ عندي نسبك ، أعطيتكه .

فقلت له : يرحمك الله ، إن كنت تحبّ استكمال الأجر ، فخذ منه ديناراً ، وابتع لي به دراهم ، واشتر بها ما آكله ، وصر به إليّ الساعة ها هنا .

فقال : لي إليك حاجة .

قلت : قل .

قال : أنا رجلٌ موسر ، والّذي أعطيتك ليس لي فيه شيئ ، كما عرّفتك ، وأنا أسألك أن تقوم معي إلى رحلي ، فتكون في ضيافتي إلى الكوفة ، وتتوفّر عليك دنانيرك .

فقلت : ما فيّ حركة ، فاّحتل في حملي ، كيف شئت .

فغاب عنّي ساعة ، وجاء بمركوب ، وأركبنيه إلى رحله ، وأطعمني في الحال

ما كان عنده ، وقطع لي من الغد [١٩٤ م] ثياباً وكان يخدمني بنفسه ، وعادلني في عمّاريته[١٠] إلى الكوفة ، فلمّا بلغتها ، أعطاني من عنده دنانير أخر ، وقال لي : تزوّد بها بضاعة ، وفارقته ، وأنا أدعو له ، وأشكره ، ولم أمسّ الهميان .

وأخذت [٢٣ ن] أنفق من الدنانير الّتي أعطانيها الرّجل ، باقتصاد ، إلى أن اتّفقت لي ضيعة رخيصة ، فابتعتها بالهميان ، فأغلّت ، وأثمرت ، وأنا ، من الله عزّ وجلّ ، في نعمة جزيلة ، وخير كثير ، والحمد لله على ذلك .

---

١٠ العمّارية : شبه الهودج ، يوضع على ظهر الدابّة ، ويركب فيه المسافر .

٣٣٧
سافر إلى الموصل ثمّ إلى نصيبين
في طلب التصرّف حتّى إذا أيس جاءه الفرج

وذكر القاضي أبو الحسين ، في كتابه ، قال : قال بعضهم :

لحقتني نكبة في بعض الاوقات ، وتطاولت عليّ الأيّام في العطلة ، وركبني دين فادح ، وبعت آخر ما كان في ملكي .

فصار إليّ صديق لي ، حاله مثل حالي في العطلة ، فقال : هل لك أن نخرج إلى الموصل[1] ، فإنّ عاملها فلان ، ولي به حرمة ، فنتطلّب منه تصرّفاً .

فقلت : أفعل .

فاحتلت نفقة ، وخرجنا ، حتّى دخلنا الموصل ، فوجدنا العامل يريد الرحيل إلى ديار ربيعة[2] .

قال : فلقيه الرّجل ، ولم يتهيّأ لي لقاءه ، وخرجنا إلى ناحية ، فلقيته أنا هناك ، فوعد [١٧٦ م] جميلاً ، وسرتُ إلى نصيبين ، وقد نفدتْ نفقتي .

وكشف لنا العامل هناك ، أنّه قد قلّد مصر ، مضافاً الى أعماله ، وأنّه يريد الخروج إليها .

---

١ الموصل : قال ياقوت في معجم البلدان ٤/٦٨٢–٦٨٥ إنّها إحدى قواعد بلاد الإسلام ، وهي باب العراق ، وإنّما سمّيت الموصل ، لأنّها وصلت بين الشرق والغرب ، وهي كثيرة الخيرات ، عذبة الماء ، صحيحة الهواء ، شديدة الحرّ في الصيف ، شديدة البرد في الشتاء . أقول : وقد عانيت ، أنا ، من برد الموصل ، فقد نقلت إليها قاضياً ، في خريف السنة ١٩٣٦ ، ومكثت فيها شهراً ، وكنت قد أعددت لنفسي ثياباً ثقيلة ، ومعطفاً ، ولكنّي لاقيت فيها ما لا عهد لي به من البرد ، فاضطررت إلى استعارة عباءة صوف ثقيلة من أحد أصدقائي هناك ، السيد رؤف المفتي رحمه الله ، أحد القضاة المتقاعدين .

٢ ديار ربيعة : ما بين الموصل إلى راس عين ، وما بينها من المدن والقرى يسمّى ديار ربيعة ، لأنّ أهلها كلهم من ربيعة ، وتعبير الجزيرة يشمل ديار ربيعة وديار بكر (معجم البلدان ٢/٦٣٧) .

فقلت لصديقي : إنّه لم تبق معي نفقة ، ولا فيّ فضل للخروج إلى مصر ، فأعطاني من نفقته .

وقد كان صديقي تقلّد من قِبَلِ العامل عملاً جليلاً ، وخرج إليه ، وأقمت أنا بنصيبين ، وأقام العامل بها ، ليصلح أمره ويخرج إلى مصر ، وعملت أنا على أن أتحمّل بما أعطانيه صديقي ، وأرجع إلى بغداد[3] .

فغلب عليّ ضيق الصدر ، والهمّ ، واستدعيت المزيّن ليصلح شعري ، فهو بين يديّ ، إذ دخل عليّ غلام العامل ، فقال : صاحبي يطلبك ، وقد قلبنا عليك الدنيا منذ أمس ، فلم نعرف منزلك إلّا الساعة .

ففرغت من شغلي مع المزيّن ، وتوضّأت ، وركبت ، وكان يوم الجمعة ، فلمّا صرت في دار العامل ، لقيني غلامه ، وكان حاجبه ، فقال : نحن في طلبك منذ أمس ، فلم توجد ، وقد قام الآن عن مجلسه ، وأخذ في التشاغل بأمر الصلاة ، ولكن بكّر في غد .

قال : فضعف في نفسي ، وقلت : إنّه ما أرادني لخير ، وعملت على أن أنحدر تلك العشيّة إلى بغداد .

فلم يدعني غلامي ، وقال : أقلّ ما في الأمر ، أن يكون الرّجل قد تذمّم من

---

٣ بغداد : حاضرة العراق الآن ، وعاصمة العبّاسيّين الزاهرة ، وعاصمة العالم الإسلامي مدّة طويلة من الزمان ، قال عنها ياقوت : إنّها أمّ الدنيا ، وسيّدة البلاد (معجم البلدان ٦٧٧/١) ، وقال عنها أبو إسحاق الزجّاج : بغداد حاضرة الدنيا ، وما سواها بادية (لطائف المعارف ١٧٠) وقال عنها اليعقوبيّ : بغداد وسط الدنيا ، وسرّة الأرض (البلدان ٢٣٣) وقال عنها المقدسي : مصر الاسلام ، ومدينة السلام (أحسن التقاسيم ١١٩) وقال عنها ابن بطّوطة : مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ، ذات القدر الشريف ، والفضل المنيف (مهذب رحلة ابن بطّوطة ١٧٢/١) ، للتفصيل ، راجع دائرة المعارف الاسلامية ٣/٤-٢١ ومعجم البلدان ٦٧٧/١-٦٩٣ ولطائف المعارف ١٧٠-١٧٣ والبلدان لليعقوبي ٢٣٣-٢٥٤ وأحسن التقاسيم للمقدسي ١١٩-١٢٢ ومهذب رحلة ابن بطّوطة ١٧٢/١-١٧٧ ورحلة ابن جبير ١٧٣-١٨٤ وتاريخ بغداد للخطيب ٣/١-١٣١ وكتاب بغداد مدينة السلام ، إخراج نقابة المهندسين العراقيّين سنة ١٩٦٩ ، وكتاب دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً تأليف الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسه.

اتّباعك إيّاه إلى هاهنا ، فيطلق لك نفقة ، ونحن مضيقون .

فعلمت أنّ الصواب في لقائه ، فأقمت ، وبكرت من غدٍ ، فدخلت إليه ، فعاتبني على انقطاعي عنه .

وقال : أنا مفكّر في أمرك ، وقد غمّني طول تعطّلك ، مع قصدك إيّاي من بغداد ، ومسيرك معي إلى ها هنا ، ثمّ التفت إلى كاتب بين يديه ، فقال : أكتب له كتاب التقليد ، للإشراف على الضياع بديار مضر[4] ، وأحل النفقة على الثغور الجزريّة [١٧١ غ] ، واستقبِلْ برزقه ، وهو مائة وخمسون ديناراً ، في كلّ شهر ، الوقت الّذي جاءنا فيه إلى الموصل[5] .

قال : فشكرته ، واضطربتُ من قلّة الرّزق .

فقال : إقبل هذا ، ولا تخالفني ، إلى أن يسهّل الله – جلّت عظمته – غيره ، فقمت مفكّراً ، من أين أصلح أمري ، وأتحمّل إلى العمل ، وأنفق إلى أن أصل إليه .

قال : فما خرجت من الدّار حتّى ردّني ، فقال : بالباب قوم يحتاج إلى إثباتهم ، فاجلس ، وأثبتهم ، واعمل لهم جرائد[6] بأسمائهم ، وحلاهم[7] ، وأرزاقهم ، واستقبالاتهم ، وجئني بها .

فتشاغلت بذلك يومين ، وثلاثة ، وجئت بالجرائد ، فلمّا وقف عليها أعجبته ، وقال : أرى عملك ، عمل فَهِمٍ بالجيش .

فقلت : ما عملته قط إلّا مرّة واحدة .

---

٤ ديار مضر : المنطقة التي تشمل السهل الواقع شرقي الفرات نحو حرّان والرقّة وشمشاط وسروج وتل موزن (معجم البلدان ٢/٦٣٧) .

٥ يعني أنّه أمر الكاتب أن يحتسب للرجل رزقه ، أي راتبه الشهري ، اعتباراً من تاريخ خروجه معه من الموصل ، لا من تاريخ مباشرته بالعمل الذي أناطه به .

٦ الجريدة : القائمة .

٧ الحلى ، بضم الحاء وكسرها ، مفردها : الحلية وتعني شكل الإنسان ، ولونه ، وهيأته .

فقال : لم أقل هذا لأنّك تقصر في نفسي عن غيره ، ولكن ينبغي للكاتب ، والعامل ، أن يحسنا كلّ شيئ يقع عليه اسم كتابة وعمالة .

ثمّ قال : خذ هذا الصكّ ، واقبض ما فيه من الجهبذ ، واجلس في المسجد المحاذي لداري ، وأنفق في الصنف الفلاني من أهل هذه الجريدة .

قال : فأخذتُ الصكّ وكان بألوف دنانير ، فأخذت ماله ، وأنفقت في القوم ، وتفرّقوا وهم شاكرون ، وفضل مال من ذلك ، وكتبت إليه بخبره ، واستأمرته فيما أعمل به .

فقال : خذه من رزقك .

وأعطاني مالاً ثانياً ، وقال : أنفقه في الصنف الآخر ، إلى أن انفقت في جميع أهل الجريدة ، فحصل لي من ذلك ، زيادة [١٧٧ م] على ألف دينار ، فجعلتها في طريقي لنفقتي .

وشخصت قبله إلى ديار مضر ، فنظرت في العمل ، وسار هو مجتازاً إلى مصر .

واستأذنته في المسير إليها معه ، فقال : لا أحبّ أن أعجّل لك الصرف ، ونحن نمضي إلى أعمال فيها قوم ، ولعلّي أقف من حالهم على ما لا يجوز معه صرفهم ، فتحصل أنت على الصرف المعجّل ، ولكن أقم بمكانك وعملك ، وأسير أنا ، فإن احتجتُ إلى متصرّفين ، كنتَ أوّلَ من استدعيته .

فشكرته ، وأقمت في عملي سنتين ، أثريت فيهما ، وعظمت حالي ، ولم يتّفق استدعاؤه إيّاي إلى مصر ، إلى أن صرفت ، وانسللت من الرقّة ، ودخلت بغداد ، موفّراً ، ومعي مال جليل ، فابتعت به ضيعة ، ولزمتها ، وتركت التصرّف[٨] .

---

٨ لا توجد هذه القصّة في ر .

٣٣٨
للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة

وذكر أبو الحسين القاضي ، قال : حدّثني أبي ، عن بعض إخوانه ، أحسبه أبا يوسف يعقوب بن بيان ، أنّه قال :

أملق بعض الكتاب في أيّام الرّشيد حتّى أفضى إلى بيع أنقاض داره ، ونقض ما فيها ، فلم يبق فيها إلّا بيتاً واحداً ، كان يأوي إليه وولده ، وانقطع عن النّاس ، وانقطعوا عنه دهراً [١٥ ن] .

وكان الرّشيد يولّي [على أذربيجان] في كلّ سنتين أو ثلاثة ، رجلاً من بني هاشم .

فولّاها سنة من السنين ، رجلاً منهم كان متعطّلاً ، فطلب كاتباً فارهاً يصطنعه ، وشاور فيه صديقاً له من الكتاب ، فوصف له هذا الرّجل المتعطّل ، ووعده بإحضاره ، وصار إليه ، وطرق الباب عليه ، ودخل ، فوجده من الفقر على حال لا يتهيّأ له معها لقاء أحد .

فبعث إليه من منزله بخلعة من ثيابه ، ودابّة ، وغلاماً ، وبخوراً ، ودراهم ، فركب معه إلى الهاشمي ، فلقيه .

وامتحنه الهاشمي ، فوجده بارعاً في صناعته ، فاستكتبه ، وقرّر جاريه ، وأمر له بمالٍ معجّلٍ معونة له على سفره ، وأمره بأن يتقدّمه إلى أذربيجان .

فعاد الرّجل إلى منزله ، وأصلح من حاله ، وخلّف نفقة لعياله ، وشخص .

فلمّا بلغ المصروف الخبر ، رحل عن البلد ، وأخذ غير الطريق الّذي بلغه أنّ الكاتب قد سلكها ، وخلّف كاتبه لرفع الحساب .

فلمّا شارف كاتب الوالي الناحية ، خرج إليه كاتب المعزول ولقيه ، فسأله عن صاحبه ، فأعلمه شخوصه إلى مدينة السلام ، فأنكر ذلك .

فقال له كاتب المعزول : مل بنا إلى موضع نجلس فيه ، ونتحدّث ، وترى رأيك ، فمالا ، ونزلا ، وطرح [١٨٠ م] لهما ما جلسا عليه .

فقال : أعزّك الله لا تنكر انصراف صاحبي ، فإنّه رجل كبير المقدار ، وفي مقامه إلى أن تصيروا إلى العمل ، مهانة تلحقه ، وقد خلّف قبلي ، خمسين ومائة ألف درهم لصاحبك ، ودواباً ورقيقاً بقيمة ثلاثة آلاف درهم ، فاقبض ذلك ، واكتب لنا كتاباً بإزاحة علّتك ، وانفصال ما بيننا وبينك ، ونحن ننصب لك من يرفع الحساب ، رفع من لا يستقصى عليه ، ولا يُعْنَت .

فقبل كاتب الوالي ذلك ، وركبا ، وقد زال الخلاف فيما بينهما ، وخرج الكاتب لاحقاً بصاحبه ، وخلّف من يسلّم الحساب .

واتّصل ظاهر الخبر بالهاشمي الوالي ، وكتب إليه كاتبه : إنّي قد بلغت من الأمر مبلغاً مرضيّاً ، إذا وقفت عليه .

فلمّا ساروا إلى الناحية ، عرف ما جرى ، فحسن موقعه ، وتبرّك بالكاتب ، وغلب على قلبه ، فكسب مالاً عظيماً .

فلمّا مضت ثلاث سنين ، صُرِفَ الهاشمي بالرّجل الّذي كان والياً قبله ، وبلغ الهاشمي الخبر .

فقال لكاتبه : ما الرأي ؟

قال : نفعل به مثلما فعل بنا ، وترحل أنت ، وأقيم أنا ، ومعي مثل ما أعطانا ، فأعطيه إيّاه ، وآخذ كتابه بانفصال ما بيننا وبينه ، وألحق بك ، ففعل .

ووافى كاتب الصارف ، الّذي كان معروفاً ، فتلقّاه الكاتب في الموضع الّذي لقيه فيه ، لما كان معزولاً مصروفاً ، فسلّم عليه ، وعدلا فنزلا ، وعرض عليه ما خلّفه صاحبه ، له ، ولصاحبه ، وسأله قبول ذلك ، والكتاب بمثل ما كان كتب الى الرّشيد ، فامتنع من قبول ذلك ، وكتب له بانفصال ما بينهما ، إلى الرّشيد ، كتاباً وكيداً .

وقال له : أراك فاضلاً ، فطناً ، وأرى صاحبك عاقلاً ، وقبول ذلك ، لا يكون

منكما مكافأة ، بل كأنّه بيع وشراء ، وقد فكّرت في أمر ، هو أنفع – لنا ولكم – من هذا .

قال : ما هو ؟

فقال : أعقد بين صاحبك وصاحبي صهراً ، وبيني وبينك صهراً ، ونكون إخوة وأصدقاء .

فقال : فعل الله بك وصنع ، ما في الدنيا أكرم ولاية ، ولا صرفاً منك .

فعقدا بينهما الصهرين ، وسارا إلى مقصدهما ، ودخل الكاتب بغداد ، وقد حصّل الهاشميّ صاحبه ، فأخبره الخبر ، فأحمد رأيه ، وأمضى عقده في المصاهرة .

فصار الكاتب من أرباب الأحوال ، وعاد إلى أفضل ما كان عليه[1] .

---

١ انفردت م بهذه القصّة .

٣٣٩

هاك يا هذا الذي لا أعرفه

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه ، قال : روي عن شيخ من أهل الكوفة ، قـال :

أملقت وبلغت بي الحال أن نقضْتُ منزلي ، فلما اشتدّ عليّ الأمر ، وتجرّد عيالي من الكسوة ، جاءتني الخادمة ، فقالت : ما لنا دقيق ، ولا معنا ثمنه ، فما نعمل ؟ [١٨٢ م] .

فقلت : أسرجي حماري ، وقد كان بقي لي حمار .

فقالت : ما أكل شعيراً منذ ثلاث ، فكيف تركبه ؟

فقلت : أسرجيه على كلّ حال ، فأسرجَتْهُ ، فركبته ، أدبّ عليه ، هارباً ممّا أنا فيه ، حتى انتهيت إلى البصرة .

فلما شارفتها إذا أنا بموكب مقبل ، فلما انتهوا إليّ ، دخلت في جملتهم ، فرجعت الخيل تريد البصرة ، فسرت معهم حتى دخلتها ، وانتهى صاحب الموكب إلى منزله ، فنزل ، ونزل الناس معه ، ونزلت معهم .

ودخلنا ، فإذا الدهليز مفروش ، والناس جلوس مع الرجل ، فدعا بغداء ، فجاءوا بأحسن غداء ، فتغدّيت مع الناس ، ثم وضّأنا ، ودعا بالغالية ، فغلّفنا بها [١] .

ثم قال : يا غلمان ، هاتوا سَفَطاً [٢] ، فجاءوا بسفط أبيض مشدود ، ففتح فإذا فيه أكياس ، في كلّ كيس ألف درهمٍ ، فبدأ يعطي مَنْ على يمينه ، فأمرّها

---

١ الغالية : أخلاط من الطّيب ، والمتعطّر بها يمسح بها شعر رأسه ولحيته ، فكأنّه يغلّف بها رأسه .

٢ السفط : وعاء كالقفة أو الجوالق (المنجد) ، أقول : السفط عند البغداديّين ، حقّ ذو أطواق ، يصنع من القشّ ، ويتّخذ لحفظ الحلي والأشياء الدقيقة ، وما يزال ، سائراً في بغداد ، المثل العربي : قد يوجد في الأسقاط ، ما لا يوجد في الأسفاط .

عليهم ، ثم انتهى إليّ وأعطاني كيساً ، ثم ثنّى وأعطاني آخر ، ثم ثلّث وأعطاني آخر ، وأخذت الجماعة .

وبقي في السفط كيس واحد ، فأخذه بيده ، وقال : هاك يا هذا الذي لا أعرفـه .

فأخذت أربعة أكياس ، وخرجت ،

فقلت لانسان : من هذا ؟

قال : عبيدالله بن أبي بكرة[3] .

---

٣ لم ترد هذه القصّة في ر ولا في غ ، وعبيد الله بن أبي بكرة ، هو أبو حاتم عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي (١٤–٧٩) : بصري ، تابعي ، ثقة ، ولّي إمارة سجستان ، ثم ولّي قضاء البصرة ، وأخباره في الجود متواترة ، وكان ينفق على أربعين داراً من جيرانه ، في جهات داره الأربع ، ويعتق في كلّ عيد مائة عبد (الأعلام ٤/٣٤٥) .

٣٤٠
أوّل دخول الأصمعي إلى الرشيد

وذكر أبو الحسين في كتابه أيضاً ، أنّ الأصمعيّ قال :

لزمت باب الرشيد ، فكنت أقيم عليه طول نهاري ، وأبيت باللّيل مع الحراس أسامرهم ، وأتوقّع طالع سعد ، حتّى كدت أموت ضرًّا وهزالاً ، وأن أصير إلى ملالة ، ثم أتذكّر ما في عاقبة الصبر من الفرج ، فأؤمّل صلاح حالي باتّفاق محمود ، فأصبر .

فبينا أنا ذات ليلة ، وقد قاسيت فيها السهاد والأرق ، إذ خرج بعض الحجّاب ، فقال [١٧٨ غ] : هل بالباب أحد يحسن الشعر ؟

فقلت : الله أكبر ، ربّ مضيق فكّه التيسير ، أنا ذلك الرجل .

فأخذ بيدي ، وقال : ادخل ، فإن ختم لك بالسعادة ، فلعلّها أن تكون ليلة تقرّ عينك فيها بالغنى .

فقلت : بشّرك الله بخير ، ودخلت ، فواجهت الرشيد في البهو جالساً ، والخدم قيام على رأسه ، وجعفر بن يحيى البرمكي ، جالس إلى جنبه .

فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي ، فسلّمت ، ثم قال : تنحّ قليلاً حتى تسكن ، إن كنت وجدت روعة .

فقلت في نفسي : فرصة تفوتني آخر الدهر ، إن شغلت بعارض ، فلا أعتاض منها إلاّ كمداً ، حتى يصفق عليّ الضريح ، فقلت : إضاءة كرم أمير المؤمنين ، وبهاء جدّه ، يجرّدان من نظر إليه من أذية النفس ، يسألني - أيّده الله - فأجيب ، أو أبتدئ فأصيب ؟

فتبسّم إلي جعفر ، وقال : ما أحسن ما استدعى الإحسان ، وحريّ به أن يكون محسناً .

ثم قال لي : أشاعر أنت ، أم راوية للشعر ؟

قلت : راويـة .

قال : لمـن ؟

قلت : لكلّ ذي جدّ وهزل ، بعد أن يكون محسناً .

فقال : أنصف القارة من راماها .

ثم قال : ما معنى هذه الكلمة ؟

قلت : لها وجهان ، زعمت التبابعة ، أنّه كان لها رماة لا تقع سهامها في غير الحدقّ ، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه [١٨ ن] الملك ، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته ، فنادى : أين رماة الحدق ؟

فقالت العرب : أنصف القارة من راماها .

والوجه الآخر : الموضع المرتفع من الأرض ، والجبل الشاهق ، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه ، وما أحسب هذا هو المعنى ، لأنّ المراماة ، كالمعاطاة ، وكما أنّ المعاطاة للنديم ، هي أن يأخذ كأساً ، ويعطي كأساً ، كذلك المراماة ، أن يرميها وترميه .

فقال : أصبت ، فهل رويت للعجّاج بن رؤبة [١] شيئاً ؟

قلت : الأكثر .

قال : أنشدني قوله :

أرّقــني طـــارقُ هــمٍّ طرقـــا

فمضيت فيها مضيّ الجواد ، تهدر أشداقي ، فلمّا بلغت مدحه لبني أميّة ، ثنيت عنان اللسان ، لامتداحه المنصور .

---

١ كذا في الأصل ، وأحسب أنّ الصحيح : رؤبة بن العجّاج ، الراجز المشهور ، إذ أنّ والده العجّاج بن رؤبة ، توفّي في السنة ٩٠ ولم يدرك المنصور ، وإنّما أدركه ولده أبو الجحّاف رؤبة ، إذ كان من مخضرمي الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة ، ومات بالبادية سنة ١٤٥ (الأعلام ٦٢/٣ و ٢١٧/٤) .

فقال : أعن عمد ، أو غير عمد ؟

فقلت : عن عمد ، تركت كذبه إلى صدقه ، بما وصف فيه المنصور من مجده .

فقال جعفر : بارك الله عليك ، مثلك يؤهّل لمثل هذا الموقف .

ثم التفت إليّ الرشيد ، فقال : أرويت لعديّ بن الرقاع[٢] ، شيئاً ؟

قلت : الأكثر ، قال : أنشدني قوله :

بـانت سعاد وأخلفـت ميعـادها

فابتدأت تهدر أشداقي ، فقال جعفر : يا هذا أنشد على [١٨٥ م] مهل ، فلن تنصرف إلاّ غانماً .

فقال الرشيد : أمّا إذ قطعت عليّ ، فأقسم ، لتشركني في الجائزة .

قال : فطابت نفسي ، فقلت : أفلا ألبس أردية التيه على العرب ، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب ، فتبسّم ، ومضيت فيها .

ثم قال : أرويت لذي الرمّة[٣] شيئاً ؟ قلت : الأكثر ، قال [١٧٩ غ] أنشدني قوله :

أمن حـذر الهجـران قلبك يطمـح

فقلت : عروس شعره .

قال : فأيّه الختن[٤] ؟ قلت : قوله ، يا أمير المؤمنين :

ما بال عينيـك منها المـاء ينسكـب

---

٢ أبو داود عديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرقاع العامليّ : ترجمته في حاشية القصّة ٢٩٠ من الكتاب .

٣ أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي ، المعروف بذي الرمّة (٧٧–١١٧) : شاعر من فحول الطبقة الثانية ، مقيم بالبادية ، يجيد التشبيه والنسيب (الأعلام ٥/٣١٩) .

٤ كذا وردت في م وفي ن .

فقال : امضِ فيها ، فمضيت فيها ، حتى انتهيت إلى وصفه جمله .

فقال جعفر : ضيّق علينا ما اتّسع من مسامرة السهر ، بجمل أجرب .

فقال الرشيد : أسكت ، فهي التي سلبتك تاج ملكك ، وأزعجتك عن قرارك ، ثم جعلت جلودها سياطاً ، تضرب بها أنت وقومك عند الغضب .

فقال جعفر : الحمد لله ، عوقبت من غير ذنب .

فقال الرشيد : أخطأتَ في كلامك ، لو قلتَ : أستعين بالله ، قلتَ صواباً ، إنّما يحمد الله تعالى على النعم ، ويستعان على الشدائد .

ثم قال لي : إنّي لأجد مللاً ، وهذا جعفر ، ضيف عندنا ، فسامره باقي ليلتك ، فإذا أصبحت ، فإنّ وضّاء الخادم ، يلقاك بثلاثين ألف درهم .

قال : ثم قرّبت إليه النعل ، فجعل الخادم يصلح عقب النعل في رجله ، فقال : ارفق ويحك ، أحسبك قد عقرتني .

فقال جعفر : قاتل الله العجم ، لو كانت سنديّة ، ما احتاج أمير المؤمنين إلى هذه الكلفة .

فقال : هذه نعلي ونعل آبائي ، ما تدع نفسك والتعرّض لما تكره .

ثم قال لي جعفر : لولا أنّ المجلس مجلس أمير المؤمنين ، ولا يجوز لي فيه أن آمر بمثل ما أمر به ، لأمرت لك بثلاثين ألف درهم ، ولكنّي آمر لك بتسعة وعشرين ألف درهم ، فاذا أصبحتَ فاقبضها والزم الباب .

قال : فما صلّيت من غدٍ الصبحَ ، إلاّ وفي منزلي ما أمر لي به ، فأيسرتُ ولزمتهما ، وزال ما كنت فيه من الضرّ ، وأتى الإقبال ، والنعمة والسلامة ، وأفلحتُ ، ولله الحمد[٥] .

---

٥ لم ترد هذه القصّة في ر .

٣٤١

قصّة حائك الكلام

وذكر أبو الحسين القاضي ، في كتابه ، قال : بلغني عن عمرو بن مسعدة ، أنّه قال :

كنتُ مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم ، حتى إذا نزل الرقّة ، قال لي : يا عمرو ، أما ترى الرخّجي[1] ، قد احتوى على الأهواز ، وهي سلّة الخبز ، وجميع الأموال قبله ، وقد طمع فيها ، وكتبي متّصلة في حملها ، وهو يتعلّل ، ويتربّص بنا الدوائر .

فقلت : أنا أكفي أمير المؤمنين هذا ، وأنفذ من يضطرّه إلى حمل ما عليه .

فقال : ما يقنعني هذا .

قلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره .

قال : تخرج إليه بنفسك ، حتى تصفّده بالحديد ، وتحمله إليّ ، بعد أن تقبض جميع ما في يده من أموالنا ، وتنظر في ذلك ، وترتّب فيه عمالاً .

فقلت : السمع والطاعة ، فلمّا كان من غد ، دخلت إليه .

فقال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟

قلت : أنا على ذاك .

قال : أريد أن تجيئني في غدٍ مودّعاً .

قلت : السمع والطاعة ، فلمّا كان من غدٍ ، جئت مودّعاً .

فقال : أريد أن تحلف لي ، أنّك لا تقيم ببغداد إلاّ يوماً واحداً ، فاضطربت من ذلك ، إلى أن حظر عليّ واستحلفني أن لا أقيم فيها أكثر [١٨٠ غ] من ثلاثة أيّام ، فخرجت ، وأنا مضطرب مغموم .

---

[1] عمر بن فرج الرخجي : ترجمته في حاشية القصّة ٣٧٤ من الكتاب .

وقلت في نفسي : أنا في موضع الوزارة ، وقد [١٨٦ م] جعلني مستحثًا إلى عامل ، ومستخرجاً ، ولكنّ أمر الخليفة لا بدّ من سماعه ، وامتثال مرسومه .

وسرت حتى قدمت بغداد ، ولم أقم بها إلاّ ثلاثة أيّام ، وانحدرت منها في زلّال[٢] ، أريد البصرة[٣] ، وجعل لي فيه خيش ، واستكثرت من الثلج لشدّة الحرّ .

فلمّا صرت بين جرجرايا[٤] ، وجبّل[٥] ، سمعت صائحاً من الشاطئ ، يصيح : يا ملاّح ، فرفعت سجف الزلاّل ، فاذا بشيخ كبير السنّ حاسر الرأس ، حافي القدمين ، خلق القميص .

فقلت للغلام : أجبه ، فأجابه .

---

٢ الزلاّل : نوع من الزوارق ، والظاهر من اسمها أنّها سريعة الإنسياب على وجه الماء ، راجع معجم المراكب والسفن في الاسلام لحبيب زيّات ، مادة : زلاّل .

٣ البصرة : ثغر العراق ، أمّ النخيل ، إحدى أمّهات مدن العراق ، الشهيرة الذكر في الآفاق ، الفسيحة الأرجاء ، المونقة الأفناء ، مدينة الدنيا ، ومعدن تجاراتها وأموالها ، بناها العرب سنة ١٦ في عهد الخليفة عمر ، وكانت مرتعاً خصباً للحروب الأهلية ، وازدهرت فيها التجارة البحريّة ، والحياة العقلية ، ثم جاءتها ضربات من الزنج ، والقرامطة ، خربتها حتى ضرب بخرابها المثل ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٣/٦٦٩-٦٧٢ والبلدان لليعقوبي ١/٦٣٦-٦٥٢ وأحسن التقاسيم للمقدسي ١١٧ و ١١٨ ورحلة ابن بطّوطة ١/١٣٩-١٤٢ .

٤ جرجرايا : بلد من أعمال النهروان الأسفل ، بين واسط وبغداد ، في الجانب الشرقي من دجلة ، خربت مع ما خرب من النهروانات (معجم البلدان ٢/٥٤) .

٥ جبّل : بليدة بين النعمانيّة وواسط ، في الجانب الشرقي من دجلة ، قال ياقوت في معجم البلدان ٢/٢٣ : كانت مدينة ، وهي الآن قرية كبيرة ، أقول : اشتهرت قصّة قاضي جبّل ، ورويت في أكثر من كتاب خلاصتها : أنّ أبا يوسف القاضي ، نصب قاضياً على جبل ، وبلغه أنّ الرشيد سيمرّ بجبّل ومعه أبو يوسف ، فكبّر عمامته ، وسرّح لحيته ، ووقف في المشرعة ، حتى مرّت حرّاقة الرشيد ، فصاح : يا أمير المؤمنين ، نعم القاضي قاضي جبّل ، عدل فينا ، وصنع كذا وكذا ، ثم وقف لهما في المشرعة الثانية ، والثالثة ، فقال الرشيد : هذا أعجب قاضٍ على وجه الأرض ، لم يمتدحه إلاّ رجل واحد ، فقال أبو يوسف : وأعجب من ذلك ، أنّ المثني على القاضي ، هو القاضي ، فضحك الرشيد ، حتى فحص برجله الأرض ، وعزله .

فقال : أنا شيخ كبير السنّ ، على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشّمس ، وكادت تتلفني ، وأنا أريد جبّل ، فاحملوني معكم ، فإنّ الله عزّ وجلّ يحسن أجر صاحبكم .

قال : فشتمه الملاّح ، وانتهره .

فادركتني عليه رقّة ، وقلت للغلام : خذه معنا ، فقدّم إلى الشط [6] ، وصحنا به ، وحملناه .

فلمّا صار معنا في الزلاّل ، وانحدرنا ، تقدّمتُ ، فدفع إليه قميص ، ومنديل ، وغسل وجهه ، واستراح ، فكأنّه كان ميتاً عاد إلى الدنيا .

وحضر وقت الغداء ، فتذمّمت [7] وقلت للغلام : هاته يأكل معنا .

فجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكل أديب ، نظيف ، غير أنّ الجوع قد أثّر فيــه .

فلمّا رفعت المائدة ، أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية ، كما يفعل العامّة ، في مجالس الخاصّة ، فلم يفعل ، فغسلت يدي .

وتذمّمت أن آمر بقيامه ، فقلت : قدّموا له الطست ، فغسل يده ، وأردت بعدها أن يقوم لأنام ، فلم يفعل .

فقلت : يا شيخ ، أيش صناعتك ؟

قال : حائك ، أصلحك الله .

فقلت في نفسي : هذه الحياكة علّمته سوء الأدب ، فتناومت عليه ، ومددت رجليّ .

فقال : قد سألتني عن صناعتي ، فأجبتك ، فأنتَ - أعزّك الله - مـا صناعتك ؟

---

٦ قدّم : تعبير بغدادي ، ما زال مستعملاً ، يقوله صاحب الزورق إذا ألصق زورقه بالشاطئ ، راجع حاشية القصّة ٣٧٧ من هذا الكتاب .

٧ تذمّم : استنكف واستحيا .

فأكبرتُ ذلك ، وقلت : أنا جنيت على نفسي هذه الجناية ، ولا بدّ من احتماله ، أتراه – الأحمق – لا يرى زلاّلي ، وغلماني ، ونعمتي ، وأنّ مثلي لا يقال له مثل هذا ؟

ثم قلت : أنا كاتب .

فقال : كاتبٌ كامل ، أم كاتب ناقص ؟ فإنّ الكتّاب خمسة ، فمن أيّهم أنت ؟ [١٩ ن]

فورد عليّ من قول الحائك ، مورد عظيم ، وسمعت كلاماً أكبرته ، وكنت متّكئاً ، فجلست .

ثم قلتُ له : فصّل الخمسة .

قال : نعم ، كاتب خراج ، يقتضي أن يكون عالماً بالشروط ، والطسوق[٨] ، والحساب ، والمساحة ، والبثوق[٩] ، والفتوق ، والرتوق .

وكاتب أحكام ، يحتاج أن يكون عالماً بالحلال ، والحرام ، والاختلاف ، والاحتجاج ، والإجماع ، والأصول ، والفروع .

وكاتب معونة ، يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص ، والحدود ، والجراحات ، والمراتبات[١٠] ، والسياسات .

وكاتب جيش ، يحتاج أن يكون عالماً بحلى الرجال ، وشيات الدوابّ ، ومداراة الأولياء ، وشيء من العلم بالنسب والحساب .

وكاتب رسائل ، يحتاج إلى أن يكون عالماً بالصدور ، والفصول ، والإطالة ، والإيجاز ، وحسن البلاغة ، والخطّ .

---

٨ الطسق : الوظيفة توضع على أصناف الزروع ، لكلّ جريب ، فارسيّة : تشك ، بمعنى الأجرة (مفاتيح العلوم ٤٠) .

٩ البثوق ، مفردها بثق ، بكسر الباء : موضع الكسر من الشط ، والبغداديّون يسمّون البثق : كسرة .

١٠ في غ : المواثبات .

قال : فقلت : أنا كاتب رسائل [١٨١ غ] .

قال : فأسألك عن بعضها ؟

قلت : سل .

قال : أصلحك الله ، لو أنّ رجلاً من إخوانك تزوّجتْ أمّه ، فأردتَ أن تكاتبه مهنّئاً ، فماذا كنت تكتب إليه ؟

ففكّرت في الحال ، فلم يخطر ببالي شيء ، فقلت : اعفني .

قال : قد فعلت ، ولكنّك ، لست بكاتب رسائل .

قلت : أنا كاتب خراج .

قال : لا بأس ، لو أنّ أمير المؤمنين ولاّك ناحية [١٨٧ م] وأمرك فيها بالعدل والإنصاف ، وتقصّي حقّ السلطان ، فتظلّم إليك بعضهم من مسّاحك ، وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، فحلف المسّاح بالله العظيم ، لقد أنصفوا ، وما ظلموا ، وحلف الرعية بالله العظيم ، أنّهم قد جاروا وظلموا ، وقالوا لك : قف معنا على ما مسحوه ، وأنظر من الصادق من الكاذب ، فخرجت لتقف عليه ، فوقفوا على قراح شكله : قاتل قثا ، كيف كنت تمسحه ؟

فقلت : كنت آخذ طوله على انعواجه [١١] ، وآخذ عرضه ، ثم أضربه في مثله .

قال : إن شكل قاتل قثا ، يكون رأساه محدّدان ، وفي تحديده تقويس .

قلت : فآخذ الوسط فأضربه بالعمود .

قال : إذاً ينثني عليك العمود ، فأسكتني .

فقلت : أنا لست كاتب خراج .

قال : فإذاً ماذا ؟

قلت : أنا كاتب قاضٍ .

قال : لا تبال ، أفرأيت لو أنّ رجلاً توفّي ، وخلّف امرأتين حاملتين ، إحداهما

---

١١ كذا في م ، وفي غ : انعراجه ، والانعواج ، عامية بغداديّة ، تعني الاعوجاج .

حرّة ، والأخرى سريّة ، وولدت السريّة غلاماً ، والحرّة جارية ، فعمدت الحرّة إلى ولد السريّة فأخذته ، وتركت بدله الجارية ، فاختصمتا في ذلك ، كيف الحكم بينهما ؟

قلت : لا أدري .

قال : فلست كاتب قاضٍ .

قلت : أنا كاتب جيش .

قال : لا بأس ، أرأيت ، لو أنّ رجلين جاءا إليك لتحلّيهما ، وكلّ واحد منهما ، اسمه ، واسم أبيه ، كاسم الآخر ، واسم أبيه ، إلاّ أنّ أحدهما مشقوق الشفّة العليا ، والآخر مشقوق الشفّة السفلى ، كيف كنت تحلّيهما ؟

قلت : أقول فلان الأعلم ، وفلان الأعلم .

قال : إنّ رزقيهما مختلفان ، وكلّ واحد منهما يجيءُ في دعوة الآخر .

قلت : لا أدري .

قال : فلست بكاتب جيش .

قلت : أنا كاتب معونة .

قال : لا تبالِ ، لو أنّ رجلين [رفعا إليك][12] شجّ أحدهما شجّة موضحة[13] ، وشجّ الآخر صاحبه شجّة مأمومة[14] ، كيف تفصل بينهما ؟

قلت : لا أدري .

قال : إذن ، لست كاتب معونة ، فاطلب لنفسك – أيّها الرجل – شغلاً غير هذا .

قال : فقصرت إلى نفسي ، وغاظني ، فقلت : قد سألتَ عن هذه الأمور ،

---

١٢ الزيادة من غ .

١٣ الشجّة الموضحة ، أو الواضحة : التي تكشف العظم .

١٤ الشجّة الآمّة أو المأمومة : التي تصل إلى أمّ الدماغ ، وتسمّى الجائفة أيضاً (مفاتيح العلوم ١٥) .

ويجوز أن لا يكون عندك جوابها ، كما لم يكن عندي ، فإن كنت عالماً بالجواب ، فقل .

فقال : نعم ، أمّا الذي تزوّجت أمّه ، فتكتب إليه : أمّا بعد ، فإنّ الأمور ، تجري من عند الله ، بغير محبّة عباده ، ولا اختيارهم [١٨٢ غ] ، بل هو تعالى ، يختار لهم ما أحبّ ، وقد بلغني تزويج الوالدة ، خار الله لك في قبضها ، فإنّ القبر أكرم الأزواج ، وأستر للعيوب ، والسلام .

وأمّا قراح قاتل قثا ، فيمسح العمود ، حتى إذا صار عدداً في يدك ضربته في مثله ، ومثل ثلثه ، فما خرج فهو مساحته .

وأمّا الجارية والغلام ، فيوزن اللبنان ، فأيّهما أخفّ ، فالجارية له .

وأمّا المرتزقان المتوافقان في الاسمين فإن كان الشقّ في الشفة العليا ، كتبت فلان الأعلم ، وإذا كان في الشفة السفلى ، كتبت فلان الأفلح .

وأمّا أصحاب الشجّتين ، فلصاحب الموضحة ثلث الديّة ، ولصاحب المأمومة نصف الدية .

قال : فلمّا أجاب في هذه المسائل ، تعجّبت منه ، وامتحنته في أشياء غيرها كثيرة ، فوجدته ماهراً في جميعها ، حاذقاً ، بليغاً .

فقلت : ألست زعمت أنّك حائك ؟

فقال : أنا – أصلحك الله – حائك كلام ، ولست بحائك نساجة ، ثم أنشأ يقول :

ما مرّ بؤس ولا نعيم إلاّ ولي فيهما نصيب [١٨٨ م]
نوائب الدهر أدّبتني وإنّما يوعظ الأديب[١٥]
قد ذقت حلواً وذقت مرّاً كذاك عيش الفتى ضروب

---

١٥ في غ : وانما يوعظ اللبيب .

قلت : فما سبب الذي بك من سوء الحال ؟

قال : أنا راجل كاتب ، دامت عطلتي ، وكثرت عيلتي [16] وتواصلت محنتي ، وقلّت حيلتي ، فخرجت أطلب تصرّفاً ، فقطع عليّ الطريق ، فتركت كما ترى ، فمشيت على وجهي ، فلمّا لاح لي الزلاّل ، استغثت بك .

قلت : فإنّي قد خرجت إلى تصرّف جليل ، أحتاج فيه إلى جماعة مثلك ، وقد أمرت لك بخلعة حسنة ، تصلح لمثلك ، وخمسة آلاف درهم ، تصلح بها أمرك ، وتنفذ منها إلى عيالك ، وتتقوّى نفسك بباقيها ، وتصير معي إلى عملي ، فأولّيك أجلّه ، إن شاء الله تعالى .

[فقال : أحسن الله جزاءك ، إذن تجدني بحيث يسرّك ، ولا أقوم مقام معذّر إن شاء الله] [17] .

فأمرت بتقبيضه ما رسمت له ، فقبضه ، وانحدر إلى الأهواز معي ، فجعلته المناظر للرخّجي ، والمحاسب له بحضرتي ، والمستخرج لما عليه ، فقام بذلك أحسن قيام وأوفاه .

وعظمت حاله معي ، وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه . [18]

---

١٦ العَيْلُ : أهل بيت الرجل ، والجمع : عيال ، وعيايل ، وعالة .

١٧ الزيادة من غ .

١٨ لم ترد هذه القصّة في ر ، ووردت في كتاب العقد الفريد ٤/١٧٥-١٧٩

٣٤٢

أنا أبوك

قال مؤلّف هذا الكتاب : وقد بلغني حديث لعمرو بن مسعدة في زلّاله ، بخلاف هذا ، حدّثني به عبيد الله بن محمد بن الحسن بن الحفا العبقسي ، وهو يذكر أنّ أهله أقرباء لبني مارية[1] الذين كانوا تنّاء الصراة ، وأهل النعم بها ، قال : حدّثني أبي ، قال : سمعت شيوخنا بالصراة ، وأهلنا ، يتحدّثون :

أنّ عمرو بن مسعدة ، كان مصعداً من واسط إلى بغداد ، في حرّ شديد ، وهو جالس في زلّال ، فناداه رجلٌ : ياصاحب الزلّال [بنعمة الله عليك إلا نظرت إليّ .

قال : فكشف سجف الزلّال ، فإذا بشيخ ضعيف حاسر الرأس][2] .

فقال [٢٠ ن] له : قد ترى ما أنا عليه [١٨٣ غ] ، ولستُ أجد من يحملني ، فابتغ الأجر فيّ ، وتقدّم إلى ملّاحيك يطرحوني بين مجاديفهم[3] ، إلى أن أصل بلداً يطرحوني فيه .

قال عمرو بن مسعدة : فرحمته ، وقلت خذوه ، فأخذوه ، فغشي عليه ، وكاد يموت لما لحقه من المشي في الشمس .

فلمّا أفاق ، قلت له : يا شيخ ، ما حالك ، وما قصّتك ؟

فقال : قصّة طويلة .

---

١ بنو مارية : أناس من أهل الصراة ، يضرب أهل السواد بهم الأمثال ، لكبرهم في نفوسهم (مروج الذهب ٣٦٤/٢) ، راجع القصّة ١٤٦/١ و١١٢/٣ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي ، ولزيادة التفصيل راجع حاشية القصّة ٤٤٠ من هذا الكتاب .

٢ الزيادة من ن .

٣ كذا ورد في غ وفي ن ، والمجداف : خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين ، تسيّر بها القوارب ، وما زال هذا اسمها ببغداد .

فسكّنته وطرحت عليه قميصاً ومنديلاً ، وأمرت له بدراهم [وشمشك][4] ، فشكرني .

فقلت : لا بدّ أن تحدّثني بحديثك .

فقال : أنا رجل كانت لله عزّ وجلّ عليّ نعمة جليلة ، وكنت صيرفيّاً ، فابتعت جارية بخمسمائة دينار ، فعشقتها عشقاً عظيماً ، وكنت لا أقدر أن أفارقها ساعة واحدة ، فاذا خرجتُ إلى الدكّان ، أخذني كالجنون والهيمان[5] ، حتى أعود فأجلس معها يومي كلّه .

فدام ذلك حتى تعطّل دكّاني ، وتعطّل كسبي ، وأقبلت أنفق من رأس المال ، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير ، وأنا مع ذلك لا أطيق أن أفارقها .

فحبلت الجارية ، وأقبلت أنقض داري ، وأبيع نقضها ، حتى فرغت من ذلك ، فلم تبق لي حيلة .

فضربها الطَّلْقُ ، فقالت : يا هذا ، هوذا أموت ، فاحتل فيما تبتاع به عسلاً ، ودقيقاً ، وشيرجاً[6] ، ولحماً ، وإلاّ متُّ .

فبكيت ، وحزنت ، وخرجت على وجهي ، وجئت لأغرق نفسي في دجلة ، فذكرت حلاوة النفس ، وخوف العقاب في الآخرة ، فامتنعت .

ثم [١٨٩ م] خرجت هائماً على وجهي إلى النهروان ، وما زلت أمشي من قرية إلى قرية ، حتى بلغت خراسان ، فصادفت بها من عرفني ، وتصرّفت في ضياعه ، ورزقني الله عزّ وجلّ مالاً عظيماً ، فأثريت ، واتّسعت حالي ، ومكثت

---

٤ الشمشمك : الصندل ، وهو الحذاء الذي يلبس داخل الدار ، والكلمة فارسيّة : شم ، بضم الميم ، بمعنى الصندل ، راجع معجم الملابس لدوزي ٢٣١ .

٥ الهيام ، والهيمان : في الأصل ، داء كالجنون يصيب الإبل من شدّة العطش ثم أطلق على من اشتدّ به العشق ، يقال : هام هيماً ، وهيوماً ، وهياماً ، وهيماناً ، وتهياماً .

٦ الشيرج : راجع حاشية القصّة ٣٢٩ من هذا الكتاب .

سنين ، لا أعرف خبر منزلي ، فلم أشكّ أنّ الجارية قد ماتت .

وتراخت [١٨٦ ر] السنون حتى حصل لي ما قيمته عشرون ألف دينار .

فقلت : قد صارت لي نعمة ، فلو رجعت إلى وطني .

فابتعت بالمال كلّه ، متاعاً من خراسان ، وأقبلت أريد العراق ، من طريق فارس والأهواز .

فلما حصلت بينهما ، خرج على القافلة لصوص ، فأخذوا جميع ما فيها ، ونجوت بثيابي ، وعدتُ فقيراً .

ودخلت الأهواز ، فبقيت بها متحيّراً ، حتى كشفتُ خبري لبعض أهلها ممن أعرفه ، فأعطاني ما تحمّلت به إلى واسط .

ونفدَتْ نفقتي ، فمشيت إلى هذا الموضع ، وقد كدت أتلف ، فاستغثت بك ، ولي منذ فارقت بغداد ، ثمان وعشرون سنة .

فعجبت من ذلك ، وقلت له : اذهب ، فاعرف خبر أهلك ، وصر إليّ ، فإنّي أتقدّم بتصريفك فيما يصلح لمثلك ، فشكر ، ودعا ، ودخلنا بغداد .

ومضت على ذلك مدّة طويلة ، أنسيته فيها ، فبينا أنا يوماً ، قد ركبت ، أريد دار المأمون ، وإذا بالشيخ على بابي ، راكباً بغلاً فارهاً ، بمركب مخلّى ثقيل ، وغلام أسود بين يديه ، وثياب حسنة [١٨٤ غ] ،

فلما رأيته رحّبت به ، وقلت : ما الخبر ؟

فقال : طويل ، وها أنا آتي إليك في غدٍ ، وأحدّثك بالخبر .

فلمّا كان من الغد ، جاءني ، فقلت له : عرّفني خبرك ، فقد سررت بسلامتك ، وبظاهر حالك .

فقال : إنّي صعدت من زلاّلك ، فقصدت داري ، فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلّفته ، غير أنّ باب الدار كان مجلوّاً ، نظيفاً ، وعليه دكاكين ، وبوّاب ، وبغال مع شاكريّة .

فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، ماتت جاريتي ، وملك الدار بعض الجيران ، فباعها من رجل من أصحاب السلطان .

ثم تقدّمت إلى بقّال كنت أعرفه في المحلّة ، فوجدت في دكّانه غلاماً حَدَثاً .

فقلت له : من تكون من فلان البقّال ؟

فقال : أنا ٱبنه .

فقلت : ومتى مات ؟

قال : منذ عشرين سنة .

قلت : لمن هذه الدار ؟

قال : لابن داية أمير المؤمنين ، وهو الآن صاحب بيت ماله .

قلت : بمن يعرف ؟

قال : بابن فلان الصيرفيّ ، فأسماني .

قلت : فهذه الدار من باعها إليه .

قال : هذه دار أبيه .

قلت : وأبوه يعيش ؟

قال : لا .

قلت : أتعرف من حديثهم شيئاً ؟

قال : نعم ، حدّثني أبي ، أنّ والد هذا الرجل كان صيرفيّاً جليلاً ، فافتقر ، وأنّ أمّ هذا الرجل ضربها الطلق ، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً ، ففقد ، وهلك .

وقال أبي : جاءني رسول أمّ هذا ، يطلب لها شيئاً ، وهي تستغيث بي ، فقمت لها بحوائج الولادة ، ودفعت لها عشرة دراهم ، فما أنفقَتْها ، حتى قيل : قد ولد لأمير المؤمنين الرشيد ، مولود ذكر ، وقد عرض عليه جميع الدايات ، فلم يقبل ثديهنّ ، وقد طلب له الحرائر ، فجاءوه بغير واحدة ، فما أخذ ثدي واحدة منهنّ ، وهم في طلب مرضع .

فأرشدت الذي طلب الداية إلى أمّ هذا ، فحملت إلى دار الرشيد [١٩٠ م] ، فحين وضع فمّ الصبيّ على ثديها ، قَبله ، فأرضعته ، وكان الصبيّ المأمون ، وصارت عندهم في حال جليلة ، ووصل إليها منهم خير كثير .

ثم خرج المأمون إلى خراسان ، وخرجت هذه المرأة وابنها هذا معها ، ولم نعرف أخبارهم إلاّ منذ قريب ، لما عاد المأمون ، وعادت حاشيته ، رأينا هذا قد صار رجلاً ، ولم أكن رأيته قَبْلُ قط ، وقد كان أبي مات .

فقالوا : هذا ابن فلان الصيرفي ، وابن داية الخليفة المأمون ، فبنى هذه الدار وسوّاها .

فقلت : فعندك علم من أمّهِ أهي حيّة أم ميتة ؟

قال : هي حيّة ، تمضي إلى دار الخليفة أيّاماً ، وتكون عند ابنها أيّاماً هنا .

فحمدت الله تعالى على هذه الحال ، وجئت ، حتى دخلت الدار مع الناس ، فرأيت الصحن في نهاية العمارة والحسن ، وفيه مجلس كبير مفروش بفرش فاخرة ، وفي صدره رجل شابّ بين يديه كتّاب وجهابذة[٧] ، [١٨٧ ر] وحساب يستوفيه عليهم ، وفي صفاف الدار وبعض مجالسها ، جهابذة بين أيديهم الأموال والتخوت[٨] والشواهين[٩] [١٨٥ غ] ، يقبضون ويُقْبِضُون ،

وبصرت بالفتى ، فرأيت شبهي فيه ، فعلمت أنّه ابني ، فجلستُ في غمار الناس ، إلى أن لم يبق في المجلس غيري ، فأقبل عليّ .

فقال : يا شيخ ، هل من حاجة تقولها ؟

فقلت : نعم ، ولكنّه أمر لا يجوز أن يسمعه غيرك .

---

٧ الجهابذة ، مفردها : جهبذ : الكاتب المختصّ بتحصيل الأموال ، وكتابة الإيصالات بها ، وتدوينها في السجلات ، وإثبات ما ينفق منها (لسان العرب) .

٨ التخت : علبة من الخشب ، يحفظ فيها الطيار وهو الميزان الذي توزن به الأشياء الدقيقة كالذهب .

٩ الشاهين : لسان الميزان ، فارسيّة ويصرف إلى الميزان أيضاً .

فأومأ إلى غلمان كانوا قياماً حوله ، فانصرفوا ، وقال : قل ، أعزّك الله .

قلت : أنا أبوك .

فلمّا سمع ذلك تغيّر وجهه [٢١ ن] ، ثم وثب مسرعاً ، وتركني مكاني .

فلم أشعر إلاّ بخادم جاءني ، فقال : قم يا سيّدي ، فقمت أسير معه ، حتى بلغت ستارة منصوبة ، في دار لطيفة ، وكرسيّ بين يديها ، والفتى جالس على كرسيّ آخر .

فقال : اجلس أيّها الشيخ .

فجلست على الكرسي ، ودخل الخادم ، فإذا بحركة خلف الستارة .

فقلت : أظنّك تريد أن تختبر صدق ما قلت لك من جهة فلانة ، وذكرت اسم جاريتي ، أمّه .

قال : فإذا بالستارة قد كشفت ، والجارية قد خرجت إليّ ، فوقعت عليّ تقبّلني وتبكي ، وتقول : مولاي والله .

قال : فرأيت الفتى ، قد تشوّش ، وبهت ، وتحيّر .

فقلت للجارية : ويحك ما خبرك ؟

فقالت : دع خبري ، ففي مشاهدتك ، ممّا تفضل الله عزّ وجلّ بذلك ، كفاية ، إلى أن أخبرك ، فقل ما كان من خبرك أنت ؟

فقصصت عليها خبري ، منذ يوم خروجي من عندها ، إلى يومي ذاك ، وقصّت هي ، عليّ قصتها ، مثل ما قال ابن البقّال ، وأعجب ، وأشرح ، وكلّ ذلك بمرأى من الفتى ومسمع ، فلما استوفى الحديث ، خرج وتركني في مكاني .

قال : وإذا أنا بخادم ، قال : يا مولاي ، يسألك ولدك أن تخرج إليه .

قال : فخرجت إليه ، فلما رآني من بعيد ، قام قائماً على رجليه ، وقال : معذرة إلى الله ، وإليك يا أبة ، من تقصيري في حقّك ، فإنّه فجأني من أمرك ، ما لم أظنّ أنّه يكون ، والآن ، فهذه النعمة لك ، وأنا ولدك ، وأمير المؤمنين مجتهد بي

منذ دهر ، أن أدع هذه الجهبذة ، وأتوفّر على خدمته في الدار ، فلا أفعل ، طلباً للتمسّك بصنعتي ، والآن ، فأنا أسأله أن يردّ إليك عملي ، وأخدمه أنا في غيرها ، فقم عاجلاً ، وأصلح أمرك .

فأخذت إلى الحمّام ونظّفت ، وجاءوني بخلعة ، فألبستها ، وخرجت إلى حجرة والدته ، فجلست فيها [١٩١ م] .

ثم أدخلني على أمير المؤمنين ، وحدّثته بحديثي ، وخلع عليّ ، وردّ إليّ العمل الذي كان إلى ولدي ، وأجرى عليّ من الرزق ، في كلّ شهر كذا ، وقلّد ابني أعمالاً هي من أجلّ عمله ، وأضعف له أرزاقه ، وأمره بلزوم حضرته في أشياء استعمله فيها من خاصّ أمره .

فجئت لأشكرك على ما عاملتني به من الجميل ، وأعرّفك بتجدّد النعمة .

قال عمرو بن مسعدة : فلمّا أسمى الفتى ، علمت أنّه ابن داية المأمون ، كما قال .

٣٤٣

سقط عليه حائط ونهض سالماً

حدّثني[عمر بن عبد الملك [١٨٦ غ] بن الحسن بن يوسف السقطي ، وكان خليفتي على القضاء بحرّان ونواح من ديار مضر ، ثم خلفني على قطعة من سقي الفرات ، قال : حدّثني][1] أبو الخطاب محمد بن أحمد بن زكريّا الأنصاري ، الشاهد بالبصرة ، قال :

غلّست[2] يوماً أريد مسجد الزياديّين[3] ، بشارع المربد[4] ، لوعدٍ كان عليّ فيه ، وكانت الريح قويّة ، وإذا بين يديّ بأذرع رجل يمشي .

فلما بلغنا دار رياح ، قلعت الريح سترة[5] آجرّ وجصّ على رأس حائط ، فرمت بها على ذلك الرجل ، فلم أشكّ في هلاكه ، وارتفعت غبرة عظيمة أفزعتني ، فرجعت .

فلما سكَنَتْ ، عدت أسلك الطريق ، حتى إذا دست بعض السترة ، لم أجد الرجل ، فعجبت .

وتمّمت طريقي ، حتى دخلت مسجد الزياديّين ، فرأيت أهل المسجد مجتمعين ، فحدّثتهم بما رأيت في طريقي ، متوجّعاً للرجل ، وشاكراً لله عزّ وجلّ على سلامتي .

فقال رجل منهم : يا أبا الخطاب ، أنا الذي وقعت عليه السترة ، وذلك أنّي قصدت هذا المسجد [١٨٨ ر] لمثل ما وعدت له ، فلمّا سقطت السترة لم أحسّ

---

١ الزيادة من غ .

٢ التغليس : السير في الغلس ، أي في ظلمة آخر الليل .

٣ الزياديّون : نسبة إلى زياد ، راجع اللباب ١/٥١٥ .

٤ شارع المربد : من أجمل شوارع البصرة ، راجع معجم البلدان ٤/٤٨٣ .

٥ السترة : راجع حاشية القصّة ١٨٩ من الكتاب .

بضرر لحقني ، ووجدت نفسي قائماً سالماً ، فحمدت الله تعالى ، وتحيّرت ، ووقفت حتى انجلت الغبرة ، فتأمّلت الصورة ، فاذا في السترة موضع بابٍ كبيرٍ ، وقد سقط باقي السترة حواليّ ، وسائر جسدي في موضع ذلك الباب ، فخرجت منه إلى هاهنا .

٣٤٤

نفاه الواثق وأعاده المتوكّل

ووجدت بخطّ جحظة : حدّثني عبيد الله بن عمر البازيار ، نديم المتوكّل ، قال :

لما نفاني الواثق ، من سرّمن رأى ، إلى البحر ، من أجل خدمتي لجعفر[١] ، لحقتني إضاقة شديدة ، وغموم متّصلة ، واستبعدت الفرج .

فكنت أبكّر في كلّ يوم ، بباشق[٢] على يدي ، إلى الصحراء ، فأرجع بالدرّاجة والدرّاجتين ، فيكون ذلك قوتي ، لإضاقتي .

فدخلت يوم جمعة ، إلى الجامع ، لأصلّي قريباً من المنبر ، وليس معي خبر ، فإذا الخطيب ، يخطب : اللّهم أصلح عبدك وخليفتك عبد الله جعفر ، الإمام المتوكّل على الله ، أمير المؤمنين .

فداخل قلبي من السرور ، حال ، لم أدر معه ، في أيّ مكان أنا[٣] .

قال : وسقطتُ مغشياً عليّ ، فظنّ الناس[٤] أنّي قد صرعت ، فأخرجوني ، فمشيت إلى الموضع الذي أسكنه ، فإذا البُرُد على بابي ، يطلبونَني .

فركبت معهم إلى المتوكّل ، فكان من أمري معه ما كان ، وزادني على الغنى درجات عظيمة ، وعدت إلى حالي من اليسار[٥] .

---

١ المتوكّل أبو الفضل جعفر بن أبي إسحاق محمد المعتصم : ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من الكتاب .

٢ الباشق : وجمعه بواشق : طائر من أصغر الجوارح .

٣ في غ : فدخل قلبي من السرور شيّ لا أدري ما هو .

٤ في غ : فظنّ من حولي .

٥ لا توجد هذه القصّة في ر .

٣٤٥

البحتري يهنئ الفتح بنجاته من الغرق

وحدّثت : أنّ الفتح بن خاقان[١] ، اجتاز على بعض القناطر ، وهو يتصيّد ، وقد انقطع من عسكره ، فانخسفت القنطرة من تحته ، فغرق .

فرآه أكّار[٢] ، وهو لا يعرفه ، فطرح نفسه وراءه ، وخلّصه ، وقد كاد أن يتلف ، ولحقه أصحابه ، فأمر للأكّار بمال عظيم ، وصدّق بمثله .

فدخل إليه البحتري ، فأنشده قصيدته التي أوّلها :

متى لاح برق أو بدا طلل قفر
جرى مستهلّ لا بكيّ[٣] ولا نزر[٤] [١٩٢ م]

وفيها يقول :

لقد كان يوم النهر يوم عظيمة ... أطلّت ونعماء جرى بهما النهر [١٨٧ غ]
أجزت عليه عابراً فتشاعبت[٥] ... أواذيه[٦] لما أن طما فوقه البحر

---

١ أبو محمّد الفتح بن خاقان : أديب ، شاعر ، فصيح ، ذكي ، فطن ، استوزره المتوكّل ، وآخاه ، وقدّمه على جميع أهله وولده ، كان مع المتوكّل لما هاجمه مغتالوه ، فوقف في الدفاع عنه ، وهو أعزل ، موقفاً رائعاً ، فقتلا معاً سنة ٢٤٧ (الأعلام ٥/٣٣١) وهو أخو يحيى بن خاقان ، أحد مشايخ الكتّاب ، وصاحب ديوان الخراج في أيام المتوكّل (الملح والنوادر ٣٣٢ والديارات ١٥٥) وأخو عبد الرحمن بن خاقان ، عامل البصرة في السنة ٢٤٠ (البصائر والذخائر م ١ ص ٣٥٦) وعم عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكّل (الديارات ١٥٤ و ١٥٥) .

٢ الأكّار : الحرّاث .

٣ البكيّ والبكيْ : القليل النزر .

٤ راجع ديوان البحتري ص ٨٦ .

٥ تشاعبت : انتشرت وتباعدت .

٦ الأواذي : الموج .

وزالـت أواخي الجسر وانهدمت بـه قواعـده العظمى ومـا ظلم الجسر
تحمّــل حلمــاً مثـل قدسٍ[7] وهمّــة كرضوى[8] وقـدراً ليس يعدله قدر
فما كان ذاك الهول إلاّ غيابــــة بدا طالعاً من تحت ظلمتها البدر
فـإن ننس نعمى الله فيـك فحظّنا أضعنا وإن نشكر فقد وجب الشكـر

فقال له الفتح : الناس يهنّئونا بنثر ، وأنت بنظم ، وبراحة ، وأنت بتعب ، وأجزل صلته[9] [٢٢ ن]

---

٧ قدس : جبل (معجم البلدان ٤/٣٨) .

٨ رضوى : جبل بالمدينة (معجم البلدان ٢/٧٩٠) .

٩ لم ترد هذه القصّة في ر .

الباب الثامن

فيمن أشفى على أن يقتل فكان الخلاص من القتل إليه أعجل

٣٤٦

بدأ الهادي خلافته بتنحية الربيع عن الوزارة

واستيزار إبراهيم الحرّاني

ذكر محمّد بن عبدوس في كتاب «الوزراء» : أنّ إبراهيم بن ذكوان الحرّاني الأعور الكاتب[1] ، صاحب طاق الحرّاني ببغداد[2] ، كان خاصًّا بالمهدي .

قال : وانّ المهدي أنفذ موسى ابنه إلى جرجان[3] ، وأنفذ معه إبراهيم الحرّاني ، [فخصّ إبراهيم بموسى][4] ولطف موضعه منه .

فاتّصل بالمهدي عنه أشياء تزيّد فيها عليه أعداؤه وكثّروا ، فكتب المهدي إلى موسى في حمله إليه ، فضنّ به ، ودافع عنه .

---

١ إبراهيم بن ذكوان بن الفضل الحرّاني : من موالي المنصور ، إتّصل بالهادي في حداثته ، فخفّ على قلبه وألفه ، وصار لا يصبر عنه ، وكره المهديّ صحبته لولده ، فنهاه ، فلم ينته ، فصمّم على قتله ، وبعث فأحضره ، ثمّ نجا من القتل ، فاستوزره الهادي لمّا استخلف ، وكان له ناصحاً ، ولمّا توفّي الهادي ، قبض الرشيد أموال إبراهيم ، وحبسه في دار يحيى البرمكي ، ثمّ أخلى سبيله ، وأذن له في الانحدار إلى البصرة (الفخري ١٩٢ ، الطبري ٢١٥/٨ ، ٢٣٣ ومعجم البلدان ٤٩٠/٣) والحرّاني نسبة إلى حرّان ، مدينة بالجزيرة من ديار ربيعة (اللباب ٢٨٩/١) .

٢ – طاق الحرّاني : محلّة ببغداد ، بالجانب الغربي ، منسوبة إلى ابراهيم بن ذكوان الحرّاني ، وزير الهادي (معجم البلدان ٤٨٩/٣) .

٣ جرجان : مدينة عظيمة مشهورة بين طبرستان وخراسان (معجم البلدان ٢٨/٢) .

٤ الزيادة من غ .

فكتب إليه المهدي : إن لم تحمله ، خلعتك من العهد ، وأسقطت منزلتك .

فلم يجد موسى من حمله بدًّا ، وحمله مع بعض خدمه ، مرفّهاً ، مكرّماً ، وقال للخادم : إذا دنوت من محلّ المهدي ، فقيّد إبراهيم ، واحمله في محمل ، بغير وطاء ولا غطاء ، وألبسه جبّة صوف ، وأدخله إليه بهذه الصورة ، فامتثل الخادم ما أمر به في ذلك .

واتّفق أنّه ورد إلى العسكر[٥] ، والمهدي يريد الركوب إلى الصيد ، وهو – إذ ذاك – بالروذبار[٦] ، فبصر بالموكب ، فسأل عنه فقيل خادم لموسى ومعه إبراهيم الحرّاني .

فقال : وما حاجتي إلى الصيد ، وهل صيدٌ أطيب من صيد إبراهيم الحرّاني ؟

قال : فأُدنيتُ منه ، وهو علي ظهر فرسه .

فقال : إبراهيم ؟

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

فقال : لا لبّيك ، والله لأقتلنّك ، ثم والله لأقتلنّك ، ثم والله لأقتلنّك ، إمض يا خادم به إلى المضرب[٧] .

فحملت ، وقد يئست من الفرج ، ومن نفسي ، ففزعت إلى الله تعالى بالدعاء والإبتهال .

---

٥ العسكر : قال ياقوت في المفترق صقعاً ٣٠٩ : أنّ ثمة عشرة مواضع باسم العسكر ، منها عسكر المهديّ ، بالرصافة ببغداد ، ومنها عسكر المعتصم ، وهي سامراء ، وأنا أرجّح أنّ قوله العسكر ، يريد به الموضع الذي عسكر فيه الجند الذين خرجوا مع المهديّ للصيد في ماسبذان حيث توفّي .

٦ الروذبار : ذكر ياقوت في المفترق صقعاً ص ٢١١ و ٢١٢ : أنّ ثمة ثمانية مواضع تسمّى بالروذبار ، ليس منها موضع يقرب من الموضع الذي مات فيه المهديّ ، والاسم الصحيح هو الرذ ، قرية من قرى ماسبذان ، وفيها أصيب المهديّ ، ومات ، وبها دفن ، راجع العيون والحدائق ٢٨٠/٣ والطبري ١٦٨/٨ ، ١٦٩ ومعجم البلدان ٧٧٥/٢ .

٧ المضرب : الخيمة العظيمة .

وانصرف المهدي ، فأكل اللوزينج المسموم المشهور خبره[8] ، فمات من وقته ، وتخلّصت .

[وذكر محمّد بن عبدوس – بعد هذا – أنّ الهادي لمّا بلغه موت المهدي ، نجا من جرجان إلى بغداد ، على دوابّ البريد ، وما سمع بخليفة ركب دوابّ البريد غيره ، فدخل بغداد والربيع مولى المنصور على الوزارة ، كما كان يتقلّدها للمهدي ، فصرفه وقلّد إبراهيم بن ذكوان الحرّاني][9] .

---

٨ في وفاة المهديّ ، قولان : الأوّل ، ما ورد في العيون والحدائق ٢٨٠/٣ والطبري ١٦٩/٨ وابن الأثير ٨١/٦ أنّه طرد ظبياً ، فسقط عن جواده فمات ، وهذا أرجح الأخبار ، وأقربها للصحّة ، والقول الثاني ، ورد في الطبري ١٦٩/٨ ، وابن الأثير ٨٢/٦ والعيون والحدائق ٢٨١/٣ أنّه أكل لبأً ، فمات ، واللبأ : أوّل اللبن ، ويسمّيه البغداديّون : الدلوة ، وقيل إنّه أكل كمثراة مسمومة ، فمات .

٩ الزيادة من ن .

٣٤٧

لمّا اعتقل إبراهيم بن المهدي

حبسه المأمون عند أحمد بن أبي خالد الأحول

قال محمّد بن عبدوس ، في كتاب «الوزراء»[١] : لمّا ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي[٢] ، حبسه عند أحمد بن أبي خالد ، ولم يزل في أزجه[٣] .

فحكى يوسف بن إبراهيم[٤] ، مولى إبراهيم بن المهدي ، قال : لمّا وجّه

---

١ كتاب الوزراء والكتّاب لمحمد بن عبدوس الجهشياري .

٢ أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد المهديّ بن عبد الله المنصور (١٦٢–٢٢٤) : ولد ونشأ ببغداد ، وولّي دمشق للرّشيد مرّتين ، ولمّا قتل الأمين ، أعلن نفسه خليفة ببغداد ، واستمرّ سنتين (٢٠٢–٢٠٤) ، ولما قدم المأمون بغداد ، استتر ستّ سنين ، ثم ظفر به المأمون في السنة ٢١٠ ، وعفا عنه ، بناء على طلب بوران بنت الحسن بن سهل (وفيات الأعيان ٢٨٩/١ و ٣٨٦) وكان يلقب بالتّنّين لأنّه كان مع سواده عظيم الجثّة (وفيات الأعيان ٣٩/١) وكان شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب (الأغاني ١٢٦/١٠) كما كان من أكفر خلق الله للإحسان ، فان الحسن بن سهل حقن دمه ، فلم يشكر له ذلك ، فقال له المأمون : أبيت إلاّ كفراً ، يا أكفر خلق الله لنعمة ، راجع القصّة في الأغاني ١٣٢/١٠ ، وكذلك فهو لم يشكر للمأمون عفوه عنه ، وحقنه دمه ، راجع حاشية القصّة ٣٤٩ من هذا الكتاب ، وذكر صاحب وفيات الأعيان ٤١/١ أنّ إبراهيم كان يقلّب خاتماً في يده ، في مجلس المعتصم ، فسأله عنه العبّاس بن المأمون ، فقال له : هذا خاتم رهنته في أيّام أبيك ، فا فككته إلاّ في أيّام أمير المؤمنين ، فقال له العبّاس : والله ، لئن لم تشكر أبي على حقن دمك ، مع عظيم جرمك ، لا تشكر أمير المؤمنين على فكّ خاتمك ، وكان إبراهيم يعيّر بأمّه السوداء (راجع حاشية القصّة ٣٥١ من هذا الكتاب) ، كما كان يعيّر بالغناء ، ويعيّر به بنو العبّاس (راجع حاشية القصّة ٣٥٤ من هذا الكتاب) .

٣ الأزج : القبو المبني سقفه بالآجر المعقود .

٤ أبو الحسن يوسف بن إبراهيم ، المعروف بابن الداية : من موالي إبراهيم بن المهديّ وهو ابن دايته ، نشأ في خدمته ، فلمّا مات إبراهيم سنة ٢٢٤ ، رحل يوسف إلى الشام ، ومنها إلى مصر ، فكان من جلّة كتابها ، ومات بها في السنة ٢٦٥ (الأعلام ٢٨٠/٩) .

المأمون ، إبراهيم بن المهدي ، إلى أحمد بن أبي خالد ليحبسه عنده ، دخل إبراهيم إلى أحمد .

فقال له إبراهيم : الحمد لله الذي منّ عليّ بمصيري إليك وحصولي في دارك ، وتحت يدك ، ولم يبتلني بغيرك .

قال إبراهيم : فقطّب أحمد ، وبسر في وجهي ، وقال : يا إبراهيم ، لقد حسن ظنّك بي ، إذ تتوهّم أنّ أمير المؤمنين [١٩١ غ] لو أمرني بضرب عنقك ، أنّي أتعدّى ذلك إلى غير ما أمرني به فيك .

قال : فأدرت عيني في مجلسه ، فتبيّنت فيمن حضر منّ أهل خراسان ، إنكاراً لقوله .

فقلت : صدقتَ يا ابن أبي خالد ، إن قتلتني بأمر أمير المؤمنين ، كنتَ غير ملوم ، وكذلك لو أمرني بالشقّ عن قلبك وكبدك ، فعلتُ ذلك ، وكنتُ غير ملوم .

ولم أحمد ربّي - وإن كان حمده واجباً في كلّ حال - لحسن ظنّي بك ، ولكنّني علمت ، أنّ لأمير المؤمنين [١٩٥ م] خزنة سيوف ، وخزنة أقلام ، وأنّه متى أراد قتل إنسان ، دفعه إلى خزنة السيوف ، ومتى أراد مناظرته ، دفعه إلى خزنة الأقلام .

فحمدت الله تعالى ، على ما منّ به عليّ ، من إحلاله إيّايّ ، محل من يساءل ، لا محلّ من يعاجَلْ .

قال : فرأيت وجوه كلّ من حوله قد أشرقت ، وأسفرت ، وأعجبوا بما كان منّي .

فقال أحمد بن أبي خالد : الناس يتكلّمون على قدر أنفسهم وآبائهم ، وكلامك على قدر المهدي ، وقدر نفسك ، وكلامي على قدر خلقي ، وقدر يزيد الأحول ، وأنا أستقيلك مما سبق منّي ، فأقلني ، أقال الله عثرتك ، وسهّل أمرك ، وعجّل خلاصك .

فقلت : قد أقال الله عثرتك .

قال : وما مضت لي في داره ، خمسون ليلة ، حتى سار إليّ في نصف الليل ، فأخرجني ، وألقى عليّ درعاً ، وظاهر بدرّاعة[5] ، وحملني على دابّة ، وهو يركض إلى الجانب الغربي ، فوقفني بين الجسر والخلد[6] .

فوقع في نفسي أنّ إلقاءه عليّ الدرع ، إنّما هو لإيراده إيّاي على سكران ، فأراد أن يقيني بادرته ، وعلمت أنّه أراد أنّه إذا ورد عليّ أمر ، أن أتماوت .

فخلّفني مع أصحابه ، ومضى يركض ، ثم عاد إليّ .

ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين : يا فاسق ، ألم يكن لك في السابق القديم من فعلك ، كفاية تحوّلك عمّا كان منك في هذه الليلة التي وثب فيها عليّ ابن عائشة وابن الأفريقيّ ، ومن يتابعهما[7] ، وأضرابهم ، [٢٤ ن] حتى اضطروني إلى أن ركبت إلى المطبق لمحاربتهم ، حتى أظفرني الله جلّ وعزّ بهم ، فقتلتهم ، وأنا ملحقك بهم ، فاحتجّ لنفسك ، إن كانت لك حجّة ، وإلاّ فإنّك لاحق بهم .

فعلمت أنّ الرسالة ممن غلب عليه النبيذ ، وأنّي أحتاج إلى إغضابه ، حتى يغلب غضبه السكر .

فقلت : يا أبا العبّاس ، دمي في عنقك ، فاتّق الله ، ولا تقتلني .

---

٥ قوله ظاهر بدراعة ، يعني أنّه ألبسه دراعة ظاهرة فوق الدرع .

٦ الجسر المقصود ، هو جسر باب الطاق ، الذي حلّ محلّه الآن جسر الصرافية الحديد ، وقصر الخلد ، كان على الشاطئ الغربي لدجلة شمالي الجعيفر .

٧ كان ابن عائشة وهو ابراهيم بن محمّد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الامام ، والأفريقي وهو محمّد بن إبراهيم ، من قوّاد إبراهيم بن المهديّ ، وشاركا في محاربة جيش المأمون (ابن الأثير ٣٤٤/٦) وقد تآمر هذان مع آخرين في السنة ٢١٠ على خلع المأمون ومبايعة إبراهيم بن المهديّ ، فنمّ عليهم أحد المشتركين معهم ، فأخذوا ، وركب المأمون إلى السجن وأخذهما ، واثنين من رفاقهما ، فضرب أعناقهم ، للتفصيل راجع تاريخ بغداد لابن طيفور ٩٦–٩٩ وابن الأثير ٣٩١/٦ ، ٣٩٢ ، والطبري ٦٠٢/٨–٦٠٤ .

فقال لي : يا هذا ، ما الذي يتهيّأ لي أن أعمل ، وهل يمكنني دفع شيء يأمرني بـه ؟

فقلت : لا ، وإنّي أريد أن أحقن دمي ، بأن تؤدّي عنّي ما تسمعه منّي ، وإنّما تقتلني ، إذا أجبتُهُ بجوابٍ ، فأدّيتَ عنّي غيره ، تقديراً منك ، أنّه أصلح وأدعى إلى سلامتي ، فلا يتلقّى قولك بالقبول ، فأدّ قولي كما أقول .

فقال أحمد بن أبي خالد : عليّ عهد الله ، أن أؤدّي ما تقول .

قال : فقلت ، تقول له : يا أمير المؤمنين إن كنتَ تعقل ، فأنت تعلم أنّي أعقل ، فما أشكّ [١٩٢ غ] أنّه سيستعيد منك هذا القول ، فأعده .

وتقول له : يقول لك : يا أمير المؤمنين استترت منك ، وأنت خارج عن البلد ، وأنا نافذ الأمر فيه ، ومعي عالم من الناس ، وأثب بك في مدينتك ، ومدينة آبائك ، وأنا أسيرٌ في سَرَب[8] ابن أبي خالد ، مع نفر محبّسين ، مثقلين بالحديد ؟ هذا ما لا يقبله عاقل .

فأدّى أحمد رسالته إلى المأمون ، فقال : صدق ، فأردده إلى موضعه .

فركض أحمد إليّ ، وهو ينادي : سلامة سلامة ، والحمد لله رب العالمين ، وانصرف إلى منزله .

قال ابن عبدوس : فأقام فيه ، إلى أن انصرف المأمون ، لنكاح بوران[9] ، فأشخصه معه إلى فم الصلح ، وسألته بوران بنت الحسن بن سهل ، فرضي عنه[10] .

---

٨ السَرَب ، بفتح السين والراء : الحفير تحت الأرض .

٩ بوران : اسمها خديجة ، بنت الحسن بن سهل (١٩١–٢٧١) زوجة المأمون العبّاسي ، من أكمل النساء أدباً وأخلاقاً ، ليس في تاريخ العرب زفاف أنفق فيه ما أنفق في زفافها على المأمون (الأعلام ٢/٥٦) ، وتنسب إليها أصناف من الطعام منها ما ورد في كتاب الطبيخ للبغداديّ ، عن طعام إسمه بوران (ص ٣٨) وعن طعام اسمه بورانيّة (ص ٤٠) وآخر اسمه بورانيّة بالقرع (ص ٤٣) ، وفي بغداد الآن طعام اسمه بورانية ، وهي أن يقطّع الباذنجان أقراصاً ، ويقلى بالزيت ، ويصب عليه اللّبن الرائب مخلوطاً بالثوم .

١٠ لا توجد هذه القصّة في ر .

٣٤٨

جيء بإبراهيم بن المهدي

وهو مذنب وخرج وهو مثاب

وحدّثني أبو العلاء الدلاّل البصريّ ، بها[1] ، قال : حدّثني أبو نصر بن أبي دؤاد ، قال : حدّثني أبي ، عن أبيه ، قال :

كنت يوماً عند المأمون ، وقد [١٩٦ م] جاءوه بإبراهيم بن المهدي ، وفي عنقه ساجور[2] ، وفي رجله قيدان ، فوقف بين يدي المأمون .

فقال له : هيه ، يا إبراهيم ، إنّي استشرت في أمرك ، فأُشير عليّ بقتلك ، فرأيت ذنبك يقصر عن واجب حقّ عمومتك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أبيت أن تأخذ حقك إلاّ من حيث عوّدك الله تعالى ، وهو العفو عن قدرة .

فقال المأمون : مات – والله – الحقد ، عند هذا العذر ، يا غلام ، لا يتخلّف أحد من أهل المملكة عن الركوب بين يديه ، ويحمل بين يديه عشر بدر ، وعشرة تخوت ثياب .

قال : ما رأيت إنساناً جيء به وهو مذنب ، فخرج وهو مثاب ، وأهل المملكة بين يديه ، إلاّ هو .

---

١ بها : أي بالبصرة .

٢ الساجور : خشبة تعلّق في العنق .

٣٤٩
قبض على إبراهيم بن المهدي وهو بزيّ امرأة

وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطبي[١] :

أنّ إبراهيم بن المهدي ، لمّا طال استتاره من المأمون ، ضاق صدره ، فخرج ليلة من موضع كان فيه مستخفياً ، يريد موضعاً آخر ، في زيّ امرأة ، وكان عَطِراً .

فعرض له حارس ، فلمّا شمّ منه رائحة الطيب ، ارتاب به ، فكلّمه ، فلم يجب ، فعلم أنّه رجل ، فضبطه .

فقال له : خذ خاتمي ، فثمنه ثلاثون ألف درهم[٢] [١٩١ ر] وخلّني ، فأبى ، وعلق به ، وحمله إلى صاحب الشرطة ، فأتى به المأمون .

فلمّا أدخل داره ، وعرف خبره ، أمر بأن يدخل إليه ، إذا دعي ، على الحال التي أخذ عليها .

ثم جلس مجلساً عاماً ، وقام خطيبٌ بحضرة المأمون ، يخطب بفضله ، وما رزقه الله ، جلّت عظمته ، من الظفر بإبراهيم[٣] .

---

١ أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمّد المخزوميّ ، الشاعر المعروف بالببغاء : ترجمته في حاشية القصّة ١٥ من هذا الكتاب .

٢ في غ : ثلاثون ألف دينار .

٣ من جملة ما ابتدع في أيّام العبّاسيّين ، نصب خطباء مقصور عملهم على الوقوف في مجلس الخليفة ، يشيدون بذكره ويخصّون أعماله بالحمد والتمجيد ، ويتناولون أعداءه بالذمّ والتجريح ، ومنهم هذا الخطيب الذي وقف في مجلس المأمون يطنب في مدحه ، وكان أحد هؤلاء الخطباء ، وهو سعيد الخطيب ، يتناول المأمون أيّام الفتنة ، بالذمّ ، ويسمّيه : المأفون ، فلمّا دخل بغداد ، عفا عنه ، وأبقاه خطيباً ، فكان يقف في مجالس المأمون ، ويرفعه في التقريظ إلى مصاف الأنبياء (تاريخ بغداد لابن طيفور ٤ و ٧ و ٨) وقصّ علينا الصولي في كتابه الأوراق قصّة خطيب كان يقف في مجلس الراضي ، ويقرّظه ويمجّده ، كما ورد في القصّة ٣٨٥ من هذا الكتاب ذكر هشام الخطيب المعروف بالعبّاسي ، وكان =

وأدخل إبراهيم بزيّه ، فسلّم على المأمون ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ وليّ الثأر محكّم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناولته يد الاغترار ، بما مدّ له من أسباب الرجاء ، لم يأمن عادية الدهر ، [ولست أخلو عندك من [١٩٣ غ] أن أكون عاقلاً أو جاهلاً ، فإن كنتُ جاهلاً فقد سقط عنّي اللوم من الله تعالى ، وإن كنت عاقلاً ، فيجب أن تعلم أن الله عزّ وجلّ] [٤] ، قد جعلك فوق كلّ ذي عفو ، كما جعل كل ذي ذنب دوني [٥] ، فإن تؤاخِذْ ، فبحقّك ، وإن تعفُ ، فبفضلك ، ثم قال :

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقّك أو لا فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

وقال :

أذنبت ذنباً عظيماً وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمنٌّ وإن جزيت فعدل

قال : فرقّ له المأمون ، وأقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العبّاس [٦] والقوّاد ،

= أثيراً جدًّا لدى المأمون بحيث أنّه توسّط أمر إبراهيم الصولي ، وأحسبه لا يخرج عن جملة هؤلاء الخطباء ، ولم يرد لخطباء من هذا النوع ذكر في أيّام الأمويّين .

٤ الزيادة من غ ، وقد وردت هذه الجملة مكرّرة في موضعين .

٥ أورد صاحب العيون والحدائق ٣٦٦/٣ ، قول إبراهيم ، كما يلي : يا أمير المؤمنين ، وليّ الثأر محكّم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذنب ، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك ، فإن تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك .

٦ أبو إسحاق محمد المعتصم بن أبي جعفر هارون الرشيد ، ترجمته في حاشية القصّة ١٧ من هذا الكتاب ، والعبّاس بن المأمون ، ترجمته في حاشية القصّة ١٢٠ من هذا الكتاب .

وقال : ما ترون في أمره ؟

فقال بعضهم : يضرب عنقه .

وقال البعض : تقطع أطرافه ، ويترك إلى أن يموت ، وكلّ أشار بقتله ، وإن اختلفوا في القتلة .

فقال المأمون ، لأحمد بن أبي خالد : ما تقول أنت يا أحمد ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قتلته ، وجدت مثلك قد قتل مثله ، وإن عفوت عنه ، لم تجد مثلك قد عفا عن مثله ، فأيّ أحبّ إليك ، أن تفعل فعلاً تجد لك فيه شريكاً ، أو أن تنفرد بالفضل ؟

فأطرق المأمون طويلاً ، ثمّ رفع رأسه ، فقال : أعد عليّ ما قلت يا أحمد ، فأعاد .

فقال المأمون : بل ننفرد بالفضل ، ولا رأي لنا في الشركة .

فكشف إبراهيم المقنعة [١٩٧ م] عن رأسه ، وكبّر تكبيرة عالية ، وقال : عفا – والله – أمير المؤمنين عنّي ، بصوت كاد الإيوان أن يتزعزع منه ، وكان طويلاً ، آدم ، جعد الشعر ، جهوريّ الصوت .

فقال له المأمون : لا بأس عليك يا عمّ[٧] ، وأمر بحبسه في دار أحمد بن أبي خـالد .

فلمّا كان بعْد شهر ، أحضره المأمون ، وقال له : اعتذر عن ذنبك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ذنبي أجلّ من أن أتفوّه معه بعذر ، وعفوُ أمير المؤمنين ، أعظم من أن أنطق معه بشكر ، ولكنّي أقول :

---

٧ قال أبو العيناء : سمعت إبراهيم بن المهدي ، يقول – وذكر عفو المأمون عنه – ، فقال : والله ما عفا عنّي تقرّبًا إلى الله ، ولا صلةً للرحم ، ولكن قامت له سوق في العفو ، فكره أن تكسد بقتلي ، قال : فذكرت هذا الحديث لأبي يعقوب سليمان بن جعفر ، فقال : ما أكفره ، أمّا المأمون ، فقد فاز بحظّها ، كفر من كفر ، وشكر من شكر (البصائر والذخائر م ٣ ق ١ ص ٦٢) .

تفديك نفسي أن تضيق بصـــالح والعفو منك بفضل جود[8] واسع

إنّ الذي خلـق المكارم حازهـــا في صلب آدم للإمام السابع

ملئت قلوب الناس منك مهابـة وتظلّ تكلؤهم بقلبٍ خاشـع

فعفوت عمّن لم يكن عن مثلـــه عفو ولم يشفع إليك بشافـع

ورحمت أطفالاً كأفراخ القطـا وحنين والدة بقلب جازع [١٩٤ غ]

ردّ الحياة إليّ بعد ذهابهـــــا كرم المليك العادل المتواضع[9]

فقال له المأمون : لا تثريب [١٩٢ ر] عليك يا عمّ ، قد عفوت عنك ، فاستأنف الطاعة متحرّزاً [٢٥ ن] من الظنّة ، يصفُ عيشك ، وأمر بإطلاقه ، وردّ عليه ماله وضياعه ، فقال إبراهيم يشكره [في ذلك][10] :

رددتَ مالي ولم تبخل عليّ بـــه وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي

فأبتُ عنك وقد خوّلتني نعمـــاً هما الحياتان من موت ومن عدم

فلو بذلتُ دمي أبغي رضاك بـه والمال ، حتى أسلّ النعل من قدمي

ما كان ذاك سوى عاريّة رجعت إليك لو لم تعرها كنت لم تُلَم

وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي مقام شاهد عدل غير متّهم

فإن جحدتك ما أوليت من نعم إنّي لباللؤم أولى منك بالكرم[11]

فقال المأمون : إنّ من الكلام ، كلاماً كالدرّ ، وهذا منه ، وأمر لإبراهيم بخلع ومال ، قيل أنّه ألف ألف درهم .

وقال له : يا إبراهيم ، إنّ أبا إسحاق ، وأبا عيسى[12] ، أشارا عليّ بقتلك .

---

٨ في غ : بفضل خلق .

٩ هذا البيت لم يرد في م .

١٠ الزيادة من غ .

١١ هذا البيت لم يرد في م .

١٢ في م : وولدي . وأبو عيسى بن هارون الرشيد : أمير عبّاسي ، كان من أحسن الناس وجهًا ، ومجالسةً ، =

فقال إبراهيم : ما الذي قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟

قال : قلت لهما : إنّ قرابته قريبة ، ورحمه ماسّة ، وقد بدأنا بأمر ، وينبغي أن نستتمّه ، فإن نكث فالله مغيّر ما به .

قال إبراهيم : قد نصحا لك ، ولكنّك أبيت إلاّ ما أنت أهله يا أمير المؤمنين ، ودفعتَ ما خفتَ ، بما رجوت .

فقال المأمون : قد مات حقدي بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك ، وأعظم من عفوي عنك أنّني لم أجرّعك مرارة امتنان الشافعين .

= وعشرةً ، وأمجنهم ، وأحدّهم نادرة ، وأشدّهم عبثًا ، اقرأ في الأغاني ١٠/١٨٩ وفي تاريخ بغداد لابن طيفور ٦٦ قصّة عن عبثه بالأمير طاهر بن الحسين ، وكذلك قصّته مع المأمون ، لمّا كان يخطب يوم الجمعة على المنبر بالرصافة ، عندما حضر يعقوب بن المهدي ، وكان أبو عيسى يقول شعراً لينا طيّبًا من مثله ، ويجيد الغناء ، ويصنع الأصوات ، وهو أوّل من غنّى للمأمون لما قدم بغداد ، وكان جميل الصورة جدًّا حتى أنّ الناس كانوا يجلسون له ليروه أكثر ممّا يجلسون للخلفاء (الأوراق للصولي ٨٨) ، وكان مغرمًا بالصيد ، وطرد خنزيراً ، فسقط عن جواده ، فأصيب بالصرع ، ومات ، فحزن عليه المأمون حزنًا شديداً ، ونزل في قبره ، ودفنه وهو يبكي ، ودموعه تسيل على خدّيه ، وامتنع عن الطعام والنوم أيّامًا (الأغاني ٥/٣٨٣ و ١٠/١٨٦–١٩٢) وكان أبو عيسى في أوّل زمان الخلاف بين الأخوين ، قد مالأ المخلوع ، فكتب إليه طاهر بن الحسين كتابًا من أبلغ الكتب ، راجعه في أدب الكتّاب للصولي ١٥١ ، ١٥٢ ، ومن بديع شعره ، [الأوراق للصولي ، أشعار أولاد الخلفاء ٨٨ و ٨٩] :

أسهرني ثم رقد … وما رثى لي من كمد

ظبي إذا زدت هوى … وذلّة تاه وصد

واعطشا إلى فمٍ … يمجّ خمراً من برد

٣٥٠

إنّ من أعظم المحنة

أن تسبق أميّة هاشمًا إلى مكرمة

[وحدّثني أبو الفرج الأصبهاني ، قال : حدّثني علي بن سليمان الأخفش ، ومحمّد بن خلف بن المرزبان قالا : حدّثنا محمّد بن يزيد النحوي ، يعنيان أبا العبّاس المبرّد ، قال : حدّثنا][١] الفضل بن مروان ، قال :

لمّا دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظفر به ، كلّمه بكلام كان سعيد بن العاص كلّم به معاوية بن أبي سفيان في سخطة سخطها عليه ، [١٩٧ غ] واستعطفه به ، وكان المأمون يحفظ الكلام .

فقال له المأمون : هيهات يا إبراهيم ، هذا كلامٌ قد سبقك به فحل بني العاص ، وقارحهم[٢] ، سعيد بن العاص ، خاطب به معاوية .

فقال له إبراهيم : وأنت إن عفوت عنّي ، فقد سبقك فحل بني حرب ، وقارحهم ، إلى العفو ، ولم تكن حالي في ذلك ، أبعد من حال سعيد عند معاوية ، فإنّك أشرف منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية ، وإنّ من أعظم المحنة أن تسبق أميّة هاشمًا إلى مكرمة .

فقال له : صدقت يا عمّ ، وقد عفوت عنك[٣] .

---

١ الزيادة من غ وفي بقية النّسخ : وقيل باسناد عن الفضل بن مروان .

٢ القارح : البعير الذي نبت نابه ، يريد به سيّد القوم .

٣ هذه القصّة لم ترد في ر .

٣٥١
لمّا قدّم للقتل تماسك فلمّا عفي عنه بكى

وجدت في بعض الكتب :

أنّه لمّا حصل إبراهيم بن المهدي في قبضة المأمون ، لم يشكّ هو وغيره في أنّه مقتول ، فأطال حبسه في مطمورة[١] ، بأسوأ حال وأقبحها .

قال إبراهيم : فأيست من نفسي ، ووطّنتها على القتل ، وتعزّيت عن الحياة ، حتى صرت أتمنّي القتل ، للراحة من العذاب ، وماأؤمّله في الآخرة ، من حصول [١٩٨ م] الثواب .

فبينا أنا كذلك ، إذ دخل عليّ أحمد بن أبي خالد مبادراً ، فقال : أعهد[٢] ، فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك .

فقلت : أعطني دواة وقرطاساً ، فكتبتُ وصيّة[٣] ذكرت فيها كلّما احتجت إليه ، وأسندتها إلى المأمون ، وشكلة والدتي[٤] ، وتوضّأت ، فتطوّعت ركعات ، ومضى أحمد .

وفرغت من الصلاة ، وجلست أتوقّع القتل ، فعاد إليّ أحمد بعد ساعتين ،

---

١ المطمورة : راجع حاشية القصّة ١٨٣ من الكتاب .

٢ إعهد : أوصِ .

٣ لمّا مات إبراهيم أسند وصيّته إلى المعتصم ، ورأى المعتصم أنّه لم يوصِ فيها لأولاد علي بن أبي طالب بشيء ، لأنّه كان شديد الإنحراف عن عليّ ، فاستقبح الواثق فعله ، وعدّل المعتصم وصيّته (الأغاني ١٠/١٢٦ والأوراق للصولي – أشعار أولاد الخلفاء ٤٨ و٤٩) .

٤ كانت شكلة أم إبراهيم ، سوداء ، وكان يعيّر بها ، وينسبه إليها من يبتغي الطعن فيه ، ولمّا أعلن خلافته ، قال فيه دعبل [وفيات الأعيان ١/٤٠] :

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله	فهفا إليه كلّ أحمق مائق
إن بات إبراهيم مضطلعاً بها	فلتصلحن من بعده لمخارق

فقال : أمير المؤمنين ، يقرؤك السلام ، ويقول لك : أنا أحمد الله – جلّت عظمته – الذي وفّقني لصلة رحمك ، والصفح عنك ، وقد أمّنك ، وردّ عليك نعمتك ، وجميع ضياعك وأملاكك ، فانصرف إلى دارك .

قال : فبدأت أدعو للمأمون ، وغلب البكاء عليّ والانتحاب ، وهو يطالبني بالجواب ، وأنا غير متمكّن منه .

فقال لي أحمد : لقد رأيت منك عجباً ، أخبرتك أنّي أمرتُ بضرب عنقك ، فلم تجزع ، ولم تبك ، ثم أخبرتك بتفضّل أمير المؤمنين عليك ، وصفحه عنك ، فلم تتمالك من البكاء .

فقلت له : أمّا السكوت عند الخبر الأوّل ، فلأنّي لم أتوسّم – منذ ظفر بي – أن أسلم من القتل ، فلمّا ورد عليّ ما لم أشكّ فيه ، لم أجزع له ، ولم أبك .

وأمّا بكائي عند الخبر الثاني ، فوالله العظيم شأنه ، ما هو عن سرور بالحياة ، ولا لرجوع النعمة ، وما بكائي إلاّ لما كان منّي في قطيعة رحم من عنده – بعد استحقاقي منه القتل – مثل هذا الصفح الذي لم يسمع في جاهليّة ولا إسلام ، بأنّ أحداً أتى بمثله ، فقد حاز أمير المؤمنين الثواب من الله تعالى ، في صلة رحمه ، وبؤتُ أنا بالإثم ، في قطيعة رحمي ، وقد أظهر إحسانهُ إساءتي ، وحلمه جهلي ، وفضله نقصي ، وجوابي هو ما شاهدت وسمعت [١٩٥ ر] .

فرجع أحمد إلى المأمون فأخبره ، ثم عاد إليّ بمالٍ وخلعٍ ، ومركوب ، فانصرفت إلى داري ونعمتي .

٣٥٢

قال المأمون : لقد حبّب إليّ العفو

حتى خفت أن لا أؤجر عليه

[ووجدت الخبر على خلاف هذه الرواية ، فأخبرني أبو الفرج الأموي المعروف بالأصبهاني ، قال : أخبرني علي بن سليمان الأخفش ، قال : حدّثنا محمّد بن يزيد النحوي ، عن الجاحظ ، قال :

أرسل إليّ ثمامة ، يوم حبس المأمون إبراهيم بن المهدي ، وأمر بإحضار الناس على مراتبهم ، فحضروا ، وجيء بإبراهيم .

قال أبو الفرج ، وأخبرني عمّي ، قال : حدّثني الحسن بن عُلَيْل [١] ، قال : حدّثني] [٢] محمّد بن عمرو الأنباري [من أنبار خراسان] [٣] ، قال :

لمّا ظفر المأمون بإبراهيم المهدي ، أحبّ أن يوبّخه على رؤوس الأشهاد ، فأمر بإحضار الناس على مراتبهم ، وجيء بإبراهيم يرسف في قيوده [٤] ، فوقف على طرف البساط في طرف الإيوان ، يحجل في قيوده .

فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

فقال له المأمون : لا سلّم الله عليك ، ولا كلأك ، ولا حفظك ، ولا رعاك .

فقال له إبراهيم : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فلقد أصبحت وليّ الثأر ،

---

١ أبو علي الحسن بن عُليل بن الحسين بن علي العنزي : أديب ، لغوي ، عالم بأخبار العرب ، إسم أبيه علي ، وغلب عليه اسم عُليل ، وهو لقب له ، وله تآليف في اللغة ، وشعر ، مات بسامراء سنة ٢٩٠ (الأعلام ٢/٢١٦) .

٢ الزيادة من غ .

٣ الزيادة من غ ، وأنبار خراسان مدينة قرب بلخ ، هي قصبة جوزجان (معجم البلدان ١/٣٦٧) .

٤ الرسف : مشية المقيّد .

والقدرة تذهب الحفيظة ، وقد أصبح ذنبي فوق كلّ ذنب ، كما أصبح عفوك فوق كلّ عفو ، ولم يبق إلاّ عفوك أو انتقامك ، فإن تعاقب فبحقّك [١٩٥ غ] ، وإن تعفُ فبفضلك ، وأنت للعفو أقرب .

فأطرق المأمون مليًّا ، ثم رفع رأسه ، فقال : إنّ هذين أشارا عليّ بقتلك ، يعني أخاه المعتصم ، وابنه العبّاس ، وكانا يشيران عليه في معظم تدبير الخلافة والسياسة .

فقال إبراهيم : لقد نصحا لك يا أمير المؤمنين فيما أشارا عليك به ، وما غشّاك ، إذ كان منّي ما كان ، ولكنّ الله عزّ وجلّ ، عوّدك في العفو عادة جريت عليها ، دافعاً ما تخاف بما ترجو ، فكفاك الله كلّ مكروه ، ودفع عنك كلّ محذور .

قال : فتبسّم المأمون ، وأقبل على ثمامة ، وقال : إنّ من الكلام ما يفوق الدرّ ، ويغلب السحر ، وكلام عمّي منه ، أطلقوه ، وفكّوا عن عمّي حديدهُ ، وردّوه إليّ مكرّماً .

فلمّا ردّ إليه ، قال : يا عمّ ، صر إلى المنادمة ، وارجع إلى الأنس ، فلن ترى منّي أبداً إلاّ ما تحب ، [فلقد حبّب إليّ العفو ، حتى خفت أن لا أؤجر عليه ، أمّا أنه لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقرّبوا إلينا بالذنوب ، لا تثريب اليوم عليك يا عمّ ، يغفر الله لنا ولك ، ولو لم يكن في حقّ نسبك ما يبلغ الصفح عن إساءتك ، ولو لم يكن في حقّ قرابتك ، ما يستحقّ العفو عن جرمك ، لبلغت ما أمّلتَ بحسن تنصّلك ، ولطف توصّلك ، ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله إليه][٥] .

فلمّا كان من الغد ، بعث إليه إبراهيم درجاً فيه هذه الأبيات : [١٩٣ ر]

---

٥ لا توجد في غ .

يا خير من ذملت[٦] يمانية بـــه ... بعد الرسول لآيس أو طامـــع
والله يعلم ما أقول فإنّهـــا ... جهد الأليّة من حنيف راكـع
قسمًا وما أدلي إليك بحجّـــة ... إلاّ التضرّع من مقرّ خاشـع[٧]
ما إن عصيتك والغواة تمــدّ لي ... أسبابها إلاّ بقلب طائـع[٨]
حتى إذا علقت حبائـل شقوتي ... بردى على حَفْر المهالك هائع[٩]
لم أدر أنّ لمثـل ذنبي غافـــراً ... فأقمت أرقب أيّ حتف صارعي
ردّ الحيــاة علـيّ بعـد ذهــابها ... عفو الإمام القـادر المتواضع[١٠]
أحياك من ولّاك أطول مــدّةٍ ... ورمى عدوّك في الوتين بقاطع[١١]
إنّ الذي قسم الفضائل حازهـا ... في صلب آدم للإمــام السابع
كم من يدٍ لك لا تحدّثني بهــا ... نفسي إذا آلت إليّ مطـــامعي
أسديتها عفـــواً إليّ هنيئـــةً ... فشكرتُ مصطنعاً لأكرم صانع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطـا ... وحنين والهـة كقوس النـازع[١٢]
وعفوت عمّن لم يكن عن مثلـه ... عفوٌ ولم يشفع إليك بشافـــع
إلاّ العلوّ عن العقوبـــة بعدمـا ... ظفرت يداك بمستكين خاشع[١٣]

قال : فبكى المأمون ، ثم قال : عليّ به ، فأُتي به ، فخلع عليه ، وأمر له بخمسة آلاف درهم ، وكان ينادمه ، لا ينكر منه شيئاً .

---

٦ الذميل : السير الليّن ، والذمول : الناقة التي تسير سيراً ليّناً .

٧ في تاريخ بغداد لابن طيفور ص ١٠٢ : من مقرّ باخع .

٨ في تاريخ بغداد ص ١٠٢ : إلاّ بنية طائع .

٩ الهوع : التحفّز للوثوب .

١٠ في غ : ورع الإمام القاهر المتواضع .

١١ الوتين : عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلّها .

١٢ نزع القوس : جذبها للرمي ، يريد أنّ الوالهة ، وهي أمّه ، عجوز محدودبة الظهر .

١٣ وردت القصيدة بتمامها في تاريخ بغداد لابن طيفور ١٠١–١٠٣ .

٣٥٣
إذا رميتُ أصابني سهمي

قال أبو الفرج ، وروى بعض هذا الخبر ، محمّد بن الفضل الهاشمي ، فقال فيه :

لمّا فرغ المأمون من خطابه ، دفعه إلى أحمد بن أبي خالد الأحول ، وقال له : هو صديقك ، فخذه إليك .

فقال : ما يغني هذا عنه ، وأمير المؤمنين ساخطٌ عليه ، أمّا وإنّي وإن كنت صديقاً له [١٩٦ غ] ، لا أمتنع من قول الحقّ فيه .

فقال له : قل ، فإنّك غير متّهم .

فقال : هو يريد التسلّق[١] إلى أن تعفو عنه [٢٦ ن] ، فإن قتلته ، فقد قتلت الملوك قبلك من كان أقلّ جرماً منه ، وإن عفوتَ عنه ، عفوتَ عمّن لم يعفُ قبلك أحد عن مثله .

فسكت المأمون ساعة ، ثم تمثّل بهذه الأبيات :

فلئن عفوتُ لأعفون جللاً ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

قومي هموا قتلوا أميم أخي ... فإذا رميتُ يصيبني سهمي

قال مؤلّف هذا الكتاب : وروى أبو تمام الطائي ، هذين البيتين في اختياراته التي سمّاها : الحماسة ، وقدّم البيت الثاني على الأوّل .

رجع الحديث إلى أبي الفرج ، قال :

فقال له المأمون : خذه إليك مكرّماً ، فانصرف به ، ثم كتب إلى المأمون

---

١ التسلّق : الصعود ، ويريد بها هنا : التوصّل .

قصيدته العينية[2] ، فلمّا قرأها رقّ له ، وأمر بردّه إلى منزلته[3] ، وردّ ما قبض من أمواله وأملاكه . [١٩٤ ر] .

٢ أورد القاضي التّنوخي قصيدة ابراهيم العينيّة ، في القصّة **٢٥٢** من هذا الكتاب .

٣ في غ : إلى منزله .

٣٥٤
إبراهيم بن المهدي يحتجّ لنفسه أمام المأمون

وحدّثني علي بن هشام ، المعروف بابن أبي قيراط [١٩٨ غ] الكاتب [البغدادي ، قال : حدّثني أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل الأنباري الكاتب ، المعروف بزنجي ، قال : حدّثنا أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن ثوابة [1] ، قال : سمعت موسى بن عبد الملك] [2] ، يحدّث عن أحمد بن يوسف الكاتب [3] ، قال :

كنت أشرب مع المأمون ، وأنادمه ، وأنا أتقلّد له ديوان المشرق ، وديوان الرسائل ، قبل وزارتي له ، وكنت كثيراً ما أنادمه على الانفراد ، وربما جمع بيني وبين اليزيدي [4] ، [وإسحاق بن إبراهيم الموصلي] [2] .

فلمّا رضي عن إبراهيم بن المهدي ، ونادمه ، صار لا يكاد يشرب مع غيره وغيري ، ويقتصر [٢٧ ن] على استماع الغناء من وراء الستارة ، وربّما حضر إسحاق بن إبراهيم الموصلي .

---

١ أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن ثوابة : ترجمته في حاشية القصّة ١٠٦ من الكتاب .

٢ الزيادة من غ .

٣ أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب : ترجمته في حاشية القصّة ٢٦٣ من الكتاب .

٤ محمّد بن يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي ، المعروف باليزيدي : وهو ابن أبي محمّد يحيى بن المبارك اليزيدي مؤدّب المأمون ، وكان محمّد يؤدّب المأمون مع أبيه ، ويجالسه ، وثقل سمعه في آخر عمره ، فانقطع عن المأمون ، فاستحضره ، وعاتبه ، فاعتذر بثقل سمعه ، فلم يقبل عذره ، وأمره بمعاودة الحضور ، وخرج مع المعتصم إلى مصر في السنة ٢١٤ وتوفّي بها (وفيات الأعيان ١٨٨/٦ و ١٨٩ وابن الأثير ٤٠٩/٦) ، وقد توهّم بعض المؤرّخين أنّ الذي كان يحضر مجالس المأمون هو اليزيدي الأب أبو محمّد ، وفاتهم أنّ أبا محمّد توفّي في السنة ٢٠٢ قبل عودة المأمون إلى بغداد ، كما ذكر ابن خلّكان رحمه الله في وفيات الأعيان ١٨٩/٦ أنّ محمّد اليزيدي بقي إلى أيّام المعتصم ، وخرج معه إلى مصر ، مع أنّ المعتصم سافر إلى مصر مرّة واحدة في السنة ٢١٤ في أيّام المأمون .

فنحن ذات يوم على شرب ، ومعنا إسحاق ، إذ غنّى إبراهيم بن المهدي[٥] ، فقال :

صونوا جيادكُمُ واجلوا سلاحكُمُ وشمّروا إنّها أيّام من غلبا

فاستعاده المأمون مراراً ، وبان لي في وجهه الغيظ والغضب ، والهمّ ، وزوال الطرب ، ولم يفطن إبراهيم .

وترك المأمون القدح الذى كان في يده ، ونهض ، فظنّناه يريد الوضوء ، ثم غاب .

فما شعرنا إلاّ وقد استدعانا إلى مجلس آخر ، فإذا هو جالس على سرير الخلافة ، بقلنسوة ، وثياب الهيبة ، وبين يديه إسحاق بن إبراهيم المصعبي ، وجلّة القوّاد .

---

٥ كان إبراهيم بن المهدي يعيّر بالغنّاء ، ويعيّر به بنو العبّاس ، ولما أعلن خلافته ، قيل فيه :

إن بات ابراهيم مضطلعًا بها فلتصلحن من بعده لمخارق

ومخارق من محترفي الغناء (وفيات الأعيان ١/٤٠) ، وعندما عجز في أيّام خلافته عن تدارك أرزاق الجند ، قيل على سبيل السخرية منه إنّه سوف يغنّي للجند أصواتًا ، بدل الرزق ، فقال الشاعر [تاريخ بغداد ٦/١٤٢] :

يا معشر الأجناد لا تيأسوا من رحمة الله ولا تقنطوا
فسوف تسقون حنينيّةً يلتذّها الأمرد والأشمط
والمعبديّات لقوّادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق أصحابه خليفةٌ مصحفه البربط

الحنينيّة : غناء حنين ، والمعبديّات : غناء معبد ، والبربط : آلة موسيقيّة وترية ، وقال أبو فراس الحمداني ، يعيّر به بني العبّاس [ديوان أبي فراس ٢٥٥ و٢٥٩] :

بنو عليّ رعايا في ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم
منكم عليّة أم منهم وكان لكم شيخ المغنّين إبراهيم أم لهم

فاستدعى إبراهيم بزيّه ، فحضر بأخسّ صورة وأقبحها ، وعليه ثياب المنادمة ، يفضحه بذلك .

فلمّا وقف بين يديه ، قال له : يا إبراهيم ، ما حملك على الخروج [١٩٩ م] عليّ ، والخطبة لنفسك بالخلافة .

قال أحمد بن يوسف : وقد كنت لمّا أبطأ المأمون عن مجلس الشرب ، تعرّفت الصورة ، فلمّا استدعاني ، جئت وقد لبست ثياب العمل ، ونزعت ثياب المنادمة .

فلمّا سأل إبراهيم عن ذلك ، في مثل ذلك المجلس ، علمت أن الصوت قد ذكّره [ما كان من إبراهيم ، ولم أشكّ في أنّه سيقتله][٦] .

فأقبل عليه إبراهيم بوجه صفيق ، وقلب ثابت ، فقال : يا أمير المؤمنين لست أخلو من أن أكون عندك عاقلاً ، أو جاهلاً ، فإن كنتُ جاهلاً ، فقد سقط عنّي اللوم ، من الله تعالى ثم منك ، وإن كنت عاقلاً ، فيحسن أن تعلم أنّي قد علمت أن محمّداً أخاك مع أمواله وذخائره ، وأموال والدته ، وكثرة ضياعها وصنائعها ، والأعمال التي كانت في يده وارتفاعها ، ومحبّة بني هاشم له ، لم يثبت لك ، وهو الخليفة ، وأنت أمير من أمرائه ، فكيف أثبت أنا لك ، وأنا في قوم أكثر رزق الرجل منهم ثلاثون درهماً في الشهر ، وقد غلبني على بغداد ابن أبي خالد العيّار ، وأصحابه ، يقطعون ، ويضربون ، ويحبسون ، ويطلقون ، ووالله جلّ شأنه ، وحقّ رسول الله ، وحقّ جدّي العبّاس [١٩٩ غ] ، ما دخلت فيما دخلت فيه ، إلاّ لأبقي هذا الأمر عليك ، وعلى أهل بيتك ، لمّا رأيت الفضل ابن سهل قد حمله البطر والرفض على أن أخرج الخلافة عنك ، فأردت ضبط الأمر ، إلى أن تقدم فتتسلّمه .

قال : فرأيت المأمون وقد أسفر وجهه ، وقال : عليّ بنافذ الخادم ، فأحضر .

---

٦ الزيادة من غ .

فقال له : رقعة سلّمتها إليك بمرو ، قبل رحيلي عنها ، وأمرتك بحفظها ، هاتها .

فمضى ، وجاء بسفط ، ففتحه ، وأخرج منه الرقعة ، فإذا مكتوب فيها بخطّ المأمون : لئن أظفرني الله عزّ وجلّ بإبراهيم بن المهدي ، لأسألنّه بحضرة الأولياء ، والخاصّة من أهل بيتي وأجنادي ، عن السبب الذي دعاه إلى الخروج عليّ ، فإن ذكر أنّه إنّما أراد بذلك حفظ الأمر على أهل بيتي ، لما جرى في أمر علي ابن موسى ، لأخلينّ سبيله ، ولأحسننّ إليه ، ولئن ذكر غير ذلك من العذر – كائناً ما كان – لأضربنّ عنقه .

قال أحمد بن يوسف : ولم يكن بحضرته كاتب غيري ، فدفعها إليّ ، وقال : يا أحمد ، ادفعها إليه .

ثم قال : يا عمّ ، خذ براءتك من أحمد ، وعد إلى مجلسك الذي خلّفتك فيه .

قال : فسلّمت الرقعة إليه ، وعدنا إلى مجلسنا وموضعنا ، فطرح إبراهيم نفسه مغشيًّا عليه .

فما شعرنا إلاّ والمأمون قد رجع بثياب بذلته ، فقمنا وجلسنا مجلسنا ، وقال : ارجعوا إلى ما كنّا عليه ، وأتممنا يومنا ذلك معه .

٣٥٥

المأمون ينصب صاحب خبر

على إبراهيم بن المهدي

قال أبو الفرج ، وفي خبر عمّي ، عن الحسن بن عُلَيْل ، قال : حدّثني محمّد بن إسحاق الأشعري ، عن أبي داود ، قال :

إنّ المأمون ، تقدّم إلى محمّد بن داود ، لمّا أطلق إبراهيم ، وأمره أن يمنع إبراهيم من داري الخاصّة[١] ، والعامّة[٢] ، ووكّل رجلاً من قِبَلِهِ ، يثق به ، ليعرّفه أخباره ، وما يتكلّم به[٣] .

فكتب إليه الموكّل يوماً : إنّ إبراهيم ، لمّا بلغه منعه من داري الخاصّة والعامّة ، تمثّل بهذين البيتين :

يا سرحة الماء قد سدّت موارده ... أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حيام به ... مشرّد عن طريق الماء مطرود

قال : فلمّا قرأها المأمون بكى ، وأمر بإحضاره من وقته مكرّماً ، وإجلاسه في مرتبته ، فصار إليه محمّد ، فبشّره ، وأمره بالركوب ، فركب .

فلمّا دخل على المأمون ، قبّل البساط ، وأنشأ يقول :

البرّ بي منك وطّا العذر عندك لي ... فيما أتيت فلم تعذل ولم تلم

وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متّهم

---

١ دار الخاصّة : الدار التي يستقبل فيها الخليفة خاصّة الناس من كتّابه ، وقوّاده ، وحاشيته .

٢ دار العامّة : الدار التي يستقبل فيها الخليفة الناس يوم الموكب ، حيث لا يمكن الدخول إليه إلاّ بسواد ، ويجلس فيها للمظالم ، فلا يمنع عنه أحد من الناس .

٣ صاحب الخبر : راجع البحث في آخر القصة .

تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به فلا عدمناك من عافٍ ومنتقم[4]

فقال له : اجلس يا عمّ آمناً مطمئناً ، فلست ترى منّي ما تكره ، إلاّ أن تحدث حدثاً ، وأرجو أن لا يكون منك ذلك ، إن شاء الله تعالى .

---

٤ في تاريخ بغداد لابن طيفور ص ١٠٣ ، الأبيات أربعة ، وليس فيها الثالث المثبت هاهنا ، أمّا البيتان الآخران ، فهما :

رددتَ مالي ولم تبخــل عــليَّ بــه وقبــل ردِّك مالي قــد حقنت دمي

فرحتُ منـك – وما كافيتني – بيدٍ هي الحياتان من مــوتٍ ومن عدم

صاحب الخبر

صاحب الخبر : شخص ينيط به الحاكم أن يرفع إليه خبر جميع ما تقع عليه عينه ، أو يصل إلى سمعه ، وهو للحاكم بمنزلة العين الباصرة والأذن السامعة (آثار الدول ٨٣) .

ويعنى الحاكم باختيار صاحب الخبر عناية عظيمة (تاريخ بغداد لابن طيفور ٣٥) .

ويختلف مقام صاحب الخبر ، باختلاف عمله ، من الشخص البسيط المكلّف بتلقّط الأخبار من ألسنة المجتازين ، وأبناء السبيل ، والأطفال (تاريخ بغداد لابن طيفور ٣٦) إلى صاحب البريد الذي ينصبه الخليفة رقيباً على أكابر عمّاله ، وعلى أصحاب الأطراف في مختلف أرجاء المملكة (تاريخ بغداد لابن طيفور ٧١ والقصّة ٥٢/٨ و ٥٣ من نشوار المحاضرة ، وجهات الخلفاء ٧ و ٨) .

ويقتضي أن لا تكون واسطة بين صاحب الخبر ، وبين الحاكم الذي نصبه (آثار الدول ٨٥) ، وعليه أن يوصل الخبر بأسرع السبل وأعجلها ، وهو ملزم بأن ينقل كلّ ما يرى ويسمع ، خيراً كان أو شرًّا (تاريخ بغداد لابن طيفور ٣٥) .

وليس لصاحب الخبر أن يناقش أحداً من الناس ، موظفين أو رعيّة ، فيما قالوا وما صنعوا ، وإنما عليه أن يكتب ما يرى ويسمع (تاريخ بغداد لابن طيفور ٣٧) .

وكان الخليفة عمر ، عظيم التدقيق في سلوك عمّاله ، وكذلك كان معاوية ، وزياد ، وعبد الملك بن مروان ، والحجّاج (المحاسن والمساوىء ١/١١٠ و ١١١) .

أمّا المنصور العبّاسي ، فقد فاق من سبقه في البحث عن الأخبار (العيون والحدائق ٢٣٤/٣ والطبري ١٠٦/٨ والمحاسن والمساوىء ١/١١٢–١١٥) .

وسار الرشيد على طريقة المنصور في البحث عن أسرار رعيّته (المحاسن والمساوىء ١١١/١ ، والأغاني ١٠٧/١٩ ، والطبري ٢٨٩/٨ و ٢٩٧) .

وكان المأمون له على كلّ شيء صاحب خبر (وفيات الأعيان ١٧٩/٦) وكان يفحص عن عمّاله ، ورعيّته (المحاسن والمساوىء ١١٧/١) ، والقصّة المثبتة في تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٩٩ توضح مقدار إطلاع المأمون على أسرار عمّاله وحاشيته ، كما أنّ رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبي ، بشأن الفقهاء وأصحاب الحديث ، الذين امتحنهم بالقول بخلق القرآن ، تدل على معرفته بأمور رعيّته ، معرفة قد تخفى على غيره ، وفيها دليل على عظيم

إستقصائه ، راجع في المحاسن والمساوىء ١/١١١-١١٧ بعض القصص التي تدل على دقيق معرفته بما خفي من أمور رعيّته . وراجع كذلك ، تاريخ الحكماء ٣٢٩ ، والعيون والحدائق ٣/٣٦٤ ، والأغاني ط بولاق ٢٠/٨٢ .

وكان الرشيد ، والمعتصم ، والمتوكّل ، والمعتضد ، يبحثون عن أحوال الناس غاية البحث ، ويتلطّفون في الاطّلاع على الأمور (آثار الدول ٨٦) .

وكان لكل خليفة ، أصحاب أخبار على وزرائه ، وعلى الموظّفين في الدواوين ، وعلى ما في داره ، وما يقع خارج بابه (القصّة ٣/١٧٤ من النشوار ، والقصّة ١٤٣ من هذا الكتاب ، ورسوم دار الخلافة ٧٢ و ٧٦ ، وتاريخ بغداد لابن طيفور ٣٥ والوافي بالوفيات ٧/٢٣١) .

وكان الحاكم الفاطمي بمصر ، كثير الطلب لأخبار الناس (شذرات الذهب ٣/١٩٤) .

وكان الأمراء من كبار العمّال ، لهم أصحاب أخبار في دار الخليفة (الأغاني ١٥/٢٣٤ ، والقصّة ٢/٢ من نشوار المحاضرة ، ووفيات الأعيان ٦/٣١٥) .

وكان عضد الدولة ، له أصحاب أخبار في كلّ مكان ، حتى أنّه كان يقدّم لمؤدّبي الصبيان أرزاقاً ، لكي يسألوا من أولاد الجنود ، عن أمور آبائهم (ذيل تجارب الأمم ٣/٥٨-٦٤) وراجع المنتظم ٧/١٥٥ والإمتاع والمؤانسة ٣/١٤٨) .

وكان أحمد بن طولون يضع أصحاب أخبار على قوّاده (آثار الدول ٨٧) .

وكان الخليفة الناصر العبّاسي ، عظيم العناية بتسقّط الأخبار (ابن الأثير ١٢/٤٤٣ وتاريخ الخلفاء ٤٤٩ و ٤٥١) وكذلك كان الأمير تغرى ورمش صاحب حلب (أعلام النبلاء ٣/٣٥) .

ولزيادة التفصيل راجع كتابنا (الاستخبارات في العهدين الأموي والعبّاسي) وهو معدّ للطبع ، وسأعنى بإخراجه ، بعد إخراج هذا الكتاب .

٣٥٦

ما بقاء جلدة تنازعها ملكان

وجدت في بعض الكتب : أنّ كسرى أبرويز[١] ، ركب يوماً فرسه الشبديز[٢] ، فتلكّأ عليه ، فجذب عنانه ، فانقطع .

فاستحضر صاحب السروج ، وقال : يكون عنان مثلي ضعيفاً ينقطع ؟ اضربوا عنقه .

فقال : أيّها الملك ، اسمع ، وانصف .

قال : قل .

قال : ما بقاء جلدة يتنازعها ملكان ، ملك الناس ، وملك الدوابّ .

فقال كسرى : زه ، زه ، أطلقوا عنه ، وأعطوه اثني عشر ألف درهم .

---

١ في غ : كسرى أنوشروان .

٢ الشبديز : فارسية من شب : اللّيل ، وديز : اللّون ، وفي ن : الشيراز ، وتعني بالفارسيّة : اللبن الرائب .

٣٥٧
أنظر كيف كانت عاقبة الظالمين

[وذكر محمّد بن عبدوس ، في كتابه «الوزراء» ، عن محمّد بن يزيد ، قال][1] :

أمرني عمر بن عبد العزيز بإخراج قوم من السجن ، فأخرجتهم ، وتركت يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج[2] ، فحقد عليّ ، ونذر دمي .

فإنّي بإفريقية ، إذ قيل : قدم يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج ، صارفاً لمحمّد بن يزيد مولى الأنصار[3] ، من قبل يزيد بن عبد الملك ، وكان ذلك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، فهربت منه ، وعلم بمكاني ، فطلبني ، فظفر بي .

فلمّا دخلت إليه ، قال : لطالما سألت الله أن يمكّنني منك .

فقلت : وأنا – والله – لطالما سألت الله عزّ وجلّ ، أن يعيذني منك .

فقال يزيد : ما أعاذك الله منّي ، والله لأقتلنّك ، ولو سابقني ملك الموت إلى قبض روحك ، لسبقته .

ثم دعا بالسيف والنطع ، فأتي بهما ، وأمر بي ، فأقمت في النطع ، وكّتفت ، وشدّ رأسي ، وقام ورائي رجل بسيف منتضى ، يريد أن يضرب عنقي ، وأقيمت الصلاة .

فقال : امهلوه ، حتى أصلّي ، وخرج إلى الصلاة .

---

١ في غ : ذكر محمّد بن عبدوس الجهشياري ، رحمه الله ، في كتاب الوزراء والكتّاب ، أنّ عمر بن شبّه ، قال : حدّثني بعض أصحابنا عن أميّة بن خالد ، عن عوانة بن الحكم عن الوضّاح بن خيثمة : قال : ... الخ .

٢ أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم دينار الثقفي : ترجمته في حاشية القصّة ١٠٥ من الكتاب .

٣ راجع القصّة ١٠٥ و١٨٢ من هذا الكتاب .

فلمّا سجد ، أخذته السيوف ، فقتل ، ودخل إليّ من حلّ كتافي ، ورأسي ، وخلّى سبيلي ، فانصرفت سالماً[4] .

---

٤ لم ترد هذه القصّة في م ، وقد وردت في العقد الفريد ٤/٤٢٧ ، كما ورد خبر مقتل يزيد في الكامل لابن الأثير ٥/١٠١ وفي الطبري ٦/٦١٧ .

٣٥٨

أمر الرشيد بأسيرين
فقطعا عضواً عضواً ثم مات

وذكر محمّد بن عبدوس ، في كتابه كتاب الوزراء ، قال :   ١

لمّا سار الرشيد إلى طوس[١] ، واشتدّت علته ، اتّصل خبره بالأمين ، فوجّه ببكر بن المعتمر[٢] ، ودفع إليه كتباً إلى الفضل بن الربيع ، وإسماعيل بن صبيح[٣] ، وغيرهما [٢٠٠ م] يأمرهم بالقفول[٤] إلى بغداد ، إن حدثت الحادثة بالرشيد ، والاحتياط على ما في الخزائن ، وحمله .

وقد كان الرشيد جدّد الشهادة للمأمون بجميع ما في عسكره ، من مال ،

---

١ طوس : حاضرة خراسان اليوم ، وفيها قبر الإمام علي الرضا عليه السلام وبجانبه قبر هارون الرّشيد ، وكانت مرو حاضرة خراسان ، فلمّا ولّي عبدالله بن طاهر خراسان ، جعل حاضرتها نيسابور .

٢ أبو حامد بكر بن المعتمر ، كاتب الأمين ، ومستودع أسراره ، ورسوله في المهمّات (الطبري ٣٦٦/٨ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩) ، وهو أحد من أشار على الأمين بخلع أخيه المأمون ، قال المأمون : يؤخذ بدم أخي محمّد ثلاثة ، الفضل بن الربيع ، وبكر بن المعتمر ، والسندي بن شاهك (تاريخ بغداد لابن طيفور ١٥) وقال الشاعر (الطبري ٣٨٩/٨ ، ٣٩٦) :

أضاع الخلافةَ غشُّ الوزيـــر   وفسق الأمـير ، وجهـل المشير
ففضـلٌ وزيـر ، وبكـرٌ مشير   يريدان ما فيـه حتف الأمـير

٣ إسماعيل بن صبيح : كان يلي زمام ديوان الخراج للمهدي ، ثم كتب ليحيى بن خالد في أيّام الهادي ، لما كان يحيى على ما يليه هارون الرشيد من عمل المغرب ، ثم ولّي زمام ديوان الشام وما يليها ، ولـمّا استخلف الرشيد عاد إلى كتابة يحيى ، وكان يكتب بين يدي الرشيد ، ولـمّا اختلف الاخوان مال إلى جهة الأمين ، وكان يكتب بين يديه ، حتى إذا فرّ الفضل بن الربيع واستتر ، استوزره الأمين (الطبري ١٦٧/٨ ، ٣٣٢–٣٣٧ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨ ، ٢٨٣–٢٨٦ ، ٤٠٠ ، العيون والحدائق ٣٤٢/٣) .

٤ القفول : العودة من السفر ، وسمّيت الرفقة المسافرة : قافلة ، تفاؤلًا بعودتها من سفرها سالمة .

وأثاث ، وخرثيّ[5] ، وكراع[6] ، وغير ذلك .

فلمّا ورد بكر بن المعتمر على الرشيد ، أوصل كتباً ظاهرة كانت معه ، بعيادة الرشيد .

وكانت الكتب الباطنة ، قد اتّصل خبرها بالرشيد ، فأحضر بكراً وطالبه بالكتب الباطنة ، فجحدها .

قال : فذكر عبيد الله بن عبدالله بن طاهر ، قال : حدّثني أبي ، قال : كنت مع الرشيد ، بطوس ، لمّا ثقل في علّته ، وقد ورد بكر بن المعتمر ، والمأمون حينئذ بمرو ، وقد ظفر الرشيد بأخي رافع بن الليث[7] ، فأحضر في ذلك اليوم ، ومعه قرابة له .

فخلع الرشيد على بكر ، وصرفه إلى منزله ، ثم أمر [٢٠٠ غ] بإحضاره ، ومطالبته بالكتب الباطنة ، فجحدها ، فأمر بحبسه .

ثم جلس الرشيد جلوساً عامّاً ، في مضرب خزّ أسود ، [استدارته أربعمائة ذراع ،في أركانه أربع قباب ، مغشّاة بخزّ أسود ، وهو جالس في فازة[8] خزّ أسود ، في وسط المضرب ، والعمد كلّها سود ، وقد جعل مكان الحديد فضّة ، والأوتاد ،

---

٥ الخرثي : السقط من المتاع ، حرّفها البغداديّون ، فهم الآن يلفظونها : خرده .

٦ الكراع : الدوابّ عامة من خيل وبغال وحمير .

٧ رافع بن الليث بن نصر بن سيّار : كان جدّه نصر بن سيّار آخر أمراء خراسان للأمويّين ، وخرج رافع على الرشيد في السنة ١٩٠ أخرجه ظلم علي بن عيسى بن ماهان أمير خراسان للرشيد ، فوثب رافع بعامل سمرقند وقتله ونصره الناس فيها ، فاستولى عليها ، فوجّه إليه أمير خراسان – وكانت سمرقند في إمارته – ولده عيسى ، فقتله رافع ، واشتدّت شوكته ، فخرج الرشيد لحربه في السنة ١٩٣ ومات الرشيد بطوس ، فلما إنتهى إلى رافع حسن سيرة المأمون بعث إليه يطلب الأمـان ، فآمنه وأكرمه (العيون والحدائق ٣/٣١١–٣٢٢) .

٨ الفازة : المظلّة بعمودين (المنجد) ، وتكون من الخِرَق (لسان العرب) .

والحبال ، كلّها سود][9] ، وعليه جبّة خزّ سوداء ، وتحتها فروة فنك[10] ، قد استشعره[11] ، لما هو فيه من شدّة البرد والعلّة ، وفوقها درّاعة خزّ أسود ، مبطّنة بفنك ، وقلنسوة طويلة ، وعمامة خزّ سوداء ، وهو عليل لما به[12] ، وخلف الرشيد خادم يمسكه لئلا يميل ببدنه[13] ، والفضل بن الربيع جالس بين يديه .

فقال للفضل : مر بكراً بإحضار ما معه من الكتب السرّية .

فأنكرها ، وقال : ما كان معي إلاّ الكتب التي أوصلتها .

فقال للفضل : توعّده ، وأعلمه أنّه إن لم يمتثل ، قتلته ، فأقام بكر على الإنكار .

فقال الرشيد ، بصوت خفيّ : قنّبوه[14] ، فجيء ببكر ، وجيء بالقنّب ، وقنّب من فرقه إلى قدمه .

قال بكر : فأيقنت بالقتل ، ويئست من نفسي ، وعملت على الإقرار .

فأنا على ذلك ، وإذا قد أحضر هارون أخا رافع[15] ، وقرابته الذي كان معه .

---

٩ لم ترد هذه الجملة في غ ، أقول : إنّ هذا البيت الخزّ الأسود الذي مات فيه هارون الرشيد بطوس ، انتقل إلى ملكية الفاطميّين ، وظهر في تركة السيّدة رشيدة ابنة المعزّ لدين الله لما توفّيت في السنة ٤٤٢ بمصر (خطط المقريزي ٤١٥/١) .

١٠ الفَنَك ، بفتح الفاء والنون : حيوان صغير شبيه بالثعلب ، لا يتجاوز طوله أربعين سنتيمترًا بما فيه الذنب ، فروته من أحسن الفراء (المنجد ، ومعجم الحيوان ١٠٦) .

١١ الاستشعار : لبس الشيء تحت الثياب .

١٢ لما به : تعبير يعني أنّه في حالة الاحتضار .

١٣ في غ : وخلف المسند خادم يمسكه بيديه لئلا يميل .

١٤ القنّب ، بضم القاف : ليف تصنع منه حبال متينة ، والتقنيب : التكبيل بالقنّب .

١٥ جاء في الطبري ٣٤٢/٨ أنّ أخا رافع ، اسمه بشير بن الليث ، وأنّ الرشيد نظر إليه ، ثم قال له : أما والله يا ابن اللخناء إنّي لأرجو أن لا يفوتني خامل – يريد رافعًا – كما لم تفتني ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، قد كنت لك حربًا ، وقد أظفرك الله بي ، فافعل ما يحب الله ، أكن لك سلمًا ، ولعلّ الله أن يلين لك قلب رافع إذا علم أنّك قد مننت عليّ ، فغضب ، وقال : والله ، لو لم يبق من أجلي إلاّ =

فقال الرشيد : أيتوهّم رافع أنّه يفلت منّي ، والله لو كان معه عدد نجوم السماء ، لالتقطتهم واحداً بعد واحد ، حتى أقتلهم عن آخرهم .

فقال الرجل : اللهَ ، اللهَ ، يا أمير المؤمنين فيّ ، فإنّ الله تعالى يعلم ، وأهل خراسان ، أنّي بريء من أخي منذ عشرين سنة ، ملازم منزلي ، ومسجدي ، فاتّق الله فيّ ، وفي هذا الرجل .

فقال له قرابته : قطع الله لسانك ، أنا – والله – منذ كذا وكذا [٢٨ ن] أدعو الله بالشهادة ، فلمّا رزقتها على يدي شرّ خلقه ، أخذتَ في الاعتذار .

قال : فاغتاظ الرشيد ، وقال : عليّ بجزّارين .

فقال له قرابة رافع [١٦] : افعل ما شئت ، فإنّا نرجو من الله تعالى أن يرزقنا الشهادة ، ونقف نحن وأنت ، بين يدي الله عزّ وجلّ ، في أقرب مدّة ، فتعلم كيف يكون حالك .

فنحّيا ، وأمر بهما ، فقطّعا عضواً ، عضواً [١٧] ، فوالله ، ما فرغ منهما ، حتى توفّي الرشيد .

قال بكر : وأنا أتوقّع القتل بعدهما ، حتى أتاني غلام لأبي [٢٠١ م] العتاهية ، قد بعث به مولاه ، وكتب في راحته شيئاً أرانيه ، فإذا هذه الأبيات : [١٩٦ ر] .

هـي الأيّـــام والغِيَـــرُ   وأمـــر الله منتظـــــــر
أتيأس أن تـــرى فرجـــاً   فأيـــن الله والقـــــــدر

= أن أحرّك شفتيّ بكلمة ، لقلت : اقتلوه ، ثم دعا بقصّاب ، فقال : لا تشحذ مداك ، أتركها على حالها ، وفصّل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجّل ، لا يحضرنّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه ، ففصله فجعله أشلاء ، فقال : عدّ أعضاءه ، فعدّت ، فإذا هي أربعة عشر عضواً .

١٦ في غ : قرابة هارون .

١٧ راجع بحث العذاب في آخر القصّة .

قال : فوثقت بالله ، وقويت نفسي ، ثم سمعت واعية[18] لا أفهم معناها ، وإذا الفضل بن الربيع قد أقبل إليّ .

فقال : خلّوا أبا حامد .

فقلت : ليس هذا وقت تكنيتي ، فحللت ، ودعا لي بخلع ، فخلعت عليّ .

ثم قال : أعظم الله أجرك في أمير المؤمنين ، وأخذ بيدي ، وأدخلني بيتاً ، فإذا الرشيد مسجّى فيه ، فكشفت عن وجهه ، فلمّا رأيته ميتاً ، سكنتُ .

فقال : هيه ، هات الكتب الباطنة التي معك .

قال : فأحضرت صندوقاً للمطبخ قد نقبت قوائمه ، وجعلت الكتب فيها ، وجعلت الجلد فوقها ، فأمرت بشقّ الجلد ، وكسر القوائم ، وسلّمت [٢٠١ غ] الكتب إلى أصحابها ، وأخذت الأجوبة ، وانصرفت .

قال مؤلّف هذا الكتاب : وقد أتى أبو الحسين القاضي في كتابه بهذين البيتين ، لأبي العتاهية ، من غير أن يذكر القصّة ، وزاد بين البيت الأوّل والبيت الثاني ، بيتاً ، وهو :

فلا تجزع وإن عظـم الـ ـبلاء ومسّـك الضرر

وذكر أبو بكر الصولي هذا الخبر ، في كتابه المسمّى بكتاب الأوراق ، الداخل فيما أجاز لي روايته ، بعدما سمعته منه ، [فقال : حدّثني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، قال : حدّثني بعض أصحابنا][19] عن بكر بن المعتمر ، وذكر نحو ذلك ، إلاّ شعر أبي العتاهية [فإنّه ما ذكره ، وقال : إنّ مضرب الرشيد أسود كلّه ، له شرف[20] ، كأنّه جبل أسود][19] ، ولم يقل أنّ الرشيد في قبّة خزّ ، قال : والرشيد في فازة خزّ سوداء ، وعلى سريره دست خزّ أسود ، وعليه جبّة

١٨ الواعية : الصوت والصراخ .

١٩ الزيادة من غ .

٢٠ الشرف : ما برز من البناء أو الخباء .

سوداء ، تحتها فنك ، وقد لبسها بلا قميص ، وهو مستند إلى مسند الدست .
قال : فخرج إليّ الفضل ، فحلّني ، وسلّم عليّ ، وكان لي صديقاً .
وقال لي : أين كتبك على الحقيقة ؟
فقلت : ما معي كتب .
فقال : إنّه قد مات ، وكأنّه رآني لم أصدّق ذلك ، فأخذ بيدي ، حتى وقفني عليه ، وهو ميت .
فقلت : ما أعجب هذا ؟
فقال : إنّه تحامل لك وللرجلين ، فجلس وهو لا يطيق ، وقد خرق في السرير خرق ينجو منه[21] ، وتحت فراشه الأسود جاروسن[22] ، والخدم قعود خلف السرير ، يسندون أطراف جنبه[23] ، ولولا مكانهم ما ثبت جالساً ، فلمّا كلّم الرجلين ، ورفع صوته وحرد ، غشي عليه ، فكأنّه ذبالة[24] أضاءت ثم طفئت[25] .

---

٢١ النجو ، وجمعه نجاء ، بكسر النون : ما خرج من البطن من ريح أو غائط .
٢٢ لم أفهم معنى هذه الكلمة ، ولم أستطع أن أردّها إلى أصلها .
٢٣ في غ : يمسكون أطراف جبّته .
٢٤ الذبالة : فتيلة السراج .
٢٥ لم ترد هذه القصّة في ر .

العـــذاب

العذاب ، في اللغة : النكال ، وكلّ ما شقّ على الإنسان ، وصعب عليه تحمّله ، جثمانيًّا كان أو نفسانيًّا ، ولم يكن العذاب معروفاً في صدر الإسلام ، فإنّ الإسلام جاء بالسلام والمودّة ، والعطف والرحمة ، وشعاره : أن لا إكراه في الدين ، واختصر نبيّ الإسلام عليه السلام جميع ما قام به في كلمة واحدة ، قال : بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق ، وكانت وصيّته لكل سريّة يبعث بها إلى الحرب : لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا امرأة ، ولا وليداً (العقد الفريد ١٢٨/١) ، وخلفه أبو بكر الصدّيق ، فكانت وصيّته : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً ، إلّا لمأكلة ، وسوف تمرّون بقوم قد فرغوا أنفسهم في الصوامع (يريد الرهبان) ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له (الطبري ٢٢٧/٣) ، وجيء له مرّة ، برأس أحد القتلى في إحدى المعارك ، فغضب ، وقال : هذا من أخلاق العجم ، ومنعهم من تكرار ذلك ، إذ اعتبر أن قطع الرأس من جملة المثلة المنهي عنها ، ولمّا اغتال عبد الرحمن بن ملجم ، الإمام علي بن أبي طالب ، أوصى ولده الحسن ، وهو يودّع الحياة ، وقال في آخر وصيّته ، وأمّا عبد الرحمن ، فإن عشت فسأرى فيه رأيي ، وإن متّ ، فضربة بضربة ، ولا يمثلنّ بالرجل ، فإنّي سمعت رسول الله يقول : إيّاكم والمثلة ، ولو بالكلب العقور (الطبري ١٤٨/٥ وابن الأثير ٣٩١/٣) ، ولمّا قتل علي بن أبي طالب ، وتغلّب معاوية بن أبي سفيان على السلطة ، تغيّر الأمر عمّا كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين وأخذ معاوية يحاسب أصحاب علي ، على تصرفاتهم السابقة ، ويطالبهم بالبراءة من علي ، فإن لم يبرأوا ، جرّد لهم السيف ، وأعدّ لهم أكفانهم ، وحفر لهم قبورهم ، وقتلهم أمام قبورهم المحفورة ، وأكفانهم المنشورة (العقد الفريد ٢٣٤/٣) ، ومما صنعه ، أنّه بعد أن استتبّ له الأمر ، تتبّع من كان من أنصار علي ، ففرّ منه عمرو بن الحمق الخزاعي ، فأذكى عليه العيون والأرصاد ، واعتقل امرأته ، وحبسها في سجن بدمشق ، ثم أمسك بعمرو ، فقتله ، وقطع رأسه ، وأمر أحد

أعوانه بأن يدخل على المرأة في سجنها ، وأن يضع رأس زوجها في حجرها (بلاغات النساء ٦٤ والديارات ١٧٩ و ١٨٠) وسار من بعده بهذه السيرة هشام بن عبد الملك ، إذ أمر برأس الإمام زيد بن علي بن الحسين ، فوضع في حجر زوجته ريطة بنت عبد الله بن محمّد ابن الحنفية ، فقابل عامر بن إسماعيل ، قائد الجيش العبّاسي ، ذلك ، بأن أمر بأن يوضع راس مروان الحمار ، آخر الحكّام الأمويين ، في حجر ابنته (بلاغات النساء ١٤٥) ، ولمّا قتل المنصور محمّد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكيّة ، بعث برأسه ، فوضع بين يدي أبيه ، عبد الله بن الحسن بن الحسن (زهر الآداب ٧٦/١) ، ولمّا قتل المستعين ، أمر المعتزّ ، فوضع رأسه بين يدي جاريته التي كان يتحظّاها (الديارات ١٧٠) ، وفي السنة ٣١١ لمّا اعتقل الوزير أبو الحسن بن الفرات ، وولده المحسّن ، بعث نازوك بعجيب خادمه ، فضرب عنق المحسّن ، وجاء برأسه ، فوضعه بين يدي أبيه (تجارب الأمم ١٣٨/١ والتكملة ٤٦) ، وفي السنة ٣٢١ إعتقل القاهر كلاً من علي بن يلبق ، وأباه يلبق ، ومؤنس المظفّر ، ودخل القاهر إلى موضع اعتقالهم ، فذبح علي بن يلبق بحضرته ، ووجّه برأسه إلى أبيه ، فلمّا رآه جزع وبكى بكاء عظيماً ، ثم ذبح يلبق ، ووجّه بالرأسين إلى مؤنس ، ثم أمر القاهر ، فجرّ برجل مؤنس إلى البالوعة ، وذبح كما تذبح الشاة ، والقاهر يراه (تجارب الأمم ٢٦٧/١ و ٢٦٨) وكانت الخصومة السياسيّة تزداد عنفاً بمرور الأيّام ، حتى أصبح العذاب أمراً متعارفاً مألوفاً ، تمارسه الفئة الحاكمة ، ضد خصومها السياسيّين ، ثم امتدت ممارسته ، فشملت الأمراء ، والوزراء ، والعمّال المصروفين (حاشية القصّة ٣٧٩ من هذا الكتاب) وابتلي الناس بأمراء قساة ، كانوا يتلذّذون بتعذيب الأسرى والمعتقلين ، فقد كان زياد ابن أبيه يدفن الناس أحياء (المحاسن والأضداد للجاحظ ٢٧ والأغاني ١٥٣/١٧) وتابعه في ذلك ولده عبيد الله (المحاسن والمساوىء ١٦٥/٢) وزاد عليه بأنّه كان يرمي أسراه من شاهق (ابن الأثير ٣٥/٤ و ٣٦) وكان يقتل الصبيّة ، ويتلذّذ بمشاهدة مقتلها ، واتّهم عروة بن أديّة ، بأنّه يرى رأي الخوارج ، فقطع يديه ورجليه ، ثم قطع رأسه ، وبعث بالرأس إلى ابنة عروة ، فجاءت الصبيّة لتأخذ جثّة أبيها ، فأمر بقتلها ، فقتلت ، وهو يمتّع نفسه بالنظر إليها (أنساب الأشراف ٨٩/٥) ، أمّا الحجّاج بن يوسف الثقفي ، وقسوته ، وتلذّذه بتعذيب الناس ، فإنّ ذلك أشهر من أن يحتاج إلى تفصيل (راجع حاشية القصّة ٦٧ والقصّة ١٤٩ من هذا الكتاب) ، وممن ضرب أسوأ الأمثال في القسوة ، أبو جعفر المنصور (راجع حاشية القصّة ٣١٨ من هذا الكتاب ، والعقد الفريد ٨٧/٥–٨٩ ، والفخري ١٦٤) ،

والمتوكّل (راجع ترجمته في حاشية القصّة ٧٣ من هذا الكتاب ، وراجع كذلك الطبري ٩/١٩٩–٢٠١) والمعتضد (راجع القصص ١/٧٣ و٧٦ و٧٧ و٧٨ و٢/١٧٢ من النشوار ، والطبري ١٠/٨٦ ومروج الذهب ٢/٤٩٣) والقاهر (القصّة ٢/٣٣ و ٣٤ من النشوار وتجارب الأمم ١/٢٤٣ و٢٤٤ و٢٦٧ و٢٦٨ و٢٨٤ و٢٨٥ والمنتظم ٦/٢٥٠ وتاريخ الخلفاء ٣٨٧) .

ويمكن تقسيم العذاب باعتبار القصد منه ، إلى قسمين : العذاب بقصد القتل ، والعذاب بغير قصد القتل .

أمّا العذاب بغير قصد القتل ، فأهونه الشتم ، وأشدّه قطع أجزاء من البدن ، ويتسلسل من الشتم إلى الحصب ، فعرك الأذن ، فالرمي بالمخصرة أو الدواة ، فالبصق في الوجه ، فالإلجام ، فالصفع ، ويكون باليد أو النعل أو الجراب أو السلق ، فالركل ، فاللطم ، فوجء العنق ، فالسحب على الأرض ، فالضرب ، ويحصل بالعصا ، أو السوط ، أو بالسلاسل ، أو بالأعمدة ، أو بالحجارة ، فاستئصال الشعر ، ويحصل بحلق اللحى ، أو مسح الوجه (أي حلق اللحية والشارب والحاجبين) ، أو نتف اللحى ، أو نتف شعر الرأس ، أو نتف شعر البدن ، فالإشهار ، ويحصل بإلباس المطلوب إشهاره لباساً مشهّراً ملوّناً ، وحمله على دكّة عالية ، أو حمار ، أو جمل ، أو فيل ، وقد يسوّد وجهه بنقس من بوتقة السواد ، وقد يكون معه من ينادي عليه ، أو من يضربه بيده . أو بعصا ، أو بنعل ، وقد يقرن به حيوان ، فالحبس ، ويكون بحجز الإنسان في السجن . أو في المطمورة ، أو في المطبق ، أو في البئر . أو في الكنيف ، فالغلّ والقيد ، فحمل الأثقال ، فالصلب ، ويحصل بربط الإنسان أو شدّه حيّاً إلى خشبة وعرضه للناس ، فالتعليق : ويحصل بتعليق الإنسان من يديه ، أو من يد واحدة ، أو من الرجلين منكوساً ، أو من رجل واحدة ، أو من الثدي عند المرأة ، فالتسمير : ويحصل بتسمير اليدين إلى لوح أو خشبة ، فدقّ ليط القصب تحت الأظفار ، فالمساهرة ، فشدّ الخنافس على الرأس بعد حلق الشعر ، فالنطح . فثقب الكعاب ، فشقّ لحم البدن بالقصب الفارسيّ المشقوق ، فالتعذيب بالدهق . فالتعذيب بالزمارة ، فالتعذيب بالقنارة ، فالتعذيب بالدوشاخة ، فالتعذيب بالجوزتين ، فالسمل ، ويكون إمّا بالكحل بذرور يعمي البصر أو بفقأ العين بميل أو بسكّين أو وتد . أو بالاصبع ، أو تقويرها بالسكّين ، فالتعذيب بالعطش . أو بالتدخين . أو بإرسال الحشرات على المعذّب ، فالتعذيب بالملح ، ويحصل إمّا برشّ الملح على المعذّب . أو بإسعاطه بالملح ، أو بسقيه الماء مخلوطاً بالملح أو بالرماد ، أو بهما معاً ، فتنعيل الناس

بنعال الدوابّ ، فقطع الأطراف ، ويشتمل على قطع الأيدي والأرجل ، وقلع الأسنان ، وقلع الأظفار ، وخلع المفاصل ، وقطع اللسان ، وجدع الأنف ، وقطع الأذن ، وخزم الأنف ، وقطع الشفاه ، فالتعذيب بالكيّ بالنار ، فالحقن بالماء المغليّ ، فالتعذيب بالتعرّض للعورة ، ويحصل بجبّ الذكر ، أو استئصال الخصية ، أو طعن القبل أو الدبر ، أو قطع الأشفار أو الخوزقة ، أو النفخ في الدبر بالكير ، أو نفخ النمل في الدبر ، أو دهن الدبر بالعسل وتسليط النمل عليه ، أو حبس السنانير في السراويل ، فقطع أجزاء من لحم البدن .

وأما العذاب بقصد القتل ، فأوّله القتل بالضرب ، أو بتحطيم الرأس بضربه بالأرض ، أو بربط المعذّب إلى حصان يجري به مسحوباً على الأرض ، مطلقاً أو مقيّداً ، فالقتل بالسيف ، إمّا بقطع العنق ، وإمّا توسيطاً ، وإمّا حمائل أي بقطع العنق مع جزء من الصدر وأحد الكتفين ، فالطعن بالرمح أو الحربة ، فالرمي بالزوبين ، فالرشق بالسهام ، فالشدخ بالحجارة ، فالوطء بالأقدام ، فعصر البدن ، ويشتمل على عصر الأطراف ، أو عصر الخصية ، أو عصر الأذنين بالجوزتين ، أو الدهق ، فشقّ البطن ، فتمزيق الأوصال ، إمّا بالسكّين ، وإمّا بربط الإنسان من طرفيه وشدّه حتى تتمزّق أوصاله ، فقطع الأطراف بقطع الأيدي والأرجل ، أو خلع المفاصل ، أو جدع الأنوف ، أو قطع الآذان ، فضرب الأوتاد في العين أو الأذن ، أو دقّ المسامير في الأذن ، فالقرض بالمقاريض ، والطرح من شاهق ، فالطرح للسباع ، فالحقن بالماء المغلي ، فالقتل بالجوع أو العطش أو البرد .

فالقتل بكتم النَفَسِ ، سواء كان خنقاً بالحبل أو بوتر القوس ، أو شنقاً ، أو تغريقاً ، أو بالدخان ، أو بالدفن حيًّا ، أو بناء الحائط على الإنسان ، أو هدم البناء عليه ، أو كتم نَفَسِهِ بمخدّة ، أو وضع رأسه في جراب مملوء بالنورة ، فالقتل بالسمّ ، طعاماً ، أو شراباً ، أو دواء ، أو بالضرب أو الفصد بآلة مسمومة ، كالسيف أو الرمح أو مبضع الفاصد ، فالقتل بالنار ، احتراقاً ، أو كيًّا ، أو سلقاً ، فالقتل بالسلخ ، أي سلخ الجلد كاملاً أو جزءًا ، فبسدّ منافذ البدن ، إمّا بالقطن وإمّا بخياطة الدبر ، فالقتل بالخازوق ، إمّا بالإقعاد عليه ، أو بشكّه في أضلاعه ، أو بتركيزه في عنقه ، أو بخرق بطنه به ، ويلحق هذه الألوان من القتل ، القتل بالتخويف ، إمّا بالتهويل على المعذّب ، أو بإحضاره تعذيب غيره من الناس ، ويلحق به كذلك ، الانتحار الذي يلتجأ إليه الإنسان تخلّصاً مما ينتظره من عذاب ، ويتبع هذا الباب المثلة التي حرّمها الإسلام ، وهي ألوان الإهانة التي تجري على الميت من بعد موته .

وكنت قد جمعت فقرات عن ألوان من العذاب كي أودعها هذا البحث ، ولكنّي وجدتها على حال من الإتّساع والتشعّب ، بحيث أصبحت كتاباً قد يشتمل على ستّة مجلّدات ، وقد سمّيته «موسوعة العذاب» وهو الآن معدّ للطبع ، وسأعنى بإخراجه بعد انتهائي من هذا الكتاب ، ولم أعثر على مرجع مفصّل في هذا الموضوع باللغة العربية ، ومن أراد الإطّلاع على تفاصيل أكثر ، فعليه بمراجعة ثلاثة كتب باللغة الإنكليزية ، وهي تاريخ العذاب HISTORY OF TORTURE ، وتاريخ قطع العنق HISTORY OF DECAPITATION وتاريخ الجلد HISTORY OF CORPORAL PUNISHMENT

٣٥٩

من سقوط الخاتم من اليد

إلى عودته إليها سبعون فرجاً

حدّثني علي بن محمّد الأنصاري الخطمي ، قال : كنت أصحب محمّد بن ينال الترجمان[١] ، وكان بجكم بواسط ، ومضى يريده ، فانحدر بي معه إلى واسط ، لمّا انحدر بجكم إليها .

فاستخلف بجكم الترجمان بواسط ، ومضى يريد قتال البريديّين .

فلمّا صار بنهر جور[٢] ، كتب إلى الترجمان : إنّه قد صحّ عندي ، أنّ رجلاً من التجّار المقيمين في معسكرنا بواسط ، يقال له : أبو أحمد بن غيلان الخزّاز السوسي ، يكاتب البريديّين بخبرنا ، وأمر بالقبض عليه وقتله .

فقبضه الترجمان ، وقيّده ، وحبسه ، وعرّفه ما ورد في كتاب بجكم .

وكان للتاجر حرمة[٣] مع ابن ينال وكيدة ، فورد عليه غمّ شديد من أن يقتل رجلاً له به عناية وحرمة .

فقال له : أنا أعرّض نفسي لبجكم ، وأؤخّر قتلك ، وأكاتبه أسأله أن يقتصر على أخذ مالك ، ويعفو عن دمك ، فلعلّه أن يفعل .

---

١ محمد بن ينال الترجمان : كان من قوّاد مرداويج ، وتآمر عليه مع بجكم وآخرين فقتلوه (ابن الأثير ٣٠١/٦) فانحاز إلى بجكم وأصبح من قوّاده (تجارب الأمم ٣٧٨/١) ومن مستشاريه (٣٧٦/١) ، ثمّ أصبح من أكبر قوّاد توزون (ابن الأثير ٤٠٠/٦) فنصبه المتّقي على الشرطة ببغداد (تجارب الأمم ١٢/٢) ثمّ تولّى خلافة توزون ببغداد (٤٥/٢) ثمّ انحرف عن توزون (٤٧/٢) فبارح بغداد إلى الرقّة ، حيث واجه سيف الدولة ولمّا خرج من حضرته ، وثب به غلمان سيف الدولة فقتلوه في السنة ٣٣٢ (تجارب الأمم ٥٥/٢) .

٢ نهرجور : قال ياقوت في معجم البلدان ٨٣٨/٤ إنها بين الأهواز وميسان .

٣ في غ : خدمة .

قال : ودخلت على الرجل في حبسه ، وأخذت [٢٠٢ م] أطيّب قلبه ، وأعرّفه أنّ الكتاب قد بعثته إلى بجكم في أمره .

فأخرج خاتماً كان في يده ، وقال : يا أبا الحسن ، من سقوط هذا الخاتم من يدي ، إلى عودته إليها ، سبعون فرجاً .

فما انقضى اليوم ، حتى ورد الخبر بقتل بجكم ، وأفرج الترجمان عن الرجل ، وتخلّص سالماً ، وعاش بعد ذلك ثلاث سنين[٤] ، وأكثر[٥] .

---

٤ في غ : ثلاثين سنة .

٥ لم ترد هذه القصّة في ر .

٣٦٠
هاجه الحسد وقتله الطمع

حدّثني إبراهيم بن عليّ [بن سعيد بن علي زوبعة][1] النصيبينيّ المتكلّم [2] ، قال : قال جماعة من أهل نصيبين ، إنّه كان بها أَخَوان ، ورثا عن أبيهما مالاً عظيمًا ، جليلاً ، فاقتسماه [٢٠٢ غ] ، فأسرع أحدهما في حصّته حتى لم يبق معه شيء ، واحتاج إلى ما في أيدي الناس ، وثمّر الآخر حصّته ، فزادت .

وعرض له سفر في تجارته ، فجاءه أخوه الفقير ، وقال : يا أخي إنّك تحتاج إلى أن تستأجر غلاماً في سفرك ، وأنا أحتاج إلى أن أخدم الناس ، فاجعلني بدل غلام تستأجره ، فيكون ذلك أصون لي ولك .

فلم يشكّ الأخ أنّ أخاه قد تأدّب ، وأنّ هذا أوّل إقباله ، وآثر أن يصون

---

١ كذا ورد في غ ، وفي ر : إبراهيم بن زوبعة ، وفي م : إبراهيم بن علي بن سعيد النصيبيني المتكلّم ، وفي ن : إبراهيم بن علي بن سعيد بن علي أربعه النصيبيني المتكلّم ، وفي كتاب أخلاق الوزيرين ٢١١ و ٢٩٧ إن لقبه : مقعدة .

٢ أبو إسحاق إبراهيم بن علي النصيبيني المتكلّم : روى عنه التنوخي في نشوار المحاضرة في أكثر من موضع ، راجع القصّة ٣٩/١ و ١٠٣/٢ و ٨/٥ من كتاب نشوار المحاضرة . وروى عنه في كتاب الفرج بعد الشدّة في أكثر من موضع ، راجع القصّة ٣٦١ ولم أعثر له على ترجمة ، وهو رجل فاضل ، والدليل على فضله أنّ التوحيدي شتمه في الأمتاع والمؤانسة ١٤١/١ ، فقال فيه : أبو اسحاق النصيبيني ، رقيق الكلام ، يشكّ في النبوات كلّها ، وقد سمعت منه فيها شبهًا ، وله أدب واسع ، وقد أضلّ بهمذان ، كاتب فخر الدولة ابن المرزبان ، وحمله على قلّة الاكتراث ، بظلم الرعيّة ، وأراه أنّه لا حرج عليه في غبنهم ، لأنّهم بهائم ، وما خرج من الجبل حتّى افتضح ، وأقذع في شتمه كذلك ، في كتابه أخلاق الوزيرين ص ٢١١ و ٢١٢ و ٢٩٧ ، والنصيبيّ نسبة إلى نصيبين ، من أعمال الجزيرة ، وكانت عامرة أيّام طريق القوافل بين الموصل والشام ، ويلاحظ أنّ المؤلّف ذكر هذا الشخص في هذه القصّة فقال : النصيبيني ، وذكره في القصّة ٣٦١ من الكتاب ، فقال : النصيبي ، ويجوز الوجهان (السمعاني ٥٦٢ ومراصد الاطلاع ١٣٧٤/٣) .

أخاه ، ورقّ عليه ، فأخذه معه .

وكان للأخ الغنيّ حمارٌ فارهٌ يركبه ، وقد استأجر بغالاً لأحماله ، فأركب أخاه أحدها ، وركب هو أحدها ، وأركب المكاريّ الحمار ، وساروا .

فلمّا استمّر بهم السفر ، حصلوا في جبل في الطريق ، وفيه كهف فيه عين ماء ، فقال الأخ الفقير للأخ الغني : لو نزلنا ها هنا ، وأرحنا دوابنا ، وسقيناها من هذا الماء ، وأكلنا ، ثم ركبنا ، لكان أروح لنا .

فقال : إفعل .

فنزل التاجر على باب الكهف الذي في الجبل ، وأدخل متاعه إليه ، وبسط السفرة ، وأخذ أخوه الفقير ، والمكاري ، الدوابّ ، ومضيا ليسقياها .

وانتظر التاجر أخاه ، فاحتبس طويلاً ، ثم جاء وحده ، وشدّ الدوابّ .

فقال له أخوه : يا أخي ما قعادك ، وأنا أنتظرك تأكل معي ؟

فقال : حتى سقيت الدوابّ .

فقال : وأين المكاري ؟

فقال : قد نام في الجبل .

فقال : تعال ، حتّى نأكل .

فتركه ومضى ، ثم عاد ، وبيده حجارة يرمي بها أخاه ، ويقول له : أستكتف يا ابن الفاعلة .

فقال له : ويحك ما تريد ؟

فقال : أريد قتلك يا ابن الفاعلة ، أخذت مال أبي ، فجعلته تجارة لك ، وجعلتني غلامك .

قال : ورفسه ، وألقاه على ظهره ، ثم أوثقه كتافاً ، وأثخنه [3] ضرباً بالحجارة ، وشجاجاً ، وصاح الرجل ، فلم يجبه أحد .

---

٣ أثخن : بالغ ، وأثخنته الجراح : أوهنته وأضعفته .

وبرك أخوه الفقير على صدره ، وكان في وسطه سكّين عظيمة ، في قراب لها ، فرام استخراجها من القراب ليذبحه بها ، فتعسّرت عليه ، فقام عن صدر أخيه ، وأعلا يده اليسرى ، وفيها السكّين في قرابها ، وجذبها بيده اليمين ، وقد صار القراب مع حلقه ، فخرجت السكّين بحميّة الجذبة ، فذبحته ، فوقع يخور في دمه ، ونزف إلى أن مات ، وجفّت يده على السكّين بعد موته ، وهي فيها .

وحصل على تلك الصورة ، وأخوه الغني مشدود ، لا يقدر على الحركة ، والسفرة منشورة ، والطعام عليها ، والدوابّ مشدودة .

فأقام على تلك الصورة بقيّة يومه ، وليلته ، وقطعة من غده .

فاجتازت قافلة على المحجّة ، وكان بينها وبين الكهف بعد ، فأحسّت البغال بالدوابّ المجتازة ، فصهلت ، [٢٠٣ م ، ١٩٧ ر] ونهق الحمار ، وجذب الرسن ، وجذبت البغال أرسانها ، فأفلتت ، وغارت[٤] تطلب الدوابّ .

فلمّا رأى أهل القافلة ، دوابًّا غائرة ، ظنّوا أنّها لقوم قد أسرهم اللصوص ، وكانوا في منعة ، فتسارعوا إلى البغال .

فلمّا قصدوها ، رجعت تطلب موضعها .

وتبعها قوم من أهل القافلة ، حتى انتهوا إلى التاجر ، وشاهدوه مكتوفاً ، والسفرة منشورة ، والأخ مذبوحاً ، وبيده السكّين [٢٠٣ غ] ، فشاهدوا عجباً .

واستنطقوا الرجل ، فأومأ إليهم أنّ لا قدرة له على الكلام ، فحلّوا كتافه ، وسقوه ماء ، وأقاموا عليه إلى أن أفاق ، وقدر على الكلام ، فأخبرهم الخبر .

فطلبوا المكاري[٥] ، فوجدوه غريقاً في الماء ، قد غرّقه الأخ الفقير .

فحملوا أثقال التاجر على بغاله ، وأركبوه [٢٩ ن] على حماره ، وسيّروه معهم إلى المنزل الآخر .

---

٤ غار : تعبير بغدادي ، بمعنى : ركض مسرعًا .

٥ المكاري ، بضم الميم : الذي يَكري الدوابّ .

٣٦١
البغي مرتعه وخيم

وحدّثني إبراهيم بن علي النصيبي هذا ، قال : حدّثني [أبو القاسم][١] إبراهيم بن علي الصفّار ، شيخٌ كان جاراً لنا بنصيبين ، قال :

خرجت من نصيبين بسيفٍ نفيسٍ ، كنت ورثته من أبي ، أقصد به العبّاس بن عمرو السلمي ، أمير ديار ربيعة[٢] ، وهو برأس عين[٣] لأهديه إليه ، وأستجديه بذلك .

فصحبني في الطريق شيخ من الأعراب ، فسألني عن أمري ، فأنست به ، وحدّثته الحديث ، وكنّا قربنا من رأس عين ، ودخلناها ، وافترقنا .

وصار يجيئني ، ويراعيني ، ويظهر لي أنّه يسلّم عليّ ، وأنّه يبرّني بالقصد ، ويسألني عن حالي .

فأخبرته أنّ الأمير قبل هديتي ، وأجازني بألف درهم ، وثياب ، وأنّي أريد الخروج في يوم كذا وكذا .

فلمّا كان ذلك اليوم خرجت عن البلد ، راكباً حماراً ، فلمّا أصحرت[٤] ، إذا بالشيخ على دويبة له ضعيفة ، متقلّداً سيفاً .

فلمّا رأيته استربت به ، وأنكرته ، ورأيت الشرّ في عينيه .

فقلت : ما تصنع ها هنا ؟

---

١ الزيادة من غ .

٢ العبّاس بن عمرو الغنوي ، أمير ديار ربيعة : ترجمته في حاشية القصّة ١٦٩ من الكتاب .

٣ في م : رأس العين ، قال ياقوت في معجم البلدان ٧٣١/٢ إنّ اسمها الصحيح : رأس‌عين ، والعامة يسمّونها : رأس العين ، وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة ، بين حرّان ، ونصيبين ، ودنيسر ، فيها عيون كثيرة ، تتجمّع كلّها فتصير نهر الخابور ، والنسبة إليها رسعني .

٤ الإصحار : الدخول إلى الصحراء .

فقال : قد قضيت حوائجي ، وأريد الرجوع ، وصحبتك عندي آثر من صحبة غيرك .

فقلت : على اسم الله .

وما زلتُ متحرّزاً منه ، وهو يجتهد أن أدنو منه ، وأوانسه ، فلا أفعل ، وكلّما دنا منّي ، بعدت عنه ، إلى أن سرنا شيئاً كثيراً ، وليس معنا ثالث .

فقصّر عني ، فحثثت الحمار ، لأفوته ، فما أحسست إلاّ بركضه ، فالتفتُّ ، فإذا هو قد جرّد سيفه ، وقصدني ، فرميت بنفسي عن الحمار ، وعدوت .

فلمّا خاف أن أفوته ، صاح : يا أبا القاسم ، إنّما مزحت معك ، فقف ، فلم ألتفت إليه ، وزاد في التحريك .

وظهر لي ناووس[5] فطلبته ، وقد كاد الأعرابي يلحق بي ، فدخلت الناووس ، ووقفت وراء بابه .

قال : ومن صفات تلك النواويس أنّها مبنيّة بالحجارة ، وباب كلّ ناووس حجر واحد عظيم ، قد نقر ، وحفّف[6] ، وملّس ، فلا تستمكن اليد منه ، وله في وجهه حلقة ، وليس للباب من داخل شيء تتعلّق اليد به ، وإنّما يدفع من خارجه ، فيفتح ، فيدخل إليه ، وإذا خرج منه ، وجذبت الحلقة ، انغلق الباب ، وتمكّن هذا من ورائه ، فلم يمكن فتحه من داخل أصلاً .

قال : فحين دخلت الناووس ، وقفتُ خلف بابه ، وجاء الأعرابي ، فشدّ الدابّة في حلقة الباب ، ودخل [٢٠٤ م] يريدني ، مخترطاً سيفه ، والناووس مظلم ، فلم يرني ، ومشى إلى صدر الناووس ، فخرجت أنا من خلف الباب ، وجذبته ، ونفرت الدابّة ، فجذبَتْهُ معي ، حتى صار الباب مردوماً محكماً ،

---

٥ الناووس : موضع ينقر في الصخر ليكون مدفنًا للموتى .

٦ الحفّ : وما زال هذا اسمه في بغداد ، حذف الشعر عن الوجه باستعمال الخيط ، فاذا تمّ بالموسى فهو حلق ، واذا نقر الصخر وملّس ، قيل فيه : حفّف أيضًا ، راجع حاشية القصّة ٣٨٩ من هذا الكتاب .

وحَصَّلْتُ الحلقة في رزّة[7] هناك ، وحَلَلْتُ الدابّة ، وركبتها [٢٠٤ غ] .

فجاء الأعرابي ، إلى باب الناووس ، فرأى الموت عياناً ، فقال : يا أبا القاسم ، اتّق الله في أمري ، فإنّني أتلف .

فقلت : تتلف أنت ، أهون عليّ من أن أتلف أنا .

قال : فأخرجني ، وأنا أعطيك أماناً ، واستوثق منّي بالأيمان ، أن لا أعرض لك بسوء أبداً ، واذكر الحرمة التي بيننا .

فقلت : لم ترعها أنت ، وأيمانك فاجرة ، [١٩٨ ر] لا أثق بها في تلف نفسي .

فأخذ يكرّر الكلام ، فقلت له : لا تهذ [دع عنك هذا الكلام واقعد مكانك][1] ، هوذا أنا أركب دابّتك ، وأجنب حماري ، والوعد بعد أيّام بيننا هنا ، فلا تبرَح عليّ حتى أجيء [وإذا احتجت إلى طعام ، فعليك بجيف العلوج ، فنعم الطعام لك .

وأخذت ألهو به في مثل هذا القول][8] ، وأخذ يبكي ، ويستغيث ، ويقول : قتلتني ، والله .

فقلت : إلى لعنة الله ، وركبت دابّته ، وجنبت حماري .

ووجدت على دابّته خرجاً فيه ثياب يسيرة ، وجئت إلى نصيبين ، فبعت الثياب ، وكانت دابّته شهباء ، فصبغتها دهماء ، وبعتها ، لئلا يعرف صاحبها فأطالب بالرجل ، واتّفق أنّه اشتراها رجل من المجتازين ، وكفيت أمره ، وانكتمت القصّة .

فلمّا كان بعد أكثر من سنة ، عرض لي الخروج إلى رأس عين ، فخرجت في

---

٧ رزّ السهم في الحائط : أثبته ، ورزّ الباب : جعل له رزّة ، والرزّة : حديدة تثبت في الحائط أو في الباب من أجل إقفاله .

٨ لا توجد في غ .

تلك الطريق ، فلمّا لاح لي الناووس ، ذكرت الشيخ .

فقلت : أعدل إلى الناووس ، وأنظر ما صار إليه أمره ، فجئت إليه ، فإذا بابه كما تركته .

ففتحته ، ودخلت ، فإذا بالأعرابي قد صار رمّة[9] ، فحمدت الله تعالى على السلامة .

ثم حرّكته برجلي ، وقلت له على سبيل العبث : ما خبرك يا فلان ؟ فإذا بصوت شيء يتخشخش ، ففتّشته ، فإذا هميان ، فأخذته ، وأخذت سيفه ، وخرجت ، وفتحت الهميان ، فإذا فيه خمسمائة درهم[10] ، وبعت السيف بعد ذلك بجملة دراهم .

---

٩ الرمّة ، بكسر الراء : ما بلي من العظام .

١٠ في غ : خمسمائة دينار .

٣٦٢
أبو المغيرة الشاعر يروي خبراً ملفّقاً

حدّثني أبو المغيرة محمّد بن يعقوب بن يوسف ، الشاعر البصري[١] ، قال : حدّثني أبو موسى عيسى بن عبد الله البغدادي[٢] ، قال : حدّثني صديق لي قال :

كنت قاصداً الرملة[٣] وحدي ، وما كنت دخلتها قط .

فانتهيت إليها وقد نام الناس ، ودخل الليل ، فعدلت إلى الجبّانة ، ودخلت بعض القباب التي على القبور ، فطرحت درقة[٤] كانت معي ، واتّكأت عليها ، وعانقت سيفي ، واضطجعت أريد النوم ، لأدخل البلد نهاراً .

قال : فاستوحشت من الموضع ، وأرقت ، فلمّا طال أرقي ، أحسست بحركة .

فقلت : لصوص يجتازون ، ومتى تصدّيت لهم ، لم آمنهم ، ولعلّهم أن يكونوا جماعة ، فانخزلت بمكاني ، ولم أتحرّك .

وأخرجت رأسي من بعض أبواب القبّة ، على تخوّف شديد منّي ، فرأيت دابّة كالذئب تمشي ، فإذا به قد قصد قبّة بحيالي ، وما زال يتلفّت طويلاً ،

---

١ أبو المغيرة محمّد بن يعقوب بن يوسف : وصفه التنوخي في هذه القصّة بالشاعر البصريّ ، ووصفه في نشوار المحاضرة من القصّة ٣/١٥٢ بالشاعر البغداديّ الأسديّ ، وقال عنه في القصّة ٣/١٥٣ من النشوار : إنّه شاعر طويل اللسان ، مطبوع ، هجّاء ، وله مدائح كثيرة ، وديوان واسع ، وأورد التنوخي في القصّة ٣/١٥٣ من النشوار انموذجاً من شعره .

٢ في غ : يحيى بن عبد الله البغدادي .

٣ الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين (معجم البلدان ٢/٨١٧) .

٤ في غ : جحفة ، وهي الدرقة (فقه اللغة ٢٦٣) ، والدرقة ، بفتح الدال والراء : الترس من الجلود ، لا خشب فيه ، والعامّة ببغداد يسمّونها : دِرْقه ، بكسر الدال وتسكين الراء ، ويريدون بها الترس عامّة ، سواء كان من حديد أو من غيره .

ويدور حواليها ، ثم دخلها .

فارتبت به ، وأنكرت أمره ، وتطلّعَتْ نفسي إلى علم ما هو فيه .

فدخل القبّة ، وخرج غير مطيل ، ثم جعل يتبصّر [٥] ، ثم دخل وخرج بسرعة ، ثم دخل وعيني إليه ، فضرب بيده إلى قبر في القبّة ، يبعثره .

فقلت : نبّاشٌ لا شكّ فيه ، وتأمّلته يحفر بيده ، فعلمت أنّ فيها آلة حديد يحفر بها .

فتركته إلى أن اطمأنّ [٢٠٥ غ] وأطال ، وحفر شيئاً كثيراً ، ثم أخذتُ سيفي ودرقتي [٦] ، ومشيتُ على أطراف أناملي ، حتى دخلت القبّة ، فأحسّ بي ، فقام إليّ بقامة انسان ، وأومأ إليّ ليلطمني بكفّه ، فضربت يده [٧] بالسيف ، فأبنتها وطارت .

فقال : أوّه ، قتلتني [٢٠٥ م] لعنك الله .

وعدا من بين يديّ ، وعدوت خلفه ، وكانت ليلة مقمرة ، حتى دخل البلد ، وأنا وراءه ، ولست ألحقه ، إلاّ أنّه بحيث يقع بصري عليه .

إلى أن اجتاز بي طرقاً كثيرة ، وأنا في خلال ذلك أعلّم الطريق لئلا أضلّ ، حتى جاء إلى باب ، فدفعه ودخل وأغلقه ، وأنا أسمع .

فعلّمت الباب [٣٠ ن] ، ورجعت أقفو الأثر والعلامات التي علّمتها في طريقي ، حتى انتهيت إلى القبّة التي كان فيها النبّاش .

وطلبت الكفّ فوجدتها ، فأخرجتها إلى القمر ، فبعد جهد ، انتزعت الكفّ المقطوعة من الآلة الحديد ، وإذا هي كفّ كالكفّ ، وقد أدخل أصابعه في الأصابع ، وإذا هي كفّ فيها نقش حنّاء ، وخاتمان من الذهب ، فعلمت أنّها امرأة .

---

٥ تبصّر الشيء : استقصى النظر إليه .

٦ في غ : وجحفتي .

٧ في غ : كفه .

فحين علمت أنّها امرأة ، اغتممتُ ، وتأمّلت الكفّ ، فإذا هي أحسن كفّ في الدنيا ، نعومة ، ورطوبة ، وسمناً ، وملاحة .

فمسحت الدم عنها ، ونمت في القبّة التي كنت فيها [١٩٩ ر] ، ودخلت البلد من الغد ، أطلب العلامات التي علّمتها ، حتى انتهيت إلى الباب .

فسألت : لمَنْ الدار ؟

فقالوا : لقاضي البلد .

واجتمع عليها خلق كثير ، وخرج منها شيخ بهيّ ، فصلّى الغداة بالناس ، وجلس في المحراب ، فازداد عجبي من الأمر .

فقلت لبعض الحاضرين : بمن يعرف هذا القاضي ؟

فقال : بفلان .

وأطلت الجلوس والحديث في معناه ، حتى عرفت أنّ له ابنة عاتقاً[٨] ، وزوجة ، فلم أشكّ في أنّ النبّاشة ابنته .

فتقدّمت إليه ، وقلت : بيني وبين القاضي أعزّه الله حديث لا يصلح إلاّ على خلوة .

فقام إلى داخل المسجد ، وخلا بي ، وقال : قل .

فأخرجت الكفّ وقلت : أتعرف هذه ؟.

فتأمّلها طويلاً ، وقال : أمّا الكفّ فلا ، وأما الخاتمان ، فمن خواتيم[٩] ابنة لي عاتق ، فما الخبر ؟.

فقصصت عليه القصّة بأسرها ، فقال : قم معي .

فأدخلني إلى داره ، وأغلق الباب ، واستدعى طبقاً وطعاماً ، فأحضر .

---

٨ العاتق : الجارية أوّل ما أدركت .

٩ يلاحظ أنّ البغداديّين يجمعون خاتم على خواتيم ، وسلّم على سلاليم ، ومخلب على مخاليب ، وكلّها فصيحة .

واستدعى امرأته ، فقال لها الخادم : اخرجي .

فقالت : قل له كيف أخرج ومعك رجل غريب ، فخرج الخادم ، وأعلمه بما قالت .

فقال : لا بدّ من خروجها تأكل معنا ، فهنا من لا أحتشمه[10] .

فتأبّت عليه ، فحلف بالطلاق لتخرجنّ له ، فخرجت باكية ، وجلست معنا .

فقال لها : أخرجي ابنتك .

فقالت : يا هذا ، أو قد جننت ؟ ما الذي حلّ بك ، قد فضحتني وأنا امرأة كبيرة ، فكيف تهتك صبيّة عاتقاً ؟ فحلف بالطلاق لتخرجنّها ، فخرجت .

فقال : كلي معنا ، فرأيت صبية كالدينار ، ما نظرت مقلتاي أحسن منها ، إلاّ أنّ لونها قد اصفرّ جداً ، وهي مريضة .

فعلمت أنّ ذلك لنزف الدم من يدها ، فأقبلت تأكل بشمالها ، ويمينها مخبوءة .

فقال لها أبوها : أخرجي يدك اليمنى .

فقالت أمّها : قد خرج بها خراج ، وهي مشدودة ، فحلف [٢٠٦ غ] لتخرجنّها .

فقالت له امرأته : يا رجل استر على نفسك ، وابنتك ، فوالله ، وحلفت له بأيمان كثيرة ، ما اطّلعت لهذه الصبيّة على سوء قط إلاّ البارحة ، فإنّها جاءتني بعد نصف الليل ، فأيقظتني ، وقالت : يا أمّي ، الحقيني ، وإلاّ تلفتُ .

فقلت : ما لك ؟

فقالت : إنّه قد قطعت يدي ، وهوذا أنزف الدم ، والساعة أموت ، فعالجيني ، وأخرجت يدها مقطوعة ، فلطمت .

فقالت : يا أمّاه لا تفضحيني ونفسك بالصياح عند أبي والجيران ، وعالجيني .

فقلت : لا أدري بم أعالجك .

---

١٠ في غ : فهذا من أصحابي والزامي .

فقالت : إغلي زيتاً ، وأكوي به يدي .

ففعلت ذلك ، وكويتها ، وشددتها ، وقلت لها : الآن خبّريني ما دهاك ، فامتنعت .

فقلت : والله ، إن لم تحدّثيني ، لأكشفنّ أمرك لأبيك .

فقالت : إنّه وقع في نفسي ، منذ سنين ، أن أنبش القبور[11] ، فتقدّمت إلى هذه الجارية ، فاشترت لي جلد ماعز بشعره ، [٢٠٦ م] ، واستعملت لي كفًّا من حديد .

فكنت إذا أعتم الليل[12] ، أفتح الباب ، وآمرها أن تنام في الدهليز ، ولا تغلق الباب ، وألبس الجلد ، والكفّ الحديد ، وأمشي على أربع ، فلا يشكّ الذي يراني من فوق سطح أو غيره ، أنّني كلب .

ثم أخرج إلى المقبرة ، وقد عرفت من النهار ، خبر من يموت من رؤساء البلد[13] ، وأين دفن ، فأقصد قبره ، فأنبشه ، وآخذ الأكفان ، وأدخلها معي في الجلد ، وأمشي مشيتي ، وأعود والباب غير منغلق ، فأدخل ، وأغلقه ، وأنزع تلك الآلة ، [٢٠٠ ر] فأدفعها إلى الجارية ، مع ما قد أخذت من الأكفان ، فتخبئه في بيت لا تعلمون به .

وقد اجتمع عندي نحو ثلثمائة كفن ، أو ما يقارب هذا المقدار ، لا أدري ما أصنع بها ، إلاّ أنّي كنت أجد لهذا الخروج ، والفعل ، لذّة لا سبب لها أكثر من إصابتي بهذه المحنة .

فلمّا كانت الليلة ، سلّط عليّ رجل أحسّ بي ، كأنّه كان حارساً لذلك القبر ، فقمت لأضرب وجهه بالكفّ الحديد ، ليشتغل عنّي ، وأعدو ، فداخلني

---

١١ في غ : أن أنبش الموتى .

١٢ في غ : فكنت إذا نمتم .

١٣ في م : خبر من يموت من أهل المحلّة .

بالسيف ، ليضربني ، فتوقّيت الضربة بيميني ، فأبان كفّي .

فقلت لها : أظهري أن قد خرج في كفّك خُرَاجٌ ، وتعالّي ، فإنّ الذي بك من الصفار[14] ، يصدّق قولك .

فإذا مضت أيّام ، قلت لأبيك : إذا لم تقطع يدك ، خبث جميع جسدك ، وتلفتِ ، فيأذن في قطعها ، فنظهر أنّا قد قطعناها ، ويشيع الخبر - حينئذ - بهذا ، ويستتر أمرك .

فعملنا على هذا ، بعد أن استتبتها ، فتابت ، وحَلَفَتْ بالله العظيم ، لا عادت تفعل شيئاً من ذلك .

وكنت قد خطر لي أن أبيع هذه الجارية ، إلى سفّار يغرّبها عن هذه البلد التي نحن فيها ، وأراعي مبيت الصبيّة ، وأبيتها إلى جانبي ، ففضحتنا ونفسك .

فقال القاضي للصبيّة : ما تقولين ؟

فقالت : صدقت أمّي ، ووالله ، لا عدت أبداً ، وأنا تائبة إلى الله تعالى .

فقال لها أبوها : هذا صاحبك الذي قطع يدك ، فكادت تتلف جزعاً .

ثم قال لي : يا فتى من أين أنت ؟

قلت : من العراق .

قال [٢٠٧ غ] : ففيم وردت ؟

قلت : أطلب الرزق .

قال : قد جاءك حلالاً طيباً ، نحن قوم مياسير ، ولله علينا نعمة وستر ، فلا تنقص النعمة ، ولا تهتك الستر ، أنا أزوّجك بابنتي هذه ، وأغنيك بمالي عن الناس ، وتكون معنا في دارنا .

فقلت : نعم .

فرفع الطعام ، ثم خرج إلى المسجد ، والناس مجتمعون ينتظرونه ، فخطب ،

---

١٤ الصفار ، بضم الصاد : صفرة تعلو اللون والبشرة ، وعامّة بغداد يلفظونها بفتح الصاد .

وزوّجني ، وقام ، فرجع ، وأقعدني في الدار .

ووقعت الصبيّة في نفسي ، حتى كدت أموت عشقاً لها ، فافترعتها ، وأقامت معي شهوراً ، وهي نافرة منّي ، وأنا أؤانسها ، وأبكي حسرة على يدها ، وأعتذر إليها ، وهي تظهر قبول عذري ، وأنّ الذي بها غمًّا على يدها ، وهي تزداد حنقاً عليّ .

إلى أن نمت ليلةً ، واستثقلتُ في نومي ، فأحسست بثقل على صدري ، فانتبهت جزعاً ، فإذا زوجتي باركة على صدري ، وركبتاها على يديّ ، مستوثقة منهما ، وفي يدها سكّين ، وقد أهوت لتذبحني [15] ، فاضطربت .

ورمت الخلاص ، فتعذّر ، وخشيت أن تبادرني ، فسكتّ ، وقلت لها : كلّميني ، واعملي ما شئت .

فقالت لي : قل .

فقلت : [٣١ ن] ما يدعوك إلى هذا ؟

[قالت : أظننتَ أنّك قد قطعتَ يدي ، وهتكتني ، وتزوّجني مثلك ، وتنجو سالماً ؟ والله لا كان هذا .

فقلت : أما الذبح ، فقد فاتك ، ولكنّك تتمكّنين من جراحات توقعينها بي ، ولا تأمنين أن أفلت ، فأذبحك ، وأهرب ، أو أكشف هذا عليك ، ثم أسلمك إلى السلطان ، فتنكشف جنايتك الأولى ، والثانية ، ويتبرّأ منك [٢٠٧ م] أبوك ، وأهلك ، وتقتلين .

فقالت : افعل ما شئت لا بدّ من ذبحك ، وقد استوحش الآن كلّ منّا من صاحبه .

فنظرت ، فإذا الخلاص منها بعيد ، ولا بدّ من أن تجرح موضعاً من بدني ، فيكون فيه تلفي .

---

١٥ في غ : وفي يدها موسى ، وقد أومت لتذبحني .

فقلت : ليس إلاّ العمل في حيلة ، فقلت لها : أو غير هذا؟[16]] .

قالت : قل .

قلت : أطلّقك الساعة ، وتفرجين عنّي ، وأخرج غداً عن البلد ، فلا أراك ، ولا تريني أبداً ، ولا يكشف لك حديث في بلدك ، ولا تفتضحي ، وتتزوّجين بمن شئت ، فقد شاع أنّ يدك قطعت بخراج خبّثها ، وتربحين الستر .

قالت : لا أفعل ، حتى تحلف لي أنّك لا تقيم في البلد ، ولا تفضحني أبداً ، وتعجّل لي الطلاق .

فطلّقتها ، وحلفت لها بالأيمان المغلظة أنّي أخرج ، ولا أفضحها ، فقامت عن صدري تعدو ، خوفاً من أن أقبض عليها ، حتى رمت الموسى من يدها ، بحيث لا أدري أين هو ، وعادت .

وأخذت تظهر أنّ الذي فعلته بي مزاحاً ، وأخذت تلاعبني ، فقلت : إليك عنّي ، فقد حرمتِ عليّ ، ولا تحلّ لي ملامستك ، وفي غد أخرج عنك .

فقالت : الآن علمت صدقك ، ووالله ، لئن لم تفعل ، لا نجوتَ من يدي ، وقامت فجاءتني بصرّة ، وقالت : هذه مائة دينار ، خذها نفقة لك ، واكتب رقعة بطلاقي ، واخرج غداً .

فأخذت الدنانير ، وخرجت من سحرة ذلك اليوم ، بعد أن كتبت إلى أبيها ، أنّني قد طلّقتها ثلاثاً ، وأنّني خرجت [٢٠١ ر] حياء منه .

ولم ألتق معهم إلى الآن[17] .

---

١٦ لا توجد في غ .

١٧ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ١٥٢/٣ .

٣٦٣

لا جزاك الله من طارقٍ خيراً

حدّثنا أبو الحسن محمّد بن أحمد الكاتب ، المعروف والده بأبي الليث الهمذاني[١] ، قال : حدّثني محمّد بن بَديع العُقَيلي[٢] ، قال :

رأيت فتى من بني عُقَيل ، في ظهره كلّه شُرُطٌ كَشُرُطِ الحجّام ، إلاّ أنّها أكبر ، فسألته عن سبب ذلك .

فقال : إنّي كنتُ هويت ابنة عمّ لي ، وخطبتها ، فقالوا لي : إنّا لا نزوّجك إيّاها ، إلاّ بعد أن تجعل الشبكة صداقها ، وهي فرس سابقة كانت لبعض بني بكر بن كلاب .

فتزوّجتها على ذلك ، وخرجت أحتال في أن أسلّ الفرس ، لأتمكّن من الدخول بابنة عمّي .

قال : فأتيت الحيّ الذي فيه الفرس ، بصورة مجتاز ، فما زلت أداخلهم ، ومرّة أجيء إلى الخباء الذي فيه الرجل صاحب الفرس ، كأنّي سائل ، إلى أن عرفت مربط الفرس من الخباء ، ورأيت لها مهرة .

فاحتلت حتى دخلت البيت من كسره ، وحصلت خلف [٢٠٨ غ] النضد[٣] تحت عِهْنٍ[٤] كانوا نفشوه ليغزل ، فلمّا جنّ الليل ، وافى صاحب البيت ، وقد صنعت له المرأة عشاءً ، فجلسا يأكلان ، وقد استحكمت الظلمة ، ولا

---

١ ورد ذكره في القصّة ١٤ من هذا الكتاب ، وفي كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي ، في القصّة ٣/١٦٨ .

٢ في ن : محمد بن ربيع العقيلي ، وفي كتاب نشوار المحاضرة ٣/١٦٨ : حدّثني محمد بن بديع العُقَيلي ، أحد قوادهم ووجوههم في الحي ، وكان ورد إلى معزّ الدولة ، فأكرمه ، وأحسن إليه .

٣ النضد : ما نضّد من متاع البيت .

٤ العهن : الصوف .

مصباح لهم ، وكنت ساغباً[٥] ، فأخرجت يدي ، وأهويت إلى القصعة ، وأكلت معهما .

فأحسّ الرجل بيدي ، فأنكرها ، وقبض عليها ، فقبضت على يد المرأة بيدي الأخرى .

فقالت له المرأة : مالك ويدي ؟ فظنّ أنّه قابض على يد المرأة ، فخلّى يدي ، فخلّيت يد المرأة .

وأكلنا ، ثم أنكرت المرأة يدي ، وقبضت عليها ، فقبضتُ على يد الرجل ، فقال لها : مالكِ ويدي ؟ فخلّت عن يدي ، وخلّيت عن يده .

وانقضى الطعام ، واستلقى الرجل ، ونام ، فلمّا استثقل ، وأنا مراصدهم ، والفرس مقيّد ، ومفتاح قيد الفرس تحت رأس المرأة .

فوافى عبدٌ له أسود ، فنبذ حصاةً ، فانتبهت المرأة ، وقامت إليه ، وتركت المفتاح في مكانه ، وخرجَتْ من الخباء إلى ظهر البيت [٢٠٨ م] ورمقتها بعيني ، فإذا العبد قد علاها .

فلمّا حصلا في شأنهما ، دببْتُ ، فأخذتُ المفتاح ، وفتحتُ القفل ، وكان معي لجام مصنوع من شعر ، فأوجرته الفرس ، وركبتها ، وخرجت عليها من الخباء .

فقامت المرأة من تحت الأسود ، ودخلت الخباء ، ثم صاحت ، وذعر الحيّ ، فصاحوا ، وأحسّوا بي ، وركبوا في طلبي ، وأنا أكدّ الفرس ، وخلفي خلق منهم .

فأصبحت ، ولست أرى إلاّ فارساً واحداً برمح ، فلحقني وقد طلعت الشمس ، فأخذ يطعنني ، فلا تصل طعنته إلى أكثر مما رأيت من ظهري ، لا فرسه تلحق بي فتتمكّن طعنته منّي ، ولا فرسي تبعدني إلى حيث لا يمسّني الرمح .

حتى وافيت إلى نهر جارٍ ، فصحت بالفرس ، فَوَثَبَتْهُ ، وصاح الفارس

---

٥ الساغب : الجائع .

بفرسه ، فلم تثب .

فلمّا رأيت عجزها عن العبور ، نزلت عن فرسي لأستريح ، وأريحها ، فصاح بي الرجل .

فقلت : ما لك ؟

فقال : يا هذا ، أنا صاحب الفرس التي تحتك ، وهذه ابنتها ، فإذ أخذتها ، فلا تخدعنّ عنها ، فإنّها تساوي عشر ديات ، وعشر ديات ، وعشر ديات ، وما طلبت عليها شيئاً قط إلاّ لحقته ، ولا طلبني أحد – وأنا عليها – إلاّ فتّه ، وإنّما سمّيت الشبكة ، لأنها لم ترد شيئاً قط إلاّ أدركته ، فكانت كالشبكة في التعلّق به .

فقلت له : أمّا إذ نصحتني ، فوالله لأنصحنّك ، ولا أكذبك ، إنّه كان من أمري البارحة ، كيت وكيت ، حتى قصصت عليه قصّة امرأته ، والعبد ، وحيلتي في الفرس .

[فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه إليّ][6] ، وقال : ما لك ، لا جزاك الله من طارق خيراً ، أخذت قعدتي ، وقتلت عبدي ، وطلّقت ابنة عمّي[7] .

---

٦ الزيادة من غ .

٧ وردت القصّة في نشوار المحاضرة ١٦٨/٣ وفي كتاب نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن ص ١٦ لأحمد الأنصاري طبع مصر سنة ١٣٢٥ .

٣٦٤
من زرع الإثم حصد الدمار

[وحدّثني عبيد الله بن محمّد بن الحفا ، قال : حدّثني][١] رجل من أهل الجند[٢] ، قال :

خرجت من بعض بلدان الشام ، وأنا على دابّة لي ، ومعي خرج لي ، فيه ثياب ودراهم .

فلمّا سرت عدّة فراسخ ، لحقني المساء ، وإذا بدير عظيم[٣] ، فيه راهب في صومعة .

فنزل واستقبلني ، وسألني المبيت عنده ، وأن يضيفني ، ففعلت .

فلمّا دخلت الدير ، لم أجد فيه غيره ، فأخذ دابّتي ، وطرح لها [٢٠٩ غ] شعيراً ، وعزل رحلي في بيت ، وجاءني بماء حار ، وكان الزمان شديد البرد ، وأوقد بين يديّ ناراً ، وجاءني بطعام [٢٠٢ ر] طيّب من أطعمة الرهبان ، فأكلتُ ، وبنبيذ ، فشربتُ .

ومضت قطعة من الليل ، فأردت النوم ، فقلت : أدخل المستراح[٤] ، قبل أن أنام ، فسألته عنه ، فدلّني على طريقه ، وكنّا في غرفة .

فلمّا صرت على باب المستراح ، إذا بارية مطروحة[٥] ، فلمّا صارت رجلاي

---

١ الزيادة من ن .

٢ التجنّد : التجمّع ، وأجناد الشام خمسة : جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، وإنّما سمّيت كلّ ناحية بجند ، لأنّهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيه (معجم البلدان ١/١٣٦) .

٣ في ر ، وغ : وإذا بحصن عظيم .

٤ المستراح : الكنيف .

٥ في ر ، وغ : إذا بنخّ مطروح على حفيرة ، بشأن النخّ راجع حاشية القصّة ١٦٥ من هذا الكتاب .

عليها نزلتُ ، فإذا أنا في الصحراء ، وإذا البارية قد كانت مطروحة على [٣٣ ن] غير تسقيف .

وكان الثلج يسقط في تلك الليلة سقوطاً عظيماً ، فصحت ، وقدّرت أنّ الذي استمرّ عليّ من غير علمه ، فما كلّمني .

فقمت وقد تجرّح بدني ، إلاّ أنّي سالم ، فجئت ، واستظللت بطاقِ باب الدير من الثلج .

فما وقفت حيناً حتى رأيت فيه برابخ[6] من فوق رأسي ، وقد جاءتني منها حجارة لو تمكّنت من دماغي لطحنته .

فخرجت أعدو ، وصحت به ، فشتمني ، فعلمتُ أنّ ذلك من حيلته ، طمعاً في رحلي .

فلمّا خرجت ، وقع الثلج عليّ فعلمت أنّي تالف إن دام ذلك عليّ ، فولّد لي الفكر أن طلبت حجراً فيه ثلاثون رطلاً وأكثر ، فوضعته على عاتقي تارة ، وعلى قفاي تارة ، وأقبلت أعدو في الصحراء أشواطاً ، حتى إذا تعبت ، وحميت وجرى عرقي ، طرحت الحجر ، وجلست أستريح خلف الدير ، من حيث يقع لي أنّ [٢٠٩ م] الراهب لا يراني .

فإذا أحسست بأنّ البرد قد بدأ يأخذني ، تناولت الحجر وسعيت من الدير ولم أزل على هذا إلى الغداة[7] .

فلمّا كان قبيل طلوع الشمس ، وأنا خلف الدير إذ سمعت حركة بابه ، فتخفّيت .

فإذا بالراهب قد خرج ، وجاء إلى موضع سقوطي ، فلمّا لم يرني دار حول الدير يطلبني ، ويقـول ، وأنا أسمعه : ترى ما فعل الميشوم ؟ أظنّ أنّه قدّر أنّ

---

٦ البربخ : مجرى من الخزف للماء وما شابهه .

٧ الغداة : أوّل النهار .

بالقرب منه قرية ، فقام يمشي إليها ، كيف أعمل ، فاتني سلبه ، وأقبل يمشي يطلب أثري .

قال : فخالفته إلى باب الدير ، وحصلت داخله ، وقد مشى هو من ذلك المكان يطلبني حول الدير ، فحصلت أنا خلف باب الدير ، وقد كان في وسطي سكّين ، فوقفت خلف الباب ، فطاف الراهب ، ولم يبعد .

فلمّا لم يقف لي على خبر ، عاد ودخل ، فحين بدأ ليردّ الباب ، وخفت أن يراني ، ثرت عليه ، ووجأته بالسكّين ، فصرعته ، وذبحته .

وأغلقت باب الدير ، وصعدت إلى الغرفة ، فاصطليت بنار موقودة هناك ، ودفئت ، وخلعت عنّي تلك الثياب ، وفتحت خرجي ، فلبست منه ثياباً جافّة ، وأخذت كساء الراهب ، فنمت فيه ، فما أفقت إلى قريب من العصر .

ثم انتبهت وأنا سالم ، غير منكر شيئاً من نفسي ، فطفت بالدير ، حتى وقفت على طعام ، فأكلت منه ، وسكنت نفسي .

ووقعت مفاتيح بيوت الحصن في يدي ، فأقبلت أفتح بيتاً بيتاً ، فإذا بمال عظيم من عَيْنٍ ، وورقٍ ، وثياب ، وآلات ، ورحال قوم ، وأخراجهم[8] .

وإذا تلك عادة الراهب كانت مع كلّ من يجتاز به وحيداً ، ويتمكّن منه ، فلم أدر كيف أعمل في نقل المال ، وما وجدته .

فلبست ثياب الراهب ، وأقمت في موضعه أيّاماً ، أتراءى لمن يجتاز بالموضع من بعيد ، فلا يشكّون أنّني هو ، وإذا قربوا منّي لم أبرز لهم وجهي ، إلى أن خفي خبري .

ثم نزعت تلك الثياب ، ولبست من بعض ثيابي ، وأخذت جواليق ، فملأتها

---

٨ الخرج ، وجمعه أخراج وأخرجة : جوالق ذو أونين ، أي عدلين ، يضعه الراكب على ظهر دابّته ويودع فيه جميع أشيائه ، وما يزال في بغداد مثل عامي ، يقوله البغدادي إذا تحمّل الأذى من أصدقائه أو أقربائه ، فهو يقول : حط بالخرج ، يعني أنّ صدره يتّسع لتحمل الأذى ، كما يتّسع الخرج لكافة ما يودعه صاحبه فيه .

مالاً ، وحملتها على الدابّة ، ومشيت ، وسقتها إلى أقرب قرية ، واكتريت فيها منزلاً ، ولم أزل أنقل إليها كلّما وجدته ، حتى [٢١٠ غ] لم أدع شيئاً له قدر إلاّ حصّلته في القرية .

ثم أقمت بها إلى أن اتّفقت لي قافلة ، فحملت على دوابّ اشتريتها ، كلّ ما كنت قد حصّلت في المنزل .

وسرت في جملة الناس بقافلة عظيمة لنفسي ، بغنيمة هائلة ، حتى قدمت بلدي ، وقد حصلت لي عشرات ألوف دراهم ودنانير ، وسلمت من الموت .

٣٦٥

ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره

حدّثني أبو القاسم عبيد الله بن محمّد بن الحسن العبقسي الشاعر [١] ، قال :

كان لأبي مملوك يسمّى مقبل [٢٠٣ ر] فأبق منه [٢] ، ولم يعرف له خبر سنين كثيرة . ومات أبي وتغرّبت عن بلدي ، ووقعت إلى نصيبين ، [وأنا حَدَثٌ حين اتّصلت لحيتي ، وأنا مجتاز يوماً في سوق نصيبين ،] [٣] وعليّ لباس فاخر ، وفي كمّي منديل فيه دراهم كثيرة ، حتى رأيت غلامنا مقبلاً .

فحين رآني انكبّ على يدي يقبّلها ، وأظهر سروراً شديداً بي ، وأقبل يسألني عن أبي ، وأهلنا ، فأعرّفه موت من مات ، وخبر من بقي .

ثم قال لي : يا سيّدي متى دخلت إلى ها هنا ، وفي أيّ شيء ؟ فعرّفته ، فأخذ يعتذر من هربه منّا .

ثم قال : أنا مستوطن ها هنا ، وأنت مجتاز ، فلو أنعمت عليّ وجئت [٢١٠ م] في دعوتي ، فأنا أحضر لك نبيذاً طيّباً ، وغناءً حسناً .

فاغتررت به ، بالصبا ، ومضيت معه ، حتى بلغ بي إلى آخر البلد ، إلى دور خراب ، ثم انتهى إلى دار [٢١١ غ] عامرة ، مغلقة الباب ، فدقّ ، ففتح له ، فدخل ودخلت .

فحين حصلت في الدهليز ، أغلق الباب بسرعة ، واستوثق منه ، فأنكرت

---

١ كذا ورد في ن ، وفي ر ، ورد ما يلي : حكى أبو القاسم عبد الله العنكبي الشاعر ، وفي م : قال لي العبقسي الشاعر ، وفي غ : حكى أبو القاسم عبيد الله العنبسي الشاعر ، راجع ترجمة أبي القاسم عبيد الله بن محمّد بن الحسن الصروي العبقسي في حاشية القصّة ٢٤٦ من هذا الكتاب .

٢ الإباق : هرب العبد من سيّده .

٣ ساقطة من غ .

ذلك ، ودخلت الدار ، فإذا بثلاثين رجلاً بالسلاح ، وهم جلوس على بارية ، فلم أشكّ في أنهم لصوص ، وأيقنت بالشرّ .

وبادرني أحدهم ، فلطمني ، وقال : انزع ثيابك ، فطرحت كلّ ما كان عليّ ، حتى بقيت بسراويل ، فحلّوا الدراهم التي كانت في منديلي ، وأعطوا مقبلاً شيئاً منها[4] ، وقالوا : إمض فهات لنا بهذا ما نأكله ونشربه .

فتقدّم مقبل ، وسارّ واحداً منهم ، فقال له مجيباً : وأي شيء يفوتنا من قتله ، إمض فجئنا بما نأكله ، فإنّا جياع .

فلمّا سمعت ذلك كدت أموت جزعاً ، فقال لهم الغلام ، مظهراً للكلام : ما أمضي أو تقتلوه .

فقلت لهم : يا قوم ، ما ذنبي حتى أقتل ، قد أخذتم ما معي ، ولستم ترثوني إذا قتلتموني ، ولا لي حال غير ما أخذتموه ، فاللهَ اللهَ فيّ .

ثم أقبلت أستعطف مقبلاً ، وهو لا يجيبني ، ويقول لهم : إنّكم إن لم تقتلوه ، حتى يفلت ، دلّ السلطان عليكم ، فتقتلون كلّكم .

قال : فوثب إليّ أحدهم بسيف مسلول ، وسحبني من الموضع الذي كنت فيه إلى البالوعة[5] ليذبحني .

وكان بقربي غلام أمرد ، فتعلّقت به ، وقلت : يا فتى ارحمني ، وأجرني ، فإنّ سنّك قريب من سنّي ، واستدفع البلاء من الله تعالى بخلاصي .

فوثب الغلام ، وطرح نفسه عليّ ، وقال : والله لا يقتل وأنا حيّ ، وجرّد سيفه . وقام أستاذه بقيامه ، وقال : لا يقتل من أجاره غلامي .

---

٤ في كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي ، رقم القصّة ١٣٢/٥ أنّهم أخذوا من المنديل ثلاثين درهماً وأعطوها لمقبل ليشتري لهم بها طعاماً .

٥ في غ : البلّاعة ، والبلّاعة والبالوعة بمعنى واحد ، وهي حفرة في وسط الدار ينزل إليها الماء الوسخ والأقذار . وعامّة بغداد يسمّونها الآن : بلّوعة ، بتشديد اللّام ، ويجمعونها على : بلاليع .

واختلفوا ، وصار مع الغلام جماعة منهم ، فانتزعوني ، وجعلوني في زاوية من البيت الذي كانوا فيه ، ووقفوا بيني وبين أصحابهم .

فقال لهم رئيسهم : كفّوا عن الرجل إلى أن ننظر في أمره ، وشتم مقبلاً ، وقال : امض ، فهات ما نأكله قبل كلّ شيء ، فإنّا جياع ، وليس يفوتنا قتله ، إن اتّفقنا عليه .

فمضى مقبل ، وجاءهم بمأكول كثير [6] ، وجلسوا يأكلون ، وترك جماعة منهم الأكل حراسة لي ، لئلاّ يغتالني [٣٤ ن] أحدهم إذا تشاغلوا بالأكل .

فلمّا أكلوا ، انفرد بعض من كان يتعصّب لي بحراستي ، وأكل من لم يكن أكل منهم .

ثم أفضوا إلى الشراب ، فقال لهم مقبل : الآن قد أكلتم ، وترك هذا يؤدّي إلى قتلكم ، فدعوا الخلاف في أمره ، واقتلوه .

فوثب من يريد قتلي ، ووثب الغلام ، ومن معه ، للدفع عنّي ، وطال الكلام بينهم ، وأنا في الزاوية ، وقد اجتمع عليّ من يمنع من قتلي ، فصرت بينهم وبين الحائط ، إلى أن جرّد بعضهم السيوف على بعض .

فقال لهم رئيسهم : هذا الذي أنتم فيه يؤدّي إلى تلفكم ، وقد رأيت رأياً فلا تخالفوه .

فقالوا : إنّا بأمرك .

فقال : أغمدوا السلاح ، واصطلحوا ، ونشرب إلى وقت [٢٠٤ ر] نريد أن نخرج من هذه الدار ، ثم نكتّفه ، ونسدّ فاه ، وندعه في الدار ، وننصرف ،

---

٦ في القصّة ٥/١٣٢ من كتاب نشوار المحاضرة : إنّ مقبل اشترى لأصحابه بالدراهم الثلاثين خمسين رأساً ، وخبزاً كثيراً ، وجبناً ، وزيتوناً ، وكنت علّقت على القصّة في النشوار (ج ٥ ص ٢٥٦) أنّ ما اشتراه مقبل في تلك الأيّام بثلاثين درهماً ، ثمنه في السنة ١٩٧٢ ثلثمائة درهماً ، أي أنّ ثمنه زاد عشرة أضعـــاف .

فإنّه لا يتمكّن من الخروج وراءنا ، ولا الصياح علينا .

وإلى أن نصبح من غد ، نكون قد قطعنا مفازة ، ولا يجرح بعضكم بعضاً ، ولا تتفرّق [٢١١ م] كلمتكم .

فقالوا : هذا هو الصواب ، وجلسوا يشربون .

وجاء الغلام ليشرب معهم ، فقلت له : اللهَ ، اللهَ فيّ ، تمّم ما عملت من الجميل ، ولا تشرب معهم ، واحرسني ، لئلا يثب عليّ [٢١٢ غ] واحد منهم على غفلة ، فيضربني ضربة يكون فيها تلف نفسي ، ثم لا تتمكّن أنت من ردّها ، ولا ينفعني أن تقتل قاتلي .

فرحمني ، وقال : أفعل ، ثم قال لاستاذه : أحبّ أن تترك شربك الليلة ، فتفعل كما أفعل .

فجاءا جميعاً فجلسا قدّامي ، وأنا في الزاوية ، أتوقّع الموت ساعة بساعة ، إلى أن مضى من الليل قطعة .

وقام القوم فتحزّموا ، ولبسوا ثيابهم[٧] ، وخرجوا ، وبقي الغلام وأستاذه .

فقالا لي : يا فتى ، قد علمت أنّنا قد خلّصنا دمك ، فلا تكافئنا بقبيح ، وهوذا نخرج ، ولا نستحسن أن نكتّفك ، فاحذر أن تصيح .

فأخذت أقبّل أيديهما وأرجلهما ، وأقول : أنتما أحييتماني بعد الله تعالى ، فكيف أكافئكما بالقبيح ؟

فقالا : قم معنا ، فقمت ، ففتّشنا الدار ، حتى علمنا أنه لم يختبىء فيها أحد يريد قتلي .

ثم قالا لي : قد أمنتَ ، فإذا خرجنا فاستوثق من الباب ونم وراءه ، فليس يكون إلاّ خيراً ، وخرجا .

فاستوثقت من غلق الباب ، ثم جزعت جزعاً عظيماً ، ولم أشكّ أنّه يخرج عليّ

---

٧ في غ : ولبسوا سلاحهم .

من تحت الأرض منهم من يقتلني ، وزاد عليّ الفزع ، فأقبلت أمشي في الدار ، وأدعو ، وأسبّح ، إلى أن كدت أتلف إعياءً .

وأنست باستمرار الوقت على السلامة ، وحملتني عيني ، فنمت ، فلم أحسّ إلاّ بالشمس وحرارتها ، على وجهي ، من باب البيت .

فقمت ، وخرجت أمشي وأنا عريان بسراويلي ، إلى أن حصلت في الموضع الذي كنت أسكنه .

وما حدّثت أحداً بهذا الحديث مدّة ، لبقيّة الفزع الذي داخلني منهم في قلبي .

ثم بعد انقضاء سنة ، أو قريب منها ، كنت يوماً عند صاحب الشرطة بنصيبين ، لصداقة كانت بينه وبين أبي ، فما لبث أن حضر من عرّفه عثور الطوف[8] على جماعة من اللصوص ، بقرية سمّاها ، من قرى نصيبين ، وقبضه على سبعة نفر منهم ، وفوت الباقين ، فأمر بإحضارهم .

فوقع بصري منهم على ذلك الغلام الذي أجارني ذلك اليوم ، وعلى أستاذه ، ثم على مقبل .

فحين رأيتهم أخذتني رعدة تبيّنت فيّ ، وأخذ مقبل – من بينهم – مثل ما أخذني .

فقال لي صاحب الشرطة : ما لك ؟

فقلت : إنّ حديثي طويل ، ولعلّ الله تعالى ، أراد بحضوري هذا المجلس ، سعادة نفر ، وشقاوة نفر .

فقال : هات .

فأقتصصت عليه قصّتي مع القوم إلى آخرها ، فتعجّب ، وقال : هلّا شرحتها لي فيما قبل ، حتى كنت أطلبهم ، وأنتصف لك منهم .

---

٨ الطوف ، وجمعه أطواف : العسس ، أي الذين يطوفون بالليل يحرسون الناس .

فقلت : إنّ الفزع الذي كان في قلبي منهم ، لم يبسط لساني به .

فقال : من الذي كان معك من هؤلاء ؟

فقلت : هذا الغلام ، وأستاذه ، وواحد من الباقين ، فأمر بحلّ كتافهم ، وتمييزهم من بين أصحابهم .

ودعا بمقبل ، فقال له : ما حملك على ما فعلت بابن مولاك ؟

فقال : سوء الأصل ، وخبث العِرق .

فقال : لا جرم تقابل بفعلك ، وأمر به فضرب عنقه ، وأعناق أصحابه الباقين .

ودعا بالغلام ، وأستاذه ، وصاحبهما ، وقال لهما : لقد أحسنتما في فعلكما [٢١٢ م] ودفعكما عن هذا الفتى ، فالله يجزيكما عن فعلكما الخير ، فتوبا إلى الله من فعلكما ، وانصرفا في صحبة الله ، مع صاحبكما ، ولا تعودا إلى ما أنتما عليه من التلصّص ، فقد مننت عليكما لحسن صنيعكما بهذا الفتى ، فإن ظفرت [٢١٣ غ] بكما ثانياً ، ألحقتكما بأصحابكما .

فتابا وصاحبهما ، وشكروا له ، ودعوا ، وانصرفوا .

وشكرته أنا أيضاً على ما فعل ، وحمدت الله على توفيقي لقضاء حقّ من أجارني ، والانتقام ممن ظلمني .

ثم صار ذلك الغلام وأستاذه من أصدقائي ، وكانا يختلفان إليّ ، ويقولان : قد أقبلنا على حرفنا في السوق ، وتركنا التلصّص[٩] .

---

٩ وردت القصّة في نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي برقم القصّة ١٣٢/٥ .

٣٦٦
الجناذيّة والبانوانيّة في الهند

وحكى أبو الحسن محمّد بن [عمر بن][1] شجاع ، المتكلّم البغدادي ، قال : رأيت بالهند قوماً يقال لهم : الجناذيّة[2] ، يأكلون الميتة ، يتقذّرهم جميع أهل الهند ، وعندهم أنّهم إن لامسوهم تنجّسوا .

قال : فهم يمشون وفي أعناقهم طبول يطبّلون بها ، ليسمع أصواتها الناس ، فيتنحّون عن طريقهم ، فإن لم يتنحّ الرجل عند سماع الطبل ، فلا شيء على الجناذيّ ، وإن لم يضرب الجناذيّ الطبل ، حتى يلاصق جسده جسد غيره ، قتله الذي لصق جسده ، فلا يعدى عليه ، لأنّ هذا هو شرطهم وسنّتهم .

قال : ولا يشرب أحد ماء هؤلاء الجناذيّة ، ولا يأكلون من طعامهم ، ولا يخالطهم ، فهم ينزلون في ظاهر البلد ، منفردين ناحية ، وهم أرمى الناس ، ومعاشهم من الصيد[3] .

وهناك قوم يقال لهم : البانوانيّة[4] ، يجرون مجرى المستقفين[5] هاهنا ، والسلطان يطلبهم كما يطلب اللصوص والعيّارين[6] ، فإذا عرفهم ، وظفر بهم ، قتلهم .

---

١ الزيادة من ن .

٢ في نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : الجبارية ، راجع القصّة ٨/٩٥ من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي .

٣ راجع كتاب نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢١٧ رقم القصّة ٨/٩٥ .

٤ في كتاب نشوار المحاضرة : البابوانية راجع ج ٨ ص ٢١٨–٢٢١ .

٥ المستقفي : اللّص الذي يتسلّل للماشي من خلفه ، فيخطف عمامته ، أو رداءه ، أو ما يحمله في يده ، ويهرب .

٦ العيّار : الشخص الذي لا يهتمّ بأمور عيشه ، وإنّما يعيش كيفما اتّفق ، لا يتقيّد بدين ، أو عرف ، وهو أشبه بمن يسمّونهم اليوم بالهيبيّين .

وهم يصطادون الناس ، ولا يعرفون غير ذلك .

والواحد منهم يتبع التجّار الذين يطرأون إليهم من المسلمين والذمّة[7] ، فإذا رأى الواحد منهم ، الواحد من التجّار في طريق خال ، قبض عليه ، فلا يمكن لأحد من الناس أن يخلّصه ، لعلمهم أنّه إذا استغاث أو نطق ، قتله الهندي ، وقتل نفسه في الحال ، لا يبالي بذلك ، لاعتقادهم المشهور في أمر القتل . ويراهم الناس قد أخذوا الرجل ، فلا يتعرّضون لتخليصه ، لئلاّ يقتله .

ويقول لهم الرجل المأخوذ : اللهَ ، اللهَ ، إن عارضتموه ، فلا يمكن لسلطان ، ولا غيره ، انتزاعه منهم في تلك الحال ، لئلّا يعجّل بقتله .

قال : فأخبر رجل بالهند ، أنّ رجلاً [٢٠٥ ر] من البانوانية قبض في طريق سفره ، على رجل لقيه من التجّار .

فقال له : اشتر نفسك منّي ، فتوافقا على أن يشتري نفسه منه بألف درهم .

فقال له التاجر : تعلم أنّي خرجت ولا شيء معي ، ومالي في البلد ، فتصير معي إلى داري فإنّها قريبة ، لأؤدّي لك ذلك .

فأجابه ، وقبض عليه بيده ، فلم يزل يمشي معه ، فاجتازا في طريقهما في سكّة منها ، فسلكا فيها .

فحين حصلا فيها ، فكّر التاجر في حيلة للخلاص ، وكان قد عرف مذهب أهل الهند في الجناذيّة ، فلم يزل يمشي معه حتى رأيا باباً مفتوحا من دور الجناذيّة ، فجذب يده جذبة شديدة من البانواني ، وسعى ، فدخل دار الجناذي .

فقال له : ما لك ؟

قال : أنا مستجير بك من يد بانواني قد صادني فهربت منه .

---

٧ الذمّة ، يريد بها : أهل الذمّة ، وهم الكتابيّون ، أي النصارى واليهود المقيمون في دار الإسلام ، سمّوا بذلك ، لأنّ لهم الذمّة ، أي الأمان والعهد والضمان بحماية أرواحهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وحريّاتهم ، ومعاملتهم بالعدل .

فقال : لا بأس عليك فاجلس .

فصاح البانواني ، يا جناذي ، أخرج إليّ ، وهم لا يدخلون بيوت الجناذيّة أصلاً ، لاستقذارهم إيّاهم .

قال : فخرج ، فوقف ، وبينهما عرض الطريق [٢١٤ غ] لا يجوز أن يدنو أحد من صاحبه .

فقال البانواني : أعطني صاحبي .

فقال له الجناذي : قد استجار بي ، فتهبه لي .

قال : لا أفعل ، هذا رزقي ، وإن لم تعطنيه ، لم ندع من الجناذيّة واحداً إلاّ قتلناه .

فطال بينهما الكلام ، إلى أن قال له الجناذي : أسلمه إليك في الصحراء ، فامضِ واسبقني إلى الموضع الفلاني .

قال : فمضى البانواني ، ودخل الجناذي إلى الرجل ، فقال له : أخرج معي الساعة ، ولا بأس عليك ، وأخذ الجناذيّ قوسه وخمسة سهام[٨] ، قال : وسهامهم من قصب .

فعلق المسلم بكمّ الجناذيّ ، ولصق به ، علماً منه بأنّ البانواني لا يدنو منه .

فلمّا صاروا في الصحراء ، قال له الجناذيّ : تهبه لي ، وأجتهد به ، فلم يفعل .

قال : فإنّي لا أسلمه إليك ، حتى لا يبقى معي شيء من السلاح [٣٥ ن] .

قال : فشأنك ، ففوّق نحوه سهماً ، فحين أطلقه ، تلقّاه البانواني بحربيّ كان معه ، والحربيّ آلة من السلاح عندهم معروفة ، فاعترض السهم به ، فقطعه نصفين ، وسلم منه .

فتحيّر الجناذيّ ، فلم يزل يرميه بنشّابة بعد أخرى ، إلى أن ذهب النشّاب ،

٨ في ن : وخمسين نشّابة .

ولم يبق معه إلاّ اثنتان .

فضعفت نفس التاجر ، وأيقن بالهلاك ، وقال للجناذيّ : اللهَ ، اللهَ ، في دمي .

فقال له الجناذيّ : لا تخف ، سأريك من رمي ما يتحدّث به ، أنظر إلى هذا الطائر الذي يطير في السماء ، فإنّي أرميه ، فأصرعه على رأسك ، [ثم أرميك فلا أخطئك][9] .

قال : فرفع البانوانيّ رأسه ، ينظر إلى الطائر ، فرماه الجناذيّ ، فأصاب فؤاده ، فخرّ صريعاً ، ومات .

فقال للتاجر : ارجع الآن آمناً .

فرجع إلى داره ، فأقام عنده إلى أن اجتازت بهم صحبة[10] ، فمضى التاجر معها ، فوصل إلى مأمنه[11] .

---

٩ الزيادة من غ .

١٠ الصحبة : الملازمة والمرافقة والمعاشرة ، والصحبة هنا تعني الجماعة المتصاحبين ، ويقصد بها القافلة ، والموصليون الآن يسمّون القصّة الموجزة : صحبة ، فإذا أراد أحدهم أن يروي قصّة ، قال : استمعوا لي ، أروي لكم صحبة .

١١ لم ترد هذه القصّة في م ، ووردت في نشوار المحاضرة ٩٦/٨ .

٣٦٧

عصبت عيناه ومدّ عنقه

ورفع السيف على رأسه ثم نجا من القتل

حدّثني الحسن بن محمّد الحابى[١] ، قال : حدّثني أبو القاسم نصر المعروف بالمابلى[٢] الذي كان يتقلّد السِكْرَ[٣] ببغداد في أيّام عضد الدولة وتاج الملّة رضي الله عنه[٤] .

قال القاضي أبو علي : وأنا أعرفَ هذا الرجل ، وهو باق إلى الآن ، وما اتّفق لي أن أسأله عن هذا الخبر .

قال : كان عضد الدولة رحمه الله ، وهو صبيّ بالغ ، صار من أصبهان إلى فارس ، استدعاه عمّه عماد الدولة عليّ بن بويه لينقل إليه ولاية عهده ، ويستخلفه عليها من بعده ، فسرت معه ، وأنا معه إذ ذاك أحجبه .

فلمّا صار بسمارم[٥] – منزل من الطريق – أمرني أن أصير إلى كركير والي سمارم من قبل أبيه ركن الدولة رحمه الله ، وأطالبه بأن ينفذ إلى حضرته اثني عشر رجلاً من الأكراد كانوا [٤٢ ن] محبسين في يد كركير ، وكان خبرهم قد بلغ عضد الدولة ، فأرادهم .

---

١ كذا وردت في الأصل بلا نقط ، ولعلها الجنائني .

٢ كذا وردت في الأصل بلا نقط ، ولعلّها : المايني ، نسبة إلى ماين ، بلد من بلاد فارس (اللباب ٩٢/٣) .

٣ السِكْر : وجمعه سكور ، السداد التي تقام في وجه الماء فتصدّه ، وما زالت هذه الكلمة مستعملة ببغداد وسقي دجلة والفرات ، راجع الطبري ٣٢١/٩ و ٣٢٤ .

٤ ترضّي المؤلّف على عضد الدولة يعني أنّه دَوَّنَ هذه القصّة بعد السنة ٣٧٢ سنة وفاة عضد الدولة ، راجع تعليقنا على القصّة ٢١٦ من هذا الكتاب .

٥ سمارم ، أو سميرم : بلدة بين أصبهان وشيراز ، في نصف الطريق ، وهي آخر حدود أصبهان (معجم البلدان ١٥١/٣) .

فامتنع كركير من إنفاذهم ، وقال : هؤلاء قطّاع الطريق ، قد قطعوا وقتلوا ، ولا أسلمهم إلاّ بأمر يرد عليّ من ركن الدولة ، فجئت إليه وعرّفته .

فقال لي : عد إليه وقل له : إذا كانوا قد قتلوا فأنا أحقّ بقتلهم ، فأنفذهم إليّ لأقتلهم .

فمضيت ، فأقام الرجل على الامتناع من تسليمهم ، فعدت إلى عضد الدولة فأخبرته .

فاغتاظ من ذلك وأمرني أن أكسر الحبس وأجيئه بالأكراد ، فامتثلت [أمره] ، وأحضرتهم المضرب ، وأعلمته .

فأمرني أن أمضي أنا وحاجب آخر من حجّابه – سمّاه – لنقتلهم .

فحملناهم إلى موضع ، وأمرنا ، فقتل منهم ثلاثة .

وقدّم الرابع فرماه ذلك الحاجب بخشت[6] كان في يده ، فنبا عنه ، ولم يعمل فيه ، فتقدّم بشدّ عينيه ، وضرب رقبته بالسيف ، فشددت عينيه بمنديل خاز[7] حضرهم في الحال .

فلمّا رفع السيّاف يده ليحطّها على المضرب ، استرخى المنديل فوقع على المضرب فغطّاه .

فقال السيّاف : ارفعوا المنديل .

فأومأت بطرف عصا كانت في يدي – على رسم الحجّاب – لأزيل المنديل فيتمكّن السيّاف من الضربة ، فإذا رسول عضد الدولة يسعى ويقول : لا تقتلوا القوم .

فتوقّفنا ، ومضيت إلى حضرته ، وعرّفته صورة من قتل ومن بقي ، وما اتّفق

---

٦ الخشت : النبلة التي تستعمل في الحرب (المعجم الذهبي) ، راجع حكاية أبي القاسم البغداديّ ص ٧٣ سطر ٢٥ .

٧ خاز : نوع من القماش الكتّان ، فارسية (المعجم الذهبي) .

في أمر الرجل ، فتعجّب من أمره .

وأمر به ، فأحضرته إليه ، وكشف عن موضع الخشت حتى رآه ، وكان في كتفه ، فإذا هو قد انتفخ واخضرّ ، ولم يدخل في لحمه ، فازداد تعجّبه ، وأمر بإطلاقه ، وأن يخلع عليه وعلى الجماعة ، ففعل ذلك بهم[8] .

---

٨ انفردت بها ن .

٣٦٨

عبّاد المؤنّث يربح الرهان ويحيي نفساً ميّتة

حدّثني عثمان بن محمّد السلمي[١] ، المعروف بأبي القاسم الأصفر ، غلام أبي الحسن بن عبد السلام الهاشمي البصري ، قال :

كان عندنا بالمربد ، رجل [من خَوَل محمّد بن سليمان الهاشمي][٢] ، يدعى بعبّاد ، وكان مؤنّثاً[٣] ، وكان يحمل السلاح .

فاجتمع يوماً مع قوم من الخول[٤] على شراب لهم ، فتجاذبوا حديث الشجاعة ، فعابوه بما فيه من التأنيث ، فخاطرهم[٥] في شيء يعمله ، مما يفرضون عليه ، يبيّن به عن شجاعته .

فقالوا له : تخرج الساعة ، بغير سلاح ، إلى صهاريج الحجّاج ، فتدخل منها في الصهريج الفلاني ، وتسمّر في أرضه هذا الوتد ، وتعود .

قال القاضي أبو علي ، مؤلّف هذا الكتاب : وهذه الصهاريج على أكثر من فرسخ من البصرة ، في البريّة ، وقد شاهدتها ، وهي موحشة المكان ، خالية ، يجتمع فيها الماء ، كان الحجّاج قد عملها مادة لشرب أهل الموسم والقوافل ، ومن يرد من المسافرين .

نرجع إلى الخبر .

قال : فأخبرني عبّاد ، قال : خرجت ، وليس معي إلاّ وتد ومطرقة ، حتى بلغت الصهريج [٢٠٦ ر] الذي خاطرت عليه ، وكان أعظمها ، وأوحشها .

---

١ في ن : الأسلمي .

٢ ساقطة من غ .

٣ المؤنّث : يقال للرجل مؤنثاً ، إذا شابه المرأة في لينه وتكسّر أعضائه .

٤ في غ : مع قوم من أصحابه ، والخَوَل : المماليك والأتباع .

٥ المخاطرة : المراهنة .

فدخلته ، وكان جافًّا ، وجلست فضربت الوتد بالمطرقة في أرضه ، فطنّ الصهريج ، وسمعت صلصلة شديدة ، وصوت [٢١٥ غ] سلسلة .

فقطعت الدقّ ، فانقطع الصوت ، وأعدت الدقّ ، فعاد الصوت ، وظهرت حركة معه ، وأنا ثابت القلب ، أتأمّل ، [ولا أرى شيئاً من الظلمة .

إلى أن أحسست بالحركة والصوت قد قربا منّي ، فتأمّلت ،][٦] فإذا بشخص لطيف ، لا يشبه قدر خلقة الإنسان ، فاستوحشت .

وثبّتُّ نفسي ، وأنا أدقّ ، والشخص يقرب منّي ، حتى وثبت ، وألقيت نفسي عليه ، واستوثقت منه .

فإذا هو قرد في عنقه سلسلة ، فظننت أنّه قد أفلت من قرّاد ، أو من قافلة فسحبته[٧] ، فلان في يدي ، وأنس بي ، فأخذته على يديَّ وساعدي ، وجئت أريد باب الصهريج .

فلمّا بلغته سمعت كلاماً ، فخشيت أن يكون بعض من يطلبني في العصبيّة هناك ، فوقفت أستمع .

فإذا كلام امرأة مع رجل ، وهي تقول له : يا فلان ، ويحك ، [أتقتلني ؟ أتذبحني ؟ أتبلغ بي الموت ؟][٦] اتّق الله فيّ .

وهو يقول : الذنب كلّه لك ، وأنت أذنت لهم في أن يزوّجوك ، ولو أَبَيْتِ ، ما قدر أبوك أن يزوّجك ، وإنّما فعلته مللاً بي ، وأنا تالف ، وأنت تتنعّمين ، والله لأذبحنّك ، أستكتني يا ابنة الفاعلة الصانعة[٨] .

قال : فنظرت ، فإذا ظهره إلى باب الصهريج ، فصحتُ عليه صيحة عظيمة ،

---

٦ ساقطة من غ .

٧ في غ : فسحته وآنسته .

٨ في غ : إستكتني يا فاعلة .

وضربت قفاه بالقرد ، ففزع القرد على نفسه ، فقبض [٢١٣ م] على عنق الرجل ، وتمكّن من ظهره :

فورد على الرجل ما حيّره ، وأفزعه ، وذهب بعقله ، فخرّ مغشياً عليه ، ووقع السيف من يده ، فأخذته ، ورأيت الجحفة مطروحة ، فأخذتها .

وقصدت الرجل ، فثاب إليه عقله ، ورمى بالقرد عن ظهره ، وسعى هارباً .

فقصدت المرأة ، وحللت كتافها ، وقلت لها : ما قصّتك ؟

قالت : أنا بنت فلان ، وذكرت رجلاً من أهل المربد ، وهذا ابن عمّي ، وكان يعشقني ، فخطبني من أبي ، فامتنع من تزويجه بي ، وزوّجني من رجل غريب ، ودخل بي من شهور .

فلمّا كان أمس ، خرجت أنا وجماعة من نساء الجيران ، ننظر إلى الصحراء ، وقت العصر .

وبلغه خبرنا ، فكبسنا بالصحراء ، ومعه عدّة رجال بالسلاح ، فأخذ كلّ رجل امرأة ، وانفرد بها ، وحملني هذا ، إلى هذا الصهريج ، ففجر بي طول الليل ، فلمّا كان الآن عزم على قتلي ، فأغاثني الله بك ، وما أعرف للنسوة الباقيات خبراً .

فقلت : إمشي ، لا بأس عليك .

فمشت بين يديّ إلى أن دخلت البصرة ، فدققت باب والدها .

فقال : من بالباب ؟

فكلّمته ، ففتح لها ، فدخلت الدار .

وعدت إلى أصحابي ، فحدّثتهم بالحديث ، [وأريتهم القرد ، وخرجنا من الغد ، فرأوا الوتد ، وجئت بهم إلى باب دار المرأة ، فأريتهم إيّاه][٩] ، وأخذت خطري .

---

[٩] الزيادة من غ .

محتويات الكتاب